
دكتور
عاطف وصفي
دار المعارف بمصر
الثقافة والشخصية
الشخصية المصرية التقليدية
ومحدداتها الثقافية

إهـــــــداء ٢٠٠٧

الأستاذ الدكتور / قدري محمود حفني
جمهورية مصر العربية

الثقافة و الشخصيّة

"الشخصية المصرية التقليدية ومحدداتها الثقافية"

تأليف

الدكتور عاطف وصفى

أستاذ الأنثروبولوجيا الاجتماعية المساعد

بكلية الآداب — جامعة القاهرة

الطبعة الأولى

١٩٧٥



دار المعارف بمصر

الناشر : دار المعارف بمصر — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج. م. ع.

الفهـــرس

الصفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

يتشابه الفرد الإنسانى مع جميع البشر فى بعض الخواص ، ومع بعضهم فقط فى خصائص أخرى ، ويفترق عنهم جميعا فى مجموعة ثالثة من الخواص ، وفى داخل شخصية كل فرد منا ، تتفاعل وتتواقف هذه المجموعات الثلاث من الخواص ، وبرغم تعرف المفكرين على تلك الحقيقة منذ القدم ، فإنهم يختلفون فى تحديد تلك الخواص ، وفى تحديد طبيعة التواقف بينها ، وفى تحديد دلالة كل منها ، وفى تحديد الأهمية النسبية لمحدداتها ، ومن هنا تنوعت وتعددت النظريات ، واختلفت وتناقضت الآراء .

وفى السنوات الأخيرة ، وخاصة بعد الحرب العالمية الأولى ، تدافع عدد كبير من العلماء لبحث هذه المشكلة ، وينتمى هؤلاء العلماء لفروع تخصصية مختلفة ، فمنهم علماء النفس والأطباء النفسيون وعلماء الاجتماع وعلماء التربية والأنثروبولوجيون ، وكثرت النظريات والأبحاث التى تحاول الإجابة عن تساؤلات هامة ، مثل : هل يوجد علاقة بين الأمراض العصابية والذهانية المنتشرة فى جماعة ما والنظم الاجتماعية والثقافية المطبقة فى تلك الجماعة ؟ لماذا تظهر أنواع معينة من الانحرافات بصورة أكثر تكراراً بين أطفال طبقات اجتماعية معينة ؟ هل تؤدى طريقة معينة فى تربية أطفال جماعة معينة إلى نمو شكل معين للشخصية فى تلك الجماعة ؟ إلى أى مدى يحدد التكوين البيولوجى للفرد شخصيته ، وإلى أى مدى تحدد ثقافة المجتمع شخصيات حاملى تلك الثقافة ؟

لماذا تختلف أنماط العقاب والثواب فى الثقافات المختلفة ، فبينما يعاقب سلوك معين فى مجتمع ما ، يكافأ أو يقابل بالتسامح فى مجتمع آخر ؟ هل يحدد الانحراف الفردى ثقافياً ، أو هناك مقاييس مطلقة للتفرقة بين الفرد السوى وغير السوى ؟

ما هو دور الشخصيات البارزة والشخصيات العادية فى عمليات التغير الاجتماعى والثقافى ؟

من أهم مجالات التخصص التى حاولت الإجابة عن تلك التساؤلات مجال الثقافة والشخصية أو فرع الأنثروبولوجيا النفسية ، ويتضح من هذين المفهومين أن موضوع هذا الفرع من المعرفة هو دراسة العلاقة بين الثقافة والشخصية أو بحث التوافق بين الخواص النفسية لأعضاء جماعة ما وثقافة تلك الجماعة . وبرغم حداثة هذا الفرع الذى يستخدم طرق البحث العلمى فى دراسة هذا الموضوع ، فإن الموضوع نفسه قد اكتشف أهميته المفكرون منذ القدم ، فى القرن الخامس قبل الميلاد قال أبوالطب

أبقراط إن الأوربيين أكثر شجاعة من الآسيويين . ويرجع ذلك إلى عامل التشابه والتجانس الذى يولد الإهمال والراحة فى المجتمعات الآسيوية وإلى عامل التنوع الذى يولد التحمل والاجتهاد فى المجتمعات الآسيوية . إن الراحة والإهمال هما غذاء الجبن أما التحمل والاجتهاد فهما غذاء الشجاعة.

تمثل الأفكار السابقة تأملات قائمة على الملاحظات العامة للخواص النفسية والاجتماعية للشعوب المختلفة ، ولا تمثل حقائق قائمة على طرق البحث العلمى ، ويمكن القول إن أول من نادى بأهمية دراسة موضوع الثقافة والشخصية دراسة علمية كان الأنثروبولوجى الأمريكى « هوايت » . ونشر رأيه فى مقالة بعنوان « الشخصية والثقافة » فى عام ١٩٢٥ فى إحدى المجلات العلمية ، وفى عامى ١٩٣٢و ١٩٣٣ نظم الأنثروبولوجيان الأمريكيان « سابير » و« دولارد » حلقة مناقشة حول موضوع « الثقافة والشخصية » فى جامعة ييل الأمريكية ، وقد مولت مؤسسة روكفلر تلك الحلقة ، واشترك فيها بعض العلماء الأوربيين ، وفى عام ١٩٣٣ نشر العلامة توماس تقريراً بعنوان « حول تنظيم برنامج فى مجال الشخصية والثقافة » ، وكان « مجلس أبحاث العلوم الاجتماعية » قد طلب منه القيام بمسح الدراسات التى أجريت حول هذا الموضوع ، وقد نادى « توماس » فى هذا التقرير بأهمية الموضوع وبضرورة إجراء الأبحاث المتكاملة والمتعددة الجوانب ، وذلك لأن أبحاث الثقافة والشخصية كانت فى ذلك الوقت تقتصر على جانب واحد سواء كان بيولوجياً أو اجتماعياً أو ثقافياً . وبعد ذلك تتابعت النظريات والأبحاث حول موضوع الثقافة والشخصية . وأصبح من المواد الرئيسية التى تدرس فى أقسام الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع وعلم النفس بالجامعات فى العالم، هذا بالرغم من حداثة نشأة هذا الفرع من المعرفة وحداثة تدريسه فى الجامعات ، كان أول من درس موضوع الثقافة والشخصية بالجامعة هو الأنثروبولوجى الأمريكى «سابير» فى أوائل الثلاثينات.

واليوم ، لم يقتصر ازدهار هذا الفرع من المعرفة على كثرة النظريات والأبحاث الخاصة به ، وإنما ظهرت المؤلفات التى توضح تاريخه ونظرياته وأبحاثه وطرق البحث الخاصة به ، وقد لاحظت أن المكتبة العربية خالية من كتاب متخصص فى الثقافة والشخصية برغم تدريسها كمادة رئيسية فى كثير من الجامعات العربية ، دفعنى هذا للمساهمة بهذا الجهد المتواضع آملا فى أن يتبعه الكثير من جهود أساتذتى وزملائى حول هذا الموضوع الهام .

يدرس الفصل الأول نشأة الأنثروبولوجيا النفسية وهى أحد فروع الأنثروبولوجيا الثقافية المتخصصة فى دراسة الثقافة والشخصية ، فبدأت بشرح مختصر لموضوع الثقافة والشخصية ثم شرحت الأصول التاريخية له ، وانتقلت بعد ذلك إلى عرض مجهودات الرواد الأوائل التى مهدت لظهور الأنثروبولوجيا النفسية بصورة واضحة بفضل مجهودات الأنثروبولوجية الأمريكية « بينيديكت » .

أما الفصل الثانى فيختص بدراسة عامة عن موضوع الأنثروبولوجيا النفسية وهو العلاقة بين الثقافة والشخصية ، فبينت كيف تؤثر الثقافة فى الشخصية ، وكذلك كيف تؤثر الشخصية فى الثقافة ، ولا يمكن

عرض موضوع علم ما دون تحديد مصطلحاته ومفاهيمه الأساسية ، وتبين أن أهم تلك المفاهيم هى الثقافة والشخصية ، وقد رؤى ، زيادة فى الوضوح ، ولانتماء هذين المفهومين لعلمين مختلفين هما الأنثروبولوجيا الثقافية وعلم النفس ، أن يدرسا بشيء من التفصيل .

يعالج الفصل الثالث مفهوم الثقافة بشيء من التفصيل ، فبعد عرض مختصر لبعض تعاريف الثقافة عرضت نظرية « هوايت » فى تفسير الثقافة ، وهى نظرية توضح التقارب بين الأنثروبولوجيا الثقافية وعلم النفس لاهتمامهما بموضوع واحد وهو السلوك الإنسانى ، وتناولت فى هذا الفصل خصائص وقطاعات الثقافة وأخيراً مستوياتها .

أما الفصل الرابع فيختص بمفهوم الشخصية ، فعرضت لأهم تعاريف الشخصية وتناولت بالشرح محددات الشخصية ، مع التركيز على المحددات الثقافية ، وكذلك يحتوى هذا الفصل على فقرات خاصة لسمات الشخصية وكيفية قياسها ، وأخيراً أشرت بإيجاز شديد لنظريات الشخصية .

ويهتم الفصل الخامس بعرض نظريات الأنثروبولوجيا النفسية ، وهى النظريات التى حاولت تفسير العلاقة بين الثقافة والشخصية ، فعرضت لنظريات الصيغة الكلية وهى نظرية روح الثقافة ونظرية أسلوب النظر إلى الحياة ، ونظرية ثنائية سجية الثقافة ، ونظرية الشيمات الرئيسية ، وعرضت كذلك لنظرية البناء الرئيسى للشخصية ونظرية الشخصية المنوالية ونظرية الشخصية القومية .

ويدرس الفصل السادس منهج الأنثروبولوجيا النفسية ، فعرضت لأهم طرق البحث التى يعتمد عليها الباحث فى دراسته لتحديد شخصية جماعة ما أو لتحديد العوامل الثقافية المؤثرة فى تلك الشخصية ، فتناولت بالشرح طرق ملاحظة السلوك ودراسة سير الحياة وتفسير الأحلام والرؤى والاختبارات الإسقاطية ودراسة الأدب الشعبى ودراسة الفن وأخيراً الدراسات الترابطية ، ثم عرضت لنماذج من أبحاث الثقافة والشخصية التى أجريت على المجتمعات البدائية .

أما الفصل السابع والأخير ، فقد اقتصر على دراسة الشخصية المصرية التقليدية ومحدداتها الثقافية ، ولا يمكن إغفال دراسة هذا الموضوع الهام فى كتاب متخصص فى دراسة الثقافة والشخصية ، وفى هذا الفصل عرضت لنظرية الحتمية الجغرافية ونظرية الحتمية الاقتصادية فى تفسير الشخصية القومية ، ثم بينت المشكلات التى تواجه الباحث عند دراسة الشخصية القومية المصرية ، وبعد ذلك انتقلت إلى شرح أبعاد الشخصية المصرية التقليدية وعرضت الأدلة والمحددات الثقافية الخاصة بكل بعد ، وتعد تلك الدراسة محاولة لدراسة الشخصية التقليدية المصرية فى إطار المنظور الأنثروبولوجى الثقافى .

وأنتهز هذه الفرصة لأقدم شكرى إلى أساتذتى وزملائى الأفاضل على ما قدموه من توجيهات وملاحظات ، فلسيادتهم جزيل الشكر والامتنان .

والله ولى التوفيق

عاطف وصفى
أستاذ الأنثروبولوجيا الاجتماعية المساعد
بكلية الآداب — جامعة القاهرة

القاهرة فى أول يناير ١٩٧٥

الفصل الأول

نشأة الأنثروبولوجيا النفسية

- **تمهيد**
- **الأصول التاريخية**
- **الرواد الأوائل**
- **النشأة**

الفصل الأول

نشأة الأنثروبولوجيا النفسية

تمهيد :

يتلخص موضوع الأنثروبولوجيا النفسية فى الدراسة العلمية للعلاقة بين الثقافة والشخصية ، وتعد الأنثروبولوجيا النفسية أحد فروع الأنثروبولوجيا الثقافية الذى يجمع بين مفاهيم الأنثروبولوجيا عن الثقافة ومفاهيم علم النفس عن الشخصية ، ولذلك يتطلب هذا الفرع من المعرفة تعاوناً وثيقاً بين المتخصصين فى الأنثروبولوجيا الثقافية وعلم نفس الشخصية .

عرفت الأنثروبولوجيا النفسية عالميًّا بعنوان « الثقافة والشخصية » ، وأخذ ينتشر هذا الاصطلاح ويزداد الاهتمام ببحث موضوعاته بصورة سريعة للغاية بالنسبة لحداثة نشأة هذا الفرع .

تهتم الأنثروبولوجيا الثقافية بدراسة ثقافات الإنسان فى المناطق المختلفة فى العالم دون الاهتمام بتأثير الثقافة على شخصيات حامليها ، ويقوم علماء النفس ، وعلى وجه الخصوص الأطباء النفسيون ، بتحليل شخصيات الأفراد المرضى ويركزون اهتمامهم على مظاهر الاختلاف والتفرد فى شخصيات البشر ، ولا تثر الثقافة انتباههم ، وأنه فقط فى الفترة الأخيرة ظهر الاهتمام عند بعض الأنثروبولوجيين بدراسة العلاقة بين الثقافة والشخصية ، ووجد هذا الاهتمام تعاونًا وتجاوبًا من بعض علماء النفس وعلى الخصوص الأطباء والمحللين النفسيين ، واعترف هؤلاء بالثقافة كعامل محدد للشخصية لا يمكن إغفاله عند دراسة الشخصية السوية وغير السوية .

انتشر اصطلاح « الثقافة والشخصية » بصورة سريعة للدلالة على هذا الفرع من المعرفة ، ولكن صاحب هذا الانتشار بعض الاعتراضات التى تنادى بتغييره ، فمثلا يرى العالمان « كلاكهوهن » و «موراى» أن اصطلاح «الثقافة الشخصية» قد يفهم منه تناقض وثنائية مثل التى توجد فى اصطلاح « الروح والمادة » ولذلك يفضلون استخدام اصطلاح « الثقافة فى الشخصية أو الشخصية فى الثقافة » [1].

ويفضل العلامة « هسو » استخدام اصطلاح الأنثروبولوجيا النفسية بدلا من « الثقافة الشخصية » لأن الاصطلاح الأخير يشير إلى الشخصية ككل مستقل عن الثقافة ، فى حين هى فى الواقع تنمو من

---

(1) Kluckhohn, C. and Murray, H. (eds), Pereonality in Nature, Society and Culture, Alfred A. Knopf, N.Y. 1959, P. 44.

خلال تفاعلها مع الثقافة(١) ، ويضيف الكاتب ميزة أخرى لاصطلاح الأنثروبولوجيا النفسية تتمثل فى تحديد هوية هذا الفرع من المعرفة على أنه فرع للأنثروبولوجيا الثقافية ، ويتفق هذا التحديد مع الحقائق التالية التى تبين أن نشأته قد تمت بفضل مجهودات علماء الأنثروبولوجيا الثقافية ، ويوجد اصطلاح ثالث لم يكتب له النجاح ، وهو « الاثنوجرافيا النفسية ، »(٢) برغم أنه يمتاز على الاصطلاحين السابقين من ناحية أنه يتكون من كلمة واحدة فى اللغات الأجنبية ووضوح هويته كفرع للأنثروبولوجيا الثقافية .

يتعاون الأنثروبولوجيون مع علماء النفس فى هذا الميدان بصورة واضحة ومن أمثلة ذلك اعتماد الأنثروبولوجيين على المحللين النفسيين فى إجراء وتحليل اختبارات الشخصية وفى تفسير الأحلام ، فى حين يستعين الأطباء النفسيون بالتقارير الأثنوجرافية للأنثروبولوجيين عند دراستهم للشخصيات السوية والمرضية .

أخذ الاهتمام بموضوع الثقافة والشخصية يتزايد فى الوقت الحاضر بعد تركيز الأنثروبولوجيين على دراسة عمليات التغير الثقافى فى المجتمعات البدائية والنامية ، وقد أظهرت دراسة عمليات التغير الثقافى أن الفرد فى المجتمع ليس مجرد حامل سلبى لثقافة المجتمع ، وإنما هو أيضاً مخترع لعناصر ثقافية جديدة ، ولديه القدرة على رفض أو قبول أى تجديد فى ثقافته ، وهكذا وجد الباحثون أن الفهم الدقيق لظاهرة التكامل الثقافى ولعمليات التغير الثقافى يتطلب الرجوع إلى حقائق علم النفس وعلى الخصوص علم نفس الشخصية ، فقد لاحظوا أن حالات رفض أو قبول تغيرات ثقافية فى مجتمع ما ترتبط بصورة ما بمدى توافق العنصر أو المركب الثقافى الجديد مع الشخصية العامة لأعضاء المجتمع ، هذا بالإضافة إلى ملاحظة أن شخصيات أعضاء المجتمع الواحد تتفق فى سمات معينة ، ويرجع ذلك الاتفاق إلى معيشتهم فى ثقافة واحدة(٣) .

يتضح لنا مما سبق أن الأنثروبولوجيا النفسية هى أحد فروع الأنثروبولوجيا الثقافية المتخصصة فى دراسة العلاقة بين الثقافة والشخصية ، ولا يعنى هذا التخصص القول بالحتمية الثقافية فى دراسة الشخصية ، أى المناداة بأن الثقافة هى العامل الوحيد المحدد للشخصية وبأن العلاقة بين الثقافة والشخصية ذات اتجاه واحد يتمثل فى أن الثقافة هى التى تؤثر فى الشخصية فى حين لا تؤثر الشخصية فى الثقافة ، أثبتت الأبحاث الميدانية خطأ الحتمية الثقافية ولم يعد يدافع عنها أحد فى الوقت الحاضر .

---

(١) Hsu, F. (ed), Psychological Anthropology : Approaches to Culture and Personality, The Dorsey press, INC., Homewood, ILL 1960.

(٢) Psychoethnogrphy.

(٣) Linton, R., The cultural Background of Personality, Appleton Century Crofts, INC. N.Y. 1945, P. XV.

الأصول التاريخية :

ولعل هذا التعريف المختصر للأنثروبولوجيا النفسية يكون كافياً للانتقال إلى الموضوع الرئيسى وهو نشأة هذا الفرع للمعرفة ، برغم أن نشأة الأنثروبولوجيا النفسية قد تمت بصورة كاملة فى الثلاثينات، إلا أن الأصول التاريخية عرفت منذ القدم بدرجات متفاوتة من الوضوح ، ويتمثل بعضها فى ملاحظة وجود سمات مشتركة فى شخصيات الأفراد الحاملين لثقافة ما .

فقد لاحظ المؤرخ « هيرودوت »[١] فى القرن الرابع قبل الميلاد الفروق الواضحة بين العادات الإغريقية والعادات الفرعونية ، وفى القرن الأول الميلادى قام المفكر « تاسيتوس »[٢] بمقارنة سلوك القبائل الجرمانية الشمالية بأساوب الحياة فى مدينة روما ، وعندما جاء عصر الاكتشافات واكتشفت أمريكا وباقى أجزاء العالم ، بدأ الأوربيون يعرفون الكثير عن أساليب معيشة الشعوب الأخرى ، ولاحظوا الاختلافات الشاسعة بين لغات الشعوب الأخرى وثقافاتهم ، وصاحب هذه الفترة اختراع الطباعة وانتشار المعلومات عن الشعوب المختلفة وأقاليمهم ، ومن أمثلة المؤلفات التى ساهمت فى توضيح فكرة اختلاف أساليب معيشة الشعوب تقارير حملات التبشير للجزويت وتقارير الفاتحين مثل « كاستيلو »[٣] .

وفى القرن التاسع عشر ، اهتم المفكرون بمقارنة الشعوب المختلفة سواء المعاصرة أو القديمة ، وقد ساعد على تنمية وإثارة هذا الاهتمام اكتشافات البيولوجيا والآثار وعلم طبقات الأرض ونظرية دارون .

ومع بداية النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى ، كثرت الدراسات الأثنولوجية والتاريخية التى اهتمت بمقارنة الثقافات والفترات الزمنية المختلفة، وفى نهاية القرن التاسع عشر نشأت الأنثروبولوجيا الثقافية بفضل مجهودات العالمين « تايلور »[٤] و« مورجان »[٥]، وإن كان الفضل الأول فى نشأة الأنثروبولوجيا الثقافية يرجع للعلامة البريطانى « تايلور » إلا أنه فى مؤلفات بعض المؤرخين وفلاسفة التاريخ ظهرت اللبنات الأولى لموضوع الثقافة الشخصية ، وهم « بوركخارت » و « هايزينجا » و « شبنجلر » ، هذا بالإضافة إلى مجهودات الأنثروبولجى « مالينوسكى » .

الرواد الأوائل :

درس بوركخارت فى كتابه « مدنية عصر النهضة فى إيطاليا »[٦] ، الذى نشر لأول مرة فى

---

(١) Herodotus.

(٢) Tacitus.

(٣) Bernal Diaz del Castillo.

(٤) Tylor, E.

(٥) Morgan, L.

(٦) Burckhardt, J., The Civilization of The Renaissance in Italy, Phaidon Press, Oxford 1945, PP. 82-92.

عام ١٨٦٠ ، الثقافة الإيطالية فى تلك الفترة ، فتحدث عن الملابس والأعياد وقواعد الإيتكيت والعقائد الدينية والعقائد الشخصية وأساليب الفكاهة ، ودرس كذلك الإنجازات العظيمة لعصر النهضة ، وقام بمقارنة مدنية عصر النهضة فى إيطاليا بالثقافة الإيطالية فى فترة العصور الوسطى ، وتوصل إلى نتيجة هامة . وهى أن مدنية عصر النهضة يسودها الاتجاه الفردى والنزعة للتفرد ، وأثبت ذلك عن طريق كثرة وتعدد أنماط الملابس ، والاهتمام بإنجازات الأفراد ، وقصص النجاح الفردى ، وانتشار الأساطير حول أماكن ميلاد الرجال المشهورين ، وأماكن قبورهم ، وتقدم فن كتاب سير المشاهير من الرجال ، هذا بالإضافة إلى ضعف تطبيق القوانين فى تلك الفترة ، مما يؤيد ظهور الاتجاه الفردى فى صورة التمرد على القوانين ، ولا يمكن إغفال حقيقة هامة ، وهى أن الاتجاه الفردى من أهم خصائص الثقافة الغربية ، ولا يزال مسيطراً على الكثير من نظم وأنساق تلك الثقافة ، وهذا يبين أهمية تلك الدراسة المبكرة .

أما العلامة هايزينجا فقد درس اتجاه ثقافة العصور الوسطى فى فرنسا وهولندا فى القرن الرابع عشر الميلادى ، وقد تأثر فى دراسته بالمؤرخ بوركخارت ، ولذلك يقارن بين العصور الوسطى وعصر النهضة ، ولكنه يختلف عنه فى عدم دراسة مولد عصر النهضة ، وإنما درس فترة انحسار وتداعى ثقافة العصور الوسطى ، واهتم بدراسة الاتجاهات العاطفية السائدة فى تلك الفترة — القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلادى فى فرنسا وهولندا — وحددها بأنها التذبذب الدائم بين اليأس والفرحة وبين القسوة والرقة ، وناقش الآثار العاطفية التى ترتبت على المواكب الدرامية ، مثل الجنازات والتعذيب العلنى ومواكب الإعدام العلنى والمواعظ المزخرفة لرجال الدين ، وهكذا كانت تتمثل روح ثقافة العصور الوسطى فى فترة انحسارها فى حالة من تناقض المشاعر تجمع بين القسوة والشفقة ، فبينما كانت حالات المرض والفقر والجنون هى أكثر الحالات التى تدعو للشفقة ، كانت تعامل تلك الحالات — فى الوقت نفسه — بقسوة غير معقولة .

ويستمر « هايزينجا » فى تحليله لروح تلك الثقافة فيقول إن رجال هذا العصر كانوا دائماً يتذبذبون بين الخوف من جهنم والفرح الشديد وبين القسوة والرقة وبين الزهد الشديد والتمسك بمباهج الدنيا وبين الحقد والطيبة ، أى أن الاتجاه السائد فى عواطفهم كان الانتقال السريع من النقيض إلى النقيض ، وقد توصل « هايزينجا » لتلك النتيجة العامة فيما يتعلق بالسمات المشتركة فى شخصيات حاملى ثقافة العصور الوسطى فى زمان ومكان محددين عن طريق دراسة بعض الأنماط الثقافية مثل القصائد والقوانين والمواعظ الدينية والرسومات والفنون الشعبية وشواهد القبور [١] . ويجب ملاحظة أن العالمين السابقين قد أشارا إلى حقيقة هامة وهى تكامل الثقافة وإمكانية وجود صيغة كلية للثقافة الواحدة ، ويمتاز هايزينجا على بوركخارت — فيما يتعلق بموضوع الأنثروبولوجيا النفسية — بأنه انتقل صراحة من مجرد وصف ثقافة

---

(١) Huizinga, J.; The Waning of The Middle Ages, Astudy of the Forms of Life, Thought and Art in Franec and the Netherlands in the XIV th Century, Edward Arnold, London 1942, p. 59.

مجتمع ما إلى تحديد السمات المشتركة فى شخصيات الأفراد حاملى تلك الثقافة ، ثم تأكيده أن تلك السمات فى شخصياتهم ترجع إلى ثقافتهم ،وهو بذلك يكون قد خطا خطوة كبيرة نحو نشأة الأنثروبولوجيا النفسية .

ومن أهم الرواد الأوائل الفليسوف الكبير « شبنجلر » ودراسته القيمة فى فلسفة التاريخ عن « انهيار الغرب » ، يشبه شبنجلر الثقافات بالكائنات الحية؛ فالثقافة مثل الكائن البيولوجى تولد وتموت، ومن الواضح أن العلامة ابن خلدون قد سبقه فى ذلك بقرون طويلة ، وقد تعرض هذا الاتجاه البيولوجى فى تفسير تطور الثقافات للنقد الشديد .

كان « شبنجلر » أول من بحث ظاهرة ثقافية هامة وهى « الاستعارة الانتقائية »[1] للعناصر الثقافية ، فقد شرح كيف تنتقل العناصر الثقافية من مجتمع إلى آخر ، ومايطرأ على تلك العناصر من تغيرات لكى تلائم الثقافة الجديدة ،فمثلا انتشار البوذية من الهند إلى الصين وما صاحبها من تغيرات فى المجتمع الجديد . ويرى شبنجلر أن الأساليب التى يطبقها مجتمع ما فى تعديل وتغيير العناصر الثقافية المستعارة من مجتمع لآخر تعكس الاتجاهات والقيم السائدة فى ثقافة ذلك المجتمع ، ولاتقتصر تلك الأساليب على تعديل العناصر الثقافية المستعارة وإنما تشمل كذلك عمليات رفض بعض تلك العناصر المستعارة، ويفهم من تحليلات شبنجلر أن «أساوب النظر إلى الحياة »[2] السائد فى ثقافة ماهو المسئول عن عمليات التغيير والرفض التى تجريها تلك الثقافة على العناصر الثقافية المستعارة من ثقافة أخرى . وفى مقارنة بين الثقافة الإغريقية والثقافة الفرعونية توصل « شبنجلر » إلى تحديد اختلاف واضح فى « أساوب النظر إلى الحياة» فى الثقافتين قيد البحث ، فبينما يتعمق المصريون القدماء فى مفهوم الزمن — ولذلك يسيطر اهتمامهم بالزمن على الكثير من عناصر وأنساق الثقافة الفرعونية — نجد أن الإغريق ينظرون إلى الزمن نظرة سطحية ، ولذلك لا يؤثر هذا المفهوم على معظم عناصر وأنساق الثقافة الإغريقية ، حقًّا عرف الإغريق « نظام التسلسل الزمنى » واستعاروه من الثقافة البابلية والثقافة الفرعونية ، ولكن فقد هذا النظام الكثير من أهميته وثقله الثقافى فى الثقافة الجديدة التى نقل إليها ، فبالرغم من وجود مؤرخين إغريقيين مثل « هيرودوت » و « توثيديدس » [3] إلا أن الأخير ادعى عدم وجود أى أحداث تاريخية هامة قبل عصره مما يؤيد عدم عمق مفهوم الزمن فى الفكر الإغريقى، وتختلف الصورة تماما فى الثقافة الفرعونية حيث نجد أن الاهتمام بالزمان يسود الكثير من مركبات وأنساق تلك الثقافة ، ومن أمثلة ذلك استخدام سجلات محفورة على حجر الجرانيت ، وتطبيق نظم إدارية متطورة فى مشروعات الرى ، وما تتضمنه من تنظيم زمنى لفترات الفيضانات والتحاريق ، وبناء الأهرام كرمز للخلود واستمرار الزمان ، والاهتمام

---

(١) Selective Borrowing.

(٢) World View.

(٣) Thucydides.

بالسجلات القديمة وحفظها ، واختراع فن التحنيط لحفظ الموت عبر القرون . وهكذا يعتبر « شبنجلر » الثقافة الفرعونية ثقافة « تاريخية » فى حين أن الثقافة الإغريقية ثقافة « لا تاريخية »(١) ولا أدل على ذلك من حرق الإغريق لجثث موتاهم(٢) .

وينتقل « شبنجلر » بعد ذلك إلى تحليل الثقافة الغربية الحديثة ، ويحدد تاريخ ميلادها بالقرن العاشر الميلادى ، ومكان ميلادها بأوروبا الغربية ، ويطلق عليها اصطلاح ثقافة « الرجل الفاوستى »(٣) ويحرك الشخصية الفاوستية شعور عميق بالأنا واستبطان قوى للأنا ، وتتميز بالاهتمام بالذكريات والتأملات الشخصية ، وتجمع كذلك بين الاهتمام بالماضى والتخطيط للمستقبل .

وبالإضافة إلى تحليله لشخصية حاملى الثقافة الغربية ، كما رمز لها بالرجل الفاوستى ، حدد شبنجلر الكثير من خصائص الثقافة الغربية الحديثة ، وقارنها بخصائص الثقافات الإنسانية الكبرى ، فقد لاحظ أن الثقافة الغربية تشبه الثقافة الفرعونية فى اهتمامها بالزمن ، فهى تهتم بالماضى وتخطط للمستقبل ، ولا أدل على ذلك من انتشار ساعات الحائط وساعات الأبراج فى كل مكان ، ولكن تتميز الثقافة الغربية بخاصية فريدة لا تشاركها فيها الثقافة الفرعونية وهى الاهتمام كذلك بمفهوم المكان ، ويرى أن الآلات الموسيقية الغربية هى تعبير عن الرغبة فى شغل المكان اللانهائى بالصوت ، ويسمى الآرغن « بالمارد المسيطر على المكان » ، ويحلل « شبنجلر » رياضيات الثقافة الغربية ، ويرى أنها تعبر عن « الميل الفاوستى »(٤) أى الميل نحو التأمل والتصور والتخطيط للمستقبل ، ويتضح ذلك فى نظام الإعداد ، وما تحتويه من كسور عشرية وأعداد سالبة وأرقام ضخمة جداً غير معقولة ، ولم يكن فى الإمكان التوصل لمثل ذلك النظام العددى عن طريق روح الثقافة الإغريقية ، ولذلك لم يعرف الرياضى التقليدى (الكلاسيكى) سوى ما يمكن أن يراه أو يمسكه ولم ينتقل إلى عالم التجريدات إلا عن طريق الثقافة الغربية .

قارن شبنجلر بين الثقافة التقليدية التى وجدت فى الغرب قبل عصر النهضة والثقافة الفاوسيتة الحديثة التى صاحبت عصر النهضة ، وتوصل إلى تحديد اختلافات واضحة فى الصيغ الكلية للثقافتين ، فمثلا ، الفرق بين فن التراجيديا الإغريقية التى تؤكد دراما الموقف وتراجيديات شكسبير التى تؤكد دراما الشخصية ، فإن « لير »(٥) و « اوتيللو »(٦) يمثلان شخصيتين من نوع خاص ، إذ تحللان بعمق

---

(١) Ahistorical.

(٢) Spengler,O., The Decline of The West, Trans. C.F. Atkinson, knopf N.Y. 1939, vol. II, pp. 40-65.

(٣) Faustian Man.

(٤) Faustian Tendency.

(٥) Lear.

(٦) Othello.

السمات الشخصية فى الإنسان ، وتخلو التراجيديا الإغريقية من مثل تلك التحليلات لسمات الشخصية .

ويلاحظ « شبنجلر » أن رسومات زخارف أوانى الزهور فى الثقافة التقليدية لا تهتم بعامل الزمن . فإن تلك الرسومات لم تبين فترات النهار ، أى لم تبين ماذا كانت تلك الرسومات تعبر عن الصباح أو الظهر أو العصر أو المغرب ، وذلك لخلوها من الظلال التى تشير لموقع الشمس ، ولخلوها كذلك من النجوم والسحب ، ويختلف الوضع تماماً فى الثقافة الغربية الحديثة ، التى تهتم بعامل الزمن ، وتسد أوجه النقص سابقة الذكر . ويستمر « شبنجلر » فى توضيح أهمية تأكيد عامل الزمن فى الثقافة الحديثة عن طريق تحليله لفن الرسم والنحت ، فقد كانت التماثيل الإغريقية والرومانية تماثيل عارية بدون ملابس وبدون روح وبدون شخصية ، ولذلك كانت وجوه التماثيل متشابهة تماماً ، فقد كان التعبير يتركز على توضيح التناسق والجمال فى الجسم البشرى ككل ، ولا تعبر عن شخصية معينة بالذات ، وتختلف التماثيل والرسومات فى الثقافة الفاوستية عن ذلك تماماً ، فأصبحت التماثيل والرسومات معبرة عن شخصيات معينة ، ومبرزة للسمات الشخصية فى الوجه والجسم ، ويبرهن « شبنجلر » على ذلك باهتمام الثقافة بدافع « العذراء والطفل »[1] فى أعمالهم ، ويعبر ذلك الدافع عن اهتمام الرجل الفاوستى بالأحداث المستقبلة وبالملامح الشخصية[2] .

ويتابع « شبنجلر » تحليله المقارن لعناصر مركبات الثقافتين ليصل إلى الاختلافات الجوهرية فى الصيغ الكلية ، ومن أهم تلك التحليلات دراسته لأنماط اللغة فى العصرين ، وقد لاحظ أن الكلمة اللاتينية الواحدة التى معناها باللغة العربية «أنا أكون »[3] قد استبدلت فى الثقافة الفاوستية أو الغربية الحديثة بكلمتين ، وبالتالى ظهرت فى لغات تلك الفترة كلمة خاصة تعبر عن الأنا ، وهذا واضح فى اللغة الإنجليزية واللغة الفرنسية واللغة الألمانية ،[4] ويؤكد هذا التطور الطابع الشخصى فى الثقافة الغربية الحديثة .

ومن خصائص الثقافة الفاوستية كذلك الشعور بالعمق وباللانهائية ، ويتضح ذلك عند مقارنة نظام الكاتدرائيات الجوطية والضخمة بالمعبد الإغريقى المسطح المنخفض ، هذا بالإضافة إلى اهتمام الرجل الفاوستى بالتمتع بالمناظر الطبيعية الجميلة الشاسعة والمترامية الأطراف ، ويستدل على ذلك من تقدم فن الحدائق فى الثقافة الغربية الحديثة ، واهتمام الإنسان الغربى الحديث بتسلق قمم الجبال للتمتع بمشاهدة المناظر الطبيعية الشاسعة ، وترتب على ذلك الاهتمام بغزو المكان فكانت الاكتشافات الجغرافية التى تميز الثقافة الغربية الحديثة .

---

(١) Madonna-and child.
(٢) Ibid., pp. 136-267.
(٣) Sum.
(٤) I am - je suis - Ich bin.

وهكذا قدم « شبنجلر » فى فلسفته التاريخية وتحليله القيم للثقافة الغربية إسهامات عظيمة للأنثروبولوجيا النفسية فقد قدم مبدأ « الصيغة الكلية »[١] فى الثقافة ، ويقصد به تكامل الثقافة حول مجموعة من القيم والاتجاهات . هذا بالإضافة إلى اهتمامه بمبدأ « الاستعارة الثقافية الانتقائية » ، ولكن قرر « شبنجلر » أن التكامل الثقافى والصيغة الكلية لا يوجدان إلا فى المدنيات والثقافات المعقدة الكبرى ، وأنكر وجودهما فى الثقافات البدائية والبسيطة ، ويرجع ذلك الخطأ إلى عدم إلمامه بالثقافات البدائية .

وإذا انتقلنا من دراسات فلسفة التاريخ العامة إلى الدراسات الأثنوجرافية الخاصة ، نجد أن دراسات العلامة « مالينوسكى » عن سكان جزر « التروبرياند » من أهم الدراسات الميدانية التى مهدت لظهور الأنثروبولوجيا النفسية ، وهى أول دراسة أنثروبولوجية تشير إلى أهمية مرحلة الطفولة فى تكوين الشخصية. من المعروف أن مدرسة التحليل النفسى ، وعلى رأسها فرويد تهتم بدراسة أثر تلك المرحلة ، من مراحل نمو الإنسان ،فى تكوين شخصيته؛ تعارض دراسة الأنثروبولوجى مالينوسكى بعض تفاصيل نظرية التحليل النفسى ، وإن كانت تتفق معها فى أهمية هذه المرحلة فى تكوين الشخصية . درس « مالينوسكى » هذا الموضوع فى كتابه « الجنس والكبت فى مجتمع متوحش »[٢] الذى نشر لأول فى عام ١٩٢٧ ، وقد سبق له أن نشر الجزء الأول من هذا الكتاب فى مقالين فى عام ١٩٢٤ بعنوان التحليل النفسى والأنثروبولوجيا [٣] ، وعارض فيهما بشدة نظرية التحليل النفسى فى تصورها كيفية تأثير مرحلة الطفولة على الشخصية ، وفى العام التالى (١٩٢٥) نشر المحلل النفسى « جونس » مقالة بالمجلة الدولية للتحليل النفسى يرد فيها على اعتراض مالينوسكى ويدافع عن نظرية التحليل النفسى ، وقد رد « مالينوسكى » فى النصف الثانى من كتابه على «جونس» وغيره من أتباع مذهب فرويد ، ولنتناول الآن فى إيجاز هذا النقاش العلمى .

يدور تصور مدرسة التحليل النفسى لعملية تأثير مرحلة الطفولة على الشخصية حول عقدة أوديب ، فحص « مالينوسكى» هذه النظرية فى ضوء دراسته الاثنوجرافية لسكان جزر تروبرياند[٤] ، وبدأ دراسته بوضع السؤال التالى : « هل ننظر إلى « عقدة أوديب » كما حددها فرويد على أنها ظاهرة إنسانية عالمية توجد فى كل الثقافات أو على أنها من نتاج شكل معين لنظم الأسرة ؟ من الواضح

---

(١) Configuration.

(٢) Malinowski, B., Sex and Repression in Savage Society, Routledge and Kegan Paul, London 1953.

(٣) Malinowski, B., Psychoanalysis and Anthropology, Psyche, Vol. IV (April, 1924), pp. 293-332

(٤) Trobriand Islanders.

أن « فرويد » تصور عقدة أوديب كظاهرة عالمية وخاصية أساسية للحياة البشرية ، لأنه أرجع جذورها للبيولوجيا ولعمليات التنشئة الاجتماعية ، فعندما يرضع الطفل من صدر أمه لا يستقبل فقط الغذاء ، وإنما يستقبل كذلك أول إحساساته الشبقية ، فتتمركز تلك الإحساسات حول الفم ، والفم هو أول واسطة يستخدمها الطفل فى اتصالاته مع العالم الخارجى ، وبعد فترة متأخرة من نمو الطفل ترتبط المشاعر الشبقية بمنطقة الشرج ،وأخير ترتبط بالأعضاء التناسلية،وتصبح الأم عن طريق عملية الرضاعة أول شخص أو شيء يحبه الطفل،فى حين يستمر الوضع كذلك بالنسبة للولد الصغير تحول الفتاة حبها نحو الأب ، ويرى فرويد أن الإنسان الحديث يتأثر فى سلوكه برواية « سوفوكليس »[1]الشهيرة ، وهى الرواية التى تمثل وجود رغبة ممنوعة عند الابن وهى رغبته فى قتل أبيه والزواج من أمه ، ويرى « فرويد» أن تلك الرغبة تظل مكبوتة فى نفس الابن ، ولكنها بالرغم من ذلك تبقى فى اللاشعور عند كل إنسان ، وتظهر بقوة عند العصابيين والذهانيين الذين يخفقون فى حل«عقدة أوديب» بنجاح . إلى هنا ينتهى رأى العلامة فرويد وأتباعه من أصحاب مدرسة التحليل النفسى ، ولكن مالينوسكى يتساءل هل حقاً « عقدة أوديب» حقيقة إنسانية عالمية ؟ وهل يمكن لتلك العقدة أن تظهر فى مجتمع يطبق نظام القرابة الأمى[2] ؟ ، وخاصة أن دور الأب فى مثل هذا المجتمع يختلف تماما عن دوره فى المجتمع الغربى الذى يأخذ بنظام القرابة الأبوى[3] ، وهو المجتمع الذى استقى منه « فرويد » نظرية عقدة أوديب . لكى يجيب مالينوسكى عن السؤال السابق قدم وصفاً كاملا لخصائص الأسرة فى قبائل تروبرياند ، وهى قبائل تتبع نظام القرابة الأمى ، ويقع هذا الوصف فى النصف الأول من كتابه سابق الذكر ، يسير التسلسل القرابى فى مجتمع تروبرياند فى خط الإناث ، ولذلك يصبح المولود عضواً فى عشيرة الأم ، ولا يرتبط بأية علاقة قرابية مع عشيرة الأب ، أما نظام السكنى فهو السكنى مع والد الزوج [4] ، إذ تعيش الزوجة فى عشيرة الزوج ، وتطبق القبيلة نظام وحدانية الزوجة فيما عدا الزعماء الذين يتزوجون عدة زوجات ، ولا يعتقد التروبرياندبون فى وجود علاقة بين الاتصال الجنسى والحمل ، وإنما يعتقدون أن الطفل يوضع فى رحم الأم عن طريق إحدى قريباتها من الموتى ، وهكذا لا يعد الأب شريكا للأم فى الإنجاب ،بالتالى ينظر للطفل على أنه من صنع الأم فقط ويرتبط بأسرتها فى خط الإناث ،ولا يرث الابن شيئاً من أبيه وإنما يرث خاله ، وينظر الطفل إلى خاله على أنه صاحب السلطة الرئيسية فى الأسرة، وذلك لأنه العائل للأسرة، إذ يعطى الرجل منتجات حديقته لأخته ، برغم أنه عادة يقطن فى قرية أخرى، وأحيانا تكون تلك القرية على بعد ستة أو ثمانية أميال عن مسكن أخته ، والخال هو المربى والمؤدب للأطفال ، ولا يقوم الأب بتلك الوظيفة التربوية ، ولكن قد يتساءل القارئ

---

(١) Sophocles : Oedipus Rex.

(٢) Matrilineal Descent.

(٣) Patrilineal Descent.

(٤) Patrilocal System.

كيف يقوم الخال بتلك الوظيفة التربوية وأخته تعيش مع أطفالها فى عشيرة الأب ، وذلك لأن نظام السكنى هو نظام السكنى مع والد الزوج ؟تتلخص إجابة هذا السؤال فى واقعة أن الطفل عندما يبلغ السابعة من عمره يذهب إلى قرية خاله ويعيش فيها ويتعلم منه فنون الزراعة وتقاليد عشيرته . وهكذا يتلخص الوضع الاقتصادى ونظام السلطة فى أن الخال هو عائل الأسرة وهو الرئيس الشرعى للأسرة — تليه فى المركز أخته التى تتمتع بمركز ولها ممتلكاتها الخاصة ، ولا يحدث أن يشاهد الأطفال أمهم وهى فى حالة خضوع لزوجها . والغريب فى الأمر أنه بالرغم من هذه الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية فإن الأب يعيش فى قريته ويمتلك البيت الذى يعيش فيه ، ولا يهمل الأب أطفاله بالرغم من تلك الظروف ، بل إنه يهتم بهم ويلعب معهم ، وخاصة قبل ذهابهم لعشيرة خالهم ويعطيهم من الوقت أكبر مما يعطيه الأب الغربى لأطفاله .

ينمو الأطفال فى هذا المجتمع متمتعين بحرية كبيرة فى جميع المجالات بما فى ذلك مجال الجنس ، إذ يؤدى الأطفال ألعابا جنسية بصورة علنية ، يقلدون فيها الاتصال الجنسى عند الكبار ، وتقابل تلك الألعاب بتسامح الكبار وتبادل الضحكات ، ولكن تسود الحرية الجنسية فى فترة الطفولة والبلوغ فقط وتتوقف بعد الزواج ، ولا يحد تلك الحرية إلا نظام المحارم الذى يمنع العلاقات الجنسية بين الإخوة وبين الأصول والفروع ، ويلاحظ أنه يوجد تباعد اجتماعى بين الأخ وأخته عند اقتراب مرحلة البلوغ وما بعدها ، ولدرجة أقل يطبق هذا التابو على الأولاد والبنات المنتمين لعشيرة واحدة ، وخلال مرحلة المراهقة يعيش الأولاد فى بيوت العزاب وهى أكواخ يقيمونها فى الغابة بعيداً عن القرى السكنية ، وهناك يمارس الأولاد العلاقات الجنسية مع بنات العشائر الأخرى ، وعندما يعيش الولد فى بيت العزاب يستمر فى تناول طعامه عند والده أو عند خاله إذا كان قد انتقل للمعيشة فى قرية خاله ، وذلك لأنه عند البلوغ أو قبل ذلك يترك قرية والده ويعيش مع خاله فى قريته ، وهناك يرتبط الولد بعشيرة أمه وينتمى إليها وفيها يرث ممتلكاته . وبعد سنوات قليلة من الانغماس فى اتصالات جنسية متعددة يختار الولد إحدى الفتيات ويتزوجها ؛ ويحضر عروسه إلى بيت والده فى الفترة التى يبنى فيها كوخا مستقلاً لنفسه ، وهكذا يعيش العروسان فترة شهر العسل فى بيت والد العريس ، وبعد الزواج تختفى الإباحية الجنسية ويحل محلها نظام صارم يشجع على انتشار اتجاه الإخلاص فى العلاقات بين الزوجين ، ويجعل من الخيانة الزوجية أمراً نادر الحدوث ، بل إنه من المحرمات تبادل نظرات الحب أو الضحكات أو تماسك الأيدى بين الأزواج بصورة علنية . ويرى « مالينوسكى » أن هؤلاء القوم يعيشون فى سعادة وهناء ، ويسود الوفاق بين الأزواج ، ولا يوجد بينهم حالات من الأمراض النفسية أو الذهانية أو حالات الجنسية المثلية ، ولذلك لم يقابل أثناء فترة إقامته الطويلة بجزر تروبرياند أى فرد مصاب بالهستيريا أو اللوازم العصبية أو الأفعال القهرية والأفكار المتطرفة . بعد ذلك العرض لبعض جوانب ثقافة التروباند نرجع إلى الموضوع الأساسى ويتمثل فى السؤال التالى : ما هو وضع « عقدة

أوديب » فى هذا المجتمع ؟ وهل يوجد أى دليل على وجود رغبات شبقية مكبوتة نحو الأم ؟

لم يجد مالينوسكى أى دليل يؤيد وجود مثل تلك الرغبات فى تلك القبيلة، وحاول أن يجمع بعض الأحلام بغرض تفسيرها، ولكنه فوجئ بأن الأحلام من الأمور النادرة عندهم، وهنا يؤيد «مالينوسكى» « فرويد » فى قوله إن الأحلام تقوم بوظيفة تخفيف التوترات المكبوتة ، وبالتالى تدل ظاهرة ندرة الأحلام فى تلك القبيلة على أن أعضاءها يتمتعون بشخصيات سوية، وبرغم ذلك نجح «مالينوسكى» فى جمع عدد قليل من الأحلام الجنسية ولاحظ أنها خالية من أى رمز يدل على وجود رغبة مكبوتة للاتصال بالأم، وعندما سأل بعض الأشخاص ما إذا كانوا قد حلموا بممارسة أى علاقة جنسية مع الأم، قوبل سؤاله بالاستنكار الشديد ، وأجابوا بالنفى ، ولكنهم اعترفوا بوجود بعض أحلام تشمل علاقات جنسية مع الأخوات ، ولم يستطع « مالينوسكى » اكتشاف وقوع حالة اتصال واحدة بين الأصول والفروع ، ولكنه اكتشف حالات نادرة عن اتصالات بين بعض الأولاد وأخواتهم ، وعند تحليله للقصص الشعبية والأساطير لم يعثر على أى أثر لعقدة أوديب ، ولكنه لاحظ أن نظام المحارم بين الأخ والأخت يعد موضوعاً رئيسياً فى الأساطير الشعبية. ينتهى « مالينوسكى » من تحليلاته السابقة إلى نتيجة هامة وهى عدم وجود رغبات شبقية مكبوتة نحو الأم فى تلك القبيلة . وينتقل بعد ذلك إلى جانب آخر من عقدة أوديب ، فيتساءل : هل توجد اتجاهات عدائية نحو الأب فى تلك القبيلة ؟ لم يعثر « مالينوسكى» فى مذكراته الميدانية على أدلة تؤيد وجود مثل تلك الاتجاهات ، وإنما عثر على أدلة تؤكد أن الأبناء يحملون مشاعر طيبة نحو آبائهم، ولكنه لاحظ ظاهرة هامة وهى أن الأبناء يظهرون ، فى بعض الأحيان ، مشاعر عدوانية نحو أخوالهم . ومن أهم ما استرعى انتباه مالينوسكى ندرة حدوث جريمة القتل فى تلك القبيلة، لم يعثر على أية حالة من حالات قتل الأم أو الأب أو الخال أو الأقارب بصورة عامة .

إن النتيجة النهائية التى وصل إليها مالينوسكى هى عدم وجود عقدة أوديب ، كما وصفها فرويد، فى مجتمع تروبرياند ، وبالتالى لا يجب أن نفترض الوجود العالمى لعقدة أوديب ، وقد شرح تلك النتيجة بقوله :

« فى مجتمع تروبرياند لا يوجد أى عداء بين الابن وأبيه ، وتسمح الأنماط الثقافية بوجود مشاعر تعلق الطفل بأمه وشوقه إليها، وتنمو تلك المشاعر بصورة طبيعية تلقائية، ويشعر الابن بالكراهية لخاله، ويتمثل الاتجاه الجنسى المكبوت الخاص بنظام المحارم فى الاتصال بالأخت، وهكذا نلاحظ أنه فى حين تؤكد عقدة أوديب وجود رغبة مكبوتة عند الابن لقتل الأب للزواج من الأم نجد أن ثقافة التروبرياند التى تأخذ بنظام التسلسل القرابى الأمى تتضمن رغبة مكبوتة تتمثل فى الزواج من الأخت وقتل الخال »[1] .

---

(١) Ibid., p. 8.

ويعتقد « مالينوفسكى » فى انتشار عقدة الخال فى المجتمعات ذات التسلسل القرابى الأمى، وذلك لكثرة الأساطير الخاصة بالزنى المحرم بين الأخ والأخت فى تلك المجتمعات وخاصة فى مجتمعات الباسيفيك التى تنتشر فيها كذلك بعض القصص التى تعبر عن مشاعر العداء بين الرجل وخاله .

وإذا انتقلنا إلى النصف الثانى من كتاب الجنس والكبت فى مجتمع متوحش نجد تغيراً واضحاً قد طرأ على أفكار مالينوسكى ، هذا بالرغم من استمراره فى نقد بعض جوانب نظرية فرويد . عندما نشر «مالينوسكى» تحليلاته السابقة لأول مرة تصدى له أحد أتباع فرويد وهو العلامة «جونز »[١] « الذى أصر على وجود عقدة أويب فى مجتمع تروبرياند فالأب مكروه فى هذا المجتمع ، ويستدل على وجود تلك الكراهية من إنكار التروبرياند لدور الأب فى عملية الإنجاب ، فالأب عندهم لا يشارك فى إنجاب الأطفال لرفضهم العلاقة بين الاتصال الجنسى والحمل ، إذ يعتقد أعضاء تلك القبيلة أن الطفل يوضع فى رحم الأم عن طريق إحدى القريبات الموتى ، وهكذا يرى « جونز » أن عدم اعتراف أعضاء تلك القبيلة بدور الأب فى الإنجاب يدل على وجود اتجاه كراهية نحوه ، وقد حدث فى تلك القبيلة أن انحرف أو تحول هذا الاتجاه نحو الخال ، فأصبحت المشاعر العدائية متجهة نحو الخال ، ولكنها فى الحقيقة أو فى الأصل خاصة بالأب . وافق « مالينوسكى» فى النصف الثانى من كتابه «الجنس والكبت » على رأى » جونز « وتفسيره كيفية تحول كراهية الأب إلى كراهية الخال ، وهذا يعد تغييراً هاماً فى رأى « مالينوسكى » ، وذلك لأنه فى النصف الأول من كتابه رفض تماما وجود عقدة أوديب فى مجتمع التروبرياند ، بل إنه رفض تفسير فرويد لوجود اتجاه كراهية الأب فى الثقافة الغربية، فبينما يرجع « فرويد» تلك الكراهية إلى التنافس الجنسى بين الأب والابن ، فإن مالينوسكى يرجع تلك الكراهية إلى الدور التسلطى الذى يتمتع به الأب فى الثقافة الغربية وفى الثقافات التى تأخذ بنظام التسلسل القرابى الأبوى ، ولذلك فهو فى النصف الأول من كتابه يفسر اتجاه كراهية الخال فى مجتمع التروبرياند بإرجاعه للدور التسلطى الذى يلعبه الخال نحو أبناء أخته . وهكذا فإن مالينوسكى يرفض التنافس الجنسى فى تفسير الاتجاهات العدائية نحو الأب أو نحو الخال .

إن كتاب « الجنس والكبت فى مجتمع متوحش » له أهمية وقيمة علمية مرتفعة، فهو أول دراسة أنثروبولوجية تختص بفحص النظرية الفرويدية فى مجتمع بدائى غير غربى. وقد سلط هذا البحث الأضواء على حقيقة هامة وهى أن الجنس يمكن أن ينظر إليه ويعبر عنه بصور مختلفة فى الثقافات المختلفة ، فهو ليس ظاهرة بيولوجية عالمية ، وإنما ظاهرة متغيرة تخضع لثقافة المجتمع .

ولا يمكن إغفال الأهمية الكبرى لهذا البحث ، ولكن لا تصل تلك الأهمية إلى اعتباره ممثلا لنشأة الأنثروبولوجيا النفسية ، حقاً لقد قدم هذا البحث المنهج الميدانى الذى افتقدناه فى أعمال

(١) Jones, E., Mother-Right and The Sexual Ignorance of Savages, International Journal of Psyscho-Analysis, Vol. VI, Part 2, 1925, pp. 109-130.

الرواد الأوائل السابقين . ولكن البحث لم يقدم لنا تحليلا لأثر ثقافة الترو برياند فى شخصيات حاملى تلك الثقافة ، ولم يهتم بتحليل سمات تلك الشخصيات وتحديد دور الثقافة فى وجود بعضها ، وإنما اقتصر على تطبيق نظرية فرويد وخاصة عقدة أوديب فى هذا المجتمع ، وركز كل اهتمامه على إثبات عدم وجودها ، ثم عاد فى النصف الثانى من كتابه وغير رأيه واعترف بوجودها بصورة معدلة ، ومع ذلك ، قام هذا البحث بدور فعال فى التمهيد المباشر لنشأة الأنثروبولوجيا النفسية بصورتها الكاملة الناضجة عند الأنثروبولوجية الأمريكية « روث بينيديكت » .

النشأة :

تجمع دراسة بينيديكت « نماذج من الثقافة »[١] بوضوح تام بين موضوع الأنثروبولوجيا النفسية وبين طرق البحث العلمى التى يجب تطبيقها فى دراسة العلاقة بين الثقافة والشخصية ، ولذلك يرى الكاتب أن هذه العالمة هى مؤسسة الأنثروبولوجيا النفسية ، وهى التى وضعت هذا الفرع من المعرفة فى مكانه المناسب كفرع للأنثروبولوجيا الثقافية .

تقول الأنثروبولوجية « مرجريت ميد » :

« يعد كتاب « بينيديكت » نماذج من الثقافة واحداً من أعظم الكتب التى ظهرت فى الربع الثانى من القرن العشرين فى العالم[٢] » .

ويقول العلامة « جورير » :

« يجب على أن أختار عام ١٨٩٥ الذى نشر فيه العالمان « فرويد» و « بروير» كتابهما « دراسة عن الهستيريا » على أنه تاريخ ميلاد علم نفس الفرد ، وعام ١٩٣٤ الذى نشرت فيه العلامة « بينيديكت» كتابها « نماذج من الثقافة » على أن تاريخ ميلاد الدراسة العلمية للشخصية القومية[٣] » .

ويتكون كتاب « نماذج من الثقافة» من مجموعة من المقالات التى نشرتها العلامة « بنيدبيكت » من قبل ، مضافاً إليها وصف وتحليل ثلاث مجموعات من ثقافات قبائل الهنود الحمر ، وهى قبائل بيبلو[٤] و « دوبو »[٥] و « كواكيوتل »[٦] .

لاحظت العلامة « بينيديكت » أن ثقافات تلك القبائل قد طبعت شخصيات حامليها بسمات

---

(١) Benedict, R., Patterns of Culture, Penguin Books, N.Y. 1946.

(٢) Mead, M., Ruth Fulton Benedict, American Anthropoogist, September, 1949,p. 460.

(٣) Gorer, F., The concept of National character, in Kluckhohn, Murray and Shneider (eds) Personality in Nature, society and Culture, Alfred A. Knopf, N.Y. 1953, p.247.

(٤) Pueblo.

(٥) Dobu.

(٦) Kwakiutl.

معينة ، واستخدمت فى مقارنتها بين تلك الثقافات وتأثيراتها فى الشخصية مفهومين هما « الأسلوب الديونيزيانى »[١] والأسلوب « الأبوللونيانى » [٢] ، وكان الفيلسوف « نتيشه »[٣] قد استخدم هذين المفهومين فى دراسته للتراجيديا الإغريقية ، فقد لاحظ وجود أسلوبين متناقضين للوصول إلى قيم الوجود ، أطلق على الأسلوب الأول اصطلاح الأسلوب الديونيزيانى ، والشخصية التى تتبع ذلك الأسلوب تصل إلى أكثر اللحظات قيمة فى الوجود عن طريق إلغاء الحدود العادية للوجود ، وإلغاء القيود المفروضة عليها من خلال الحواس الخمس ، وتهدف هذه الشخصية إلى تحطيم تلك القيود والدخول فى تجارب ذاتية جديدة تتصف بشحنات انفعالية عالية ومتطرفة مثل ما يحدث فى حالات السكر والانفعالات الشديدة والعنف .

أما الأسلوب الأبوللونيانى ، فإن الشخصية التى تتبعه لا تثق فى الأفعال السابقة ، لتحقيق قيم الوجود ، وإنما تبعد عن حالات العنف والإفراط ، وتحافظ دائماً على البقاء فى حالة انفعالية متوسطة ، تحتفظ فيها بالوعى وإدراك الواقع المحيط ، وحتى فى حالات الرقص فإن تلك الشخصية تحتفظ بوعيها ولا تفقده عن طريق السكر ، أى هى شخصية متزنة من الناحية الانفعالية ولا تدخل فى تجارب نفسية عميقة ممزقة ، شخصية تتمسك بأن خير الأمور الوسط . لاحظت العلامة «بينيديكت» أن اتجاهات معظم قبائل الهنود الحمر نحو الحياة تقترب من الأسلوب الديونيزيانى ، إذ يعطى الهنود الحمر قيمة كبيرة للخبرات العنيفة والحالات الانفعالية المتطرفة ولكل الوسائل التى يستطيع الإنسان عن طريقها تحطيم الروتين الحسى العادى — ومن أمثلة تلك الوسائل الصيام وتعذيب الذات وتعاطى المخدرات فى احتفالات معينة وإدمان الخمور ، ويستخدمون تلك الوسائل كطقوس دينية تصل بالإنسان لحالة من فقدان الوعى ، وبالرغم من انتشار تلك الاتجاهات فى معظم قبائل الهنود الحمر ، إلا أن العلامة « بينيديكت » لاحظت أن أعضاء قبائل بيبلو ، ومن فروعها قبيلة هوبى وقبيلة زونى ، يرفضون ذلك الأسلوب فى الحياة ولا يتعاطون المخدرات والخمور والسموم برغم انتشارها فى القبائل المحيطة بهم ، وتبرهن على عدم وجود الاتجاه الديونيزيانى فى قبيلة بيبلو عن طريق عرض الكثير من الأدلة ، فمثلا عدم وجود رقصة الشبح ومايصاحبها من حالات الإغماء الشامانية ، وعدم وجود طقوس تعذيب الذات ، وعدم وجود عادات التفاخر والتباهى والمنافسة على الشهرة ، وخلو ثقافة بيبلو من العقوبات القاسية على اقتراف جريمة الزنى ومن حالات الحزن المسعورة فى الجنازات ، ومن حالات اللجوء للانتحار كوسيلة للهرب من مواجهة المشاكل الواقعية ، ومن المغالاة فى الشعور بالذنب ، وبرغم وجود طقس الضرب بالكرباج ، فى احتفالات بلوغ الرشد ، فإنه يمارس بلطف وبصورة رمزية لا تسيل الدماء أو تترك أثراً على الجسم ، لذلك تقرر «بينيديكت» أن ثقافة بيبلو ثقافة أبوللونيانية وغير ديونيزيانية

(١) Dionysian.

(٢) Appollonian.

(٣) Nitzche.

فأعضاء تلك القبيلة قوم معتدلون فى تصرفاتهم ، لا يشربون الخمر ولا يستخدمون الضرب بالكرباج فى تربية أطفالهم ، ولا يبحث هؤلاء الأعضاء عن الوظائف ولا يلهثون وراءها وإنما يطلب منهم القيام بها[١] . اعتمدت « بينيديكيت » فى دراستها لثقافة قبيلة كواكيوتل على المادة الوفيرة التى جمعها الأنثروبولوجى الشهير « بواز »[٢] عن ثقافات الهنود الحمر فى الساحل الشمالى الغربى ، وقد استغرق فى جمعها مدة طويلة تصل إلى أربعين عاما . وقد توصل « بواز » إلى وضع المفهوم الأنثروبولوجى الهام « الصيغة الكلية »[٣] فهو يقول :

« يوجد فى كل مكان اتجاه عقلى سائد فى كل الحياة الثقافية ، ويستمر هذا الاتجاه العقلى لفترات طويلة ، ويبقى موجوداً برغم حدوث تغييرات فى شكل الحياة الثقافية ، ويسهل ملاحظة وجود هذا الاتجاه العقلى السائد فى الثقافات ذات الجانب الواحد ، وهى الثقافات التى تتميز بفكرة واحدة مسيطرة ومن أمثلة ذلك أن ثقافات الهنود الحمر بالساحل الباسيفيكى يسيطر عليها اتجاه عقلى يتمثل فى وجود قيمة اجتماعية مرتفعة للرتب الاجتماعية المتوارثة والقائمة على أساس الثروة ، ويوجه هذا الاتجاه سلوك الأفراد[٤] » .

ويجب ملاحظة أن «بواز» قد نشر رأيه السابق قبل ظهور كتاب «بينيديكت» «نماذج من الثقافة» بمدة ست سنوات ، مما يدل على تأثر « بينيديكيت » العميق بنظريات أستاذها العلامة « بواز » .

ابتدأت « بينيديكيت » تحليلاتها الثقافة «كيوكيوتل » بملخص قصير عن البيئة الجغرافية والنظام الاقتصادى فى الساحل الشمالى الغربى ، ثم انتقلت فجأة إلى وصف ثقافة تلك القبيلة ، وقد ركزت فى وصفها على الجوانب التى تؤكد وجود الأسلوب الديونزيانى ، ومنها الاحتفالات الدينية وما يصاحبها من رقصات تنتهى بحالات من « الإغماء » و « الانجذاب » ، وفى تلك الطقوس يصل الراقص الرئيسى إلى الذروة أى أقصى حالات العنف عندما يفقد السيطرة على نفسه ، وينتقل إلى حالة أخرى من الوجود ، فنراه يرتعش بعنف ويمتلىء فمه بالزبد ، ويأتى بأفعال تعد شاذة ورهيبة فى الظروف العادية ، ومن أنماط الأسلوب الديونيزيانى كذلك طقوس التحاق الشباب بالجمعيات الدينية . فعلى الشاب أن يعيش منعزلا هائما فى الغابات فترة من الزمن تحددها الكائنات « فوق الطبيعية » . ويصاب بالهزال الشديد فى تلك الفترة ، وعند انتهائها يعود للقبيلة ليؤدى فوراً طقوس « الهياج » ، وفيها يبدو الشاب وكأن قوة هائلة دخلت جسمه ، ويأتى بحركات عنيفة لا يمكن أن يؤديها وهو فى الحالة العادية .

ومن أهم الأمثلة التى تدل على سيادة الأسلوب الديونيزيانى « فى ثقافة كيوكيوتل » هو حفل تخريج

---

(١) Ibid, pp. 30-44.

(٢) Boas, F.

(٣) Configuration.

(٤) Boas, F., Anthropology and Modern Life, W.W. Norton, N.Y. 1928, pp. 151, 152.

« الراقص الكانيبالى »[1] أى الراقص الذى يأكل لحم البشر ، تعد «جمعية أكل لحوم البشر» أرقى الجمعيات الدينية فى قبيلة كيوكيوتل وغيرها من قبائل الساحل الشمالى الغربى ، إذ يخصص لأعضائها مقاعد الشرف فى حفلات الشتاء ، وعلى الجميع أن ينسحبوا بعيداً عندما يبدأ أعضاء تلك الجمعية فى تناول طعامهم ، ويختلف أعضاء تلك الجمعية عن الجمعيات الدينية الأخرى فى ميلهم القوى لأكل لحوم البشر . وتقدم « بينيديكت » وصفاً شيقاً لحفلات تخريج الراقص الكانيبالى ، يبدأ الاحتفال بتجمع عدد غفير من أهل القبيلة حول كوخ الاحتفال الذى يوجد فيه الراقص الجديد ، وبعد التجمع يقف الراقص فوق سطح الكوخ ، ويقفز منه إلى الأرض وسط المشاهدين ، ويقوم برقصات وحركات عنيفة ، ويكون فى حالة هياج شديد ، ويحاول الناس الإمساك به ، ولكنه يهرب منهم ويختفى فى الغابة والناس يجرون وراءه ، حتى يمسكون به ويحضرونه إلى كوخ الاحتفالات ، ويتكرر هذا المشهد أو الطقس ثلاث مرات ، وفى المرة الرابعة يتقدم إليه رجل عجوز يسمى «الطعم» وهنا يندفع إليه الراقص ويمسك بذراعه ويعضه ، وعند ذلك ينقض عليه المشاهدون ويحاولون إدخاله إلى كوخ الاحتفال ، ولكنه لا يستطيع الدخول لأنه يكون فى حالة من الإغماء والغياب عن الوعى ، وهنا تتقدم إليه امرأة عارية وهى تحمل على ذراعيها الممدودتين جثة أحد العبيد الذى يقتل لهذا الغرض ، وتقدم له الجثة ثم تقوم بحركات راقصة وتدعوه لدخول كوخ الاحتفال ، ولكنه يكون لا يزال فى حالة عدم السيطرة على نفسه ، ثم يهب واقفاً ويقفز ثانية على السطح ويقفز منه إلى الأرض وسط الناس ويرقص بوحشية وعنف ويرتعش جسمه وكل عضلاته برعشة ذات إيقاع معين خاص بحالات الهياج عند كواكيوتل ، وتستمر هذه الرقصات ، وفى أثنائها يأكل بعض أشلاء الجثة المقدمة له وفى أحيان أخرى يقضم بعض أجزاء أذرع وصدور المشاهدين ويأكلها ، ويستمر هذا الحال إلى أن يغمى عليه تماماً ويصل إلى حالة « الانجذاب » وهنا ينتهى الاحتفال[2] .

إن الأهمية الكبرى لدراسة بينيديكت وتحليلاتها لتلك الثقافات تتمثل فى أنها حددت فى هذا الكتاب موضوع ومنهج الأنثروبولوجيا النفسية ، فقد بينت بوضوح كيف تؤثر الثقافة فى شخصيات حامليها ، وكيف يؤدى مثل ذلك التأثير إلى وجود نمطين مختلفين تماماً من الشخصية ، الشخصية الديونيزيانية والشخصية الأبوللونيانية ، وبالتالى تؤكد « بينيديكت » أهمية الثقافة كعامل محدد للشخصية . وفيما يتعلق بمنهج الأنثروبولوجيا النفسية ، فقد قررت أن الدراسة الميدانية للثقافات والدراسات العلمية للشخصيات هى منهج الأنثروبولوجيا النفسية ، أما مجهودات الرواد الأوائل فقد اقتصرت على اكتشاف موضوع الأنثروبولوجيا النفسية واستخدمت المنهج الفلسفى الخاص بفلسفة التاريخ ، ولذلك لا يمكن إدخال تلك الدراسات فى إطار الأنثروبولوجيا النفسية لأن المنهج الأنثروبولوجى كان ينقصها .

---

(١) Canibal Dancer.

(٢) bid, pp. 162, 164,166.

وبرغم الأهمية الكبرى لدراسة العلامة بينيديكيت فى مجال نشأة الأنثروبولوجيا النفسية فقد أثير حولها الكثير من أصوات الاعتراض والنقد . ومن أمثلة ذلك كثرة التعميمات غير الدقيقة ، فقد قالت على سبيل المثال : « إن كل الهنود الحمر الأمريكيين وكذلك المكسيكيين يتبعون الأسلوب الديونيزيانى بدرجة كبيرة » ، يرفض العلامة « بارنو »(١) هذا التعميم غير الدقيق لأنه يجمع ثقافات عديدة ومختلفة عن بعضها كثيراً مثل ثقافات جماعات الصيد فى « لابرادور »(٢) وجماعات الصيد فى الساحل الشمالى الغربى وثقافات مجتمعات الطبقات المغلقة فى الجزء الجنوبى الشرقى بأمريكا الشمالية والثقافة المعقدة لمدنية جماعة « ازتيكس »(٣) ، ويرى « بارنو » أن «بينيديكيت» عندما جمعت تلك الثقافات المتعددة والمختلفة تحت اصطلاح « ديونيزيانى» قد وقعت فى الخطأ المعروف الذى سبقها فيه أنثروبولوجيو «المقاعد الوثيرة» فى القرن التاسع عشر الميلادى وهو خطأ إطلاق التعميمات على الشعوب البدائية برغم ما تتضمنه ثقافاتها من الاختلافات .

هذا بالإضافة إلى الاعتراض القائل بأن العلامة « بينيديكيت» قد وقعت فى الخطأ نفسه الذى وقع فيه من قبل الأنثروبولوجى الكبير « فريزر »(٤) والذى حذرت من الوقوع فيه العلامة «بينيديكيت» نفسها(٥) . ويتمثل هذا الخطأ فى تجاهل مبدأ التكامل الثقافى عندما يهتم الأنثروبولوجى بجمع أكبر عدد ممكن من العناصر الثقافية . إذ يقوم باقتلاعها من الوسط الثقافى بغرض إثبات فكرة معينة ، فلكى تثبت العلامة « بينيديكيت» وجود الاتجاه الديونيزيانى فى معظم ثقافات الهنود الحمر ، أخذت تجمع أكبر عدد من العناصر الثقافية واقتطعتها من محيطها الثقافى ، متجاهلة بذلك مبدأ التكامل الثقافى ، وهكذا اهتمت بينيديكيت بجمع حالات متفرقة مثل « لسان مثقوب » من إحدى ثقافات هنود المكسيك ، «وأصبع مقطوع » من طقوس هنود السهول ، وأنف معضوض ، أو مقطوع من طقوس هنود «أباش » ، جمعت « بينيديكيت » تلك العناصر المعزولة ثقافياً ورأت أنها تمثل « روح »(٦) أو الصيغة الكلية(٧) للثقافة الديونيزيانية .

إن واحداً من أوجه النقد الأخرى التى وجهت لدراسة « بينيديكيت» هو أنها لم تعالج أو تشرح الوسائل والميكانيزمات التى عن طريقها يصبح الأفراد « أبولونيين » أو « ديونيزيانيين » فمثلا

---

(١) Barnouw, V., Culture and Personality, The Dorsey, Press, INC, Illinois 1963, pp. 42, 43.

(٢) Labrador.

(٣) Aztecs.

(٤) Frazer.

(٥) Benedict, R. 1946, p. 44.

(٦) Ethos.

(٧) Configuration.

كيف يصبح أعضاء قبيلة الهوبى — فرع من قبيلة بيبلو — خاضعين والطاف . أو كيف تزرع وتنمو الاتجاهات الديونيزيانية فى كل جيل جديد فى قبيلة كيوكيوتل .

ويعارض « بارنو »[١] الأحكام التقويمية التى تطلقها العلامة « بينيديكت » مما يضعف مبدأ الموضوعية الذى يجب أن تتسم بها الدراسات عند وصف أو مقارنة الثقافات المختلفة . هذا بالإضافة إلى ظهور أوجه قصور أخرى يمكن الرجوع إليها فى مكان آخر[٢] .

لا تلغى الاعتراضات السابقة أهمية دراسة العلامة « بينيدكيت » كأول دراسة متكاملة فى الأنثروبولوجيا النفسية : وهكذا نشأت الأنثروبولوجيا النفسية بفضل مجهودات تلك العالمة التى تعد بجدارة مؤسسة هذا الفرع الهام للأنثروبولوجيا الثقافية .

وكذلك تعد الأنثروبولوجية الأمريكية «مارجريت ميد» ، زميلة بينيديكت ، من أهم المساهمين فى نمو وازدهار موضوع الثقافة والشخصية ، وذلك بفضل أبحاثها الثلاثة الشهيرة : مرحلة المراهقة فى سموا ، والنمو فى غينيا الجديدة ، وأخيراً النوع والمزاج فى ثلاثة مجتمعات بدائية ، لقد أضافت « ميد » بأبحاثها الثلاثة نمطاً جديداً فى المدرسة الأنثروبولوجية الأمريكية ، بعد أن سيطر عليها المنهج الكلاسيكى الخاص بالعلامة « بواز » ، ويتمثل المنهج الكلاسيكى فى الدراسة الحقلية الكلية التى تهتم بتسجيل وجمع كل صغيرة وكبيرة عن الثقافات قيد البحث . والحقيقة أن اتباع « بواز » وتلاميذه هذا الأسلوب « الكلى » فى البحث الميدانى ، يرجع لاهتمامه بتسجيل كل خصائص ثقافات الهنود الحمر البدائية قبل اختفائها تحت تأثير المدنية الغربية ، يتمثل النمط الجديد الذى قدمته « ميد » فى الابتعاد عن المنهج الكلى فى دراسة ثقافات المجتمعات البدائية واهتمامها ببحث موضوعات محددة وأسئلة معينة لها أهمية فى حياة المجتمعات المتمدينة ودراستها فى المجتمع البدائى .

وقد نشرت « ميد » أبحاثها الثلاثة فى مجلد واحد بعنوان « من بحار الجنوب ؛ دراسات عن المراهقة والنوع فى مجتمعات بدائية »[٣] :

درست « ميد » فى بحثها الأول العلاقة بين المراهقة والثقافة أو بصورة أدق العلاقة بين سمات الشخصية فى مرحلة المراهقة وثقافة المجتمع ، وقد حددت موضوع بحثها بالسؤال التالى : هل ترجع الاضطرابات والتوترات التى تصاحب المراهقين فى الثقافة الغربية إلى طبيعة مرحلة المراهقة ذاتها أو إلى المدنية الغربية ؟ يميل الغربيون إلى النظر إلى مرحلة المراهقة على أنها فترة تتميز بالصراع العاطفى والثورة على السلطة ، فهل ترجع هذه الاتجاهات وسمات الشخصية إلى تغيرات فسيولوجية تصاحب

(١) Barnouw, V., ... 1963, p. 55.

(٢) Williams, E., Anthropoogy for the Common Man, American Anthropoogist, January March, 1947, p. 88.

(٣) Mead, M., From The South Seas, Studies of Adolescence and Sex in Primitive Societies, William Morrow, N.Y. 1939.

مرحلة الحلم . أو أنها ترجع إلى ظروف اجتماعية وثقافية معينة في المجتمع الغربي ؟ [١] فإذا كان الرأى الأول صحيحاً . يجب أن تتوحد خصائص مرحلة المراهقة فى كل الثقافات ، وإذا لم يكن الأمر كذلك ، تكون العوامل الثقافية والاجتماعية هى المسئولة عن خصائص مرحلة المراهقة فى المجتمع قيد الدراسة .

استخدمت العلامة « ميد » المنهج الأنثروبولوجى وخاصة طريقة الملاحظة بالمشاركة فى دراسة تلك المشكلة الهامة ، ونظراً لأنها سيدة ، فقد ساعدها ذلك فى تطبيق الملاحظة بالمشاركة فى المجتمع البدائى الذى اختارته ، وهو جزيرة « سموا » [٢] عاشت « ميد » فى تلك الجزيرة مدة تسعة أشهر ، استطاعت أن تندمج فى المجتمع وأن تكسب ثقة الفتيات وأن تلاحظ اتجاهاتهم عن قرب ، ودرست فى تلك الفترة خمسين فتاة من ثلاث قرى متجاورة فى الجزيرة ، وقد توصلت فى نهاية دراستها الميدانية إلى نتيجة هامة وهى أن فتيات تلك الجزيرة لا يشعرن بالتوتر والاضطراب أثناء مرحلة المراهقة ، ولاحظت أن أهل الجزيرة ينقصهم ، بصورة عامة ، المشاعر العميقة ومشاعر التورط ، وهكذا تتلخص نتيجة بحث « ميد » فى أن مرحلة المراهقة ليست مرحلة صعبة فى حياة أهل جزيرة سموا ، وقد نتساءل عن خصائص ثقافة « سموا » التى تجعل من فترة المراهقة فترة سهلة وعادية وهادئة . يولد وينمو الأطفال فى وحدات عائلية كبيرة الحجم ، يكثر فيها الكبار ، ولذلك لا تتركز علاقاتهم العاطفية حول شخصين بالذات هما الأب والأم ، وإنما تصبح منتشرة غير مركزة ، لأنها توزع على عدد كبير من الأقارب الكبار ، وهى تتصف كذلك بالسطحية بصورة نسبية ، يتحدث الكبار مع الصغار فى سن مبكرة فى موضوعات الولادة والجنس والموت ، ولا تغلف تلك الموضوعات بالسرية والغموض والتشويه .. يعيش الأطفال فى مناخ من الحرية الجنسية فى ألعابهم ، وعندما يصلون لمرحلة المراهقة يشتركون فى علاقات جنسية متعددة ، ويعد هذا السلوك أمراً مقبولا وعادياً على أنه شيء طبيعى قبل الزواج ، ونظراً لعلانية تلك العلاقات وسهولة تحقيقها ، لاحظت « ميد » أن تلك العلاقات تصاحبها شحنة عاطفية ضعيفة عند المشتركين فيها ، أى أنها لا تتميز بالانفعال والتوتر . تخلو ثقافة « ساموا » من المتغيرات الاجتماعية الثقافية الموجودة فى المجتمعات الغربية وخاصة المجتمع الأمريكى الذى تنتمى إليه العالمة « ميد » ، فلا توجد الأيديولوجيات المتعددة والمتعارضة ، والأحزاب السياسية المتصارعة ، والمذاهب الدينية المختلفة ، والقيم الأخلاقية المتناقضة ، وهذا العدد الهائل من المهن الموجودة فى المدنية الغربية ، ترى العلامة « ميد » أن وجود مثل تلك المتغيرات الثقافية والاجتماعية هو المسئول عن تميز مرحلة المراهقة فى المجتمع الغربى بالتوتر والصراع العاطفى والثورة ، وأن عدم وجودها فى مجتمع « سموا » ترتب عليه خلو مرحلة المراهقة من تلك الخصائص وتميزها بالهدوء وتكيف شخصيات المراهقين والمراهقات مع باقى أفراد المجتمع وعدم وجود صراع الأجيال والثورة على تقاليد المجتمع .

---

(١) Ibid. p. II.

(٢) Samoa

تعرضت تلك الدراسة لكثير من النقد من علماء الاجتماع وعلماء النفس والأنثروبولوجيا مما زاد من أهمية المشكلة قيد البحث . تحيز بعض علماء الاجتماع للمنهج السوسيولوجى ، وتساءلوا : هل من الضرورى لدراسة المشكلة السابقة أن نذهب لمجتمع بدائى لنفحص تلك المشكلة ؟ وهل من الضرورى أن نطبق المنهج الأنثروبولوجى أى الملاحظة بالمشاركة لدراستها ؟ يرى هؤلاء أنه لا يوجد أى ضرورة علمية تحتم القيام بذلك البحث ، إذ أنه كان من الأفضل والأسهل دراسة تلك المشكلة فى إطار علم الاجتماع ، وذلك باختيار بعض الشباب المراهق الأمريكى ، على أن يتم اختيارهم بحيث يمكن تقسيمهم إلى جماعتين ، جماعة تعيش فى حالة تكيف مع تقاليد المجتمع ، وجماعة تعانى الاضطراب والمشاكل فى تكيفها مع تقاليد المجتمع ، وعن طريق دراسة الجماعة الضابطة والجماعة التجريبية يمكن تحديد أثر العوامل الثقافية والاجتماعية فى مرحلة المراهقة ، وسيترتب على استخدام المنهج السوسيولوجى توفير الجهد والمال الذى بذل فى دراسة « ميد » الأنثروبولوجية ، فلا داعى للسفر آلاف الأميال ، والبقاء فى مجتمع بدائى لمدة تسعة أشهر ، وتعلم لغة جديدة ، وكتابة تقرير كامل عن ثقافة جزيرة سموا ، هذا بالإضافة إلى أن بحث « ميد » اقتصر على دراسة الفتيات المراهقات ولم يتحدث عن المراهقين فى حين أن الدراسة السوسيولوجية يمكن أن تجمع الفتيات والفتيان [١] .

أما علماء النفس فقد انتقدوا بحث « ميد» على أساس أنها لم تستخدم اختبارات الشخصية وخاصة اختبار رورشاخ [٢] واختبار تفهم الموضوع [٣] ، ويمكن هنا الرد بأن تلك الاختبارات لم تكن قد اكتشفت بعد فى الفترة التى قامت بها العلامة « ميد » ببحثها . ويرى هؤلاء النقاد أن العلامة « ميد » قد اعترفت فى الفصل الحادى عشر من بحثها بوجود «فتيات منحرفات » ، وهن الفتيات اللاتى يظهرن صراعات واضحة ، وهنا يتساءل هؤلاء النقاد ، لماذا لا تعانى الفتيات الأخريات اللاتى يظهرن بصورة لطيفة وهادئة من توترات وضغوط داخلية ؟ إن المنهج الأنثروبولوجى — الملاحظة بالمشاركة — لا يسمح باكتشاف مثل تلك الحالات النفسية ، وقد استخدم بعض علماء النفس الاختبارات الإسقاطية للشخصية فى بعض المجتمعات البدائية الشبيهة فى أنماطها الثقافية بمجتمع « سموا» ، وتوصلوا إلى نتائج مناقضة لما توصلت إليها العلامة « ميد » . من هذه الدراسات البحث الخاص بقبيلة « تورك » [٤] ، تشبه ثقافة هذا المجتمع ثقافة مجتمع سموا فى كثير من النواحى ، إذ لا يوجد التعقيد فى العلاقات الاجتماعية ونظام تقسيم العمل الدقيق وغيرها من الخصائص المميزة للمدنية الغربية هذا بالإضافة إلى التسامح والحرية الجنسية قبل الزواج وطبيعة العلاقات الاجتماعية داخل الأسرة وخبرات مرحلة الطفولة . وقد دلت نتائج الاختبارات الإسقاطية على وجود توترات وصراع عاطفى يتركز حول الجنس ، بل إن

---

(١) Barnouw, V., Culture and Personality, p. 15.

(٢) Rorschach Test.

(٣) Thematic Apperception Test (T.A.T.)

(٤) Turk.

تلك التوترات كانت أقوى من مثيلاتها فى المجتمع الغربى، ولم تكن تلك النتيجة متوقعة فى مجتمع يتمتع أعضاؤه بحرية جنسية قبل الزواج ، ويستنتج العالمان « جلادوين » و« ساراسون » من تلك الدراسة أن الحرية الجنسية قبل الزواج لا تلغى وجود التوتر العاطفى فى فترة المراهقة ، وكذلك لا يترتب دائماً على بساطة النظام الاقتصادى والاجتماعى اختفاء ذلك التوتر[١] .

ولم يسلم بحث « ميد » من نقد زملائها الأنثروبولوجيين ، فقد قال البعض إن دراسة « ميد » تصور الثقافة التقليدية البدائية لقبيلة « سموا »، ولم تهتم بالتغيرات الثقافية والاجتماعية التى طرأت على تلك الثقافة، مما جعلها فى صورة متطورة مغايرة للصورة التى رسمتها « ميد »، ومن أمثلة تلك التغيرات انتشار المسيحية وبعض العناصر المادية للثقافة الغربية وضعف السلطة المطلقة التى كان يتمتع بها الآباء ، فقد كان الآباء لهم سلطة الحياة أو الموت على أعضاء عائلتهم ، وكانوا يعاقبون الفتيات اللائى لا يحترمن تابو المحارم فى العلاقات الجنسية بالضرب المبرح وبحلق رءوسهن بالموسى ، وفى احتفالات زواج فتيات الطبقة الراقية كانوا يمارسون طقوس « فض البكارة » بصورة علنية لإثبات عفة الفتاة . حدثت تغيرات واضحة فى تلك الأنماط الثقافية بتأثير القانون الأمريكى وتعاليم المبشرين ، وترتب عليها ضعف السلطة التقليدية للآباء ، وألغى القانون طقوس « فض البكارة » وأصبحت من الأمور المكروهة ضرب الفتيات وحلق رؤوسهن — لم توضح « ميد » الآثار التى ترتبت على تلك التغيرات فى سمات شخصيات المراهقات[٢] .

وفيما يتعلق بالبحث الثانى وهو النمو فى غينيا الجديدة، فإن له عنواناً فرعياً آخر وهو دراسة مقارنة للتربية البدائية ، وقد أجرت « ميد» ذلك البحث فى قبيلة « مانوس »[٣] بجزر «أدميرالت »[٤] فى شمال غينيا الجديدة ، وقد قامت « ميد » بدراستها الميدانية فى تلك القبيلة فى عام ١٩٢٨ ، وفى ذلك الوقت كان أعضاء قبيلة « مانوس » يعيشون فى بيوت مرفوعة على ركائز فوق سطح بحيرة ضحلة ، وكان مورد رزقهم الأساسى هو صيد السمك والتجارة، وتتميز قيمهم بخصائص تشبه قيم الثقافة الغربية ، فمثلا يضفون قيمة عالية للملكية والعمل الشاق والنجاح المالى. يرتفع فيها معدل وفيات الأطفال ،ولكن الأطفال الذين يعيشون يتمتعون بصحة جيدة ، وبثقة النفس وبشدة الانتباه . يتعلم الأطفال العوم فى سن الثالثة وبعد فترة وجيزة يتنقلون ويلعبون فى زوارق صغيرة[٥] ، ويتمتعون بحرية فى الحركة وفى اللعب ، ويشعرون باستقلال نسبى عن الكبار ، وتتعمق فيهم منذ الصغر قيمة احترام الملكية ، فإن السرقة غير

---

(١) Gladwin, T. and Saraon, S., Turk : Man in Paradise, Viking Fund Publications in Anthropology, N.Y. 1953, p.449.

(٢) Barnouw, V., Culture and Personality, pp. 68 & 79.

(٣) Manus.

(٤) Admiralty Islands.

(٥) Canoes.

معروفة تقريبا فى هذا المجتمع ، ويتمتع الأطفال بفترة لعب طويلة نسبيًّا . فإن الفتيات لا يقمن بالأعمال المنزلية إلا بعد بلوغهن ١١ أو ١٢ سنة . أما الأولاد فلا يقومون بأى عمل شاق إلا بعد زواجهم . ويظهر الأطفال القليل من الاحترام نحو الآباء وكبار السن . ينظم الزواج عن طريق الآباء ، ويقبل عليه الشباب بشيء من الرفض وذلك لأنه مع الزواج تبدأ أعباء الكبار وتنتهى حياة الطفولة المليئة بالحرية وعدم المسئولية ، وبعد الزواج يأخذ الشاب عروسه لبيت والده ؛ لأن قاعدة السكنى هى قاعدة السكنى مع والد الزوج ، وتعد العروس غريبة فى بيت والد زوجها ، والعلاقة بين الزوج والزوجة هى علاقة ضاغطة وصعبة ، وعندما يولد الطفل أو يتبنى يظهر الأب الكثير من الاهتمام به ، وتنمو علاقة قوية بين الأب وطفله ، وتتميز تلك العلاقة بأنها أقوى من العلاقة التى تنمو بين الأم وطفلها ، ولكن الصورة العامة هى أن الأطفال يعيشون معا ويقضون معظم أوقاتهم مع أترابهم بعيداً عن آبائهم ، ولذلك لا توجد علاقة تربوية واضحة بين الكبار والصغار ، فلا يحكى الكبار للأطفال أى قصص أو ألغاز أو نوارد ، ولا يشتركون معهم فى اللعب ، بل إن فكرة إمكانية سماع الطفل لحكاية ما يعد أمراً خياليًّا ، ويختلف هذا الوضع تماماً عن أساليب التربية فى الثقافة الغربية حيث يحكى الكبار لأطفالهم الكثير من القصص الشعبية التى تشخص الشمس والقمر والنجوم ، وكذلك الفوازير والأساطير [١] . ويترتب على ذلك عدم تلقين أطفال « مانوس » أية مفاهيم «حيوية» [٢] أو « تشخيصية » ، وإنما يتلقون على العكس تصورات طبيعية مادية عن العالم ، ويضعف عندهم الخيال ، فمثلا لا يمكن لهم أن يتخيلوا إمكانية وجود دب تحت السرير ما لم يمدهم الكبار بدب حقيقى ويرونه بأنفسهم . ولكن ، بالرغم من ذلك ، يعتقد الأطفال والكبار فى الأرواح ، ولكنهم يتجاهلونها ، ويعد الطفل شخصية ممتازة عندما يخلق شيئاً بنفسه ، ولا شك أن هذا الخلق يعتمد على الخيال لدرجة كبيرة . ويتركز الاهتمام فى ثقافة « مانوس » على النجاح العملى ، ولذلك يمكن اعتباره مركز تلك الثقافة أو محورها ، ويقل الاهتمام بالفنون بصورة واضحة .

أما البحث الثالث ، النوع والمزاج فى ثلاثة مجتمعات بدائية ، فيختص بدراسة تأثير الثقافة على الأدوار والاتجاهات الخاصة بالذكور والإناث . إن الموضوع الأساسى يدور حول إثبات أن سمات الشخصية المعروفة باسم سمات الرجولة وسمات الأنوثة هى من نتاج ثقافة المجتمع أكثر من كونها اختلافات بيولوجية بين النوعين [٣] .

قامت «ميد» بدراسة ميدانية لثلاث قبائل فى غينيا الجديدة ، وهى قبائل ارابش [٤] وموندوجومور [٥]

---

(١) Mead, M., Growing up in New Guinea, op. *cit.*, pp.125 - 130.

(٢) Animistic.

(٣) Mead, M., Sex and Temperament in Three Primitive Societies, 1950 (First edition in 1935), p. 257.

(٤) Arapesh.

(٥) Mundugumor.

وتشامبولى[١] ، وبالرغم من التجاور المكانى بين تلك القبائل ، إذ تقع فى أرض يبلغ مساحتها ١٠٠ ميل مربع ، إلا أنها تختلف فى الثقافة والمزاج (الشخصية) ، وقد توصلت « ميد » فى نهاية بحثها إلى نتيجة تؤكد الموضوع الأساسى أو الفرض سابق الذكر ، ففى الفصل الختامى (مضمون هذه النتائج) تقول « تقترح المادة — الدراسات الميدانية — أنه يمكن القول بأن الكثير — إن لم يكن الكل — من سمات الشخصية التى نسميها عادة بسمات الرجولة وسمات الأنوثة هى سمات مرتبطة بصورة ضعيفة بالنوع ، شأنها فى ذلك شأن الملابس وأساليب التعامل وشكل غطاء الرأس التى تفرضها المجتمعات فى فترة معينة على كل نوع[٢] » .

وفيما يتعلق بالمادة التى اعتمدت عليها فى وصولها إلى النتيجة السابقة فإنه يمكن تلخيص بعضها فيما يأتى : لاحظت « ميد » أنه بينما فى قبيلة أرابش تتصف اتجاهات الرجال والنساء ومعاملاتهم بعضهم لبعض باللطف والدعة والهدوء والتعاون ، وهى الاتجاهات نفسها التى نتوقعها من النساء فى الثقافة الغربية ، فإن الموقف يتناقض تماماً فى قبيلة موندوجومور حيث تتسم اتجاهات الرجال والنساء ومعاملاتهم بعضهم لبعض بالخشونة والعداء والتوحش ، وتشبه تلك الاتجاهات ما نتوقعه فى سلوك الرجال فى الثقافة الغربية . لا تؤيد تلك المادة الفرض القائل بوجود اختلافات مزاجية بيولوجية بين النوعين . أما الوضع فى القبيلة الثالثة تشامبولى ، فيتمثل فى وجود اختلافات حاسمة فى سمات الشخصية بين الرجال والنساء ، ولكن فى صورة مناقضة للاختلافات الموجودة فى الثقافة الغربية ، فالمرأة هنا هى عائلة الأسرة وتمدها بالطعام ، وتتميز بالقوة وصلابة الجسم وبالمهارة والحماس ؛ وتسود بين النساء روح الزمالة والتعاون ، ولا يستخدمن الزينة ، ويحلقن شعورهن ، ويجلسن فى جماعات لفترات طويلة ، يتبادلن الأحاديث والضحكات ، أما الرجال ، فإن اهتمامهم يتركز حول الأعمال الفنية وتسريحات الشعر وعلاقاتهم بالنساء ، ولا يقومون بأى عمل اقتصادى لتوفير الطعام للأسرة ، وإنما يعد هذا من عمل النساء .

تعرضت الأبحاث السابقة لكثير من النقد وخاصة من علماء النفس ؛ وعلى سبيل المثال نعرض هنا لنقد العلامة « ثورنوالد »[٣] الذى يقتصر على دراسة « ميد » لثقافة أرابش ، وفيه يقول : «تحاول المؤلفة أن تصور مجتمع أرابش على أنه قصيدة منظومة رومانتيكية هادئة وخالية من العنف إذ لا يوجد فيه أفراد أنانيون أو جشعون ، ولكن بالرغم من ذلك توجد بعض الجمل فى تقارير المؤلفة نفسها تثبت غير ذلك ، ومن أمثلة ذلك : وجود أطفال يصرخون ، وأطفال يتسمون بالعنف فى صفحات (٥٠، ١٤٣، ١٤٥) ، ووجود دراما فى العلاقات الجنسية (ص ١١٢) ، وبحدوث شجار بخصوص النساء (ص ٧٩) ، وعندما يتوتر المزاج يلوحون بقبضة اليد (ص ١٥٣) ، وحدث أن تهجم كل من الزوج على الآخر مستخدمين فى ذلك القشوس

(١) Tchambuli.

(٢) Ibid. p. 280.

(٣) Thurnwald, R., Review of Sex and Temperament in Three Primitive Societies, in American Anthropologist, Vol, 38, 1936, pp. 558-561.

(ص ١٦١) ، ووجود علاقات عنيفة بين أنصاف إخوة (ص ١٥٣) . وملاحظة وقائع يضرب فيها الرجال زوجاتهم (صفحات ١٤٧ و١٥١ و١٥٣) ؛ ووجود واقعة تضرب فيها زوجة زوجها (ص ١٤٩) ، وحدوث شجار بعد عملية خطف امرأة (ص ١٣٧) ، وحدث أن حاولت أم أن تخنق طفلها بعد أن ركلت رأسه بقدمها (ص ١٥١) . وحدث أن حاول أخ استخدام القوة مع أخيه »[1] .

ولكن ، يجب ملاحظة أن الوقائع السابقة ، المأخوذة من بعض صفحات بحث « ميد » « النوع والمزاج فى ثلاثة مجتمعات بدائية » ، قد ذكرتها عند كلامها عن الحالات المنحرفة فى الفصل الخاص بالمنحرفين ولكن لم تبين « ميد » فى هذا البحث مدى تكرار وانتشار تلك الحالات المنحرفة ، وحدث الشيء نفسه فى بحثها «البلوغ فى سموا» ، حيث نجد أن الحالات الاستثنائية قد جمعتها فى فصل عن المنحرفين دون ذكر مدى انتشار تلك الحالات ، مما شجع بعض الباحثين على توجيه النقد إليها من تلك الزاوية . وقد ردت العلامة « ميد » على تلك الانتقادات[2] ، فيما يتعلق بالنسب المئوية للحالات المنحرفة أجابت « ميد » بأنها نسب منخفضة ، وتحدث تلك الحالات فى ظروف الانهيار الثقافى ، وفى حالات خاصة قد يصبح الفرد فى سن معينة ومن نوع معين تابعاً لعقله فقط ، وهنا يعد منحرفاً فى رأى المجتمع . إن المنحرفين هم الأفراد الذين أخفقوا فى التكيف مع مجتمعهم ، وبالتالى لا تتوافر لديهم سمات الشخصية التى توافق عليها الثقافة . ولا تهتم « ميد » بالنسب المئوية لأنها لا تستخدم المنهج الإحصائى وذلك لعدم إمكانية استخدامه فى المجتمعات البدائية وفى الظروف التى أحاطت دراساتها .

ويعلق العلامة « بورنو » على كتاب « النوع والمزاج » بأنه كتاب يعكس ويساهم فى تدعيم الأيديولوجية البيئية التى تميز مؤلفات الثلاثينات ، وهى الفترة التى نرى فيها الماركسية تجذب إليها الكثير من المثقفين واتباع الفرويدية الجديدة[3] مثل «فروم »[4] « وهورنى »[5] ، اللذين أكدا أهمية العوامل الاجتماعية والثقافية فى التأثير على الشخصية . ويعد هذا الاهتمام بالبيئة الثقافية أحد جوانب التقليد التحررى[6] الذى تأثر بفلسفات عديدة منها فلسفة «ديوى»[7] . ويرتبط هذا التقليد باتجاه رفض العنصرية السلالية[8] ، وهى الفترة ذاتها التى حصل فيها النساء على الكثير من الحقوق والحريات ، ولا شك أن التحيز للنساء أمر ليس من الصعب اكتشافه وتتبعه فى أبحاث كل من « بينيديكت» و « ميد »[9] .

---

(١) Ibid, pp. 560.

(٢) Mead, M., A Reply to a Review of Sex and Teperament in Three Primitive Societies' American Anthroplolgist, Vol. 39, 1937, p.558.

(٣) Neo - Freudians.

(٤) Fromm.

(٥) Harney.

(٦) Libral Tradition.

(٧) John Dewey.

(٨) Racism.

(٩) Barnouw, V., Culture and Personality, pp. 89, 90.

برغم الانتقادات السابقة فإن الحقيقة التى يوافق عليها الجميع هى أن مؤلفات « بينيديكت » و « ميد » قد وضعت الأسس القوية لنشأة فرع جديد للأنثروبولوجيا الثقافية يتخصص فى دراسة الثقافة والشخصية .

توالت الدراسات والأبحاث فى ميدان الثقافة والشخصية بعد نشر أبحاث «بينيديكت و« ميد »، وتعد فترة الحرب العالمية الثانية بدء ازدهار هذا الميدان ، واليوم أصبح موضوع الثقافة والشخصية من المواد الدراسية الأساسية فى أقسام الأنثروبولوجيا وعلم النفس وعلم الاجتماع بالجامعات الكبرى . وعمل كثير من الأنثروبولوجيين فى مؤسسات عسكرية بالولايات المتحدة الأمريكية فى فترة الحرب ، ومن بين المتخصصين فى الثقافة والشخصية العلامة « باتسون » الذى عمل فى مكتب الخدمات الاستراتيجية ، وحاضرت العلامة « ميد » فى مكتب المعلومات الحربية بإنجلترا ، وعمل كل من « لايتون »[١] و« جورير » وكلاكهوهن وبينيديكت فى مكتب المعلومات الحربية . وخلال فترة الحرب حاول كل من « ميد » و« جورير » و« باتسون » تحديد سمات « الشخصية القومية » لدول مختلفة مثل رومانيا وتايلاند واليابان ، وبعد الحرب العالمية الثانية ، استمر هؤلاء الأنثروبولوجيون فى أبحاثهم عن الشخصية القومية ، وقادت العلامة « بينيديكت » فريقا علمياً لدراسة مجموعة كبيرة من الثقافات ، وتجمع تلك المجموعة ثقافات الصين وتشيكوسلوفاكيا ويهود أوربا الشرقية وفرنسا وبولندا وروسيا وسوريا وألمانيا . وفى الفترة بين عام ١٩٤٧ وعام ١٩٥٣ تعاون فريق من العلماء يتكون من ١٢٠ عالما ، ويمثل ١٦ جنسية مختلفة فى بحث مشترك عن الشخصية القومية . وقد اشترك فى هذا البحث ، بالإضافة إلى بينيديكت و «ميد» « جورير » و «ارينسبرج»[٢] و« بينيت »[٣] و«بانزل»[٤] و « رودينك»[٥] و «وولفنشتين»[٦] و« ميترو »[٧] . وقد نشر هذا البحث بعنوان «دراسة الثقافة عن بعد »[٨] . واستمرت الأبحاث فى الظهور تباعاً منذ تلك الفترة حتى اليوم :

---

(١) Leighton, A.

(٢) Arensberg, C.

(٣) Benet, Sula.

(٤) Bunzel, Ruth.

(٥) Rodnick, D.

(٦) Wolfenstein, Martha.

(٧) Metraux, Rhoda.

(٨) Mead, M. and Metraux, D. (eds), The study of Culture at a distance, University of chicago press, Chicago, 1953.

الفصل الثانى

موضوع الأنثروبولوجيا النفسية

- تمهيد
- أثر الثقافة فى الشخصية
- أثر الشخصية فى الثقافة
- المصطلحات

الفصل الثانى

موضوع الأنثروبولوجيا النفسية

تمهيد :

من أعظم الإنجازات فى مجهودات الإنسان الطويلة لفهم طبيعة النفس البشرية وقدراتها ووظائفها ظهور وتقدم العلوم الاجتماعية ، ويهمنا هنا ثلاثة علوم رئيسية ، هى علم النفس وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا ، وفى الوقت نفسه الذى فيه تحقق تلك العلوم الكثير من النجاح لتعمقها فى المجالات التى تخصصت فيها ، فإن الشعور بأهمية التعاون بين تلك التخصصات يتعاظم مع مرور الوقت ، بحيث أصبحت الحاجة إلى ظهور علم جديد يجمع الفرد والمجتمع والثقافة فى موضوع واحد أمراً لا مفر منه لدراسة ديناميات السلوك الإنسانى ولشرح المستويات العميقة التى وصل إليها كل علم متخصص على حدة .

إن الأساس الذى يجمع تلك العلوم الثلاثة هو الفرد ، لأن الفرد بحاجاته وقدراته هو فى النهاية الأساس لكل الظواهر النفسية والاجتماعية والثقافية ، فالمجتمعات هى جماعات منظمة من الأفراد ، والثقافات فى تحليلها النهائى ليست إلا استجابات متكررة ومنظمة لأعضاء المجتمع ، أى للأفراد ، فالفرد إذن هو نقطة البداية المنطقية لأى بحث فى أى صيغة كلية كبرى ، سواء كانت مجتمعاً أو ثقافة ، والفرد أيضاً هو نقطة التقاء علم النفس وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا . ويقف أمام تحقيق الدراسة المتكاملة للفرد والمجتمع والثقافة عدة عوائق ، فبالإضافة إلى المصالح الخاصة المتمثلة فى استقلال الأقسام العلمية بالجامعات ومراكز الأبحاث ، يوجد عائق عدم دراسة المتخصص فى أحد تلك العلوم موضوعات العلمين الآخرين ، ويوجد كذلك عائق عدم وجود مصطلحات مشتركة ، ويمكن تذليل تلك العقبات عن طريق تعاون المتخصصين معا ، والعمل كفريق فى دراسة العلاقات بين الفرد والمجتمع والثقافة ، وسوف يتبع ذلك التعاون الاتفاق على مصطلحات مشتركة ، وقد بدأت فعلا بعض الأقسام العلمية فى الجامعات فى الجمع بين العلوم الثلاثة السابقة تحت عنوان علم السلوك الإنسانى أو علم العلاقات الإنسانية .

ومن أهم الموضوعات التى تتطلب مثل ذلك التعاون موضوع الشخصية ، أن المشكلة الرئيسية التى تواجه علماء النفس عند دراسة الشخصية هى تحديد السمات التى ترجع للعوامل البيئية ، وتشمل العوامل البيئية العوامل الطبيعية والاجتماعية والثقافية ، ولا يمكن حل تلك المشكلة عن طريق التجارب المعملية ،

فإنه من المستحيل مثلا ، خلق مجتمعات وثقافات مختلفة للتعرف على تأثيرها على الشخصية . ولا يمكن كذلك اقتصار الدراسة على ثقافة الباحث لتحديد أثر العوامل البيئية المختلفة ، ولا يستطيع عالم النفس أن يجرى الدراسات الميدانية لتحصول على المادة الخاصة بالثقافات المختلفة ، ولكنه يستطيع الحصول على تلك المادة اللازمة عن طريق الدراسات الأثنوجرافية والأثنولوجية للأنثروبولوجيين . ومن الواضح أن العلاقات الشخصية من الموضوعات التى يهتم بها عالم النفس عند دراسة الشخصية ، لأنها من العوامل الهامة فى تكوين الشخصية ، ولا يمكن فهم العلاقات الشخصية إلا بالرجوع إلى الأوضاع أو المراكز الاجتماعية التى يشغلها الأفراد قيد البحث فى البناء الاجتماعى لمجتمعهم ، وهنا يتطلب رجوع عالم النفس لأبحاث علماء الاجتماع للاستفادة منها . وأيضًا من المستحيل أن نفهم الحقوق والالتزامات التى تحددها الثقافة للأفراد ، بدون أخذ البناء الاجتماعى فى الاعتبار ، ومن ناحية أخرى ، يجب ملاحظة أن البناء الاجتماعى ذاته هو جزء من ثقافة المجتمع ، وبالتالى لا يمكن فهمه إلا عن طريق ربطه بالثقافة ككل ، وهكذا تظهر أهمية التعاون بين عالم الاجتماع والأنثروبولوجى وعالم النفس ، وقد أظهرت دراسات الأنثروبولوجيين لعمليات التغير الثقافى والتكامل الثقافى أن الفرد لا يمكن النظر إليه كمجرد حامل سلبى للثقافة ، وإنما يجب النظر إليه أيضاً كمخترع للثقافة ، إذ لا يمكن أن يكون هناك اختراعات بدون مخترعين ، ويجب النظر إلى الفرد كذلك كقوة لديها القدرة على قبول أو رفض أى جديد فى الثقافة ، وبالتالى لا يمكن تفسير عمليات قبول المجتمع أو رفضه لعنصر ثقافى جديد بالرجوع إلى اصطلاح التكامل الثقافى ، وإنما يجب لكى نفهم هذه الأمور الرجوع لعلم النفس ، ولا يمكن للمناهج الأنثروبولوجية البحتة أن تدرس طبيعة الشخصية ، أو أن تقدم لنا الاختبارات الإسقاطية لتحديد سمات الشخصية ، وهكذا يضطر الأنثروبولوجى إلى طلب معاونة عالم النفس عند بحث عمليات التغيير الثقافى والتكامل الثانى[١] . وخلاصة القول أن التعاون بين علم النفس وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا ضرورة لبحث موضوعات العلاقة بين الفرد والمجتمع والثقافة .

لقد سبق أن بينا أن موضوع الشخصية من أهم الموضوعات التى تتطلب التعاون بين تلك العلوم ، بل إن الأبحاث الميدانية عن السمات المشتركة فى شخصيات أعضاء المجتمع الواحد قد أثبتت أن الدراسة الدقيقة لهذا الموضوع تتطلب تعاونًا أوسع من تعاون علم النفس وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا .

ولنتناول فى إيجاز واحداً من تلك الأبحاث لتوضيح صعوبة وتعقد موضوع الشخصية .

درس عدد من الأنثروبولوجيين مجموعة من الهنود الحمر تسمى جماعات « إيمارا »[٢] فى بوليفيا وبيرو ، تعيش تلك الجماعات على سفوح جبال « انديز »[٣] حول بحيرة « تيتيكاكا »[٤] . ويتفق

---

(١) Linton, R., The Cultural Background of Personality, Appleton-Century-Crofts, INC., N.Y. 1945-pp. XIII-XVIII.

(٢) Aymara

(٣) Andes

(٤) Titicaca

الرأى على أن شخصيات تلك الجماعات تتسم بما يأتى: الخضوع والاكتئاب والقلق والارتياب والقذارة والإهمال وإثارة الشجار والقسوة والحقد . ومن الواضح أن تلك الدراسات لا تفترض أن كل أعضاء جماعات «إيمارا» لديهم كل السمات السابقة أو أن لديهم تلك السمات بنفس الدرجة ، وإنما تقر بوجود الكثير من الفروق الفردية . ولكنهم كجماعة تغلب فيهم تلك السمات .

وقد يتساءل القارئ: لماذا يخيم على هؤلاء الناس القلق والتعاسة ؟ إن دراسة العوامل المحددة لشخصيات جماعات « إيمارا » ، تبين أهمية التعاون بين عدد كبير من العلوم للإجابة عن هذا السؤال ، إذ يوجد عدد كبير من الأسباب المحتملة لانتشار تلك السمات فى تلك الجماعة .

فأولا : تعيش تلك الجماعات فى مناطق جبلية مرتفعة ، ويترتب على المعيشة فى تلك المناطق إصابة السكان بمرض يسمى محليًّا بـ « سوروش »[١] ، ويرجع ذلك المرض لنقص الأوكسيجين ومن أعراضه الصداع ودوار البحر والإحساس بالتعب وضيق الصدر ، وهنا يظهر تعاون الطب فى تفسير تلك الشخصية العامة .

وثانيا : يشير العلامة « لابار » إلى الكميات الضخمة من الخمور التى يشربها هؤلاء الهنود فى أعيادهم . ولهذا يمكن اعتبار الشراب والسكر من العوامل المحددة لتلك الشخصية[٢] وهنا نحتاج لتعاون الأطباء لشرح تأثير الإفراط فى تعاطى الخمور على الشخصية ، وكذلك نحتاج للأنثروبولوجيين لشرح دور الخمر فى تلك الاحتفالات وسبب انتشار تلك العادة .

وثالثا : تنتشر فى تلك الجماعات عادة مضغ نبات كوكا المخدر ، وتبين التجارب الطبية أن تعاطى هذا المخدر يؤدى إلى شحوب غير طبيعى وضعف العضلات ، ويرى البعض الآخر أن مضغ الكوكا يؤدى إلى نوع من الخمول العاطفى واللامبالاة والضعف العام وعدم تركيز الانتباه . ويقرر الأنثروبولوجى « تشوبيك » أن ماضغى هذا المخدر يتسمون بالارتياب والخجل والانعزال والتردد[٣] .

ورابعا : يتضح لنا من وصف الأنثروبولوجى « تشوبيك » أن منازلهم غير صحية ، فهى مزدحمة وغير مدفأة وقذرة . هذا بالإضافة إلى قلة ملابسهم وسير الرجال حفاة فى جو قارس البرودة ، ويعانى الأطفال سوء التغذية ، وتتمثل فى نقص فيتامين « ا » وفيتامين «ج » والدهنيات والحديد والكلسيوم ، ولا توفر الأطعمة التى يتناولونها الطاقة اللازمة فى مثل تلك المناطق المرتفعة . ترتب على تلك الظروف القاسية انتشار أمراض الرئتين والأمراض الجلدية والجدرى وأمراض القلب والأمراض التناسلية ، ويرتفع عندهم معدل وفاة الأطفال .

---

(١) Sorroche

(٢) La Barre, W., The Aymara Indians of the Lake Titicaca Plateau Bolivia, Memoir of the American Anthroplogical Association, No. 68, 1948, p. 174.

(٣) Toschopik, H., Jr., The Aymara of Chucuito, Peru, Anthropological Papers of the Arerican Museum of Natural History, Vol. 44, Part II, 1951, p. 187.

وخامسا : يوجد عامل تاريخى هام يمكن أن يفسر تعاسة وقلق تلك الجماعة . وهذا العامل هو استعمار الأسبان لبلادهم ، وقد استخدم الأسبان كل وسائل التعذيب لاستغلال هؤلاء البشر . ويقدر أن حوالى ثمانية ملايين هندى قد قتل إبان فترة الاستعمار الأسبانى ؛ ويشمل هذا العدد غالبية أفراد تلك الجماعة . وقد قاموا بعدة ثورات ولكن لم يحالفهم النجاح ، وظلوا خاضعين لأسيادهم الأسبان وسلالة المستيزو[١] — وهى سلالة نتجت عن زواج الأسبان من الهنود الحمر — لمدة خمسة قرون من الزمان ، ولا يزال أسيادهم القدامى يحتاون المناصب السياسية الهامة ويملكون أفضل المزارع والمنازل ، وتعيش تلك السلالة الجديدة فى مستوى اجتماعى واقتصادى أفضل من الوضع الاجتماعى والاقتصادى لجماعات إيمارا ، ولا يزال أفراد جماعات « إيمارا » يرفعون قبعاتهم احتراماً عند المرور بأحد المستيزو ، ويقبلون أيديهم وملابسهم للتعبير عن شكرهم لأى مساعدة أو عون يحصلون عليها . أليس من الممكن أن طول فترة الاستعمار واستخدام وسائل التعذيب الوحشية وحالة الخضوع المستمر والشعور بالنقص أمام جماعة المستيزو والمستعمرين الأسبان هى العوامل المسئولة عن تعاسة وقلق تلك الجماعات ؟

وسادساً : تواجه جماعات إيمارا مشكلة اقتصادية هامة وهى التقلص المستمر فى مساحة الأرض المزروعة ، وذلك لاستيلاء الحكومات على أجزاء من أراضيهم من وقت لآخر ، وترتب على ذلك انتشار العداء والصراع بين العائلات الممتدة التى تتنافس على البقية الباقية من الأرض ، وأدت تلك الصراعات إلى انتشار الاتجاهات الفردية والأنانية ، وهى أمور من شأنها إثارة القلق والضيق فى الصدور .

وسابعا : يتصف النظام الأسرى بالتفكك والانهيار وذلك لانتشار الطلاق والخيانات الزوجية ، ويعانى الأطفال من تلك الظروف القاسية ، هذا بالإضافة إلى قلة الحنان والعاطفة ، أليس فى الإمكان أن تكون تلك الظروف الأسرية هى المسئولة عن تعاسة وقلق أفراد تلك الجماعات ؟

وهكذا توجد عدة عوامل قد تكون هى جميعها المفسرة لسمات شخصيات أعضاء تلك الجماعات ، ولما كانت تلك العوامل تنتمى إلى علوم مختلفة ، فإن التعاون بين تلك العلوم جميعها أو بين بعضها يصير أمراً ضرورياً لفهم شخصيات إيمارا . وإذا سلمنا — جدلا — بأن جميع تلك العوامل تؤثر فى تشكيل شخصيات هؤلاء الأفراد ، فإننا قد نتساءل ، هل تتساوى تلك العوامل فى درجة أهميتها وفاعليتها ؟ أليس لبعض تلك العوامل فاعلية أكبر من فاعلية العوامل الأخرى ؟ كيف نحدد الاختلاف فى درجة فاعلية كل عامل من تلك العوامل ؟

إن تحليل العوامل السابقة بين أن بعضها خاص بالبيئة الجغرافية والبعض الآخر بالاتجاهات والعادات الثقافية ، وهناك عوامل خاصة بالظروف الاجتماعية المحيطة ، هذا بالإضافة إلى العوامل الاقتصادية .

---

(١) Mestizo.

يميل كل عالم إلى تأكيد أهمية العوامل الداخلة فى دائرة اختصاصه والتقليل من أهمية العوامل الأخرى ، ويعرف هذا بتحيز العلماء لتخصصاتهم . وهو خطأ شائع يجب عدم الوقوع فيه ، وخاصة فى تلك الدراسات التى تقوم على أساس التعاون بين العلوم ، وليس على أساس استقلالها .

وفيما يتعلق بالدراسة الميدانية السابقة عن شخصيات جماعات إيمارا ، تبين الدراسات التحليلية والمقارنة أن ارتفاع المناطق السكنية لتلك الجماعات ليس عاملا دالاً ، وذلك لأن الدراسات الميدانية التى أجريت على سكان جبال الهملايا قررت أن شخصياتهم تتسم بالمرح والابتهاج والتعاون والثقة بالنفس ، وزيادة على ذلك فقد لاحظ كل من « لابار » و « تشوبيك » أن صفة الاكتئاب تظهر بصورة أقوى عند سكان السهول عنها عند سكان المناطق الجبلية المرتفعة ، وإذ استبعدنا العوامل الطبيعية نجد أنفسنا متجهين إلى العوامل الثقافية والاجتماعية لتفسير سمات شخصيات جماعات إيمارا ، إن أهمية تلك العوامل فى تفسير سمات الشخصية تمثل الضرورة العلمية لظهور الأنثروبولوجيا النفسية التى تجمع بين الأنثروبولوجيا الثقافية وعلم نفس الشخصية ، وتتطلب أبحاثها تعاون الأنثروبولوجيين وعلماء النفس .

يتلخص موضوع الأنثروبولوجيا النفسية فى تحديد العلاقة بين الثقافة والشخصية ، ولا تسير تلك العلاقة فى اتجاه واحد وإنما فى اتجاهين ، أثر الثقافة فى الشخصية وأثر الشخصية فى الثقافة . ولنتناول الآن فى إيجاز شرح كل جانب على حدة .

أولا — أثر الثقافة فى الشخصية :

يستخدم الأنثروبولوجيون مفهوم الثقافة على أنه أسلوب الحياة الذى يميز مجتمع ما عن غيره من المجتمعات ، وأهم مميزات هذا المفهوم النظرة الكلية الشاملة ، فالثقافة تشمل جميع أنماط السلوك المكتسبة ، سواء أكانت تمثل علاقة الإنسان بالمادة أو علاقته بغيره من البشر أو علاقته بالأفكار والرموز ، وبالتالى يمكن تمييز ثلاثة قطاعات متداخلة الثقافة ، القطاع المادى أو التكنولوجى والقطاع الاجتماعى والقطاع الفكرى والرمزى. إن هذا التعريف البسيط للثقافة لا يعبر من المدارس الفكرية والنظريات الأنثروبولوجية التى بحثت بعمق مفهوم الثقافة ، وتوصلت إلى تعريفات مختلفة ومبادئ متعددة لهذا المفهوم ، وإنما يعطينا فكرة مبسطة تسمح بشرح أثر الثقافة فى الشخصية ، ولكن لا يعنى ذلك أن الباحث فى الثقافة والشخصية لا يحتاج إلى دراسة دقيقة لمفهوم الثقافة ، ولذلك رؤى تخصيص الفصل الثالث لتلك الدراسة .

بينما يتميز مفهوم الثقافة بالشمول وبتنميط السلوك ، فإن مفهوم الشخصية — على النقيض — يتميز بالتفرد وتخصيص السلوك ، فالشخصية هى تنظيم دينامى ثابت نسبياً داخل الفرد يتمثل فى مجموعة من السمات الجسمية والنفسية ، ويستدل على ذلك التنظيم من خلال ملاحظة سلوك الفرد وإخضاع تلك الملاحظة للقياس الكمى الذى يمكن التعبير عنه بتكوينات متوسطة مثل السمات أو الاتجاهات ، لكل

فرد شخصية منفردة ومتميزة ، ولا يشاركه فيها أى شخص آخر ، ومن هنا كان القول بأن الفرد من ناحية معينة لا يشبه أى فرد آخر . إن هذا التعريف المبسط للشخصية يكفى بمتطلبات هذا الفصل ، ولكن على دارسى موضوع الثقافة والشخصية دراسة مفهوم الشخصية بصورة أكثر تفصيلا ، ولذلك خصص فصل كامل وهو الفصل الرابع لمفهوم الشخصية . ولكن ، برغم هذا الاختلاف الواضح بين المفهومين ، الثقافة والشخصية نلاحظ أن العلاقة بينهما علاقة ضرورية وجوهرية ، فبدون الثقافة لا توجد الشخصية ، وبدون الشخصية لا توجد ثقافة ، وذلك لأن الثقافة هى مجموعة من أنماط السلوك التى تميز مجتمع ما ، وإذا حللنا أنماط السلوك نجد أنها أكثر الحالات تكراراً لسلوك معين ، وهذا السلوك المعين صادر عن فرد معين أى من شخصية معينة .

سبق القول بأن الفرد من ناحية معينة لا يشبه أى فرد آخر . وفسر ذلك القول على أساس أن كل فرد له شخصية مميزة وفريدة ، لا يشاركه فيها أحد ، بمعنى أنه لا يوجد فردان ، حتى فى حالة التوائم ، يتشابهان تماماً فى جميع السمات الجسمية والنفسية ، ولكن ، هناك حقيقة أخرى ، وهى أن الفرد من ناحية أخرى يشبه بعض الأفراد الآخرين ، ويقصد بذلك أن الفرد كعضو فى جماعة معينة وكحامل لثقافة معينة كذلك يشبه فى بعض السمات النفسية الكثيرين من أعضاء ذلك المجتمع ، قد يتبادر إلى الذهن وجود بعض التعارض بين القولين السابقين ، ولكن الحقيقة أنه لا يوجد تعارض وإنما تكامل بينهما ، فالفرد ككل له شخصية فريدة متميزة ، ولكن بعض عناصر تلك الشخصية يشاركه فيها أفراد آخرون . فمن الواضح أن أعضاء أى مجتمع يشتركون فى مجموعة من سمات أو عناصر الشخصية ، ولا شك أن تلك العناصر المشتركة تحتوى على مدى واسع مع الاختلافات الفردية ، وتتنوع تلك العناصر المشتركة من الاستجابات الظاهرية البسيطة مثل آداب المائدة إلى الاتجاهات العامة جداً مثل القيم .

ويتفق الأنثروبولوجيون على وجود الاختلافات والفروق الفردية فى شخصيات أعضاء المجتمع الواحد ، ويتفقون على وجود تفرع وتعدد لأشكال الشخصية فى المجتمع الواحد . ولكنهم يتفقون كذلك على أن العناصر المشتركة فى شخصيات أعضاء المجتمع الواحد تكون معا « صيغة كلية »[1] متكاملة يمكن أن تسمى « الشكل الرئيسى للشخصية »[2] هذا بالنسبة للمجتمع ككل . تمد تلك « الصيغة الكلية » أفراد المجتمع الواحد . بالمفاهيم العامة والقيم التى تجعل فى الإمكان حدوث استجابة عاطفية موحدة لأعضاء المجتمع نحو مواقف تتضمن قيمهم العامة المشتركة . وبالإضافة إلى تلك « الصيغة الكلية » العامة والمتعلقة بالمجتمع ككل ، كذلك توجد فى كل مجتمع « صيغ كلية » إضافية ، أو أقل عمومية ، للاستجابات الخاصة بجماعات معينة فى داخل المجتمع وهكذا ، ففى كل مجتمع توجد « صيغ كلية » مختلفة ومتميزة لكل من جماعات الرجال والنساء والمراهقين والكبار وما إلى ذلك ، وفى المجتمع الطبقى توجد اختلافات مشابهة فى الاستجابات المميزة لأعضاء المستويات الاجتماعية المختلفة مثل النبلاء والعامة والعبيد ،

---

(١) Configuration.

(٢) Basic personality type.

ويطلق العلامة لينتون على « الصيغ الكلية » الخاصة بالاستجابات المرتبطة بالمراكز الاجتماعية اصطلاح « شخصيات المركز »[١] ، ويؤكد لينتون على أهمية شخصيات المركز في نجاح تفاعل أعضاء المجتمع الواحد على أساس المركز وحده، فعندما يقابل أحد الأفراد فرداً آخر غريباً تماماً عنه، فإن أى تعرف بسيط على الأوضاع الاجتماعية للفردين يجعل فى الإمكان أن يتنبأ كل منهما بنوع الاستجابات التى تصدر عن الآخر فى المواقف المختلفة . ويجب ملاحظة أن شخصيات المركز لا تتعارض مع الشكل الرئيسى للشخصية وإنما تتكامل معه. ولكنها تختلف عن الشكل الأخير من ناحية أنها تتضمن الكثير من الاستجابات الظاهرية المتخصصة، فى حين يتضمن الشكل الرئيسى للشخصية الاتجاهات والقيم العامة[٢].

ويفرق « لينتون » بين معرفة نظام قيمة — اتجاه معين والمشاركة فى هذا النظام ، فمن النادر أن تشمل شخصية المركز أى نظام قيمة — اتجاه يكون غير معروف لأعضاء المراكز الأخرى فى المجتمع الواحد ، هذا بالرغم من إمكانية وجود عداء قوى بين جماعات تلك المراكز ، ولكن كثيراً ما تشتمل شخصيات المركز على نظم قيمة — اتجاه لا يشاركها فيها أعضاء جماعات المراكز الأخرى ، فمثلاً ، قد يعرف الرجال الأحرار بقيم واتجاهات العبيد بل ويسمحون بوجودها ، ولكن بدون المشاركة الواقعية فيها ، أى بدون الاقتناع بتلك القيم ، ويجب ملاحظة أن الاستجابات الظاهرية المتخصصة ، وليست القيم والاتجاهات ، هى التى تعطى شخصيات المركز معظم دلالتها الاجتماعية ، فطالما أن الفرد ينمى تلك الاستجابات ، فهو يستطيع أن يؤدى أدوار المركز بنجاح ، سواء أكان الشخص يشارك أم لا يشارك فى القيم والاتجاهات . ويقدم المجتمع أنماط الاستجابة الظاهرية المتخصصة لشخصيات المركز فى صورة بسيطة ومحسوسة ، تجعل تعلمها أمراً سهلا ، ثم يقوم المجتمع من خلال عملية التنشئة الاجتماعية وعلى الخصوص من خلال الضغط الاجتماعى بدفع الأفراد المختصين بالأخذ بتلك الاستجابات بصورة ثابتة مستمرة ، فيكافأ الفرد على تعلم تلك الاستجابات ويعاقب من ينحرف عنها ، حقا من الممكن أن تظهر صراعات داخلية عند الفرد إذا قام بتعلم استجابات تخصصية تتعارض مع القيم والاتجاهات الخاصة به ، ولكن تأخذ الصراعات فى الضعف إلى أن تختفى تماماً عندما تصبح الاستجابة آلية لاشعورية. ينتهى لينتون من المناقشة السابقة إلى حقيقة هامة وهى أن لكل مجتمع شكلا رئيسياً للشخصية خاصاً به ، ولديه كذلك مجموعة محددة من شخصيات المركز[٣] .

— ولننتقل الآن إلى موضوعنا الأساسى هو كيف تؤثر الثقافة فى تكوين تلك الصيغ الكلية للشخصية ؟

---

(١) Status personalities.

(٢) Linton, R., The Cultural Background of Personality, Appleton Century-Crofts, INC. N.Y. 1945, pp. 128-130.

(٣) Ibid. pp. 129 & 130.

يهتم الأنثروبولوجيون النفسيون بتحديد سمات الشكل الرئيسى للشخصية وكذلك سمات شخصيات المركز فى المجتمع قيد الدراسة . وهنا يتضح اختلاف ميدان التخصص بين الأنثروبولوجيا النفسية وعلم نفس الشخصية ، وإن كان التعاون بينهما أمراً ضرورياً ، إذ لا يمكن أن نصل إلى تحديد تلك الصيغ الكلية للشخصية بدون معاونة الأطباء والمحللين النفسيين الذين يطبقون الاختبارات الإسقاطية على عدد مناسب من الأفراد ، وبالتالى يمكن أستخراج المتوسطات التى تحدد الشكل الرئيسى للشخصية وشخصيات المركز . ويقوم المتخصصون فى الأنثروبولوجيا النفسية بهذا العمل ، سواء كانوا من علماء النفس أم من الأنثروبولوجيين . ويلى ذلك تحديد أثر الثقافة فى تلك الصيغ الكلية للشخصية ، وهو الجانب الأول من موضوع الأنثروبولوجيا النفسية ، أن الأنثروبولوجين الأمريكيين وعلى رأسهم العلامة « بواز » كانوا من أول من اكتشف قصور العوامل الفسيولوجية والوراثية فى تفسير الأشكال العامة للشخصية فى المجتمعات المختلفة ، ولكنهم فى غمرة حماسهم فى التصدى للمذاهب العنصرية غفلوا عن تقديم بديل للعناصر السلالية التى ثبت قصورها ، والثقافة هى هذا البديل ، وهنا يجب ملاحظة أن قصور العوامل الفسيولوجية والوراثية فى تفسير الأشكال العامة للشخصية فى المجتمعات ، لا يعنى عدم تأثيرها فى تكوين الشخصية الفردية ، ويشرح هذا التأثير فى الفصل الرابع عند دراسة محددات الشخصية .

ترتب على ازدهار الدراسات الأثنوجرافية والأثنولوجية فى نهاية القرن التاسع عشر وفى القرن العشرين أن حصل الأنثروبولوجيون على مادة وفيرة تسمح بإجراء الدراسات المقارنة بين الثقافات المختلفة ، وملاحظة الفروق الشاسعة بين الأشكال الرئيسية للشخصية فى تلك الثقافات ، مما أدى إلى تأكيد قصور العوامل البيولوجية والوراثية فى شرح تلك الاختلافات ، واتجه البحث إلى تحديد أثر العوامل البيئية ، ويقصد بها هنا الناس والأشياء . تتعدد وتتنوع أشكال سلوك الأفراد فى أى مجتمع وكذلك أشكال معظم الأشياء التى يستخدمونها ، وتدخل تلك الأشكال فى إطار الأنماط الثقافية ، وذلك على حسب التعريف الكلى لمفهوم الثقافة ، وهو التعريف المذكور سابقاً والذى يأخذ به الأنثروبولوجيون . فمن خلال نمو الفرد فى مجتمعه تنمو وتتشكل شخصيته من خلال الخبرات التى يستقيها من اتصاله بالأنماط الثقافية المختلفة ، ولا يختلف أحد على أنه بدون هذا الاتصال لا يكون للفرد شخصية ، فالشخصية تنمو وتتشكل من خلال عملية التنشئة الاجتماعية أو عملية التثقف ، وتمثل تلك العمليات التربوية تأثيرات الثقافة على الشخصية ، ويقسم «لينتون» هذه التأثيرات إلى مجموعتين مختلفتين ، فأولا : تأثيرات ترجع للسلوك المنمط ثقافياً والذى يعلمه الآخرون للطفل ، وتبدأ تلك التأثيرات فى العمل منذ اللحظة الأولى للولادة ، وتكون ذات أهمية كبرى أثناء مرحلة الطفولة ، وثانيا : تأثيرات ترجع لاكتساب الفرد وتعلمه بنفسه لأنماط السلوك المميزة لمجتمعه ، ولا تؤثر تلك الأنماط فى الفرد مباشرة ، وإنما تمده بنماذج يحتذيها فى تكوين الاستجابات المعتادة للمواقف المختلفة ، إن هذه التأثيرات الأخيرة لا تكون ذات أهمية فى مرحلة الطفولة المبكرة[1] .

---

(١) Ibid., pp. 139 & 140.

وبرغم الاختلاف الواضح بين النوعين السابقين للتأثيرات الثقافية فى الشخصية ، فإنهما يتداخلان فى نقطة معينة . وهى أن السلوك المنمط ثقافياً والموجه نحو الطفل ، أى النوع الأول ، يمكن أن يستخدم كذلك كنموذج يحتذيه الطفل ، وبالتالى يلتقى النوع الأول مع النوع الثانى من التأثيرات الثقافية ، ويتم هذا اللقاء عندما يكبر الطفل ويصبح قادراً على ملاحظة وتذكر ما يفعله الآخرون ؛ وعندما يبلغ ويكبر ، ويصبح عائلا لأسرة ويواجه بالكثير من المشكلات المتعلقة بتربية أطفاله ، فإنه يعود للاستفادة من ذكريات طفولته ، فمثلا فى المجتمع الأمريكى ، يميل بعض الآباء إلى إرسال أبنائهم إلى « مدرسة الأحد » لأنهم هم أنفسهم قد أرسلوا إلى تلك المدارس . مع أنهم أنفسهم بعد الكبر قد يفضلون لعب الجولف عن الذهاب للكنيسة ، وفى المجتمع المصرى كثيراً ما يقرع الآباء أبناءهم بأنهم ضعاف البنية نسبياً ولا يمكن الاعتماد عليهم ، ويقصون عليهم الكثير من ذكريات طفولتهم ويحثونهم على تقليدهم .

تتميز أنماط التربية المبكرة ، وما يصاحبها من تدريبات وتنظيمات يخضع لها الأطفال ، بتأثيرها على المستويات العميقة لشخصيات هؤلاء الأطفال ، ويتفق الرأى بين علماء النفس والأنثروبولوجيين وعلماء التربية على أن السنوات الأولى فى حياة الفرد هى مرحلة حاسمة فى تكوين القيم والاتجاهات العامة جداً[١] ، وتمثل تلك الأمور المستويات العميقة من مضمون الشخصية . واتفاق الرأى على أهمية مرحلة الطفولة المبكرة فى تكوين الشخصية يرجع للدراسات والأبحاث التى أجريت فى المجتمعات الغربية وغير الغربية والتى شملت معظم ثقافات العالم . وتبين بعض تلك الدراسات التى تركزت حول دراسة الأشخاص غير الأسوياء والشواذ أن بعض سمات شخصياتهم ترجع إلى تعرضهم لخبرات غير عادية فى مرحلة الطفولة ، وتقرر الدراسات المقارنة للثقافات المختلفة أن الكثير من الصفات السوية لشخصيات الأوربيين ، والتى قبلت فى أول الأمر على أنها ترجع لعوامل غريزية ، قد ثبت أنها ترجع لأنماط ثقافية خاصة بتربية الأطفال[٢] .

وبرغم حداثة الأنثروبولوجيا النفسية فإنه يوجد عدد كاف من الأبحاث يسمح باكتشاف بعض الترابطات بين الأنماط المختلفة فى تربية الأطفال والأشكال الرئيسية لشخصيات الكبار . فمثلا لوحظ أنه فى المجتمعات التى يسود فيها نمط ثقافى يحتم الطاعة المطلقة من الطفل لوالديه كشرط مسبق للحصول على مكافأة ما ، تتسم شخصيات البالغين الأسوياء بالخضوع والتبعية وعدم الخلق ، هذا بالرغم أن هؤلاء الأفراد يكونون قد نسوا تماماً خبرات الطفولة التى أدت إلى تكوين تلك الاتجاهات العامة ، وفى

---

(١) يعرف العلامة لينتون القيمة بأنها أى عنصر مشترك فى عدد من المواقف ، بشرط أن يثير هذا العنصر المشترك استجابة داخلية عند الفرد ، أما الاتجاه فهو استجابة داخلية تثار عن طريق القيمة ، وتتميز تلك الاستجابات بأنها فى معظمها ذات مضمون عاطفى .

(٢) Ibid pp. 140, 141.

تلك المجتمعات ذات السلطة المطلقة للآباء ، يكون رد فعل الشخص البالغ فى أى موقف جديد هو البحث عن شخص له سلطان أو نفوذ ليطلب منه الدعم والتوجيه . ومن الأمور الجديرة بالملاحظة حول هذا الموضوع أن فى بعض تلك المجتمعات ذات السلطة المطلقة للوالدين ، يوجد برامج لتدريب عدد قليل من الأفراد على القيادة ، وذلك لعدم إمكانية ظهور قادة من خلال الأنماط الثقافية العامة ، ففى قبيلة تانالا بمدغشقر ، يعامل أكبر الأبناء سنًّا معاملة خاصة منذ المولد . وتهدف تلك المعاملة الخاصة إلى تنمية الإرادة والمبادأة وتحمل المسئولية ، فى حين يخضع باقى الأطفال للأنماط الثقافية العامة القائمة على الصرامة والكبت (١) .

وفيما يتعلق بالترابط بين الأنماط الثقافية وسمات الشخصية عند الكبار ، تشير الأبحاث التى أجريت على الأسر الصغيرة جدًّا فى المجتمعات الغربية إلى أن الأشخاص الأسوياء فى تلك المجتمعات يميلون إلى تركيز عواطفهم وتوقعاتهم للمكافأة أو العقاب على عدد قليل من الأفراد ، ويرجع هذا التركيز بصورة لاشعورية لمواقف معينة فى مرحلة الطفولة ، وهى المواقف التى يستقى منها الأطفال كل الإشباعات والإحباطات من والديهم فقط . أما فى المجتمعات غير الغربية ذات الأسر الممتدة فإن الطفل يتصل بعدد كبير من البالغين وبالتالى لا يركز عواطفه واتصالاته عند الكبر بعدد قليل من الأفراد ، وتتضمن كل علاقاتهم الشخصية اتجاهاً لا شعوريًّا يتمثل فى عبارة «حسنا هناك آخرون للتعامل معهم » ، ولذلك لا تنتشر فى تلك المجتمعات غير الغربية مفاهيم الحب الرومانتيكى التى تركز عاطفة الحب على فرد معين بالذات وبدون الاقتران به تصبح الحياة بدون معنى . ولكن توجد هذه المفاهيم فى الثقافة الغربية .

يتضح لنا من المثالين السابقين أن ثقافة أى مجتمع تحدد المستويات العميقة لشخصيات أعضائها عن طريق الأنماط الثقافية الخاصة بتربية الأطفال ، ولا ينتهى أثر الثقافة فى الشخصية عند ذلك الحد ، وإنما يستمر هذا فى تشكيل الكثير من العناصر الباقية فى شخصيات أفراد المجتمع ، وذلك عن طريق تزويدهم بنماذج يقلدونها فى استجاباتهم التخصصية أيضًا ، وتستمر تلك العملية طوال حياة الفرد ولا تقتصر على مرحلة الطفولة ، ويختلف هذا التأثير الثقافى فى الشخصية عن التأثير السابق فى عدة جوانب ، فبينما يستمر تزويد الفرد بالنماذج طوال فترة الحياة ، فإن تطبيق أنماط تربية الأطفال خاص بمرحلة الطفولة فقط ، وبينما تختص أنماط تربية الأطفال بتكوين المستويات العميقة للشخصية والتى تتمثل فى القيم والاتجاهات العامة جدًّا ، يختص تزويد الفرد بالنماذج بالمستويات السطحية للشخصية والتى تتمثل فى الاستجابات الظاهرية التخصصية ، وهذا يؤيد القول المأثور « التعلم فى الصغر كالنقش على الحجر » ، ولا تمد الثقافة الأفراد بنماذج للأدوار المتغيرة فى المجتمع فقط وإنما تؤكد لهم كذلك أن تلك الأدوار الجديدة ستكون بصورة عامة ملائمة مع قيمهم واتجاهاتهم العامة المتمركزة فى أعماق شخصياتهم ، ولكن يجب

---

(١) Ibid. p.142.

ملاحظة أنه كلما كبر سن الفرد وأصبح شيخا قل هذا النوع من التأثير الثقافى لشخصيته ، وأصبح لا يميل لتعلم الجديد ، وفى الغالب يحدث اختلاف بين شخصية الجيل القديم وأبنائهم من الجيل الجديد ، ويعكس هذا الاختلاف اختلافاً فى ثقافة الجيلين .

ويميل «لينتون» إلى تأكيد صفة التكامل بين الثقافة والشخصية السوية ، ولذلك يرى أن جميع الأنماط الخاصة بثقافة ما تميل إلى نوع من الانسجام أو التوافق مع القيم والاتجاهات العامة التى تمثل المستويات العميقة فى شخصيات الأفراد الأسوياء . ولذلك لا يطلب من الشخص السوى فى مجتمع ما القيام بأى عمل غير متلائم مع المستويات العميقة للشخصية ، وفى حالة استعارة مجتمع ما لبعض الأنماط السلوكية من مجتمع آخر ، فإنه عادة تجرى تعديلات فى هذه الأنماط لكى تصبح منسجمة مع الشكل الرئيسى للشخصية فى المجتمع الجديد . حقًّا قد تجبر الثقافة بعض الأفراد بالالتزام بأشكال سلوكية يكرهونها ، ولكن عندما يصبح هذا السلوك مكروهًا عند معظم أعضاء المجتمع ، فإن الثقافة تتخلى عنه فوراً ، فمثلا عندما أصبحت عقوبة الإعدام مكروهة عند معظم أفراد بعض المجتمعات ، ألغتها تلك المجتمعات واستبدلتها بعقوبة السجن المؤبد .

أما بالنسبة لأنماط السلوك الجديدة التى تنسجم مع القيم والاتجاهات العامة للفرد ، أى مع المستوى العميق للشخصية ، فإن الفرد لا يجد صعوبة فى اكتساب تلك الأنماط السلوكية الجديدة ، وكلما اعتاد على تكرارها ، فإن هذا التكرار يساعد على تقوية وتثبيت قيم الفرد واتجاهاته العامة ، ولذلك فالفرد الذى يقضى حياته فى مجتمع ذى ثقافة مستقرة نسبيًّا ، يشعر بأن شخصيته أصبحت أكثر تكاملا مع مرور الوقت ، وكلما كبر فى السن فإن شكوكه وتساؤلاته ، التى تصاحب مرحلة المراهقة والتى تتعلق بقيم واتجاهات الثقافة ، تختفى عن طريق التزامه وأدائه المتكرر للسلوك الظاهرى المنسجم مع تلك القيم والاتجاهات ، وهكذا يترتب على الأداء المتكرر للأنماط السلوكية القديمة والجديدة المنسجمة مع روح الثقافة تقوية وتدعيم قيم الفرد واتجاهاته العامة ، وبالتالى لا يشعر بأى جبر أو إكراه فى أداء تلك الأنماط . ولا شك أن حالة هذا الشخص تكون أسعد كثيراً من حالة الشخص الذى يجد نفسه مجبراً على الالتزام بأنماط السلوك الظاهرى ، التى ليست منسجمة مع قيمه واتجاهاته العامة أى مع المستوى العميق من شخصيته الذى يتكون عن طريق خبراته المبكرة ، ومن أمثلة هذه الشخصيات « الأفراد الهامشيون »[1] ، وهم الأفراد الذين يحاولون التكيف بعد الكبر مع ثقافة جديدة وغريبة عنهم ، ويتضح ذلك فى حالات الهجرة الخارجية عند البالغين ، وعند أفراد المجتمعات المتقدمة التى تتصف بالتغير الثقافى السريع ؛ يعانى هؤلاء الأفراد من التناقض بين ما يؤمنون به من قيم واتجاهات عامة وما يطلب منهم القيام به من أعمال ؛ ولاشك أن تكرار القيام بتلك الأشكال من السلوك الظاهرى سيضعف فى المدى البعيد تلك القيم والاتجاهات العامة ، ويبدو أنه من النادر أن تختفى تلك القيم التى تأسست فى الشخصية فى مرحلة الطفولة ، ومن

---

(١) Marginal personalities.

النادر كذلك أن تستبدل القيم والاتجاهات الأصلية بقيم جديدة عند الفرد . حقاً ، إن الشخص البالغ الذى يعيش فى ثقافة جديدة يستطيع أن يعمل ، أو حتى أن يفكر وفق الثقافة الجديدة ، ولكنه لا يستطيع أن يجعل مشاعره منسجمة معها . وفى كل موقف يطالب منه اتخاذ قرار . يجد نفسه موزعاً بين قيم واتجاهات متعارضة(١) .

وخلاصة القول أن الثقافة هى المسئولة عن الشكل الرئيسى للشخصية فى أى مجتمع ، وباختلاف الثقافات تختلف أشكال الشخصية ، ويقصد بشكل الشخصية مجموعة السمات الأكثر تكراراً بين أفراد المجتمع الواحد . وقد ميز « لينتون » بين شكلين : الشكل الرئيسى للشخصية وهو يميز معظم شخصيات أفراد المجتمع ويتمثل هذا الشكل الرئيسى فى مجموعة من القيم والاتجاهات العامة التى تتمركز فى المستويات العميقة من شخصية الفرد ، وتؤسس تلك القيم والاتجاهات فى الشخصية أثناء مرحلة الطفولة عن طريق اتصالات الطفل المستمرة والقوية بأعضاء أسرته ، وإلى جانب الشكل الرئيسى للشخصيه يوجد فى المجتمع الواحد عدة أشكال أخرى للشخصية وهى شخصيات المركز . وذلك لأن الأفراد الذين يشغلون مركزاً اجتماعياً واحداً فى المجتمع ، يقومون بأداء عدة أدوار متشابهة ، ويطبع هذا الأداء شخصياتهم بسمات مشتركة ، فمثلا فى أى مجتمع يوجد اختلاف بين شخصيات النساء وشخصيات الرجال ، وبين شخصيات الأطفال والبالغين والشيوخ ، وفى المجتمعات المتقدمة نلاحظ تشابهاً بين شخصيات الأطباء ، ويختلف الأطباء عن شخصيات الموظفين الكتابيين ، وما إلى ذلك من المهن المختلفة .

إن الشرح السابق لأثر الثقافة فى تكوين أشكال عامة للشخصية فى المجتمع الواحد لا يعنى مطلقا القول بأن أفراد المجتمع الواحد يتشابه شخصياتهم ، لأنه يوجد فرق كبير جداً بين شكل الشخصية والشخصية الفردية أو الشخصية ، يقصد بشكل الشخصية مجموعة تجريدية من السمات المشتركة بين عدة شخصيات فردية ، أما الشخصية فيقصد بها شخصية فرد معين بالذات . ويتفق الأنثروبولوجيون مع علماء النفس على أنه لا يوجد فردان فى العالم متشابهان تماما فى الشخصية ، وينطبق هذا التعميم على التوائم كذلك ، وعلى المجتمعات الصغيرة التى تطبق نظام الزواج من الداخل ، وذلك لأن الأفراد يختلفون فى إمكانياتهم الوراثية للنمو ، كما يختلفون فى العوامل البيئية التى يعيشون فيها ، وتتأثر بها تلك الإمكانيات الوراثية ، فمنذ الولادة كذلك يختلف الأفراد فى الحجم والقوة ثم فى الذكاء وفى القدرة على التعلم ؛ وبما أن عملية تكوين الشخصية هى فى الأصل عملية تكامل للخبرة ، وتستمد تلك الخبرة من تفاعل الفرد مع بيئته الثقافية ، فإن الأفراد سيكتسبون خبرات مختلفة حتى فى البيئات المتشابهة ، وبالتالى تنمو شخصيات بالغة مختلفة . إن الثقافة تعبر عن ذاتها للفرد فى إطار سلوك الناس الآخرين وفى اتصاله بالأشياء التى عادة يصنعها ويستخدمها أفراد مجتمعه ، ولا شك أن اختلاف وتعدد أشكال سلوك الأفراد وأشكال الأشياء من الأمور الواضحة فى المجتمعات المتمدينة المعقدة ، وحتى بالنسبة للمجتمعات البسيطة

---

(١) Ibid. pp. 143-146.

التى تتميز بالتجانس وصرامة الأنماط الثقافية وبساطة الأشياء التى يستخدمها الفرد فإنه توجد اختلافات فى العلاقات الاجتماعية الفردية ، وتسمح الأنماط الثقافية الصارمة جداً بقدر من التنوع فى السلوك الفردى ، هذا بالإضافة إلى أن أنماط العلاقات الأسرية لا يمكن أن تكون صارمة جداً من الناحية العملية . فإن التفاعلات الشخصية المتكررة بين الطفل ووالديه تؤدى إلى نمو أنماط متنوعة للسلوك ، ويتحدد مدى هذا التنوع عن طريق الخوف مما قد يقوله الآخرون وعن طريق الأنماط الثقافية التى تسمح بمثل هذا التنوع . وفى إطار الحدود المفروضة عن طريق الثقافة ، فإنه من الممكن للآباء فى كل مجتمع أن يكونوا عاطفيين أو لا مبالين أو صارمين أو متسامحين أو منابع عداء . إن الاختلافات الفردية والاختلافات البيئية تتفاعل فى مجموعة لانهائية تقريباً من الترابطات والتغيرات ، وإن الخبرة التى يمكن للأفراد أن يستمدوها من تلك الترابطات تكون كذلك مختلفة لدرجة كبيرة وبالتالى تنمو كل شخصية فردية كحالة منفردة لا تطابقها شخصية أخرى .

يتفق الأنثروبولوجيون النفسيون على حدوث تغيرات فى الشخصية العامة للمجتمع عبر الزمان ، وتختلف معدلات تلك التغيرات ، ويرجع ذلك لتأثير عوامل متنوعة ومتشابكة ، ومن أهم عوامل تغير الشخصية العامة للمجتمع التغير الثقافى ، ويتجه الرأى إلى التعميم بأن تغير شخصية المجتمع يسير بمعدل أبطأ من معدل التغير الثقافى ، وتتضح تغيرات شخصية المجتمع عبر الأجيال ، فإن اختلاف سمات شخصيات الآباء عن شخصيات الأبناء من الظواهر النفسية التى تبرز بوضوح فى المجتمعات المتمدينة التى تتميز بوضوح عملية التغير الثقافى ، وترى العلامة « ميد » أن كل عضو فى كل جيل ، من الطفولة حتى الشيخوخة ، يساهم فى إعادة شرح الأشكال الثقافية ، وبالتالى يساهم أعضاء المجتمع فى عملية التغير الثقافى . ولكن يجب ملاحظة أن التغيرات الثقافية التى تصطدم مع الشخصية العامة للمجتمع يكون مآلها الفشل فى الغالب(١) ، وهكذا فإن التأثير متبادل بين الثقافة والشخصية لحدوث تغير فى أحدهما أو بعضهما معاً .

ويرى الكثيرون من المتخصصين فى الثقافة والشخصية أن تأثير التغيرات البيئية والاقتصادية فى مجتمع ما فى شخصية هذا المجتمع ، لا يتم إلا عن طريق إحداث تغيير فى أساليب تربية الطفل . وهكذا فإن التغيرات بين شخصيات الأجيال قد تتحقق عن طريق التغيرات الثقافية التى تؤثر أولا فى الخبرات الخاصة بمرحلة الطفولة ، فمثلا ، يرى العلامة « ريسمان » وجود علاقة عامة بين الوضع الديموجرافى والنظام الاقتصادى وبناء الأسرة وبناء الشخصية ، فالشخصية ينظر إليها على أنها متغير تابع ، فى حين ينظر للتغير الاقتصادى على أنه متغير مستقل ، وأساليب التنشئة الاجتماعية على أنها متغير وسيط ، ولكنها تمثل متغيراً تابعاً للتغير الاقتصادى فى الوقت نفسه (٢) .

---

(١) Mead, M. Metraux, R. (eds), The study of Culture at a Distance, Chicago 1953, p. 647.

(٢) Riesman, D. and Others, The Lonely Crowd : A study of The Changing American Character, Yale Uni. Press, New Haven 1950.

وكان هناك رأى سائد إلى عهد قريب يقرر بأن التغيرات الثقافية التى تزيد حالة اللاتجانس فى مجتمع ما ، مثل امتزاج الثقافات والتحضر ، تمثل تهديداً خطيراً لشخصية ذلك المجتمع ولتكامله الاجتماعى ، ويستند هذا الرأى على افتراض أن الثقافات غير المتجانسة أى المنقسمة إلى أجزاء غير منسجمة ، لابد وأن تؤدى إلى شخصيات من خصائصها الصراع ، ويعتمد هذا الرأى على نظرية الدوافع التى تقرر أن التكامل والانسجام هو وظيفة للتجانس ، ولكن تعارض الدراسات الميدانية الحديثة لعمليات التغير الثقافى هذا الرأى فقد بينت أن التغير الثقافى العادى هو حالة عادية وطبيعية للثقافات ولا يعد بالضرورة خطراً وضرراً ، وخاصة أن معظم الثقافات المعاصرة هى ثقافات غير متجانسة ، وفى حالة تغير ثابت وسريع نسبياً ، وبالتالى اختفت معانى الصراع النفسى والتفكك الاجتماعى والثقافى التى كانت مصاحبة لمفهوم اللاتجانس والتغير الثقافى . ومن الواضح أن الدراسات الميدانية لا تنكر وجود حالات من التفكك الاجتماعى والصراع النفسى فى كثير من المجتمعات التى تتصف باللاتجانس والتغير الثقافى ، وإنما تنكر إرجاع تلك الحالات لخواص اللاتجانس والتغير الثقافى ، حقاً أن اللاتجانس والتغير الثقافى السريع يؤديان إلى إيجاد تنوع عريض لأشكال الشخصية فى المجتمع قيد البحث ، ويتمثل ذلك فى كثرة شخصيات المركز ، ولا يوجد مثل هذا التنوع فى الثقافات المتجانسة ذات التغير الثقافى البطىء ، ولا يعنى تنوع أشكال الشخصية فى المجتمعات غير المتجانسة ذات التغير الثقافى السريع كثرة الشخصيات غير السوية ، لأن كل شكل من أشكال الشخصية يمكن أن يكون مستقراً وثابتاً فى إطار الثقافة الفرعية التى ينتمى إليها ، تماماً مثل الحال بالنسبة لشكل الشخصية الذى يوجد فى ثقافة متجانسة ثابتة . إن مشكلة المجتمعات المعقدة ذات التغير الثقافى السريع لا تتمثل فى أن كل أعضائه يعانون من أمراض نفسية وذهانية ، وإنما هى مشكلة متعلقة بأن التنظيم الاجتماعى والثقافى يتطلب المزيد من قدرات وتخصصات أعضائه ، وفى تلك الظروف قد يتعرض بعض الأفراد بصورة ثانوية لحالات الإحباط وحرمان المركز وفقدان الوظيفة ، وبالتالى يعانون من بعض الأمراض العصابية والذهانية . ولكن يجب إرجاع تلك الحالات المرضية لأسبابها الحقيقية ، وهى فشل بعض النظم الاجتماعية فى إشباع حاجات أعضاء المجتمع ، فمثلا ، لا يمكن القول إن الجماعات الفرعية الفقيرة فى المجتمعات المعاصرة ، مثل الأقليات الدينية والثقافية والطبقات الاقتصادية السفلى والمواطنون الذين يعانون من استعمار أوطانهم ، يعانون من كثرة حالات المرض والضيق بسبب وجود حالة اللاتجانس أو التغير الثقافى أو هما معاً فى تلك المجتمعات ، أن الأسباب الحقيقية تتمثل فى الظروف الاقتصادية والاجتماعية البيئية التى تفرض على تلك الجماعات من البشر، ومن أمثلة تلك الظروف سوء التغذية والأمراض الوبائية والاحتقار والإيذاء الجسمى وصدمة فقدان الثقافة والصدمة الثقافية [١] .

ومن أهم الموضوعات المتعلقة بأثر الثقافة فى الشخصية دراسة الآثار النفسية لصدمة فقدان الثقافة [٢] ، ويقصد بفقدان الثقافة الظروف الاستثنائية القاسية التى يتعرض لها المجتمع والتى يترتب عليها انهيار ثقافة

(١) Wallace, A., Culture and Personality, Random House, N.Y. 1961 pp. 118 & 119.

(٢) The Cultural Chock.

لمجتمع أو انهيار بعض أنماطها ، ومن أمثلة تلك الظروف القاسية الكوارث الطبيعية مثل الزلازل والأعاصير والأوبئة وكذلك الحروب المدمرة وحالات انهيار المدنيات الكبرى مثل المدنية الإغريقية والمدنية الرومانية ومدنية أسبانيا الاستعمارية وحالات انقراض الكثير من الثقافات البدائية ، يواجه أعضاء المجتمع فى أثناء تلك الكوارث بما يعرف بصدمة الفقدان الثقافى ، إذ يفاجأ الفرد بأن ثقافته قد اختفت ، وأنه مضطر إلى التخلى عنها فجأة أو إلى التخلى عن بعض عناصرها من نظم أو عادات أو قيم . وفى أحيان أخرى يتم التخلى عن الثقافة[1] أو عن بعض عناصرها تهرباً من الأذى أو الضرر الذى يلحق بالأفراد فى حالة عدم التخلى .

ولنتناول الآن فى إيجاز دراسة الثمن العاطفى لعملية الدمار الثقافى[2] ، وتبين الدراسات أن هذا الثمن يرتفع كثيراً فى حالة عدم وجود بديل معد فى الحال ليحل محل النمط الثقافى المفقود ، ويتضح ذلك فى حالة الكوارث الطبيعية والحروب مثل الزلازل والأعاصير المدمرة والغارات العنيفة ، يصاحب تلك الكوارث خسائر فى الأرواح والممتلكات ، ويتعرض الأفراد الناجون ، سواء كانوا من المصابين أو غير المصابين ، لحالة نفسية تسمى « أعراض الكارثة »[3] وتتمثل فى تتابع سلوكى له خصائص معينة ، وقد تستمر تلك الغيبوبة لدقائق معدودة أو لساعات أو أيام ، ويعتمد ذلك على طبيعة الكارثة من ناحية وعلى خصائص شخصيات الأفراد ، وفى المرحلة الأولى لتلك الغيبوبة يوصف الفرد على أنه فى حالة ذهول أو دوار وأنه « سلبى » و « لا هدف له » « وبليد الإحساس » ، وكذلك يكون الفرد فى حالة لا يشعر فيها بالألم ولا يشعر بإصابته أو بمدى إصابة الآخرين ، ويميل الفرد أيضاً إلى تجاهل مدى التدمير الظاهرى . وفى أثناء تلك المرحلة قد يقوم بعض الأفراد بأعمال تلقائية تافهة ، مثل كنس عتبة الباب فى المنازل ذات الطابق الواحد أو الطابقين ؛ أو ترك أقاربهم المصابين والثرثرة مع الجيران . أما فى المرحلة الثانية فتختفى حالة الذهول ويصبح الفرد متحمساً لتقديم العون ، ويكرر التأكيدات على أن الأشخاص المشهورين والأبنية الهامة قد نجت من التدمير وأن المجتمع المحلى لا يزال سليماً . وفى تلك المرحلة يكون الأفراد فى حالة يسهل فيها قيادتهم وتنظيمهم فى فرق عمل ، ولكنهم لا يصلحون لأن يكونوا قادة ناجحين . وفى المرحلة الثالثة ، يسود الفرد مشاعر غيرية ، ولذلك يشترك بحماس فى النشاط الجماعى الذى يهدف لإعادة تنظيم وتأهيل المجتمع المحلى . ويتسم الفرد فى تلك المرحلة بارتفاع الروح المعنوية وانعدام الأنانية . وفى المرحلة الأخيرة ، يقل الحماس تدريجياً ويتعرف الفرد على الخسائر الحقيقية وعلى هول المصيبة ، هنا ترتفع الشكاوى ضد المؤسسات العامة وتظهر المشاحنات[4] .

ويتصل بموضوعات الكوارث الطبيعية والكوارث الثقافية وما تحدثه من آثار فى نفسية الأفراد ، دراسة حالة « مأزق التجمد »[5] التى تصيب الكثير من الأفراد فى حالة صدمة الفقدان الثقافى . ويقصد

---

(١) The Cultural loss.

(٢) Cultural abondement.

(٣) Disaster sundrome.

(٤) Wallace, A., Culture and Personality, pp. 157-160.

(٥) Dilemma of immobility.

بتلك الحالة تشبث الأفراد بنسق اجتماعى و ثقافى غير منظم ومضطرب : وبالرغم من عدم صلاحية هذا النسق فإنهم يتمسكون به كبديل عن القلق الذى يصاحب عملية الفقدان الثقافى ، فبدلا من التخلى عن ذلك النسق الثقافى لعدم صلاحيته وما يصاحب ذلك من الشعور بالقلق ، فإنهم يتمسكون به ، ويتجمد وضعهم على هذه الصورة . وتظهر حالة «مأزق التجمد» بوضوح فى مواقف الامتزاج الثقافى ، حيث توجد جماعة قوية مسيطرة تحاول الضغط على أقلية ثقافية بغرض إجبارها على التخلى عن نسق ثقافى معين ، فإن استجابة الأقلية الثقافية لهذا الموقف يتمثل فى تمسكهم بهذا النسق الثقافى برغم عدم صلاحيته ، وبرغم تعرضهم للإيذاء ،و يتجميد وضعهم على هذا النحو . إن الآثار النفسية المصاحبة لمأزق التجمد تتلخص فى إصابة الأفراد بحالات من القلق الشديد والقيام بدفاعات شبه مرضية ، ويشعر هؤلاء الأفراد بالخجل من نسقهم الثقافى غير المنظم وبعدم الثقة فيه ، هذا بالإضافة إلى شعورهم بالخوف من إمكانية عدم وجود بديل مناسب فى حالة تخليهم عن هذا النسق الثقافى ، ويترتب على تكرار تلك الحالات النفسية تدمير شخصية الأفراد الذين يمرون فى تلك التجارب القاسية . وتزخر مؤلفات الثقافة والشخصية بالدراسات الميدانية المؤيدة للشرح السابق ، فمثلا ، دراسة العلامة «هالويل »[١] لشخصيات جماعات أوجيبوا . واستخدم فى تلك الدراسة اختبار رورشاخ لقياس الشخصية ، وتبين له أن الأفراد الذين يتعرضون لعملية الامتزاج الثقافى يعانون من صراعات نفسية ومن شخصية شبه مرضية ، فى حين لا توجد تلك الشخصية عند الجماعات التى لم تخضع لعملية الامتزاج الثقافى ، وتعانى شخصيات الجماعة الخاضعة للامتزاج الثقافى لمشاعر المركز الاجتماعى المنخفض (شعور مركب النقص) ومشاعر مأزق التجمد ، والقلق لعدم وجود بديل يمكن قبوله ، والقلق لوجود ثقافة لا يمكن الاعتماد عليها . وتوصل العالمان «كاردنير » و« أوفيس » لنتائج مشابهة عند دراستهما للزنوج فى أمريكا ، إذ تبين أن موضوعات مثل الانتماء الثقافى والانتماء السلالى تتمتع باهتمام كبير عند هؤلاء الزنوج[٢] .

وكذلك تبين الدراسات الخاصة بالثقافات الهامشية ، أن ما يسمى « بالرجل الهامشى » يعد نموذجا للشخصيات التى تعانى من حالة الفقدان الثقافى ، إذ يقع هؤلاء الأفراد فى مأزق التجمد ، فهم لا يستطيعون التضحية بالثقافة القديمة وكذلك لا يستطيعون فى الوقت نفسه الانتماء الكامل للثقافة الجديدة . يتضح لنا مما سبق كثرة الموضوعات المتعلقة بأثر الثقافة فى الشخصية .

ثانياً — أثر الشخصية فى الثقافة :

الثقافة مكتسبة ، والإنسان هو صانعها ، تشير الحقيقة العلمية السابقة إلى أهمية موضوع أثر الشخصية فى الثقافة ، وهو الجانب الثانى من موضوع الأنثروبولوجيا النفسية . ومن أهم الدراسات

---

(١) Hallowell, A., Culture and Expereince, Univ. of Pevnsylvanin Press, Phladelphia 1955.

(٢) Kardiner, A. and Ovesey, L., The Mark of Oppression, Norton, N.Y. 1951.

المرتبطة بموضوعنا هذا دراسة عملية التجديد والاختراع ، وهناك عدة نظريات تشرح عملية التجديد ، ندرس منها على سبيل المثال نظرية العلامة بارنت المعروفة باسم نظرية «إعادة الربط» ، يعرف العلامة «بارنت»[١] التجديد بأنه عملية عقلية يتم فيها إعادة تركيب لاثنين أو أكثر من الصيغ الكلية العقلية ، وفيها يقوم المجدد بثلاث عمليات عقلية ، وهي . أولا : أن يحلل بعض الصيغ الكلية العقلية ، وأن يحال كل صيغة منها بحيث يميز العناصر المكونة لها والعلاقات التي بين تلك العناصر ، وثانياً : يقوم المجدد بمقارنة ومضاهاة تلك العناصر بعضها ببعض ، بحيث يستطيع ملاحظة أوجه التشابه والاختلاف بين تلك العناصر ، وثالثاً : يعيد المجدد الربط بين عناصر تلك الصيغ الكلية ، وذلك عن طريق استبدال بعض العناصر بعناصر أخرى وإحداث تغييرات في العلاقات التي تربط تلك العناصر . ويمكن توضيح العمليات العقلية السابقة بمثال مبسط يتكون من العبارات اللفظية التالية :

المرحلة الأولى — عملية التحليل[٢] :

النموذج الأصلي : « الغواصات ذات شكل غواصة ، تتحرك ببطء بالنسبة لطولها » .

المنبه : « الأسماك ، ذات شكل سمكة ، تعوم بسرعة بالنسبة لطولها » .

المرحلة الثانية — عملية تطابق[٣] :

تطابق « سمكة » مع « غواصة »

تطابق « يعوم » مع « يتحرك »

تطابق « شكل سمكة » مع « شكل غواصة »

المرحلة الثالثة — عملية إعادة الربط[٤] :

استبدال « شكل غواصة » بـ « شكل سمكة »

استبدال « ببطء » بـ « بسرعة »

العبارة الجديدة :

الغواصات ، ذات شكل سمكة ، تتحرك بسرعة بالنسبة لطولها .

وجدير بالملاحظة أنه بالرغم من أن العبارة الجديدة هي صيغة كلية جديدة تماماً ، فإن العناصر والعلاقات المتضمنة فيها لا توصف بالجدة ، لأنها مأخوذة من العبارات السابقة . ولكن إذا طبقنا نظرية

---

(١) Barnett, H., Innovation, The Basis of Cultural Change, McGraw, Hill, N.Y. 1953.

(٢) Analysis.

(٣) Identification.

(٤) Recombination.

« بارنت » هذه على التغير الثقافى . نصل إلى نتيجة هامة وهى أن كل تغير يجب أن ينظر إليه على أنه إعادة ربط بين الصيغ الكلية الموجودة من قبل ، وبالتالى لابد من وجود «نقطة الابتداء» حتى يستطيع الفرد أن يعيد صياغتها للوصول إلى صيغة كلية جديدة . هذا بالإضافة إلى أن النظرية السابقة تتضمن الإقرار بوجود عدد محدد ، حتى لو كان كبيراً ، من الصيغ الكلية الممكنة . ويحدد هذا العدد حجم المجموعات الأصلية من العناصر والعلاقات وعدد محدد من الثقافات الممكنة . وهو أمر لا تقبله النظريات الأنثروبولوجية الحديثة ، ويضيف العلامة «والاس» إلى أوجه القصور السابقة ، عدم اهتمام تلك النظرية بتحديد الشروط التى على أساسها سوف يحدث تجديد معين ، وكذلك بالتنبؤ بالارتباطات التى سوف تحدث ، والتنبؤ بالأشخاص الذين سيقومون بها ، وبالموعد الذى يمكن أن تظهر فيه ، وبما تحتويه مثل تلك التنبؤات على موضوعات خاصة بالدوافع الشخصية والخبرات الخاصة والوسط الموقفى والثقافى ، ولذلك يرفض العلامة « والاس » الأخذ بتلك النظرية كأساس لدراسات التغير الثقافى[١] .

ولتفادى بعض أوجه النقص السابقة يقدم العلامة « والاس » نظرية « التنظيم الأقصى » . وهى تقوم على أساس المسلمة التى تؤكد أن الكائن فى أفعاله يسعى إلى تحقيق الحد الأقصى — فى إطار الشروط الموجودة وفى حدود قدراته — لكمية التنظيم فى النظام الدينامى الممثل فى الصورة الفعلية التى يطلق عليها اصطلاح « تصور الفرد لذاته وللعالم الخارجى »[٢] ، وهكذا يكون الكائن مزوداً بدافع فطرى يدفعه إلى زيادة كل من درجة التعقيد والتنظيم فى خبراته . ويرى «والاس» أن مبدأ الحد الأقصى هذا ، يسمح بإمكانية حدوث تجديدات من عناصر وعلاقات غير موجودة من قبل ، وذلك إذا توافرت الشروط اللازمة[٣] .

وإذا انتقلنا إلى موضوع الخواص النفسية الخاصة بالمجددين . وعلى وجه الخصوص الحوافز ، نجد أن كلا من نظرية « إعادة الربط » للعلامة « بارنت» ونظرية «الحد الأقصى» للعلامة «والاس» تفترض أن المجددين يجددون فى إطار الحدود التى تفرضها ثقافاتهم والموقف المحلى والقدرات الفردية ، هذا بالإضافة إلى عامل قبول المجتمع أو عدم قبوله للتجديد ، وعامل العملية المعرفية التى يصاغ فيها التجديد . ولا تمنع العوامل السابقة إمكانية حدوث التجديد عن طريق المصادفة أو عن طريق الخطأ المعرفى .

ولا يقتصر موضوع أثر الشخصية فى الثقافة على دراسة عمليات التجديد والاختراع فى ذاتها ، وإنما يتعلق أيضاً بدراسة استجابة الجماعات للتجديد ، سواء كانت تلك الاستجابة بالقبول أو بالرفض . يهتم الأنثروبولوجيون النفسيون بدراسة العمليات النفسية ، التى تحدد ما إذ كان تجديد مقترح سوف يقبل استخدامه أو سوف يرفض عن طريق المجدد نفسه وباقى المجتمع الذى يبزغ فيه التجديد ، وكذلك

---

(١) Wallace, A ..... 1961, pp. 120-124.

(٢) Mazeway.

(٣) Ibid. p. 125.

يهتمون بدراسة حالات الانتشار الثقافى والامتزاج الثقافى واستجابة أعضاء المجتمعات الأخرى لتلك الحالات . ويمكن القول بصورة عامة أن التجديد يبدأ فى صورة صيغة كلية جديدة تظهر فى ثقافة ما عن طريق عامل من عوامل التغير ، قد يكون مخترعاً أو تاجراً أو مصلحاً دينياً أو قائداً سياسياً أو أسير حرب أو زوجاً أجنبياً ، وعادة لا يقبل المجتمع هذه الصيغة الكلية الجديدة كما هى ؛ وإنما يجرى عليها بعض التعديل بغرض ملاءمتها مع صيغة كلية أكبر وهى ثقافة المجتمع ، ولكن ، لا تحدث تلك العملية دفعة واحدة ، وإنما يتخللها عملية تتمثل فى مرور التجديد فى الشاشة النفسية للمجتمع قيد البحث . ويحدد بناء الشخصية العامة للمجتمع تلك الشاشة النفسية ، وتقوم الشاشة النفسية بعملية فحص وتمحيص للتجديدات المقدمة . ويترتب على ذلك الفحص تقسيم تلك التجديدات إلى مجموعتين ، مجموعة التجديدات التى تنسجم مع البناء العام للحوافز . ويقصد به بناء على مستوى عال من التجريد ، ويتكون من قيم عريضة متضمنة فى روح الثقافة أو الشخصية القومية أو الشخصية المنوالية فى المجتمع قيد البحث ، ومن أمثلة تلك القيم العريضة الاتجاه المادى والرغبة فى الثراء والأهمية النسبية لنظام القرابة أو لا لتزامات المجتمع المحلى أو لصفات الرجولة أو لدقة المواعيد . أما المجموعة الثانية فهى التجديدات التى لا تنسجم مع البناء العام للحوافز . وهكذا تعمل القيم الأساسية فى مجتمع ما كمقياس ثابت لاختيار ما يصلح من التجديدات الثقافية ، وتعطى تلك القيم المعانى لمعظم الظواهر وما تتضمنها من تجديدات مقترحة . وإذا نجح التجديد المقترح فى المرور من خلال شاشة القيم الأساسية بحيث يدخل فى المجموعة الأولى من التجديدات ، ينتقل إلى اختبارات أخرى فى طريقه للحصول على قبول الثقافة المستقبلة ، وفى الغالب يكون مقياس القبول فى تلك الاختبارات هو اقتناع المستقبلين بأن هذا التجديد سيساهم فى إشباع شبكة من الرغبات والحاجات ، وليس فى إحباط تلك الرغبات والحاجات ، وعندما يكتسب التجديد المقترح مثل هذا المعنى الثقافى عند المستقبلين ، يكون قد وصل إلى مرحلة القبول . وفى حالة الاستعارات الثقافية ، وعمليات الامتزاج الثقافى يجب التمييز بين الثقافة المانحة للتجديد والثقافة المستقبلة له ، وجدير بالذكر ملاحظة أنه كثيراً ما يحدث اختلاف بين فهم الثقافة المانحة لرغبات وحاجات أعضاء الثقافة المستقبلة وفهم الثقافة المستقبلة لرغبات وحاجات أعضائها ؛ ومن أهم أسباب هذا الاختلاف قصور المتخصصين فى الثقافة المانحة فى فهم والتعرف على الشخصية العامة للثقافة المستقبلة ، وهناك أمثلة لمحاولات عديدة فاشلة قامت بها الدول الاستعمارية لإدخال تجديدات فى ثقافات مستعمراتهم .

ويمكن إضافة عائق آخر فى طريق قبول الثقافة المستقبلة للتجديدات المقترحة ، وهو وجود جماعات ذات مصالح متعارضة فى داخل المجتمع قيد الملاحظة ، ومن أمثلة ذلك : الطبقات الاجتماعية المتصارعة . وكثيراً ما يكون من الصعب الحصول على موافقة جميع جماعات المجتمع على التجديد المقترح ، وذلك لقوة الشعور بالانتماء والإخلاص للجماعات ، ولوجود التعارض بين مصالح تلك الجماعات ، وقد يحدث

أن التجديد الواحد يصبح مقبولا لدى فريق فى المجتمع فى حين يرفضه فريق آخر . وقد ينشأ صراع قوى بين الفريقين عندما ينقسم المجتمع ويتمسك كل فريق بموقفه ، وأحيانا يسود هذا الصراع بين الفريقين بالنسبة لأى تجديد مقترح بغض النظر عن موضوع التجديد . ويتضح ذلك فى المجتمعات المتدينة التى ينقسم فيها الأعضاء إلى فريق محافظ يرفض التجديد والتغير الثقافى السريع ، وفريق تقدمى يحبذ التجديد بصورة عامة . وقد تبلورت تلك الاتجاهات فى صورة أحزاب سياسية فى كثير من المجتمعات المعاصرة ، وقد أطلق العلامة «كارل مانهيم» ، وهو عالم اجتماع يستخدم المنهج الأنثروبولوجى فى التحليل ، اصطلاحى الأيديولوجيا واليوتوبيا للتعبير عن هذين الاتجاهين . ويعرف اتجاه الأيديولوجيا بأنه تصور المفكر المحافظ الذى يعقلن ويدعم النسق الاجتماعى والثقافى الموجود والذى يرغب فيه بعض أعضاء المجتمع ، أما اتجاه اليوتوبيا فهو تصور المفكر الثائر الذى يعقلن ويدعم المجهودات الهادفة التى تغير النسق الاجتماعى والثقافى الذى لا يرغب فيه بعض أعضاء المجتمع ، ويوفر هذا التغيير الإشباع الكامل لرغبات وحاجات الفريق الثائر [١] .

يتصل موضوع الصراعات داخل المجتمعية بين الأيديولوجيا واليوتوبيا بموضوع الامتزاج الثقافى ، وما يحدث فيه من استعارات ثقافية ، وذلك لأن فى مثل تلك الحالة ستكون استجابة الاتجاه اليوتوبى لأى تجديد مقترح ورفض الاتجاه الأيديولوجى لأى تجديد مقترح ، غير نابعين من الاعتبارات الخاصة بمدى توافقه الوظيفى مع النسق الاجتماعى الثقافى الموجود ، وإنما من اعتبارات أخرى ، فإن فريق اليوتوبيا يقوم التجديد المقترح على أساس مدى فاعليته فى تحطيم النسق الاجتماعى والثقافى الحالى وفى رسم صورة أفضل للمستقبل ، وهكذا فإن تجديداً ما قد يكون منسجما وظيفياً مع النسق الموجود فى المجتمع ولا يحدث إلا أقل قدر ممكن من المشكلات ، وبالرغم من ذلك ترفضه اليوتوبيا ، ومن الواضح أن يكون التجديد ذاته مقبولا من فريق الأيدولوجيا ، ويمكن ملاحظة نتيجة أخرى للصراع بين فريق المحافظين وفريق المجددين فى المجتمعات المعاصرة ، وهى إمكانية تقويم التجديدات المقترحة بغض النظر عن قيمتها الوظيفية ، وهكذا تصبح التجديدات رموزاً للانتماء فى جماعة اجتماعية معينة ، وبالتالى ، إذا كان التجديد يعنى تأكيد الانتماء للجماعة التى ينتمى إليها الفرد[٢] فإنه يقبله بصورة آلية ، وبدون تقويم قيمته الوظيفية الذاتية ، وبصورة عكسية ، إذا كان قبول التجديد يتضمن الانتماء إلى جماعة معادية أو جماعة ضعيفة أو محتقرة مثل جماعات الأقليات ، فإن الفرد يرفض هذا التجديد بصورة آلية ، وذلك لأن قبوله لمثل هذا التجديد يتطلب منه التخلى عن الجماعة التى ينتمى إليها ، أو تخلى تلك الجماعة عن الفرد ، ولذلك عندما يتضمن قبول تجديد ما الانتماء لمانح له قيمة سالبة ، فإن قبول مثل هذا التجديد يكتنفه الكثير من الصعوبات.[٣] ولا يقتصر موضوع أثر الشخصية فى الثقافة على دراسة عملية الاختراع أو التجديد الثقافى

---

(١) Manheim, K., Ideology and Utopia, Harcourt, Brace, N.Y. 1963, p. 49.

(٢) Reference Group.

(٣) Wallace, A., Culture and Personality, pp. 130-133.

ذاتها ودراسة عوامل قبول ورفض التجديدات الثقافية ، وإنما يشمل أيضاً دراسة أنواع الضغوط التى قد يستخدمها أعضاء الثقافة المانحة على أعضاء الثقافة المستقبلة لتأكيد قبول أو رفض تجديد ما . وتبين الدراسات الخاصة بالاستعارات الثقافية ندرة حياد الثقافة المانحة فى عملية استجابة الثقافة المستقبلة لتجديد ما ، وذلك ، لأنه عادة يكون لأعضاء الثقافة المانحة مصالح فى قبول الثقافة المستقبلة لتجديد معين ، وتتنوع تلك المصالح من مجرد الاهتمام الأمين والمخلص برفاهية المجتمع المستقبل إلى مصالح أنانية ذات طابع عسكرى أو اقتصادى أو سياسى أو جميعهم . ويزخر تاريخ الاستعمار الأوربى لأفريقيا بأمثلة المصالح الأنانية سابقة الذكر .

وعادة تشمل الوسائل التى يستخدمها أعضاء المجتمع المانح أساليب تشير إلى أن قبول المجتمع المستقبل للتجديد المقترح سيصاحبه تقديم مكافأة ما ، قد تكون معونة اقتصادية أو دعماً سياسياً أو عسكرياً ، بينما يعنى رفضه إنزال العقاب على المجتمع المستقبل ، ويحدث ذلك الموقف عندما تكون المجتمعات المانحة فى مركز القوة . وفى كثير من الأحيان تختفى تلك الأساليب الصريحة ويحل محلها أساليب رقيقة مهذبة تختفى وراءها مصالح المجتمع المانح ، وهنا تقدم المكافآت بصورة وكأنها بعيدة عن موضوع قبول المجتمع المستقبل لتجديد ما ، وكذلك لا تشير التهديدات بصراحة إلى أى فعل عقابى يقوم به المجتمع المانح فى حالة رفض المجتمع المستقبل للتجديد قيد البحث ، وتظهر تلك التهديدات على أنها مجرد تتابع غير مرغوب فيه للحوادث ، أو على أنها أمور لا يمكن تجنبها فى ظل الظروف الموجودة ، وأنها غير مرتبطة بمصالح المجتمع المانح . وبرغم عدم تعارض الوسائل الإجبارية لفرض العناصر الثقافية الجديدة مع المبادئ الأخلاقية ، فإنها تستخدم كثيراً فى معظم المجتمعات بما فى ذلك المجتمعات المتقدمة . وتشهد الحروب الدينية والثورات السياسية والصراعات الطبقية وحملات البعثات التبشيرية والصراع حول الحقوق المدنية والكثير من حالات التوتر بين الجماعات على ميل الجماعات المانحة لاستخدام الوسائل الجبرية لتشجيع قبول التجديدات ، ويتأكد ذلك عندما ترى الجماعة المانحة أن قبول الجماعة المستقبلة للتجديد من الأمور الضرورية لإشباع رغباتها .

ويمكن النظر للوسائل الإجبارية كمتصل يبدأ فى نقطة تتصف بأقل قدر ممكن من القسوة وينتهى إلى نقطة تمثل أعلى درجات القسوة ، ويمكن تمثيل نقطة البدء بالمواقف التى تقدم فيها الجماعات المانحة التجديد فى أسلوب محايد ، وفى تلك الحالة يكون للجماعة المستقبلة حرية القبول والرفض ، ويؤثر فى تحديد نوع استجابة الجماعة المستقبلة للتجديد فى تلك الحالة خصائص الشخصية العامة للجماعة وروح الثقافة وما أطلق عليه من قبل بالشاشة النفسية ، هذا بالإضافة إلى القيمة الوظيفية للتجديد نفسه بالنسبة للجماعة المستقبلة . وفى حالة رفض الجماعة المستقبلة للتجديد ، تستخدم الجماعة المانحة وسائل أخرى ذات صيغة سلمية ولكنها لا تتسم بالحياد ، ومن أمثلة تلك الوسائل الاقناع والتفاوض والتعاون ، وفى هذه المواقف تؤسس الجماعة المانحة مع الجماعة المستقبلة علاقة تبادلية يتخللها إشباع كاف لمصالح ورغبات الجماعتين فى المدى الطويل . ولا تتضمن تلك الوسائل أى تهديد صريح ، وإذا انتقلنا من هذا الموقف فى المتصل الخاص بالإجبار إلى الموقف التالى ، نجد أن التهديد يأخذ صورة صريحة تتمثل بصورة مبسطة فى العبارة التالية « اقبل (أوارفض) هذا التجديد ، وإلا سوف

أمنع إشباع إحدى رغباتك » . ولا يقتصر استخدام هذا الأسلوب على العلاقات بين المجتمعات وإنما يطبق أيضاً فى العلاقات الاجتماعية بين الأفراد . إذ يميل الوعاظ الدينيون والزعماء السياسيون وحتى الأصدقاء لاستخدام هذا الأسلوب عندما تفشل وسائل الإقناع والتعاون . وكثيراً ما يستخدم خبراء الإعلان هذا الأساوب التهديدى لتشجيع جماعة معينة على قبول سلعة ما : فكثيراً ما نسمعهم فى أجهزة الإعلام يهددون المستهلكين بفقدان الأصدقاء أو العمل أو الصحة فى حالة رفضهم شراء سلعة ما مثل الصابون أو معجون الأسنان أو الروائح العطرية . ويشبه أسلوب الإيحاء الجمعى[1] الأسلوب التهديدى من حيث وضع الجماعة المستقبلة فى جو يستحيل فيه الهروب من وسائل الإعلان. إن مثل هذا الإيحاء يكون فعالا فى تشجيع القبول الجماعى لأنماط سلوكية جديدة قد تتعرض لرفض الجماعة فى حالة توافر إمكانية حرية الاختيار . وأخيراً ، نصل إلى أكثر الوسائل قسوة ، وتتمثل فى التعذيب الجسدى والإرهاق الذى يحدث فى الفرد حالة نفسية فسيولوجية تجعل قبول التجديد يتم بصورة آلية تقريباً ، وتستخدم تلك الوسائل المتطرفة فى حالات تغيير الدين وغسل المخ .

يتضح مما سبق أن التنبؤ بقبول أو رفض جماعة ما لتجديد ما يتحدد عن طريق الموازنة بين مجموعة من العلاقات النفسية المرتبطة بعضها ببعض بصورة معقدة ، وهى علاقات بعضها موجب والآخر سالب ، وتتم تلك الموازنة فى عقول أفراد الجماعة ، وهكذا على الفرد أن يحسب ، بصورة مقصودة أو غير مقصودة ، مجموع الخسائر والأرباح التى ستترتب على قبول التجديد ، وكذلك مجموع الخسائر والأرباح التى ستترتب على الرفض ، فإذا كان المجموع الإجمالى لكل الخسائر والأرباح يشير إلى زيادة الأرباح فإنه يقبل التجديد ، وفى حالة العكس يرفضه . إن القيم المتضمنة فى مثل تلك الحسابات ستكون فى التحليل النهائى قيما شخصية ، وهنا نعود إلى موضوع الشخصية . وهناك عدة عوامل تساعد على التنبؤ باحتمال قبول أو رفض جماعة ما لتجديد معين ، وهى معرفة شاشة القيم التى تفرضها روح الثقافة ومعرفة الشخصية القومية أو الشخصية الرئيسية للجماعة ، ومعرفة البناء الوظيفى للثقافة الواقعية للجماعة ، ومعرفة طبيعة وسيلة الإجبار (إذا وجدت) المستخدمة فى تقديم التجديد ، وكذلك معرفة القوى الموجهة للاتجاهات الأيديولوجية والاتجاهات اليوتوبية للجماعة . ولكن برغم ذلك ، يجب ملاحظة أن قبول الجماعة أو رفضها لتجديد ما ، قد لا يكون أمراً موحداً بالنسبة لجميع أفراد الجماعة ، وذلك لوجود اختلافات فى مصالح الجماعات الفرعية المكونة للمجتمع أو الجماعة الكبرى ، ويتطلب هذا دراسة مفصلة للعوامل السابقة فى الجماعات الفرعية حتى يمكن التنبؤ باحتمال قبول أو رفض جماعة ما لتجديد ما . وخلاصة القول أن الشخصية وما تحتويه من قيم واتجاهات تؤثر فى الثقافة من زاوية قبول أو رفض الجماعات للعناصر الثقافية الجديدة .

كذلك يرتبط موضوع أثر الشخصية فى الثقافة بصورة أخرى بعمليات التغير الثقافى ذات المدى

---

(١) Mass suggestion.

القصير[١] وهى العمليات الإحيائية[٢] ، وتعرف العمليات الإحيائية على أنها محاولات منظمة ومقصودة يقوم بها بعض أعضاء مجتمع ما بهدف بناء ثقافة تمدهم بإشباع أفضل لرغباتهم ،ويتحقق هذا الهدف عن طريق قبول سريع لنمط من التجديدات المتعددة الممكنة[٣] ،وعادة تظهر الحركات الإحيائية فى المجتمعات التى تتعرض لحالات من التفكك الثقافى والاجتماعى ، وتحدث تلك الحالات عن طريق ضغط وتأثير بعض العوامل التى من شأنها أن تدفع بثقافة المجتمع خارج وضع التوازن العادى ، ومن أمثلة تلك العوامل التغيرات المناخية والطبيعية التى تدمر الأساس الاقتصادى لمجتمع ما ، والأمراض الوبائية التى تغير بصورة واضحة البناء السكانى فى المجتمع ، والحروب التى تستنزف موارد المجتمع من القوى العاملة ومصادر الثروة أو التى تؤدى إلى احتلال أو هزيمة ،وكذلك الصراعات الداخلية بين الجماعات ذات المصالح المختلفة وما تلحقه من أضرار لإحدى تلك الجماعات على الأقل ، وخضوع المجتمع للاستعمار وما يصاحبه من التبعية الواضحة والمهانة والاستغلال . يترتب على العوامل السابقة حدوث تغيرات اجتماعية وثقافية غير منسقة مما يؤدى إلى حالة من اللاتوازن الاجتماعى والثقافى ، يمكن تسميتها بحالة الانهيار والتفكك الاجتماعى والثقافى . ومن وجهة نظر بعض أعضاء هذا المجتمع ، تصبح تلك الثقافة المفككة غير قادرة على توفير الإشباع المتوقع لبعض القيم الأساسية فى المجتمع مثل قيمة الوحدة الوطنية أو قيمة احترام الذات أو قيمة العدالة أو قيمة الوضع الاقتصادى الكريم ،ويعيش معظم أفراد هذا المجتمع فى حالة من الانهيار النفسى ، وبالتالى يتكون « تصور الفرد لذاته وللعالم »[٤] من صورة لعالم لا يمكن التنبؤ بأحداثه فى المستقبل ، أو صورة لعالم مجدب وقاحل ، أو الصورتين معاً ، وكذلك ينتشر مزاج من خصائصه القلق المصاحب برعب والخجل والشعور بالذنب والكبت أو اللامبالاة ، ويقوم بعض أفراد هذا المجتمع بمحاولات منظمة لإعادة التوازن الاجتماعى والثقافى ، وتتمثل تلك المحاولات فى تشجيع أعضاء المجتمع على قبول واستخدام تجديدات ثقافية من شأنها القضاء على حالات الانهيار النفسى والاجتماعى والثقافى .

ويقدم العلامة « والاس»[٥] مثالا توضيحيا من إحدى قبائل الهنود الحمر وهى قبيلة سينيكا[٦] فى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى ، كانت تضفى تلك الجماعة قيمة مرتفعة جداً على مفهوم الفرد الحر والمستقل بصورة مطلقة ، وهو فرد لا يهتم بآلامه الشخصية أو بآلام الآخرين ، ويطلق هذا الشخص العنان لدوافعه العاطفية ، ولكن فى حالة الملمات ، يخضع هذا الشخص بمحض إرادته رغباته لحاجات

---

(١) Micro - Temporal processes.

(٢) Revitalization.

(٣) Wallace, A., Revitalization Movements, American Anthrapologist, 1956, 58, P. 264.

(٤) Mazeway.

(٥) Wallace, A., Culture and Personality, pp. 144 - 146.

(٦) Seneca.

مجتمعه المحلى . كانت هذه الصورة المثالية للأنا من العناصر الأساسية فى شخصيات الرجال على وجه الخصوص . وقد حددت ثقافة الجماعة أدوار الصيد والحرب والزعامة على أنها الشروط الأساسية لتحقيق تلك القيمة ، وحددت صور النجاح الرجولى فى حصول الرجال على مراكز الصياد الماهر والمحارب الشجاع وزعيم الغابة . ولكن حدثت تغيرات جوهرية فى بيئة تلك القبيلة جعلت من المستحيل القيام بتلك الأدوار ، فلم يعد الصياد الماهر قادراً على الصيد لندرة الحيوانات ، ولم يعد المحارب الشجاع قادراً على شن الحرب لقوة جيرانه البيض ، أما زعيم الغابة ، فقد أصبح موضع ازدراء واحتقار من أعضاء القبيلة ؛ لأنه تنازل عن سلطاته ومعظم أرضه ووقع معاهدة سلام مع الأمريكيين . كانت استجابة أعضاء جماعة « سينيكا » لتلك الظروف القاسية ، التى تمثل حالة واضحة من حالات الانهيار الاجتماعى والثقافى ، استجابة شبه مرضية ، إذ انتشرت عادة الإدمان على الخمر وزاد الخوف من السحرة ، وانتشرت النزاعات الداخلية ، وأخفق الزعماء فى وضع سياسة عامة مشتركة ، واستمر هذا الوضع فترة طويلة إلى أن ظهرت حركة إحيائية فى عام ١٧٩٩ ، قام بها أحد زعماء الغابة عن طريق الإلهام الدينى ، فنادى بإصلاح دينى وثقافى يتكون من مجموعة من التجديدات الثقافية ، فمثلا حرم شرب الخمر ومنع السحر ، وأدخل تعديلات فى النظام الاقتصادى بأن أقنع الرجال بالاشتغال فى الزراعة بعد أن كانت مقصورة على النساء ، وركز المسئوليات فى داخل الأسرة الصغيرة بعد أن كانت مركزة فى العشيرة ، وأقنع أعضاء القبيلة بقبول واحترام القوانين الأمريكية المتعلقة بتنظيم قبائل الهنود الحمر ، وهكذا ظهرت فجأة فى تلك المنطقة مجتمعات محلية زراعية نظيفة وعصرية ، وتعلم معظم أعضائها القراءة والكتابة ، واختفت الأحياء القذرة القديمة . تعد تلك التغيرات الجذرية من المعجزات ، وذلك لصعوبة تحقيقها فى فترة قصيرة من الزمان ، ويرجع بعض الفضل فى نجاح تلك الحركة الإحيائية إلى شخصية زعيم الغابة وقدرته على التجديد ، ثم قدرته على إقناع الآخرين بقبول التجديدات واستخدامها .

وهكذا تتميز الحركات الإحيائية بإحداث تغيرات مكثفة أو عميقة فى الأنماط الثقافية فى فترة قصيرة من الوقت ويمكن تمييز خمس مراحل وظيفية ذات تداخل زمنى فى بناء الحركات الإحيائية بصورة عامة ، تمثل المرحلة الأولى حالة الثبات النسبى [١] ، وهى فترة يكون المجتمع فيها فى حالة توازن ، ويحدث التغير الثقافى فى أثنائها ببطء وبصورة منظمة لا يقاسى منها الأفراد . أما المرحلة الثانية فهى فترة الضغط الفردى المتزايد [٢] ، وهنا تتعرض الثقافة لحالة من التفكك والانهيار بتأثر عوامل خارجية أو داخلية سبق ذكرها ، وهنا ينعكس هذا التفكك الاجتماعى والثقافى على شخصيات الأفراد ، فيتعرضون لحالة من الضغط غير المحتمل بسبب فشل الأنماط الثقافية فى إشباع حاجاتهم ، ويحدث انهيار نفسى فى شخصياتهم ، فتكثر الانحرافات والتحرر من القوانين والنظم الاجتماعية ، ويرتفع معدل الجريمة وتنتشر

---

(١) Steady state.

(٢) The period of Increased individual Stress.

الأمراض كاستجابات لا اجتماعية فردية ، ويطلق على المرحلة الثالثة اصطلاح فترة التشويه الثقافى[١] ، وفيها يستمر الانهيار الثقافى ، وكذلك يستمر الانهيار النفسى لكثير من أعضاء المجتمع ، ويحاول بعضهم استرجاع حالة التوازن النفسى عن طريق تكرار تصرفات أنانية نفعية ، ولكنها تزيد من حالة الانهيار الثقافى ، ومن أمثلة ذلك الفساد والرشوة فى المكاتب الحكومية وانتشار السوق السوداء وانتشار المقامرة والدعارة وانتشار ظاهرة «كبش الفداء» ، وتأخذ تلك الانحرافات صورة المجهودات المنظمة ، بحيث يتصور البعض أن الأنماط الثقافية الأصلية قد انهارت تماما وحلت محلها تلك الانحرافات وهذا هو المقصود باصطلاح التشويه الثقافى . وفى تلك الفترة تتصارع الجماعات الداخلية لتحقيق مصالح خاصة على حساب المصلحة العامة . وتتمثل المرحلة الرابعة فى فترة الحركة الإحيائية[٢] ، عندما يسود التشويه الثقافى فى مجتمع ما ، يصبح من الصعب استرجاع حالة التوازن والثبات بدون عملية إحيائية ، وذلك لأنه بدون الحركات الإحيائية يكون المجتمع معرضا للانهيار التام عن طريق انقراض السكان أو انقسامهم إلى مجتمعات مستقلة أو انضمامهم لمجتمع آخر أكثر استقراراً وقوة . وتعتمد الحركة الإحيائية على نجاح صاحب الحركة والمؤيدين له فى القيام بعدة وظائف ، وهى صياغة برنامج عمل لتحقيق مجتمع مثالى أو ثقافة مثالية ، ويجب ملاحظة أن صياغة هذا البرنامج يتطلب إعادة صياغة أفكار صاحب الحركة الإحيائية بصورة تمده بالثقة فى المستقبل وبإمكانية التخلص من حالة الانهيار الثقافى وبإمكانية تحقيق الثقافة المثالية ، وبعد ذلك يقوم أصحاب الحركة الإحيائية بالاتصال بالناس لشرح التجديدات المقترحة وإقناعهم بقبولها ، وفى الغالب يقدمون هذه التجديدات على أنها وسيلة للتطهير الروحى بالنسبة للفرد وللتطهير الثقافى بالنسبة للمجتمع ، ويتلو ذلك ، النجاح فى تنظيم الأتباع والمؤيدين ، وفى الغالب ينقسمون إلى مجموعة من المنظمين ومجموعة من جمهور التابعين والمؤيدين ، وهنا يصبح أصحاب الحركة الإحيائية هم المؤسسون لها وبجانبهم يوجد المنظمون والتابعون . وفى الغالب ينظر لمؤسس الحركة على أنه يتمتع بقوى خارقة أو بمواهب فذة وهذه الخصائص تبرر مطالبة الجماهير التابعة بالطاعة المطلقة والاعتقاد التام فى حكمته ، ويأتى بعد ذلك النجاح فى تكييف الجماهير مع التجديدات الثقافية التى ينادى بها أصحاب الحركة الإحيائية ، وفى سبيل ذلك تستخدم أساليب متعددة بعضها سلمى وبعضها عنيف للغاية ، وذلك عندما يوصف غير المتكيفين مع التجديدات الثقافية بالخيانة ، ويتعرضون لأقسى العذاب ، ويتلو التكييف حدوث التحول الثقافى ، وهنا تحل الثقافة الجديدة مكان الثقافة القديمة التى أصابها التشوه . وبعد ذلك يسود النظام فى الثقافة الجديدة وتسمى تلك الحالة بالعملية الروتينية[٣] ، وهكذا تتطلب الحركة الإحيائية النجاح فى القيام بالعمليات سابقة الذكر ، وهى عمليات صياغة الثقافة الجديدة والاتصال والتنظيم والتكييف والروتينية . وبعد أن تثبت الحركة الإحيائية أقدامها تأتى

---

(١) The period of cultural distortion.

(٢) The period of revitalization.

(٣) Routinization.

المرحلة الخامسة والأخيرة وهى مرحلة الحالة المستقرة الجديدة[١] وتبدأ عندما تحدث التغيرات فى بناء القيم للثقافة القديمة، ويحل محله بناء القيم الخاصة بالثقافة الجديدة . وبرغم تمتع المرحلة بالاتزان والهدوء النسبى إلا أنها لا تخلو من التغييرات الثقافية المتتابعة والتى تستمر لفترات طويلة . ومن أمثلة ذلك التغيرات الاقتصادية والتكنولوجية التى تتابعت بعد انتشار الأخلاق البروتستانتينية[٢] .

وخلاصة القول أن أثر الشخصية فى الثقافة يتضح من طريق دراسة الحركات الإحيائية وتحليلها ، وبالتالى تدخل تلك الدراسات فى إطار موضوع الأنثروبولوجيا النفسية .

ثالثاً — المصطلحات :

يهتم المتخصصون فى دراسة الثقافة والشخصية بوضع مصطلحات خاصة بهذا الفرع من المعرفة ، وتمثل تلك المصطلحات المفاهيم الأساسية المتضمنة فى النظريات المختلفة وفى التعريفات الإجرائية المستخدمة فى الأبحاث الميدانية ، ويتخصص الفصلان الثالث والرابع فى دراسة الاصطلاحين الأساسيين وهما الثقافة والشخصية ، وتبين هذه الدراسة الاختلافات الواضحة بين تعاريف هذين الاصطلاحين ، وتنتقل تلك الاختلافات إلى باقى الاصطلاحات ، وترجع تلك الاختلافات إلى تنوع النظريات الثقافية والنفسية حول الثقافة وحول الشخصية وحول العلاقة بين الثقافة والشخصية ، ولكن لا يمنع تعدد تلك النظريات من قيام العلماء بمجهودات بناءة فى سبيل حصر تلك المصطلحات وتصنيفها وتعريفها ، ويزيد من صعوبة القيام بتلك المحاولات أن تلك المصطلحات ليست مقصورة على الأنثروبولوجيا النفسية ، وإنما تستخدم كذلك فى عدد كبير من فروع علم النفس وعلم الإنسان وعلم الاجتماع . ومن أهم المحاولات التى قام بها المتخصصون فى ميدان الثقافة والشخصية دراسة العلامة « والاس»[٣] ، وقد صنف «والاس» الاصطلاحات ذات العلاقة بموضوع الثقافة والشخصية باستخدام أساسين للتصنيف ، وهما عدد الأشخاص الخاضعين للملاحظة ، سواء كانت الملاحظة مباشرة أو غير مباشرة ، وعدد فئات السلوك الخاضعة للملاحظة ، وباستخدام أساس التصنيف الأول يقسم تلك المصطلحات إلى ثلاث مجموعات ، مجموعة خاصة بفرد واحد بالذات ، ومجموعة خاصة بفردين أو أكثر من أفراد الجماعة أو المجتمع قيد البحث ، ومجموعة خاصة بكل أفراد الجماعة أو المجتمع ، وبتطبيق أساس التصنيف الثانى يقسم «والاس» تلك المصطلحات إلى ثلاث مجموعات أيضًا ، مجموعة خاصة بفئة واحدة للسلوك ومجموعة خاصة بفئتين أو أكثر من فئات السلوك ومجموعة خاصة بكل فئات السلوك . وعند تطبيق الأساسين معاً يمكن تصنيف مصطلحات الأنثربولوجيا النفسية إلى تسع مجموعات ، ويشترط لاستخدام هذا التصنيف افتراض أن هؤلاء الأفراد ينتمون إلى جماعة واحدة وأن ملاحظتهم تتم فى وقت معين . وفيما يلى عرض موجز لتلك المصطلحات :

---

(١) The New steady state.

(٢) Ibid pp. 142 - 153.

(٣) WallaceA., Culture and Personality, Random House, N.Y. 1961, pp. 9 - 15.

المجموعة الأولى :

وهى المطلحات الخاصة بفرد واحد وبفئة سلوكية واحدة ، ومن أمثلة ذلك عادة فردية[١] واستجابة[٢] وسلوك كامن[٣] . فمثلا ، أثناء قيام أحد البحاث بدراسة ميدانية فى قرية ما من قرى قبائل الهنود الحمر لاحظ أن فرداً معينا ، وهو رجل عجوز يعيش وحيداً فى بيت صغير ، يضع عصا فى فتحة باب البيت المفتوح . كلما خرج من بيته ، وعندما سأل الباحث هذا الرجل عن معنى هذا السلوك أجابه بأنه يقصد بوضع العصا فى فتحة باب البيت أن يبلغ الذين يأتونه بأنه غير موجود ؛ ويجب ألا يدخلوا بيته ، هذا بالرغم من أن الباب مفتوح ، يوصف هذا السلوك على أنه عادة فردية .

المجموعة الثانية :

وتتكون من المصطلحات الخاصة بفردين أو أكثر من أفراد الجماعة وبفئة سلوكية واحدة ، ومن أمثلة ذلك عنصر ثقافى[٤] وعادة[٥] ودور[٦] وبديل[٧] وخاصية[٨] . فمثلا ، عندما قام هذا الباحث بملاحظات أخرى ، تبين له أن عدداً من أعضاء المجتمع الذى ينتمى إليه هذا العجوز الهندى يؤدون نفس السلوك عندما يتركون منازلهم خالية ، وقد أدلى هؤلاء الأفراد بأنهم يضعون العصاة بتلك الصورة للدلالة على خلو البيت من أصحابه وللدلالة على رغبتهم فى عدم دخول أحد المنزل برغم ترك الباب مفتوحا ، ويقرر الباحث استخدام اصطلاح عادة (جماعية) أو عنصر ثقافى للسلوك سابق الذكر .

المجموعة الثالثة :

وهى المصطلحات الخاصة بكل أفراد الجماعة قيد البحث ولكنها تتعلق بفئة سلوكية واحدة ، ومن أمثلة ذلك عنصر ثقافى وعادة ودور وثيمة[٩] وعمومية[١٠] فمثلا ، استطاع الباحث أن يتأكد أن كل أفراد هذا المجتمع يقومون بالسلوك نفسه عند الخروج من المنزل ، وبالتالى يمكن إطلاق الاصطلاحات السابقة على هذا السلوك ، وخاصة اصطلاح عمومية .

---

(١) Habit.
(٢) Response.
(٣) Behavior potential.
(٤) Culture trait.
(٥) Custom.
(٦) Role.
(٧) Alternative.
(٨) Specialty.
(٩) Theme.
(١٠) Universal.

المجموعة الرابعة :

وتشمل المصطلحات الخاصة بفرد معين و بفئتين للسلوك، ومن أمثلة ذلك سمة للشخصية[١] ودافع[٢] ومركب[٣] وقيمة[٤] ومجموعة أعراض تظهر فى وقت واحد[٥] . فمثلا ، أثار سلوك وضع العصا فى الباب المفتوح الباحث الذى ينتمى إلى ثقافة أخرى (ينتشر فيها عادة إغلاق الأبواب والشبابيك عند الخروج خوفا من السرقة) ، ودفعه ذلك إلى استجواب ذلك الرجل العجوز لمدة أطول ، وسأله عن موضوعات أخرى خاصة بالثقة وضمان تحقيق الرغبات ، تبين أن هذا العجوز واثق من أن جيرانه لن يدخلوا منزله فى أثناء غيابه لأنهم سيرون العصا الموضوعة فى فتحة الباب ، وهو واثق أيضاً من عدم حدوث سرقة منزله ، لأنه يرغب فى ذلك وهو واثق أن هذه الرغبة تحمل فى طياتها توقع التحقق ، أى أنه واثق من تحقق تلك الرغبة . وينتهى الباحث إلى أن هذه المجموعة من فئات السلوك عند هذا العجوز هى إحدى سمات شخصيته .

المجموعة الخامسة :

وتشمل المصطلحات الخاصة بفردين أو أكثر من أعضاء المجتمع قيد البحث وبفئتين أو أكثر من فئات السلوك، ومن أمثلة تلك المصطلحات علاقة[٦] ونظام[٧] وطقس[٨] وثيمة[٩] فمثلا ، لاحظ هذا الباحث انتشار خاصية توقع « تحقيق الرغبة » عند بعض أعضاء هذا المجتمع ، وهم الأفراد الذين قابلوه وتحدثوا معه ، وهنا لاحظ الباحث وجود تكامل بين وجود العصاه بالباب المفتوح وعدم دخول الغرباء المنزل ، وأن العلاقة بين هذين السلوكين هى علاقة تطابق أو تكافؤ منطقية ، ويتمثل ذلك فى أن الفرد (س) عندما يضع عصاه فى فتحة الباب(ا) ، فإن الشخص (ص) سوف يقوم بالدور (ب) وهو عدم دخول المنزل، ويشار إلى بناء التكافؤ[١٠] الذى يتمثل فى أ = ب و ب = أ ، باصطلاح نظام أو طقس .

---

(١) Character trait.
(٢) Motive.
(٣) Complex.
(٤) Value.
(٥) Syndrom.
(٦) Relationship.
(٧) Institution.
(٨) Ritual.
(٩) Theme.
(١٠) Equivalence structure.

المجموعة السادسة :

وتتكون من المصطلحات الخاصة بجميع أفراد المجتمع قيد البحث وبفئتين أو أكثر من فئات السلوك . ومن أمثلة ذلك علاقة ونظام وطقس وثيمة ومحور[١] فمثلا ، عندما يلاحظ الباحث السابق انتشار بناء التكافؤ الخاص بعادة وضع العصاة فى الباب وعدم دخول الأغراب فى المنزل الحالى ، فإنه يستنتج أنهذا النظام هو مجرد تعبير واحد لثيمة[٢] أكثر مومية ، وهى « توقع تحقيق الرغبة » ، وإذا تأكد الباحث من انتشارهذا المبدأ عند الجميع فإنه يستطيع أن يستخدم اصطلاح « محور ثقافى »[٣] للدلالة على تلك الثيمة . ويستخدم بعض طرق البحث للتأكد من صلاحية استخدام الاصطلاح السابق ، ومن تلك الطرق دراسة الأحلام لمعرفة الرغبات العامة ودراسة الأساطير .

المجموعة السابعة :

وتشمل المصطلحات المتعلقة بفرد واحد فى الجماعة ولكنها خاصة بكل فئات السلوك قيد الملاحظة . ومن أمثلة ذلك « تصور الفرد لذاته وللعالم الخارجى »[٤] والشخصية ونظام بيولوجى نفسى[٥] .

ولو توثقت العلاقة بين الباحث وهذا الهندى العجوز ، فإنه يستطيع أن يكتسب ثقته ، وأن يعرف منه تاريخ حياته وبعض أحلامه . وإذا كان الباحث متخصصاً أصلا فى علم نفس الشخصية أو فى التحليل النفسى ، فأنه يستطيع أن يطبق عليه بعض الاختبارات الإسقاطية مثل اختبار رورشاخ . وعندما يجمع هذا الباحث القدر الكافى من المعلومات النفسية الخاصة بهذا الرجل العجوز ، فإنه يستطيع تحليل تلك المعلومات، والوصول فى النهاية إلى تحديد شخصيته التى تعبر عن كل فئات سلوكه .

المجموعة التاسعة :

يذكر العلامة « والاس» المجموعة التاسعة قبل المجموعة الثامنة من المصطلحات لأن دراسة المجموعة الثامنة تطلب شرح بعض مصطلحات المجموعة التاسعة . وتتكون المجموعة التاسعة من المصطلحات الخاصة بكل أفراد الجماعة قيد البحث وبجميع فئات السلوك الملاحظة ، ومن أمثلة ذلك نمط[٦] وصيغة كلية[٧] وثقافة[٨] والشخصية القومية[٩] والشخصية المنوالية[١٠] . فمثلا ، إذا استطاع الباحث السابق جمع معلومات

---

(١) Focus.
(٢) Theme.
(٣) Cultural focus.
(٤) Mazeway.
(٥) Psycho - biological system.
(٦) Pattern.
(٧) Configuration.
(٨) Culture.
(٩) National character.
(١٠) Modal personality.

نفسية، مشابهة لتلك التي جمعها من المندى العجوز . من عينة ممثلة لجميع أفراد الجماعة قيد البحث، يكون في مقدوره تحديد ثقافة هذا المجتمع . وعادة لا يستطيع الباحث تحليل هذا القدر الضخم من المعلومات في ميدان البحث ، وإنما يعود بها إلى مقر عمله ويقوم بدراستها بدقة وعلى مهل ، وقد يعرض بعضها على المتخصصين لمعاونته في تحديد الشخصية المنوالية لهذا المجتمع .

المجموعة الثامنة :

وتشمل المصطلحات الخاصة ببعض أفراد الجماعة قيد البحث وبجميع فئات السلوك الخاضعة للملاحظة . ومن أمثلة ذلك ثقافة فرعية[١] وشخصية المركز[٢] . يتيح تطبيق طرق البحث السابقة التوصل إلى مصطلحات عامة ، مثل اصطلاح الشخصية المنوالية ، ولكن يتضمن مثل هذا التعميم ، القائل بوجود مجموعة من الخصائص النفسية عند جميع أفراد المجتمع ، بعض المخاطر والأخطاء ، وأهم تلك الأخطاء وجود اختلافات في شخصيات أفراد المجتمع ، وذلك لانقسام أفراد المجتمع لجماعات على أساس النوع والعمر والمهن ، وإن تلك الاختلافات لا تسمح بتعميم شكل الشخصية المنوالية على الجميع لاختلاف شخصيات أفراد تلك الجماعات عن الشخصية المنوالية العامة ، وأطلق العلامة لينتون على شخصيات تلك الجماعات الفرعية اصطلاح شخصيات المركز ، وبالتالي يكون لجماعة الرجال في المجتمع قيد البحث شخصية مركز الرجال وهي تختلف عن شخصية مركز الإناث ، ويمكن تطبيق نفس الاتجاه على شخصية الأطفال وشخصية الشباب وشخصية كبار السن وشخصية المحاربين وشخصية التجار وما إلى ذلك . ويرى العلامة « والاس » أن وجود شخصيات المركز لا يلغي وجود الشخصية المنوالية العامة ، وذلك لأن شخصيات المركز ، في واقع الأمر ، لا تتكرر عند جميع أفراد المجتمع وإنما عند بعض أفراده المشتركين في مركز معين ، وفي الغالب لا يوجد تعارض بين شخصيات المركز والشخصية المتوالية وإنما يوجد تكامل وتداخل[٣] .

ومن الواضح أن العرض السابق لمصطلحات الأنثروبولوجيا النفسية يتضمن بعض أوجه النقص، أهمها ، أن بعض تلك المصطلحات تعريفات غير مانعة ، وبالتالي يمكن استخدام اصطلاح واحد في أكثر من مجموعة واحدة ، ومن أمثلة ذلك دور وعنصر ثقافي ونظام وطقس . وكذلك لا يوجد تعريف دقيق لتحديد وحدة فئة السلوك ، وبالتالي قد يحدث خلط ، فمثلا علاقة الأم بأطفالها يمكن أن يصفها أحد البحاث على أنها فئة سلوكية واحدة وتدخل في المجموعة الأولى ، ويمكن أن تحلل تلك العلاقة إلى فئات سلوكية أكثر خصوصية ، منها الإطعام والتنظيف والتدليل ، وفي هذه الحالة توضع تلك الفئات السلوكية الخصوصية في المجموعة الأولى ، في حين توضع علاقة هذه الأم بأطفالها في المجموعة الرابعة .

---

(١) Sub - culture.

(٢) Status personality.

(٣) Wallace, A., Culture and Personality, pp. 14 & 15.

تتناول الفصول القادمة شرح ودراسة المصطلحات السابقة وغيرها بالتفصيل؛ وجدير بالذكر أن نشير هنا إلى مفهوم « تصور الفرد لذاته وللعالم »[1]، لعدم دراسته فى الفقرات التالية .

يرى « والاس » أن أهمية مفهوم « تصور الفرد لذاته وللعالم» بالنسبة للفرد مثل أهمية مفهوم « الثقافة » للجماعة ، فكما أن كل تاريخ جماعة ما هو أمر فريد خاص بها ، كذلك الحال بالنسبة لهذا التصور الفردى، فهو يتكون من مجموع الخبرات التى يكتسبها الفرد فى حياته، وهو أمر خاص به وحده ويتضمن مفهوم الشخصية نفس المعنى السابق ، إلا أن الشخصية تمثل مستوى أعلى فى التجريد .

يحتوى كل مخ إنسانى، فى زمن معين ، على صورة خاصة به وحده ، وهى صورة لنظام مركب من أشياء مترابطة ديناميًّا ، وتشتمل تلك الأشياء على الجسم الذى يوجد فيه المخ وكذلك على المخ ذاته، وتنمو وتتكون تلك الصورة العقلية من خلال خبرات الشخص التى يكتسبها طوال حياته، تمثل هذه الصورة العقلية معنى مفهوم « تصور الفرد لذاته وللعالم » ، ويتكون مضمون هذا المفهوم من عدد هائل من التجمعات أو الرواسب المعرفية للإحساس، ويستخدم كل فرد هذه الصورة التى يحملها فى عقله على أنها أمر حقيقى وتمثيل كامل لدرجة ما للخواص العملية للعالم الواقعى . ويمكن تشبيه هذا المفهوم بخريطة لمتاهة هائلة فى الحجم ، ولتلك الخريطة مفتاح أو دليل تفسيرى تفصيلى وكثير من الدروب ، وفى تلك الخريطة توجد ثلاثة تجمعات يشمل التجمع الأول الأهداف والشراك أى القيم أو الحالات المرغوبة والحالات غير المرغوبة ؛ ويتكون التجمع الثانى من الذات والأشياء الأخرى أى الناس والأشياء . أما التجمع الثالث والأخير فيتكون من الوسائل التى تستخدمها الذات للوصول أو للابتعاد عن القيم ، ومن أمثلة ذلك الخطط والعمليات والفنون ، ويشرح العلامة « والاس » تلك الفئات بالتفصيل[2].

يتضح لنا مما سبق تعدد وتنوع اصطلاحات الأنثروبولوجيا النفسية ولكن أكثر تلك الاصطلاحات أهمية بالنسبة لموضوعنا هى الثقافة والشخصية ، ولذلك يخصص الكاتب الفصلين القادمين لدراستهما .

(١) Mazeway.

(٢) Ibid. pp. 16 & 17.

الفصل الثالث

الثقافة

- **تمهيد**
- **قطاعات الثقافة**
- **خصائص الثقافة**
- **مستويات الثقافة**

الفصل الثالث

الثقافة

تمهيد :

يتفق كل علماء الأنثروبولوجيا الثقافية على أن الثقافة هى موضوع علمهم ، ولكنهم يختلفون فى تعريفها ، عرفها البعض بأنها « السلوك المكتسب » ، وعند البعض الآخر الثقافة ليست السلوك وإنما هى « تجريدات مأخوذة من السلوك » ، وبينما يعتبر البعض الأشياء المادية مثل الأدوات والآلات والملابس والمنازل داخلة فى نطاق الثقافة ، يرفض ذلك البعض الآخر ، ويقررون أن الثقافة تقتصر على الأفكار وأنماط السلوك . وفيما يتعلق بالعلماء الذين يعرفون الثقافة بأنها مجموعة من الأفكار نراهم يختلفون فى تحديد مركز أو مكان تلك الأفكار ، قال بعضهم إن مكانها هو عقول الأفراد موضوع الدراسة ، وقال البعض الآخر إن مركزها هو عقول علماء الأنثروبولوجيا ، ويرفض البعض الثالث ذلك التعريف من أساسه ويقررون أن الثقافة ليست الأفكار وإنما الأشياء والأفعال الخارجية التى يمكن ملاحظتها حسياً .

ويجب ملاحظة أن تلك الاختلافات وغيرها لم تظهر إلا فى العقود القليلة السابقة ، ففى نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين كان هناك شبه اتفاق عام بين العلماء على الأخذ بالتعريف الشهير الذى وضعه العلامة « تايلور » وافتتح به كتابه « الثقافة البدائية » وفيه يقول :

« الثقافة . . هى ذلك الكل المركب الذى يشتمل على المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون والعادات وغيرها من القدرات والعادات التى يكتسبها الإنسان بوصفه عضواً فى مجتمع »[1] .

ويعود «تايلور» فى موضع آخر من الكتاب ذاته إلى تأكيد أن الثقافة تشتمل على الأشياء مثل الفأس والقوس والرمح وما إلى ذلك ، وكذلك على الفنون العملية مثل صيد السمك وإشعال النار وصيد الحيوانات البرية وصناعة الحراب . . . إلخ[1] . سيطر هذا التعريف على عقول علماء الأنثروبولوجيا لعقود عدة ، ولم تظهر الاختلافات المتناقضة إلا منذ ربع قرن من الزمان ، وأوضح تلك الاختلافات التعريف الذى توصل إليه العالمان الأمريكيان « كروبر » و«كلاكهون» وهو : « الثقافة تجريد » ، ووافقهم على هذا التعريف بعض علماء الأنثروبولوجيا الثقافية فى أمريكا وأخص بالذكر قول العلامة بيلز والعلامة « هويجر » بأن

(١) Tylor, E., Primtive Culture, John Muray, london 1913 p. 3.

الثقافة هي : تجريد مأخوذ من السلوك الإنساني الملاحظ حسيًّا ولكنها ليست هي ذلك السلوك[١]، ويقولان : « لا يستطيع الأنثروبولوجي أن يلاحظ الثقافة مباشرة »[٢] ويقول العلامة «كروبر» في المعنى نفسه بأنه يمكن للعالم أن يرى الأشياء والأشخاص وأفعالهم وتفاعلاتهم ، ولكن لا يمكن لأحد أن يرى الثقافة .

ويوافق على هذا التعريف عالم الأنثروبولوجيا الاجتماعية الشهير رادكليف براون إذ يقول مانصه : « لاتعبر الثقافة عن أي شيء واقعي محسوس وإنما عن تجريد، وغالبا ما يستخدم كتجريد غامض»[٣]. وأعتقد أن « براون » يقصد بذلك نقد علماء الأنثروبولوجيا الثقافية من ناحية أن موضوع علمهم هو مفهوم تجريدي غامض ، لأنه يحبذ الأخذ بمفهوم البناء الاجتماعي موضوع الأنثروبولوجيا الاجتماعية .

ويرى « هوايت»[٤] أن موضوع الأنثروبولوجيا الثقافية هو السلوك الإنساني، كما هو الحال في علم النفس ، ولكن ، يتمثل الاختلاف بين العلمين في أن الأول يدرسه من خلال الإطار غير الشخصي في حين يدرسه الثاني في « الإطار الشخصي » ، أي من حيث علاقته بشخصية الفرد ، بما فيها من عواطف واتجاهات وقيم .

قطاعات الثقافة :

الوحدة الأساسية في الثقافة هي العنصر الثقافي وهو العنصر البسيط الذي لا يمكن تحليله إلى عناصر أبسط منه أو الذي لا يوجد حاجة علمية لتحليله إلى ما هو أبسط منه ، ولا يوجد اتفاق بين العلماء على طبيعة تلك الوحدة الأساسية ، فمثلا قد يعتبر البعض الحلة الأوربية عنصراً ثقافيًّا ويميل البعض الآخر إلى تحليل الحلة الأوربية إلى عناصر أبسط منها مثل عنصر (البنطلون) وعنصر (الجاكيت) وما إلى ذلك، ولاشك أن تحديد العنصر الثقافي البسيط يرجع أساساً إلى طبيعة الدراسة وأهدافها. فمثلا حلل أحد العلماء « رقصة الشبح » المنتشرة بين الهنود الحمر إلى مائة عنصر وحللها آخر إلى عدد أقل وهكذا . ويجب ملاحظة أن العنصر الثقافي وهو حقيقة واقعية يمكن ملاحظتها حسيًّا وقد يكون شيئاً أو علاقة أو فكرة، وتتمركز كل مجموعة من تلك العناصر المختلفة في المضمون في مركب يعرف باصطلاح المركب الثقافي [٥] ، والمركب الثقافي هو كل يتكون من عناصر ثقافية يرتبط

---

(١) BEALS, R. and HOIJER, H. : An Introduction to Anthropology, The Macmillan Co., New York, 1953, p. 219.

(٢) IBID, p. 220.

(٣) RADCLIFF - BROWN, A. : On Social Structure, Journal of the Royal Anthropological Institute; 1940, 70 : p. 2.

(٤) WHITE, L. : The Concept of Culture, The Bobbs-Merril, N. V. 1959, A-238, pp. 229-247

بعضها ببعض وظيفياً ، بمعنى أن كل عنصر متداخل مع العنصر الآخر بحيث إذا حذفنا أحد تلك العناصر يختفى المركب الثقافى ، فمثلا إذا قلنا مركب « تعدد الزوجات » عند المسلمين ، نجد أن هذا المركب يتكون من عناصر ثقافية متداخلة ومترابطة ترابطاً وظيفياً . من تلك العناصر المبدأ الإسلامى الذى يبيح تعدد الزوجات ، والمبدأ الخاص بشروط وظروف هذا التعدد ، وبعنصر العدد الأقصى للزوجات التى يمكن للمسلم أن يجمع بينهن ، وكذلك عنصر المساواة فى المعاملة . وعنصر توفير السكن الملائم لهن ، وعنصر توفير الغذاء والعنصر النفسى المتعلق باختلاف عواطف الزوج بالنسبة لزوجاته ، وعنصر العلاقات الاجتماعية بين الزوجات . وعنصر العلاقات الاجتماعية بين الزوج وعائلات الزوجات ، وعنصر الصداق المقدم لكل زوجة ، وما إلى ذلك من عناصر كثيرة أخرى . إذا حاولنا حذف أحد تلك العناصر وهو عنصر المبدأ الإسلامى الذى يبيح تعدد الزوجات ، يختفى هذا المركب الثقافى ويصبح هناك مركب ثقافى آخر وهو نظام « تعدد الزوجات » عند غير المسلمين ، وهكذا يتضح المقصود بالترابط الوظيفى بين عناصر المركب الثقافى الواحد . وتتجمع المركبات الثقافية فى صورة نظم وفق موضوعاتها ، فمثلا نظام الزواج فى المجتمع العربى يتكون من عدد كبير من المركبات الثقافية ، فمن حيث عدد الزوجات يوجد مركب تعدد الزوجات ومركب وحدانية الزوجة ، ومن حيث نظام السكن بعد الزواج يوجد مركب السكن مع أهل الزوج ومركب السكن مع أهل الزوجة ومركب السكن بعيداً عن أهل الزوج والزوجة ، وكذلك من ناحية العلاقة القرابية مع الزوجة يوجد مركب الزواج من بنت العم ومركب الزواج من بنت العمة ومركب الزواج من بنت الخال أو الخالة ومركب الزواج من غير الأقارب ، ويجب ملاحظة أن استخدام تلك المصطلحات لا يتم بصورة واحدة عند العلماء ، فمثلا من النادر استخدام اصطلاح مركب ثقافى وإنما يستخدم اصطلاح نظام أو عادة أو عقيدة أو قاعدة . وتتجمع النظم الثقافية والاجتماعية المتشابهة فى الموضوع أو الوظيفة أو فيهما معاً فى نسق واحد ، فيوجد النسق الاقتصادى وهو مجموعة كبيرة من النظم الثقافية والاجتماعية التى تتفق فى تحقيق وظيفة توفير الغذاء والكساء للأفراد ، ومن أمثلة ذلك الزراعة أو نظام التجارة أو نظام الصناعة الاستخراجية أو نظام الصناعة التحويلية أو نظام العمل فى مجال الخدمات مثل التدريس والمحاماة والطب وما إلى ذلك ، وهكذا يتكون كل نظام من عدة مركبات ثقافية ويحتوى كل مركب ثقافى على عدد من العناصر الثقافية ، وبالإضافة إلى النسق الاقتصادى يوجد النسق العائلى والنسق السياسى والنسق الدينى ونسق بناء المساكن ونسق القيم ونسق اللغة وغيرها من الأنساق ، ويمكن تجميع كل الأنساق الثقافية فى ثلاثة قطاعات كبرى تتكون منها الثقافة ، وهى القطاع المادى والقطاع الاجتماعى والقطاع الفكرى والرمزى ، وكذلك يعتمد هذا التقسيم على نظرية « هوايت » فى تحديد مواقع العناصر الثقافة ويطلق عليها اصطلاح مواقع الثقافة ، يحدد « هوايت » ثلاثة مواقع وهى :

١ ــ أشخاص الإنسان ويقصد بذلك الأفكار والعقائد والاتجاهات الموجودة فى عقول الأشخاص .

٢ ــ الأشياء وهى كل شىء مادى محسوس يعطيه الإنسان معنى محدداً وفى معظم الحالات يكون

من صنعه أو على الأقل يبذل الإنسان بعض الجهد فى إيجاده بصورة جديدة تختلف عن صورة الشىء فى الطبيعة .

٣ ــ العلاقات وخطوط التفاعل والاتصال بين البشر بعضهم ببعض وبين البشر والأشياء .

ويجب ملاحظة أن تقسيم الثقافة إلى قطاعات هو فى الحقيقة عملية تحليلية تهدف إلى إخضاع هذا العدد الضخم من النظم والأنساق الثقافية إلى الدراسة العلمية . ولذلك لا تعبر تلك العملية التنظيمية عن الواقع الثقافى بدقة . فإننا فى حياتنا اليومية لا نشعر بذلك التقسيم لعدم وجوده واقعياً . ولكن يوجد مركبات ثقافية ونظم ثقافية تتداخل فيها الأفكار والأشياء والعلاقات . فمثلا إذا لاحظنا نظام عبادة الأجداد المنتشر فى أفريقيا ، نجد نسيجاً متداخلا من الأفكار والعقائد والأشياء والعلاقات ، يقوم هذا النظام على مبدأ تماسك الجماعة القرابية الواحدة التى تتكون من الأحياء والأموات . ويتكون هذا النظام من مجموعة عقائد منها أن الأقارب الأموات يتمتعون بقوى غيبية وسحرية يستطيعون بها إلحاق الأذى بالأقارب الأحياء وبالتالى وجب على الأحياء عبادة أقاربهم الأموات ، ويتكون هذا النظام كذلك من مجموعة من العلاقات الاجتماعية ، فالجماعة القرابية الواحدة تربطها علاقات اجتماعية محددة أساسها التعاون وتقديم العون والأخذ بالثأر وحماية الأقارب وضرورة الزواج من داخل الجماعة أو من خارجها وما إلى ذلك . ولا يخلو هذا النظام الثقافى من عناصر مادية تتمثل فى بناء الأضرحة للآباء والأجداد الموتى وتقدم القرابين فى أوقات معينة وقد يصاحب ذلك ملابس معينة أو تزيين أجسامهم بمواد خاصة ، وكذلك وضع أقنعة خاصة على رؤوسهم ، واستخدام أسلحة معينة فى ذبح الحيوانات المقدمة كقرابين .

وهكذا يتضح لنا أن تقسيم الثقافة إلى القطاعات المادية والاجتماعية والفكرية هو تقسيم تنظيمى من صنع الأنثروبولوجيين ولا يعبر بدقة عن الواقع الثقافى ، ويمكن تشبيه ذلك التقسيم ، بعملية التصنيف التى يقوم بها الأنثروبولوجيون عند تجميعهم الحالات الفردية للمركبات والعناصر الثقافية فى أنماط عامة بغرض دراستها .

خصائص الثقافة :

ينفرد الإنسان عن جميع المخلوقات بقدرته على صنع الثقافة والحفاظ عليها ، ولكنه يشارك عدداً كبيراً من الحيوانات فى المعيشة داخل مجتمع ، بدأ صغيراً وأخذ ينمو ويتسع بمرور الزمن ، وكل مجتمع بشرى له ثقافة خاصة به تميزه عن باقى المجتمعات ، وقد يحدث أن يوجد تشابه قوى بين مجتمعين لقوة الاتصال بينهما وتشابه المراحل التاريخية والبيئة الجغرافية ، وبالرغم من وجود مثل هذا التشابه فإنه لا يصل أبدا إلى حد التطابق ، وذلك لأن كل مجتمع تتميز ثقافته بطابع خاص ، وإذا صدق المبدأ القائل بعدم تطابق شخصيتين ، فبالأولى أن نقبل مبدأ عدم تطابق الثقافات ، لأن الثقافة الواحدة يشترك فى صنعها عدد كبير من الشخصيات بالإضافة إلى عناصر أخرى غير إنسانية . واليوم إذا تنقلنا فى

القرى العربية أوحتى فى قرى دولة عربية واحدة مثل مصر نجد تميز ثقافة كل قرية بطابع خاص يميزها عن القرى الأخرى . وقد تتمثل تلك الاختلافات فى اللهجة أو فى نظم الزواج أو فى الرقصات الشعبية أو النظم الاقتصادية وما إلى ذلك ، وبالرغم من تلك الاختلافات الفرعية فإننا ندخل جميع القرى العربية فى ثقافة كبرى نطلق عليها ثقافة القرية العربية ، ويرى البعض أن جميع القرى فى العالم تجمعها خصائص عامة بحيث يمكن أن نقول بوجود الثقافة القروية أو الزراعية ، وكذلك الحال بالنسبة للمجتمعات الحضرية وما إلى ذلك . وبرغم التباين الضخم بين ثقافات الإنسان سواء كانت بدائية أو قروية أو تجارية أو صناعية فإنه يمكن التحدث عن خصائص عامة للثقافة تشترك فيها جميع الثقافات. وفيما يلى عرض موجز لتلك الخصائص :

١ ــ الثقافة إنسانية :

الإنسان هو الحيوان الوحيد الذى منحه الخالق جهازاً عصبياً خاصاً وقدرات عقلية فريدة تتيح له إمكانية ابتكار أفكار وأعمال جديدة ، ويتميز ذلك الجهاز العصبى كذلك بقدرة فائقة على تغيير السلوك البشرى من وقت لآخر للتكيف مع الظروف البيئية والاجتماعية الجديدة دون الحاجة إلى ضرورة حدوث تغيرات عضوية ، فمثلا انتقل الإنسان العاقل من المناطق الدافئة إلى مناطق باردة جداً وتكيف معها عن طريق اختراع الملابس المصنوعة من الصوف والفراء وكذلك عن طريق اختراع بناء المسكن فى داخل الثلوج واستخدام شحوم الحيوانات للتدفئة وما إلى ذلك ، وانتقل الإنسان كذلك من المناطق الدافئة إلى المناطق الاستوائية وتكيف معها باختراع أفكار وأعمال جديدة مثل عدم استخدام الملابس واختراع مساكن تخفف من الحرارة والرطوبة وما إلى ذلك . وانتقل الإنسان من طور جمع القوت إلى طور الصيد وأخيراً إلى طور الرعى والزراعة دون ظهور تغيرات عضوية تذكر ، وإنما الذى تغير هو ثقافته أى مجموع أفكاره وأعماله .

قد يتساءل القارئ : لماذا يختص الإنسان وحده دون سائر المخلوقات بالثقافة فى حين يشترك مع بعض الحيوانات فى المعيشة داخل مجتمع ؟

إن الحياة الاجتماعية التى تعيشها الفيلة وجماعات النحل والنمل وغيرها هى تصرفات فطرية ، ويرى الكثيرون أن الإنسان كذلك لديه دافع فطرى يحتم عليه التجمع فى جماعات مختلفة الحجم ، ولذلك تمثل المعيشة فى جماعات سلوكا فطرياً ، وبما أن بعض الحيوانات تشترك مع الإنسان فى هذا الدافع وغيره من الدوافع الفطرية ، فإن ظاهرة تكوين المجتمعات لا ينفرد بها الإنسان وحده . أما فيما يتعلق بالثقافة فالأمر يختلف تماماً ، وذلك لأن الثقافة هى أفكار يخترعها العقل البشرى وينفذها الإنسان بأعضائه وبغيرها من الأدوات والآلات التى يصنعها ، ولا خلاف على أن العقل ــ وأقصد به هنا القدرة على التفكير وبالتالى على اختراع الأفكار والأعمال التى من شأنها إشباع حاجات الإنسان والتكيف من البيئة ــ قدرة خاصة بالإنسان وحده، وإذا تركنا التحليل العلمى ونظرنا ببساطة إلى الحياة

أمامنا ، لا نجد حيواناً غير الإنسان يصنع الأدوات والآلات والمساكن والأثاث والمدن والمصانع وما إلى ذلك، ولا نجد حيوانًا غير الإنسان له لغات متمايزة فى أصواتها وحروفها وقواعدها ، ولا نجد حيوانًا غير الإنسان له قيم تنير له الطريق بحيث تحدد له ما يجب أن يكون عليه سلوكه ، ويمكن تطبيق تلك المقارنة على باقى النظم الثقافية . والعقل ليس ملكة غيبية ولكنه يتمثل فى مجموعة من المراكز العصبية والحسية فى مخ الإنسان ، ولا يوجد عند غير الإنسان مثل تلك المجموعة ، بل إن الإنسان يتميز بمراكز عصبية معينة لا توجد عند غيره ومن أمثلة ذلك مركز التخيل ومركز التذكر ، وهكذا يتضح لنا مما سبق أن الثقافة خاصة بالإنسان فقط .

٢ ـ الثقافة مكتسبة :

يكتسب الإنسان الثقافة من مجتمعه منذ مولده عن طريق الخبرة الشخصية. وبما أن كل مجتمع إنسانى يتميز بثقافة معينة محددة بزمان ومكان معين ، فإن الإنسان يكتسب ثقافة المجتمع الذى يعيش فيه منذ الصغر ،ولا تؤثر العوامل الفسيولوجية والسلالية فى تلك العملية أى عملية التنشئة الثقافية[١] أوالاجتماعية[٢] وهى عملية نقل ثقافة المجتمع ونظمه الاجتماعية إلى الطفل الذى يعيش فيه ، والمقصود بذلك أن أى طفل بشرى ، مهما تكن السلالة التى يرجع إليها . يستطيع أن يلتقط ثقافة أى مجتمع إذا عاش فيه فترة زمنية كافية ، فمثلا إذا أخذنا طفلا زنجيًا من قبيلة الإيبو فى نيجيريا ووضعناه فى أسرة مصرية منذ الصغر ، فإنه يتكلم العربية ولن يتكلم لغة الإيبو ، كذلك الحالة بالنسبة للنظم الثقافية الأخرى .

وإذا قلنا إن الثقافة مكتسبة فإننا بالتالى لا ندخل فى نطاقها الدوافع الفطرية وكذلك السلوك الفطرى والأفعال المنعكسة والحركات الفسيولوجية فى داخل جسم الإنسان وما إلى ذلك[٣] ، ولا يتعارض هذا مع القول بأن معظم النظم الثقافية قد اخترعها الإنسان لإشباع حاجات فطرية ، فمثلا نظام جمع الطعام أو نظام الصيد أو نظام الرعى أو الزراعة ، كل تلك الأنظمة من شأنها إشباع الدافع الفطرى وهو الشعور بالجوع وجانبه النزوعى المتمثل فى البحث عن الطعام ، اخترع الإنسان تلك الأنظمة التى هى فى مجموعها أفكار وأعمال معينة بغرض إشباع حاجاته الفطرية ، وهكذا فإن الأنظمة الثقافية من اختراع الإنسان وتنتقل من فرد إلى آخر ومن جيل إلى جيل عن طريق التعلم سواء كان مقصوداً أو غير مقصود ويطلق على مجموع النظم الثقافية التى تتراكم من جيل إلى جيل اصطلاح التراث الثقافى والاجتماعى وتختلف المجتمعات الإنسان فى تراثها الثقافى سواء من حيث الكم أو الكيف .

---

(١) Enculturation.

(٢) Socialization.

(٣) دكتور أحمد أبو زيد : البناء الاجتماعى ، الجزء الأول ، المفهومات — الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٦ — ص ٨٩ .

٣ ـ الثقافة أفكار وأعمال :

يقوم الإنسان فى كل مجتمع بإنشاء علاقات مع ثلاثة عوالم : العالم المادى والعالم الاجتماعى والعالم الفكرى والرمزى . ولم يقف الإنسان مكتوف الأيدى أمام البيئة الجغرافية وعناصرها ، وإنما أخذ يشكل فيها ويحولها إلى أدوات وآلات ومنازل ومدارس ومصانع . وهذه العناصر المادية تحولت إلى أعمال إنسانية بعد أن أثر فيها الإنسان ، ويجب ملاحظة أن كل عمل إنسانى لا يمكن أن يتم ما لم تسبقه فكرة وإرادة التنفيذ ، وهكذا لا تخرج العناصر المادية للثقافة عن كونها أفكاراً مجسدة فى أعمال . أما العالم الاجتماعى فيشتمل على النظم الاجتماعية التى تحدد علاقة الإنسان بأخيه الإنسان فتوجد النظم الاقتصادية من تعاون وملكية خاصة وملكية مشاعة وما إلى ذلك ، وكذلك توجد النظم السياسية التى تحدد ظاهرة السلطة والقوة فى المجتمع وعلاقة الحاكم بالمحكومين ، وهناك النظم العائلية والعادات والتقاليد ، إذا حللنا تلك العلاقات الاجتماعية نجد أنها ترجع فى النهاية إلى تصرفات إنسانية وأفكار أى إلى أعمال وأفكار . وفى علاقة الإنسان بعالم الأفكار المجردة والرموز نجد نظماً ثقافية تحدد تلك العلاقة بطابع معين فى كل مجتمع إنسانى ، ومن أمثلة تلك النظم اللغة والدين والفن والقيم ، وهذه النظم ، وإن كان يغلب فيها جانب الأفكار والعقائد والقيم إلا أنها لا تخلو من أعمال . يتضح مما سبق أن الثقافة إذا نظرنا إليها كعناصر أو مركبات ونظم أو حتى كقطاعات لا تخرج فى النهاية عن كونها أفكاراً وأعمالا اخترعها الإنسان لسد حاجاته الأولية والثانوية .

٤ ـ الثقافة كل أو نسيج متداخل :

لا تتكون الثقافة من مجموعة من الأعمال والأفكار المنعزلة عن بعضها وإنما تتكون من كل متداخل العناصر والقطاعات [1]، ولا يستطيع أصحاب الثقافة الكشف عن هذا التداخل والتساند بين أجزاء الثقافة ، وإنما يكشف ذلك التداخل الأنثروبولوجى بعد فترة من التدريب الميدانى تلى دراسته الجامعية ، ويفضل الأنثروبولوجيون دراسة ثقافة مجتمع لا ينتمون إليه ، وذلك لصعوبة تحقيق النظرة الكلية الموضوعية اللازمة لدراسة الثقافة إذا كان الأنثروبولوجى يدرس ثقافته . يقوم الأنثروبولوجى بدراسة وصفية للعناصر والنظم الثقافية الخاصة بالمجتمع موضوع الدراسة ، وبعد ذلك يحلل تلك النظم بغرض تحديد التداخل الوظيفى بينها والتوصل فى النهاية إلى تحديد ثقافة ذلك المجتمع ككل أوكبناء متكامل الأجزاء . وإذا رجعنا إلى الدراسات الثقافية الخاصة بالقرى العربية نجد أنها تجمع على وجود علاقة وثيقة بين الدين والنظم الثقافية الأخرى ، فالدين ينظم العلاقات العائلية ، وترجع معظم المثل العليا العربية من تدين وشجاعة وفضيلة إلى الإسلام . وكذلك يؤثر الدين فى حياة العرب الاقتصادية من عادات المأكل والملبس ونظام الميراث والوصية ، وإذا تجولنا فى القرية العربية نسمع اسم الجلالة يتردد دائما سواء فى محادثات العرب اليومية أو فى مآذن الجوامع عند دعوة المسلمين للصلاة .

---

(١) د. أحمد الخشاب : دراسات أنثروبولوجية ـ دار المعارف بمصر ـ القاهرة ١٩٧٠ ، ص ٦٦ .

٥ ــ الثقافة اجتماعية :

تدرس الثقافة فى الجماعات والمجتمعات . وذلك لأنها عادات المجتمعات وليست عادات الأفراد ، وإذا درس الأنثروبولوجى سلوك الأفراد ليستنتج منها أنماط الثقافة ، فإنه يدرس هؤلاء الأفراد كأعضاء فى جماعة معينة وليس بصفتهم الفردية الشخصية . إن دراسة الفرد كشخصية متميزة هو موضوع عالم النفس وليس موضوع الأنثروبولوجى ، وتختلف النظم الثقافية فى مدى شمولها ، فهناك نظم تطبق على جميع أفراد المجتمع الواحد . وفى الغالب تتعلق تلك النظم بالمقومات الأساسية لوجود المجتمع واستمراره ، ومن أمثلة ذلك نظم الضبط الاجتماعى من عرف وقوانين . يتعرض المخالف لعقوبات متنوعة قد تصل إلى حد الإعدام . ولكن لا تتمتع كل النظم الثقافية بذلك الشمول فى التطبيق ، بل إن عدداً كبيراً من النظم (وخاصة فى الثقافات المتمدينة) يطبق على جماعة معينة داخل المجتمع الواحد ولا يطبق على الجماعات الأخرى ، ويمكن تقسيم النظم الثقافية على أساس مدى شمولها إلى ثلاثة أنواع :

(ا) العموميات[1] : وهى النظم الثقافية التى يتبعها كل أفراد المجتمع ، ومن أمثلة ذلك اللغة فى المجتمعات البدائية خاصة ، فإنه يندر أن يعرف أحد من أفراد القبيلة لغة غير لغة قبيلته ، ونقدم مثالا آخر من الثقافات المتمدينة وهو قانون العقوبات الخاص بمنع القتل والسرقة والاغتصاب ومعاقبة المخالف ، ومن الأمثلة التى نجدها فى المجتمعات البدائية والمتمدينة نظام المحارم الذى يمنع الزواج من أقارب معينين وخاصة الأصول والفروع .

(ب) البدائل :[2] ، وهى مجموعة من النظم والعناصر الثقافية التى تطبق فى موقف معين وللفرد الحرية فى اختيار أحدها وترك الباقى . ومن أمثلة ذلك بعض نظم الزواج فى الثقافة الإسلامية فالمسلم يستطيع أن يتزوج بنت عمه أو بنت عمته أو بنت خاله أو بنت خالته أو من غير قريباته وحتى يستطيع أن يتزوج فتاة لاتدين بالإسلام وإنما بالمسيحية أو اليهودية . ويستطيع الصبى العربى أن يحترف النسيج أو الزراعة أو البرادة أو إصلاح السيارات أو النجارة وما إلى ذلك . ويجب هنا ألا يفهم أن هذه الحرية لا قيود لها ولا حدود عليها وإنما هناك حدود تحددها الثقافة ذاتها ، فبالنسبة لحق المسلم فى الزواج لا يستطيع أن يتزوج من فتاة وثنية مثلا ، وفيما يتعلق بالحرف يعاقب الصبى إذا تعلم النشل أو السرقة من المنازل .

(حـ) الخصوصيات[3] : يشتمل كل مجتمع على تقسيمات فرعية فى داخله ، وتزداد تلك التقسيمات كلما تقدمت ثقافته وزادت درجة التخصص بين أعضائه ، وتتميز كل جماعة بنظم وعناصر ثقافية خاصة بها ولا توجد فى كثير من الأحيان عند غيرها ، فمثلا تختلف الملابس على أساس النوع فى

---

(١) Universals.

(٢) Alternatives.

(٣) Specialties.

معظم المجتمعات ، إذ لا يمكن للفتى العربى أن يسير فى الطريق وهو يلبس (فستانا) أو حذاء عاليا . وإذا نظرنا إلى مجتمع مدينة القاهرة مثلا نجد بداخله المئات من التقسيمات الفرعية ، ويشمل كل قسم على جماعة متماسكة لها نظمها الثقافية الخاصة ، فهناك جماعات العمال والنجارين والتجار والطلبة والأطباء والمهندسين والصيادلة والمحاسبين والضباط والجنود وموظفى الشركات وموظفى الحكومة وما إلى ذلك ، وتبين الدراسات الميدانية أن كل جماعة لها أنماط ثقافية تميزها عن غيرها ، فمثلا يميل الأطباء إلى استخدام الألفاظ الأجنبية فى أحاديثهم اليومية وكذلك يتميزون بمستوى اجتماعى معين يختلف تماماً عن مستوى معيشة العمال مثلا ، يطلق على تلك النظم الثقافية الخاصة بالجماعات الداخلة فى إطار المجتمع اصطلاح خصوصيات[1].

تمثل الخصوصيات جانباً كبيراً من ثقافات المجتمعات المتمدينة ، وهى فى الحقيقة عوامل مفرقة ، إذ عن طريقها تتميز كل جماعة بطابع خاص ، وعلى طرف النقيض ، نلاحظ أن العموميات البدائل تلعب دوراً هاماً فى تماسك المجتمع وترابطه ، وذلك لشمول تطبيقاتها ، وتتميز الثقافات البدائية بكثرة العموميات ولذلك لا يختلف سلوك أعضائها كثيراً من فرد إلى آخر ، وكذلك تتميز القبائل البدائية بتماسكها وتضامن أعضائها ، ويمكن أن نصل إلى صورة مشابهة إذا حللنا خصائص ثقافات القرى صغيرة الحجم ، أما المجتمعات المتمدينة كبيرة الحجم فتتميز بكثرة الجماعات الداخلة فيها ، وكثرة الخصوصيات بحيث يضعف التماسك والتضامن الاجتماعى ، وقد يحدث لسكان المنزل الواحد فى المدينة أن يعيشوا فى شقتين متقابلتين عدة سنوات دون أن يعرف أحدهم اسم الآخر ودون أن يكون بينهما مودة أو صداقة ، وهكذا تضعف الرابطة الاجتماعية بين أعضاء تلك المجتمعات ، وترجع بعض أسباب تلك الحالة إلى كثرة الخصوصيات .

٦ ـ الثقافة متنوعة المضمون :

تختلف الثقافات فى مضمونها بدرجة كبيرة فى معظم الأحيان ، وقد يصل هذا الاختلاف إلى درجة التناقض فى بعض الأحيان ، بحيث نجد أن النظم التى يتبعها مجتمع ما ويعتقد أنها الفضيلة بعينها تعتبر جريمة فى مجتمع آخر يعاقب عليها القانون ، ففى قبائل « موريا » بوسط الهند تباح العلاقات الجنسية قبل الزواج بحيث تختار الفتاة صديقها فى أثناء طقوس معينة منها الرقص ، وتبقى معه ثلاث ليال ثم تختار آخر وهكذا ، تعد تلك الحرية الجنسية جريمة فى معظم المجتمعات المتمدينة . وإذا انتقلنا إلى المجتمعات المتمدينة ذاتها نجد الكثير من الاختلاف فى مضمون النظم الاجتماعية والثقافية ، فمثلا يستطيع العربى المسلم المقيم فى دولة عربية أن يتزوج امرأتين فى ظروف معينة ، أما فى الولايات

---

(١) HOEBEL, A. : The Nature of Culture in SHAPIRO, L. (ed) : Man, Culture and Society, Oxford University Press, New York 1960; pp. 172 - 173.

المتحدة الأمريكية فيعد ذلك جريمة تعرف باسم « جريمة تعدد الزوجات » ويعاقب عليها الفرد حتى إذا كان مسلما . وفى المجتمع العربى إذا لبس أحد الأفراد جلبابا أو «بيجامة» فى الطريق لا يعتبر سلوكه شاذاً ، أما فى المجتمع البريطانى فيعد ذلك السلوك شاذاً ويلتف الناس حول من يرتدى الجلباب أو «البيجامة» وكأنه أضحوكة أو بهلواناً يثير السخرية . وإذا حضر زائر إلى أحد الأمريكيين وقت الغداء فإنه لا يدعى لتناول الغداء حتى إذا كانت مائدة الطعام معدة وأفراد العائلة حولها يأكلون ، أما فى المجتمع العربى فيعد هذا التصرف شاذاً لا يتفق مع تقاليد الكرم العربى. ونصل إلى النتيجة ذاتها إذا حللنا التغير الثقافى الذى يحدث فى المجتمع الواحد على مر السنين ، فمثلا كان ملوك قدماء المصريين يتزوجون أخواتهم ، فى حين يعد هذا النظام جريمة نكراء فى المجتمع المصرى الحديث .

قد يتساءل القارئ : لماذا يوجد مثل هذا التناقض والاختلاف فى الثقافات فى حين صانع تلك الثقافات هو الإنسان المتشابه من الناحية البيولوجية ؟

اختلفت الإجابات عن هذا السؤال ، حاول بعض العلماء تفسير تنوع مضمون الثقافة على أساس السلالة التى ينتمى إليه أعضاء المجتمع الواحد ، ففى رأيهم أن بعض السلالات أرقى من الأخرى وتمتلك بالفطرة قدرات ومهارات ومعدل ذكاء مرتفع لاتوجد فى السلالات الأخرى . أثبتت الدراسات النفسية والاجتماعية الحديثة خطأ تلك النظرية وتعصبها للسلالة البيضاء على حساب السلالات الأخرى ، وتبين الإحصاءات على أن زنوج أفريقيا والهنود الحمر يحصلون على أرقى الشهادات ويتفوقون فى أدق المهن الفنية إذا أتيحت لهم فرص متكافئة . ولا توجد ثقافة واحدة متشابهة لكل سلالة ، بل ينقسم أعضاء السلالة الواحدة إلى مئات المجتمعات ذات الثقافات المتباينة .

يرجع تباين مضمون الثقافات إلى عدة عوامل منها ما يأتى :

(ا) للعقل البشرى قدرة خارقة على إختراع أعداد لا نهائية من الأفكار ، ولا توجد حدود تقريباً على تخيلات الإنسان وأفكاره التى يحولها بعد ذلك إلى أعمال ، والإنسان هو الحيوان الوحيد الذى منحه الخالق ميزة العقل والتفكير ، ومن هنا كان الحيوان الوحيد الذى صنع الثقافة ، وكانت ثقافته متنوعة بسبب العقل على اختراع أفكار مختلفة ومتنوعة فى حل المشكلة الواحدة .

(ب) تلعب الطاقة دوراً كبيراً فى تحديد الصورة العامة للثقافة التى يمكن للإنسان أن يصنعها ، فعندما اعتمد الإنسان على الطاقة المخزونة فى جسمه فقط كانت ثقافاته بسيطة بدائية وخاصة فى قطاعها المادى ، وعندما اعتمد على الحيوانات الأخرى وعلى النبات كمورد جديد للطاقة — عن طريق الرعى والزراعة — فتحت أمامه مجالات جديدة لاستغلال هذه الطاقة الضخمة الجديدة التى لم يكن يعرفها عند اعتماده على طاقة جسمه المحدودة ، وكذلك الحال عندما اكتشف موارد أخرى جديدة للطاقة مثل الفحم والبخار والبترول وأخيراً الطاقة الذرية .

(ﺣ) تلعب البيئة الجغرافية وتنوعها دوراً كبيراً فى تنوع القطاع المادى للثقافات ، ولذلك نجد البيئة الجغرافية تقدم للإنسان احتمالات عديدة يختار الإنسان بينها . ولكنه لا يستطيع أن يتجاوز الحدود التى تضعها البيئة الجغرافية ،فمثلا لا يمكن أن نتوقع أن تظهر الزراعة فى مناطق صحراوية قبل ظهورها على ضفاف الأنهار ، وكذلك لا يمكن أن تعتمد الصناعة فى بريطانيا على البترول قبل اعتمادها على الفحم المتوافر فى أرضها ، وهكذا كان لاختلاف البيئة الجغرافية دور كبير فى تنوع الثقافات، ولكن لا يمكن القول بأنها السبب الوحيد لذلك التنوع ،إذ يميل العلماء اليوم إلى رفض أسلوب تفسير أية ظاهرة بسبب واحد .

(د) حجم الجماعة الإنسانية ، تطور هذا الحجم من المعشر الذى يتكون من عدة عائلات إلى القرية وهى مجموعة من العشائر أو عشيرة واحدة لا يتجاوز عدد أفرادها بضعة آلاف وخاصة فى العصور القديمة ،ثم نمت القرية بعد اكتشاف الزراعة وأصبحت القرية الزراعية ذات الأعداد الضخمة ، ثم ظهر نظام المدن، وفى المدن يعيش عدد ضخم جداً من السكان قد يصل إلى عشرة ملايين نسمة ، يوجد ترابط موجب بين درجة النمو الثقافى وحجم الجماعة الإنسانية ، ولذلك تتصف ثقافة المعاشر بالبساطة الشديدة .، أما القرى فهى تمثل درجات متباينة من النمو الثقافى ولكنها فى جملتها أكثر نمواً من ثقافة المعشر، أما المدنيات وهى ثقافة المدن فتمثل ثورة فى النمو الثقافى إذ نقلت الثقافة من طور البدائية إلى طور التمدين .

(ﻫ) مدى الاتصال والتعاون بين الجماعات الإنسانية ، توجد علاقة بين معيشة الجماعات الإنسانية فى حالة انعزالية وتجمد ثقافاتها فى المرحلة البدائية ، وبين اتصال وتعاون الجماعات الإنسانية ونمو ثقافاتها وانتقالها إلى مرحلة التمدين والتقدم .

(و) تلعب القيم التى يؤمن بها المجتمع الإنسانى دوراً كبيراً فى تنوع الثقافات، وترجع بعض تلك القيم للأديان السماوية ، ولذلك نجد فرقاً كبيراً بين مستوى ثقافة المجتمعات الوثنية وثقافات المجتمعات المنتمية للأديان السماوية ، ولا شك أن القيم الكبرى التى تنادى بها تلك الأديان — ومنها العمل والعلم والإخلاص والصدق والتعاون والكرامة وارتفاع مكانة المرأة — تلعب دوراً كبيراً فى النمو الثقافى وتنوع الثقافات .

هذه بعض الأسباب فقط إذ توجد أسباب أخرى غير مباشرة تلعب دورها فى تنوع الثقافات .

٧ — الثقافة متشابهة الشكل :

تبين الأمثلة السابقة أن الثقافات متنوعة ومختلفة فى مضمون وفحوى نظمها ، ولكن إذا نظرنا إلى الإطار الخارجى أو الشكلى لتلك النظم نلاحظ تشابهاً واضحاً فى جميع الثقافات مهما اختلفت فى سلم النمو والتقدم الثقافى ومهما اختلفت الأسس المستخدمة فى قياس تلك الثقافات وتصنيفها ،

فنى كل ثقافة نجد القطاعات الثلاثة سابقة الذكر وهى القطاع المادى والقطاع الاجتماعى والقطاع الفكرى والرمزى ، وفى كل ثقافة نجد نظماً ثقافية متشابهة . وهنا لا نقارن بين مضمون تلك النظم من مركبات وعناصر ثقافية وإنما نهتم بالإطار الخارجى . فمثلا فى كل مجتمع يوجد نظام عائلى سواء كان ذلك نظام العائلة الصغيرة أم نظام العائلة الكبيرة أم نظام الأسرة المركبة . وكذلك الحال بالنسبة لنظام الملبس سواء كان من الفراء الذى يغطى كل أجزاء الجسم أم من أوراق الشجر التى تغطى عورة الإنسان أم الحلة العسكرية المليئة بالأوسمة التى كان يلبسها الفارس فى أوربا فى العصور الوسطى . ويطلق البعض على تلك النظم المتشابهة فى جميع الثقافات اصطلاح الأنماط العالمية للثقافة . ولا يوجد اختلافات واضحة بين الأنثروبولوجيين فى تحديد تلك الأنماط العالمية ، ففيما يتعلق بالعلامة « ويسلر » يحددها كالآتى :

١ — اللغة .

٢ — العناصر والمركبات المادية .

(ا) عادات الطعام .

(ب) المأوى .

(حـ) وسائل النقل والسفر .

(د) الملبس .

(هـ) الأدوات والآلات .

(و) الأسلحة .

(ز) المهن والصناعات .

٣ — الفن : النحت والرسم والموسيقى وما إلى ذلك .

٤ — الأساطير والمعارف العلمية .

٥ — التصرفات الدينية :

(ا) الأشكال الطقوسية

(ب) طقوس المرض .

(حـ) طقوس الموت .

٦ — الأسرة والنظم الاجتماعية :

(ا) أشكال الزواج .

(ب) نظم التسلسل القرابى .

(حـ) الميراث .

(د) الضبط الاجتماعى .

(هـ) الألعاب .

٧ ــ الملكية :

(ا) الملكية العقارية وملكية الأشياء المنقولة .

(ب) مستويات قيمة الأشياء والتبادل .

(حـ) التجارة .

٨ ــ الحكومة :

(ا) الأشكال السياسية .

(ب) الإجراءات القانونية والقضائية .

٩ ــ الحرب :

تعبر تلك الأنماط أو التصنيفات للعناصر والمركبات الثقافية عن الحد الأدنى الذى لابد من توافره فى كل ثقافة مهما انخفض مستواها الثقافى ، وكذلك لابد أن توجد فى أكثر الثقافات تقدماً ونمواً ، ولكن فى حالة الثقافة المتمدينة نجد تشعب كل نمط من تلك الأنماط إلى مئات التفرعات وذلك لأن مبدأ التخصص يطبق بدقة متناهية فى الثقافات المتقدمة .

٨ ــ الثقافة متغيرة ومتصلة :

تتغير ثقافات المجتمعات من وقت إلى آخر، ولكن تختلف درجة وأسلوب وفحوى التغير من ثقافة إلى أخرى، فقد يسير التغير ببطء شديد وذلك لعزلة المجتمع وصغره وجمود تقاليده ، ويتضح ذلك فى المجتمعات البدائية ، وهناك المجتمعات الصناعية التى تتغير بسرعة كبيرة وذلك لتوافر الحوافز للاختراع ولقوة التفاعل الاجتماعى ، وبالتالى يشتد الاحتكاك العقلى مما يساعد على ظهور أفكار جديدة باستمرار ، ويصبح التغير الصفة الغالبة على الكثير من مضمون النظم الثقافية . ويوجد نوع ثالث من الثقافات التى تتغير بمعدل معتدل ويتضح ذلك فى الثقافات الزراعية فى أفريقيا وآسيا وأوربا . والثقافة فى تغيرها لا تقفز فى حلقات منفصلة الأجزاء وإنما يتم هذا التغير فى التراث الثقافى المتصل الأجزاء ، فالتراث الثقافى كل مترابط ومتصل على مر الزمان فى المجتمع الواحد وينتقل من جيل إلى جيل عن طريق التعلم المقصود وغير المقصود ، ويتراكم التراث بمرور الزمن ، ويحافظ كل جيل على التراث الثقافى الموروث من الآباء ، فلا يحطمون المنازل ويهدمون المدن ويحرقون الكتب ويخربون الحقول والمصانع ، وإذا حدث مثل ذلك لا يكون من فعل أعضاء المجتمع وإنما أثناء حروب الأعداء من خارج المجتمع أو داخله ، ويشعر المواطن بألم شديد لما تحدثه تلك الحروب من تخريب للتراث الثقافى الذى بناه الآباء والأجداد بدمائهم وعرقهم .

وعادة تستمر الثقافات لمئات بل لآلاف السنين ، وتتغير عبر تلك السنوات ، وكذلك تتغير الأجيال التى تصنعها والتى تحملها ، ولا يفهم من ذلك أن الثقافة الواحدة خالدة ولا تموت ، قد تموت الثقافة إذا انقرض المجتمع الذى يحملها سواء عن طريق الفناء أو عن طريق الغزو بأن يغزوه مجتمع

آخر ذو ثقافة جديدة ويفرض الثقافة الجديدة بالقوة ، وتموت الثقافة الواحدة كذلك عن طريق اندماج المجتمع فى مجتمع أكبر وظهور ثقافة جديدة نتيجة لانصهار الثقافات القديمة . وتختفى الثقافة عندما تتغير إلى ثقافة مختلفة تماما ، فمثلا اختفت فى مصر الثقافة المصرية القديمة وإن كانت آثارها باقية ، وكذلك اختفت الثقافة المصرية الرومانية والقبطية ، ونعيش الآن فى عصر الثقافة العربية ، فبالرغم من استمرار المجتمع فى المكان نفسه فإن الثقافات تتوالى على المجتمع الواحد على مر السنين . ومن الثقافات التى اختفت بالقوة ثقافات الهنود الحمر فى الأمريكتين وثقافات السكان الأصليين لأستراليا فقد جاء الغزاة والمستعمرون الأوربيون بثقافة متقدمة هى المدنية الغربية وفرضوها بالقوة على تلك الأماكن وقضوا بالقوة أيضاً على المجتمعات الأصلية فى تلك الأماكن وبالتالى اختفت ثقافاتهم الأصلية .

مستويات الثقافة :

جاء جنس الإنسان العاقل وهو الجنس الذى ينتمى إليه جميع البشر الحاليين إلى العالم منذ حوالى ٤٥ ألف سنة ، وبدأ يصنع ثقافته البسيطة رويداً رويداً على مر السنين ، وكان همه الأول التكيف مع البيئة عن طريق توفير حاجاته الأساسية من مأكل ومشرب ومسكن وملبس ، وعاش فترة وهو يعتمد فى قوته على جمع والتقاط الطعام ، ثم عرف الصيد وعاش آلاف السنين معتمداً فى حياته على الصيد وجمع الثمار إلى أن اكتشف الرعى والزراعة منذ حوالى ثمانية آلاف سنة فقط ، بمعنى أن أجدادنا المباشرين عاشوا ما يقرب من ٣٧ ألف سنة بدون زراعة وبدون رعى ، وكانوا يعيشون فى كفاح مرير مع الطبيعة لتوفير قوتهم وصنع أسلحتهم وبناء مسكن يأويهم ويقيهم البرد والحرارة الشديدة أو العواصف والأمطار . تغير الحال بعد اكتشاف الزراعة بالذات إذ توافرت له الإمكانيات لبناء المدن وهنا ظهر مستوى ثقافى جديد يعرف باسم المدنية ، والمدنية هي ثقافة المدن أو الحضر ، ولكى يتضح لنا الفرق الشاسع بين مستوى الثقافات المتمدينة وما سبقتها من ثقافات بدائية أقدم تلك الفروق فيما يلى :

أولا : الثقافات البدائية (١)	ثانيا : الثقافات المتمدينة
١ - الاعتماد فى المعيشة على جمع الطعام والصيد .	١ - الاعتماد فى المعيشة على الرعى والزراعة وأحياناً الصناعة كذلك .
٢ - التكتل فى معاشر وقرى وعشائر .	٢ - التكتل فى قرى زراعية ومدن .
٣ - صغر حجم الجماعات الإنسانية .	٣ - ضخامة حجم الجماعات الإنسانية .
٤ - عدم معرفة القراءة والكتابة .	٤ - معرفة القراءة والكتابة .
٥ - يتكون المجتمع البدائى من أفراد متشابهين فى الخبرات .	٥ - يتكون المجتمع من أفراد مختلفين فى الخبرات .

(١) د. على إسلام الفار : الأنثروبولوجية الاجتماعية - الجزء الأول ؛ دراسة المجتمعات البدائية ، الشركة القومية للتوزيع - القاهرة ١٩٦٨ .

٦ – توافر شعور قوى بالتماسك الاجتماعى لصغر حجم المجتمع .	٦ – ضعف التماسك الاجتماعى لكبر حجم المجتمع .
٧ – العزلة عن بقية المجتمعات .	٧ – الاتصال بالمجتمعات الأخرى .
٨ – ضآلة المعرفة العلمية والخبرة الفنية المعتمدة عليها	٨ – الاعتماد على المعرفة العلمية واعتماد الخبرة الفنية عليها .
٩ – نظام القرابة أساس التنظيم الاجتماعى .	٩ – التخصص فى الوظائف والأدوار أساس التنظيم الاجتماعى .
١٠ – تقسيم العمل على أساس النوع والعمر .	١٠ – تقسيم العمل على أساس الخبرة والتخصص.
١١ – قوة عادة الأخذ بالثأر .	١١ – ضعف أو اختفاء عادة الأخذ بالثأر.
١٢ – ضعف الحافز الاقتصادى أمام التقاليد والمعتقدات الدينية .	١٢ – قوة الحافز الاقتصادى فى تصرفات الناس.
١٣ – الاكتفاء الذاتى فى المجتمع البدائى الواحد .	١٣ – قوة الاتصال والتبادل بين المجتمعات بحيث يصعب تحقيق الاكتفاء الذاتى لإحداها .
١٤ – عمليات الضبط الاجتماعى غير رسمية وأساسها العرف والتقاليد .	١٤ – اعتماد الضبط الاجتماعى على القوانين الرسمية المقننة فى مواد .
١٥ – بساطة النظام السياسى .	١٥ – تعقد النظام السياسى .
١٦ – النظام الأخلاقى والقرابى هو الأساس الذى يقوم عليه الترابط الاجتماعى فى المجتمع البدائى.	١٦ – النظام الاقتصادى والشعور القومى هو أساس ترابط المجتمع .
١٧ – الاعتقاد فى القوى الغيبية المقدسة .	١٧ – سيطرة الاتجاه المادى وما هو محسوس .
١٨ – بساطة تامة فى القطاع المادى للثقافة ولكن قد يوجد تعقيد فى القطاعات الأخرى .	١٨ – تعقد القطاع المادى ويتمثل ذلك فى كثرة الآلات والاختراعات .
١٩ – يقوم مركز الفرد على أساس العائلة أو القبيلة التى ينتمى إليها .	١٩ – يقوم مركز الفرد على أساس خبرته ومستوى تعليمه وممتلكاته الشخصية .

يعترض بعض الأنثروبولوجيين على استخدام إصلاح « بدائى » لأن الكثير من المجتمعات التى يطلق عليها هذا الاصطلاح لا تمثل الحالة الأولى للمجتمع الإنسانى التى لا نعرف عنها إلا القليل كما تدل الآثار المكتشفة حتى الآن ولذلك يفضلون استخدام اصطلاح « شبه بدائى » ، وبرغم دقة الاصطلاح الأخير فإن الميل إلى الاختصار جعل الاصطلاح الأول هو الأكثر انتشاراً ، ويستخدم العلامة « ريدفيلد » » إصطلاح « المجتمع الشعبى » للدلالة على المجتمع البدائى .

وهكذا يمكن تمييز مستويين أساسيين للثقافة ، المستوى البدائى البسيط والمستوى المتمدين المعقد ، واليوم يعيش معظم الجنس البشرى فى المستوى الثقافى المتمدين . ولا يزال يوجد عدد قليل من البشر يعيشون فى مستوى ثقافى بدائى فى أفريقيا وآسيا وأستراليا . ولا شك أنه توجد اختلافات فرعية فى كل مستوى ، فمثلا توجد مجتمعات متقدمة وأخرى نامية وثالثة متخلفة فى المستوى المتمدين .

الفصل الرابع

الشخصية

- **تمهيد**
- **تعريف الشخصية**
- **العوامل المحددة للشخصية**
- **سمات الشخصية وقياسها**
- **نظريات الشخصية**

الفصل الرابع

الشخصية

تمهيد :

وصف الكاتب المصرى أبو الوفاء مبشر بن فاتك القائد شخصية أرسطو فيما يلى :

« كان أرسطوطاليس أبيض أجلح قليلا ، حسن القامة ، عظيم العظام ، صغير العينين ، كث اللحية ، أشهل العينين ، أقنى الأنف ، صغير الفم ، عريض الصدر ، يسرع فى مشيته إذا خلا ويبطئ إذا كان معه أصحابه ، ناظراً فى الكتب دائماً لا يهدأ ويقف عند كل كلمة ، ويطيل الإطراق عند السؤال ، قليل الجواب . ينتقل فى أوقات النهار فى الفيافى ونحو الأنهار ، محباً لاستماع الألحان والاجتماع بأهل الرياضيات وأصحاب الجدل ، منصفاً من نفسه إذا خصم ، معترفاً بموضع الإصابة والخطأ معتدلاً فى الملابس والمآكل والمشارب والمناكح والحركات ، بيده آلة النجوم والساعات . مات وله ثمان وستون سنة »[1] .

يمثل هذا الكلام الذى كتب منذ حوالى ألف عام وصفاً لشخصية أرسطو كما تبدو للملاحظة الخارجية . ويجمع هذا الوصف بين السمات الجسمية والعقلية والخلقية والاجتماعية كما يراها الملاحظ الخارجى . ولكن يمكن أيضا للشخص أن يصف شخصيته بنفسه أى أن يحدد صورة الشخصية كما تبدو فى مرآة الذات ، فمثلا عندما يتحدث شخص عن نفسه بأنه كريم شجاع لماح قوى البنية ، فإنه يستخدم الاستبطان لتحديد شخصيته .

ويجب ملاحظة أن التمييز بين الصورتين السابقتين للشخصية ، الصورة الذاتية والصورة الموضوعية ، هو تمييز تحليلى وليس واقعياً ، بمعنى أن الصورتين ليستا منفصلتين فى الواقع بل هما متضامنتان ومتكاملتان فيما نسميه الشخصية بوجه عام ، إذ أن الشعور بالإنية يتأثر بما يعتقده الغير فينا ، كما أن صفات الشخصية الموضوعية قد تتغير وتتحور بفعل الشعور الذاتى وتحت تأثير الشخصية المثالية التى نتصورها .

---

(١) د. يوسف مراد : مبادئ علم النفس العام — دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٥٤ — ص ٣٤٤ .

قد يقنع القارئ بهذه المقدمة التمهيدية عن الشخصية ويستنتج منها أننا أمام مفهوم واضح المعالم ، فكل منا له شخصيته ، بعض جوانبها يعرفها عن طريق الاستبطان والبعض الآخر عن طريق الآخرين الذين يتعاملون معه ، ويطلعونه من وقت إلى آخر وفى مناسبات عدة عن صفاته كما يرونها . ولكن هل حقاً موضوع الشخصية بهذه البساطة والوضوح ؟

لكى نستطيع الإجابة عن ذلك السؤال نستطلع أولا تعاريف العلماء حول مفهوم الشخصية .

أولا — تعريف الشخصية :

الشخصية من أكثر الظواهر النفسية تعقيداً ولذلك تعددت وتناقضت النظريات التى تحاول تفسيرها ، وبالتالى تعددت وتناقضت التعاريف حولها ، ومما لا شك فيه أنه من المستحيل أن نعرف الشخصية دون الوصول إلى اتفاق حول الإطار المرجعى النظرى الذى سينظر إلى الشخصية من خلاله ، وهكذا فإن تنوع وتعدد تعاريف الشخصية يرجع إلى تنوع وتعدد نظرياتها .

ولايقتصر الخلاف حول تعريف الشخصية على إطار المعرفة العلمية التخصصية وإنما يتجاوزه إلى المعانى الدراجة للشخصية .

ويمكن وضع معظم المعانى الدارجة للشخصية فى فئتين ، ترى الفئة الأولى أن الشخصية تعنى المهارة الاجتماعية والحذق ، فشخصية الفرد تقدر بما له من فاعلية تمكنه من استثارة استجابات إيجابية من جانب عديد من الناس فى ظروف مختلفة .

أما الفئة الثانية فتعتبر أن شخصية الفرد تتمثل فى أقوى الانطباعات التى يخلفها فى الآخرين وأبرزها ، وبذلك يمكن القول أن الشخص له « شخصية عدوانية » أو « شخصية مستكينة » أو « شخصية طيبة » . وهنا يختار الملاحظ صفة أو خاصية مميزة أشد التمييز للمفحوص ويفترض أنها جزء هام من الانطباع يخلفه فى الآخرين ، وتتحدد شخصيته بهذه الصفة أو الخاصية .

وواضح أن الفئتين تتضمنان عنصراً تقويمياً ، فالشخصيات توصف عادة إما أنها سيئة أو طيبة .

وفيما يتعلق بالتعاريف العلمية للشخصية ، فهى أكثر تنوعاً وتعدداً ، فقد استخلص العلامة « ألبورت »[1] فى مسح شامل للدراسات المتعلقة بالشخصية قرابة خمسين تعريفاً مختلفاً صنفها إلى عدد من الفئات الواسعة ، واستخدم فى ذلك عدة أسس للتقسيم ، هذه الأسس هى : الإيتمولوجيا أو أصل المصطلح والمعانى الفلسفية والمعانى الفقهية والمعانى الاجتماعية والمظهر الخارجى والمعانى النفسية .

---

(١) Allport, G., Personality : A Psychological Interpretation, Holt, N.Y., 1937. P. 12.

ويرجع اختلاف وتعدد تعاريف الشخصية إلى عدة عوامل ، منها ، كما ذكر سابقاً ، تنوع وتعدد نظريات الشخصية وذلك لحداثة علم الشخصية. ، ومن تلك العوامل تعقيد مفهوم الشخصية ، فالشخصية تشمل جميع الصفات الجسمانية والعقلية والخلقية فى حالة تفاعلها مع بعضها من ناحية ، وتفاعلها مع البيئة الطبيعية والاجتماعية من ناحية ثانية وتفاعلها مع المواقف اللانهائية العدد التى يختبرها الفرد منذ الولادة حتى الممات من ناحية ثالثة ، ويختلف العلماء فى تأكيد أحد تلك العوامل على حساب العوامل الأخرى ، ومن الأسباب الأخرى لتعدد وتنوع تعاريف الشخصية أهمية موضوع الشخصية لكثير من التخصصات العلمية ، إذ يتفق علماء النفس وعلماء الوراثة وعلماء الحياة وعلماء الاجتماع والأنثروبولوجيون على أهمية موضوع الشخصية فى دراساتهم ، فالأفراد هم المكونات الأساسية فى كل الأنساق الاجتماعية والثقافية، ومما لا شك فيه أن يتحيز كل فريق لمجال تخصصه عند تعريف الشخصية .

ويجدر بنا هنا أن نقدم أهم تعريفات الشخصية لكى نعطى فكرة واضحة عن الاتجاهات الفكرية المختلفة حول هذا الموضوع .

تعريف عالم النفس « برينس » :

« الشخصية هى المجموع الإجمالى لكل الأمزجة والدوافع والميول والشهوات والغرائز الفطرية والبيولوجية وكذلك الميول والاتجاهات المكتسبة عن طريق التجربة »(١) .

تعريف عالم النفس « واطسن » :

« الشخصية هى مجموع الأنشطة التى يمكن اكتشافها عن طريق الملاحظة الواقعية لفترة طويلة تسمح بتوفير مادة يمكن الاعتماد عليها » (٢) .

تعريف عالم النفس « أدرنو » وزملائه مؤلفى كتاب « الشخصية المسيطرة » الشهير :

« الشخصية هى تنظيم ثابت — بدرجات متفاوتة — للقوى الموجودة فى الفرد ، وتساعد تلك القوى الثابتة على تحديد استجابة الفرد فى المواقف المختلفة »(٣) .

تعريف عالم النفس «يوسف مراد» :

« الشخصية هى الصورة المنظمة المتكاملة لسلوك فرد ما يشعر بتميزه عن الغير ، وليست هى مجرد مجموعة من الصفات ، وإنما تشمل فى الآن نفسه ما يجمعها وهو الذات الشاعرة، وكل صفة مهما كانت ثانوية تعبر إلى حد ما عن الشخصية بأكملها » .

---

(١) Prince, M. : The Unconcious, Macmillan Co., N.Y. 1929, P. 532.

(٢) Watson, J. : Behaviorism, W.W. Norton, N.Y. 1930.

(٣) Aderno, T., Frankel - Brumswick, E., Levinson, D. and Sanford, R. : The Authoritarian. Personality, Harper, N.Y. 1950, P. 5.

تعريف عالمى الاجتماع « أوجبورن ونيكوف » :

« تعنى الشخصية التكامل النفسى والاجتماعى للسلوك عند الإنسان ، وتعبر عادات الفعل والشعور والاتجاهات والآراء عن هذا التكامل »[١] .

تعريف الأنثروبولوجى « لينتون » :

« الشخصية هى الجمع المنظم للعمليات والحالات النفسية الخاصة بالفرد »[٢] .

تعريف العالمين « كلاكهوهن وموراى » :

« الشخصية هى استمرار الأشكال والقوى الوظيفية التى تظهر من خلال تتابع العمليات وصور السلوك الظاهرى المنظمة والسائدة منذ الولادة حتى الموت »[٣] .

تعريف الأنثروبولوجى النفسى « بارنو » :

« الشخصية هى تنظيم ثابت لدرجة ما للقوى الداخلية للفرد ، وترتبط تلك القوى بكل مركب من الاتجاهات والقيم والنماذج الثابتة بعض الشىء والخاصة بالإدراك الحسى ، والتى تفسر - لدرجة ما - ثبات السلوك للفرد »[٤] .

ترجع معظم الاختلافات فى التعاريف السابقة إلى تحيز كل فريق من العلماء إلى نظريات فى مجالات تخصصاتهم سواء العريضة أو الدقيقة . فبعض علماء النفس يهتمون بالجوانب الفردية فى الشخصية ، أى بما يميز شخصية فرد ما عن باقى الشخصيات ، ويهتم البعض الآخر منهم بالجوانب البيولوجية والوراثية فى الشخصية ، وهى الجوانب العامة فى كل شخصيات البشر ، ويمكن التعميم بشكل من التحفظ فنقول إن علماء النفس فى تعاريفهم للشخصية يهتمون بإبراز أهمية الاستعدادات الفردية والجوانب البيولوجية والوراثية فى الشخصية ، ويتخصص بعضهم - علماء التحليل النفسى والأطباء النفسيين فى دراسة الشخصيات غير السوية . أما علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا فيهتمون بدراسة الشخصيات السوية فى المجتمع ، وهم وإن كانوا يعترفون بأن كل إنسان لديه تكوينه الموروث أو جهازه البيولوجى إلا أن اهتمامهم يتركز حول التشابه بين شخصيات أعضاء الجماعة الواحدة سواء كانت جماعة كبيرة أم صغيرة ، ولذلك يهتمون بالأسلوب العام للأفعال التى تصدر عن الشخصية ، ومن خلال ذلك الأسلوب العام يتصرف الشخص نحو نفسه ونحو الآخرين ونحو العالم ؛ إن الشخصية عندهم

---

(١) Ogburn, W. and Nimkoff, M., A Handbook of Sociology, London 1960, P. 191.

(٢) Linton, R., The Cultural Background of Personality, Appleton Century Crofts INC. N.Y. 1945, P. 84.

(٣) Kluckhohn, C. and Murray, H., Outline of A Conception of Personality, in : Personality in Nature, Soiety and Culture, Alfred. A. Knopf, N.Y. 1959, P. 49.

(٤) Barnouw, v. Culture and Personality. The Dorsey Press, INC., Homewood., Illinois, 1963, P. 8.

هي ذلك التنظيم الذي يجمع اتجاهات الفرد وأفكاره وعاداته ورغباته وكذلك قيمه وتصوره لنفسه وخطته العامة في الحياة .

يتفق علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا كذلك على أن الشخصية تتكون وتنمو من خلال تفاعل الفرد مع الآخرين، وبدون ذلك التفاعل وقبله لا يكون للفرد شخصية.

من هنا كان تركيزهم في دراسة الشخصية على الاتجاهات العامة أي التشابه في تصرفات شخصيات الجماعة الواحدة، فالاتجاه هو الوحدة الرئيسية في التنظيم أي في الشخصية ، ويقصد بالاتجاه — عندهم — ميل مكتسب يجعل الفرد يتصرف بصورة معينة نحو شخص معين أو شيء أو معرفة .

ولا يقتصر مفهوم الاتجاه على الأفعال وإنما يشمل أيضا الميول في الشعور والتفكير نحو شيء معين . إن اهتمام علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا بتشابه شخصيات أعضاء الجماعة جعلهم يؤكدون أهمية التنظيم في الشخصية، فالشخصية هي تنظيم يجمع اتجاهات الفرد ، ويتكون هذا التنظيم من خلال تفاعل الفرد مع غيره في الحياة الاجتماعية، فنحن نعتمد على الآخرين كحوافز للسلوك وكمعلمين للسلوك .

وبرغم ما تتيحه التعريفات السابقة من إعطاء فكرة تمهيدية عن الموضوع قيد الدراسة، إلا أنه من الصعب وصف ظاهرة معقدة مثل الشخصية في كلمات قليلة أي عن طريق التعاريف وخاصة عندما تختلف عن بعضها البعض بصور واضحة، لذلك فإن توخي الدقة تحتم دراسة الشخصية كحقيقة تعاونت العلوم النفسية والاجتماعية في الكشف عنها، ولذلك ندرس العوامل والمحددة للشخصية وسمات الشخصية ونظريات الشخصية .

ثانياً — العوامل المحددة للشخصية :

تتفاعل عوامل كثيرة في تكوين وتحديد الشخصية ، ويمكن تصنيف تلك العوامل في عدة مجموعات متداخلة ومتفاعلة فيما بينها في الواقع ، والتمييز بين تلك المجموعات من قبيل التوضيح والتحليل ولا يقوم على أساس/ تقرير الواقع . هذه المجموعات هي المحددات الجبلية ومحددات عضوية الجماعة ومحددات الدور ومحددات أساليب النظر إلى الحياة والمحددات الموقفية ومحددات مرحلة الطفولة .

١ — المحددات الجبلية[1] :

يقصد بها الخصائص الجسمية التكوينية البيولوجية لفرد ما، وهذه الخصائص من نتاج التفاعل بين التأثيرات التابعة من الجينات (عوامل الوراثة) والتأثيرات النابعة من البيئة . ولذلك يفضل اصطلاح « جبلة » على « وراثة » لأن السمات الجسمية والبيولوجية في فرد ما في زمن محدد ليست سمات موروثة ،

---

(١) Constitutional Determinants.

إذا استخدمنا المعنى الضيق لاصطلاح وراثة . وإنما تلك السمات هى نتاج سلسلة طويلة من التفاعلات المعقدة بين الإمكانيات الموروثة بيولوجياً وظروف البيئة . إن الفصل القاطع بين الوراثة والبيئة لم يعد أمراً مقبولا علمياً فى الوقت الحاضر ، وذلك لأنه من النادر الفصل بين العوامل الوراثية والعوامل البيئية فى تكوين الشخصية ، لأن المجموعتين تعملان معاً ومن تفاعلهما تظهر السمات الجسمية والبيولوجية للشخصية . فالوراثة تقدم إمكانيات متعددة ولا تتحول تلك الإمكانيات إلى سمات واقعية إلا إذا توافرت بيئة طبيعية وثقافية معينة . وفى حالات نادرة ترجع سمات معينة فى الشخصية إلى الوراثة فقط مثل الحال فى أمراض معينة لا يمكن الإفلات منها .

توفر الوراثة البيولوجية المادة التى منها تتكون الشخصية ، وتحدد كذلك اتجاهات نمو الجسم ، مثل شكل الجسم فى زمن محدد ، وتضع العوامل الوراثية حدوداً فى إطارها يتذبذب التنوع . وتوجد بعض الأدلة التى تشجع على الاستنتاج بأن العوامل الموروثة (التركيبات الجينية) تنقل من الآباء للأبناء سمات أخرى غير الصفات الجسمية الخارجية ، ومن أمثلة ذلك ما يأتى :

إمكانيات التعلم المتنوعة — الفترة الزمنية التى يحدث فيها رد الفعل — الحركة الذاتية — التعبير الانفعالى — مستوى الطاقة — درجة التسامح — الاستعداد للإحباط — معدلات النمو — خصائص مرتبطة بالدورة الشهرية — معدل النشاط — الاستعداد للاكتئاب — الشعور بالنشاط الزائد . هذا بالإضافة إلى الأمراض الموروثة مع ملاحظة إمكانية حدوث تنوعات فى خصائص تلك الأمراض[١] .

ومن المحددات الجبلية الهامة فى تكوين الشخصية عامل النوع وعامل العمر ، فلا شك أن هناك تنوعاً بين شخصية المرأة وشخصية الرجل فى كل المجتمعات ، وإن كانت بعض تلك الاختلافات ليست مطلقة أو ثابتة وإنما تخضع للمحددات الثقافية ، وكذلك تختلف شخصية الفرد فى مراحل العمر (الطفولة — الشباب — والشيخوخة) فى كل المجتمعات وإن اختلفت السمات باختلاف المكان والزمان .

ومن الواضح أن التكوين الجسمى عند الفرد يؤثر على شخصيته وذلك لأن هذا التكوين يؤثر على علاقاته الاجتماعية وسلوكه ، ومن أمثلة ذلك طول القامة أو قصرها والقوة أو الضعف ، ولون البشرة فى بعض المجتمعات ، ومدى توافر صفة الجمال عند المرأة وصفة الوسامة عند الرجل ، وتخضع تلك الخصائص الجسمية لمدى تلاؤمها مع الأنماط الثقافية .

ومن خلال ذلك التلاؤم أوعدمه تؤثر الخصائص الجسمية فى حاجات الإنسان وتوقعاته . إن نوع العالم الذى يجده الإنسان حوله يتحدد إلى درجة كبيرة عن طريق ردود فعل الآخرين لمظهره الخارجى ولقدراته الجسمية . فمن النادر مثلا أن نرى شاباً ضعيف البنية يحاول تحقيق انتصارات رياضية كنوع من التعويض ،

---

(١) Kluckhohn, C. Murray, H., Personality Formation : The Detreminats, in : Personality in Nature, Society and Culture, N.Y. 1959, PP. 55 - 57.

إن الصورة العادية هى أن يتقبل ذلك الفرد — ولو على مضض — حقيقة ضعفه الجسمانى ويبتعد عن الاشتراك فى المباريات والنشاطات التى تتطلب قوة جسدية .

وقد أشار العلامة « وليمس » للتنوع الكبير فى وظائف أعضاء الجسم والنظم العضويه فمثلا بالرغم من أن عدد الغدد الجندرقية هو أربع غدد فى الإنسان ، فإن عددها قد يتراوح من ٢ إلى ١٢ غدة فى الفرد الواحد[١] .

وقد بين العلامة « كينسى » وزملاؤه التنوع الكبير فى قوة الدافع الجنسى عند الذكور .

وهناك من العلماء من تحيز للعوامل البيولوجية والوراثية واعتقد أنها المحددات الوحيدة للشخصية . فمثلا يرى العلامة « بيرمان » أن الاختلاف فى وظائف الغدد الصماء هو الطريق الموصل لفهم الاختلافات بين الشخصيات ، وحدد أنماط الشخصيات ووضع لها أسماء ترجع لزيادة أو قلة إفرازات الغدد الصماء ، فهناك نمط الشخصية فوق الكلية والشخصية النخامية والشخصية الدرقية وغيرها من أسماء الغدد الصماء[٢] .

ويرتبط بالمحددات البيولوجية العوامل البيوكيميائية ، فإنه من الملاحظ أن بعض الأفراد لديهم استعداد للتأثر بصورة أقوى من غيرهم من نقص الفيتامينات مثلا ، وقد لوحظ أن نقص الحامض النيوكتينى قد يؤدى إلى أمراض ذهانية ، وتختفى تلك الأمراض عندما يعالج ذلك النقص . وكذلك يترتب على نقص فيتامين ب ١ ظهور أمراض عصابية وذهانية ، وتجرى أبحاث لتحديد العوامل البيوكيميائية التى تسبب مرض الفصام . ولا يمكن إغفال أثر المخدرات والمشروبات الروحية وعقاقير الهلوسة على الشخصية ، وكذلك لا يمكن التغاضى عن نجاح العقاقير المهدئة فى علاج الأمراض العصابية والذهانية . ويمكن الإشارة كذلك إلى التغيرات التى تحدثها بعض الأدوية فى الشخص السوى وما يترتب على ذلك من تعرض الشخص بصورة مؤقتة لأمراض ذهانية مثل الفصام ، وفى حالة الفصام يفقد الشخص الاستجابات العاطفية نحو الآخرين وتظهر أعراض الهزاءات والهلاوس .

هذا بالإضافة إلى ما أظهرته الرسوم الكهربائية للمخ من وجود علاقة بين فروق معينة فى الشخصية وفروق ناشئة عن النشاط الكهربائى الذى يحدث فى المخ .

ولإعطاء صورة لأثر العوامل الوراثية على تكوين الشخصيات غير السوية ، نشير إلى الدراسة الأمريكية الخاصة ببحث حالة ٦٩١ من الأقارب الفصاميين ممن كان لهم إخوة وأخوات توائم ، فقد تبين أن النسب المئوية لحالات الفصام كانت كما يأتى :

بين الإخوة والأخوات من أحد الوالدين ١,٨٪ ، وبين من تربط بينهم صلة زواج ٢,١٪ وبين

---

(١) Williams, R., Biochemioal Individuality, The Basis For The Gerontotrophic Concept, John Wiley Sons, Inc. N.Y. 1956, P. 84.

(٢) Berman, L., The Glands Regulating Personality, Macmillan Co. N.Y. 1928.

الإخوة غير الأشقاء ٧٪ ، وبين الأبوين ٩،٢٪ ، وبين الأشقاء ١٤،٣ ٪ وبين التوائم غير المتطابقة (من بويضتين مختلفتين) ١٤،٧٪، وبين التوائم المتماثلة (من بويضة واحدة منشطرة) ٨٥،٨٪ .

ويدل وجود الفصام بين التوائم المتماثلة بنسبة أكبر مما هي عليه بين التوائم غير المتماثلة (خمسة أضعاف تقريبا) على قوة أثر العامل الوراثي في الإصابة بمرض الفصام[١] .

ويجب إعادة التأكيد بأن تأثير الوراثة في الشخصية مرتبط بتفاعل العوامل الوراثية مع العوامل البيئية بصورة معينة ، ويجب ملاحظة أن الذي يورث ليس السلوك نفسه ، وإنما الذي يورث هو بعض خصائص في الجهاز المركزي أو الثانوي ، وعندما تتفاعل تلك الخصائص العصبية مع البيئة في ظروف معينة تلعب دورها في تحديد السلوك ، فالإنسان يرث استعدادات للتصرف بشكل معين ، فإذا ما توافرت البيئة وعوامل استثارة الاستعدادات كانت الاستجابة أو السلوك على نحو معين .

يشمل تاريخ مدارس علم النفس بعض النظريات التي تضفي على العوامل البيولوجية والوراثية ثقلا فيه لتحديد الشخصية ، وكأن هذه العوامل تعمل وحدها أو تعمل في فراغ . ويسمى فرع المعرفة الخاص بدراسة الصلة بين الصفات الجسمانية والسمات النفسية والاجتماعية باسم علم الفراسة[٢] عند العرب ، وقد كتب فيه أبقراط وجالينوس وأفليمون اللاذقي ، كما أنه نسب إلى أرسطو كتاب خاص في علم الفراسة ، وقد اهتم العرب بهذا العلم وصبغوه بصبغة عربية خاصة فضلا عما اقتبسوه من أقوال الفرس وسائر الشعوب الشرقية . ومن أهم كتب الفراسة العربية كتاب الفراسة للإمام فخر الدين الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ هـ وكتاب السياسة في علم الفراسة لمحمد بن أبي طالب الدمشقي المتوفى سنة ٧٢٧ هـ[٣] .

ومن أشهر التصانيف لنماذج الشخصية التصنيف الرباعي إلى صفراوي ودموي وسوداوي وليمفاوي الذي ظل قائماً منذ القدم حتى القرن التاسع عشر .

واستمر هذا الاتجاه حتى القرن العشرين حيث نجد الطبيبين النفسيين «شيلد ون»[٤] و«كريتشمر»[٥] وقد وضعا تصنيفات للشخصية على أساس الصفات الجسمية والتكوينية سواء بالنسبة للمرضى أو للأسوياء .

فقد درس «كريتشمر» المقاسات الجسمية لـ ٢٦٠ مريضاً ذهانيًّا (عقليا) مصابين بالفصام وذهان الهوس والاكتئاب ، وتتمثل أعراض الفصام في فقدان المريض للاستجابات العاطفية نحو الآخرين ويصاحب ذلك الهزاءات والهلاوس ، في حين أنه في حالة ذهان الهوس والاكتئاب يتراوح المزاج بين حالات هوس ومرح عنيفة وحالات لامبالاة ونعاس اكتئابي . وتوصل «كريتشمر» في دراساته

---

(١) د. عثمان فراج : الشخصية والصحة العقلية ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٧٠ ص ٥٤ .
(٢) Physiognomy.
(٣) د. يوسف مراد : مبادئ علم النفس العام ص ٢٥٦ .
(٤) Sheldon, W.
(٥) Kretschmer, E.

إلى وجود ترابط بين مرض الفصام والتكوين الجسمى الذى يميل للطول مع الهزال وأحياناً الجسم الرياضى ، فى حين أنه يوجد ترابط بين مرض ذهان الهوس والاكتئاب والتكوين الجسمى المكتنز .

وفيما يتعلق بالأشخاص الأسوياء لاحظ أن الأفراد النحاف الضعفاء تنتشر فيهم سمات الحساسية والبرود والكبت ، فى حين أنه لاحظ أن الأفراد المكتنزين لهم أمزجة متغيرة (شخصيات دورية) ولكنهم اجتماعيون وواقعيون بصورة أكثر مما لاحظه فى شخصيات أصحاب الأجسام النحيفة والضعيفة[١] .

وقد أجرى الطبيب النفسى « شيلدون » دراسات حول قياس وفحص أجسام جماعات من طلبة جامعة هارفارد وجماعات أخرى فى أمريكا ، وانتهى إلى تأييد الاتجاه العام فى تفكير « كريتشمر » . ولكنه توصل إلى طرق أخرى للقياس والتصنيف ووضع اصطلاحات جديدة وكان يستخدم اصطلاح « مزاج » للدلالة على الشخصية . وفيما يتعلق بالأنماط التى وضعها شيلدون للشخصية وارتباطها بالسمات التكوينية ، نجد أنه توصل إلى أن الأفراد النحاف يميلون إلى الانطواء ويصابون بمتاعب جلدية وبالإرهاق والأرق ، أما أصحاب الأجسام الرياضية فإنهم يميلون إلى النشاط والمرح والمغامرة والتنزه فى الهواء الطلق ،. ويميل أصحاب الأجسام البدينة إلى الانبساط وحب الطعام والرفاهية وصحبة الآخرين[٢] .

ولاتقتصر النظريات البيولوجية على التركيز على صفات الجسم ، وإنما نادى بعضها بوجود ترابط بين مراحل النمو البيولوجى للطفل وسمات الشخصية ، فقد استخدم عالم النفس « جيزل »[٣] آلات تصوير دقيقة وأجهزة فنية أخرى لتصوير ودراسة مراحل النمو عند الطفل من لحظة الولادة حتى سن العاشرة ، ويعتقد العالم « جيزل » أن الطفل الوليد يأتى للعالم مزوداً بخطة لا تتعلق فقط بالنمو الجسمى وإنما تتعلق كذلك بسمات معينة فى الشخصية .

ويرتبط بنظرية « شيلدون » رأى العلامة « سيلتزر » الخاص بتحديد أثر العوامل التكوينية فى اتجاهات الرجولة عند الذكور[٤] ، وقام العلامة « ليفى »[٥] بدراسة أثر العوامل الفيزيولوجية فى اتجاهات الأمومة عند النساء .

---

(١) Kretschmer, E., Physique and Character, Harcourt, Brace and Co. N.Y. 1925, PP. 254 - 262.

(٢) Sheldon, W. Varieties of Temperament, Harper & Bros., N.Y. 1942.

(٣) Gesell, A.

(٤) Seltzer, C., The Relationships Between the Masculine Component and Personality, in Kluckhohn and Murray, Personality in Nature, Society and Cuture, Alfed A. Knopf, N.Y. 1948, PP. 84 - 96.

(٥) Levy, D., Psychosomatic Studies of Some Aspects of Maternal Behavior, Columbia Univ. Press, N.Y. 1946, PP. 97 - 103.

ودرس العلامة « كالمان »[1] أثر العوامل الوراثية فى مرض الفصام . وأشار أيضاً إلى أن « الصبغيات » تؤثر فى اتجاهات « الجنسية المثلية » .

وقد انتقل الاهتمام بتأثير العوامل البيولوجية فى الشخصية إلى ميدان السلوك الإجرامى ، حيث نادى العلامة « هوتون » بوجود ترابط بين الشكل التكوينى للجسم والاتجاهات غير الاجتماعية عند بعض الأفراد . وفى مسح قام به لعدد من المجرمين الأمريكيين ، لاحظ « هوتون » على سبيل المثال وليس الحصر ، أن جرائم الجنس والاعتداء على الآخرين يقترفها رجال من خصائصهم الجسمية قصر القامة والاكتناز . ولا يقترف تلك الجرائم الرجال النحفاء ذو القامة الطويلة[2] . ولسنا فى حاجة إلى القول أن تلك النظريات قد تعرضت لكثير من النقد وأهم ما يوجه إليها من نقد أنها تتجاهل المحددات الأخرى للشخصية .

٢ ـ محددات عضوية الجماعة :

يعيش الإنسان دائماً كعضو فى مجتمع أو جماعة واحدة على الأقل ، وتختلف الجماعات والمجتمعات الإنسانية فى ا لحجم وفى مضمون وشكل الأنماط الثقافية السائدة فيها . وأهم الأشكال الاجتماعية التى ينتمى إليها الإنسان من حيث درجة تأثير ذلك الانتماء فى تكوين شخصيته هى الجماعات الصغيرة وهى التى أطلق عليها عالم الاجتماع « كولى » اصطلاح الجماعات الأولية تأكيداً لدورها الرئيسى فى تشكيل الشخصية ، وهى الأسرة وجماعة اللعب وجماعة الجيرة والمجتمع المحلى ، ويتفق الرأى على أن الأسرة هى أهمها جميعاً فى تكون الشخصية .

ولا يقتصر ذلك التأثير للعضوية فى الجماعة على الجماعات الصغيرة وإنما يمتد كذلك إلى الجماعات الكبيرة مثل الطبقات الاجتماعية والنقابات والنوادى والجمعيات ، والمجتمعات الكبيرة الحجم التى تعرف باسم الدول والأمم ، فكثيراً ما يتصف الأمريكيون ــ على اختلاف طبقاتهم ومهنهم وأعمارهم وسلالاتهم ــ بالنزعة العملية التجريبية ودقة المواعيد واستخدام الآلات فى كل شئون حياتهم ، لدرجة أن البعض قد أطلق عليهم عبارة « شعب الضغط على الأزرار » . ويتصف العرب بشدة التدين وكثرة القسم باسم الجلالة وبالأنبياء وبالكرم وبقوة العلاقات القرابية ، ويتميز الأسكتلنديون بالبخل والإنجليز بالتمسك بالتقاليد وبالبرود وما إلى ذلك من التعميمات التى تشمل مواطن الأمة الواحدة .

ومن الجلى أن ترجع بعض سمات الشخصية المنتشرة بين أعضاء جماعة ما إلى عوامل وراثية بيولوجية ، إذ أن الأشخاص الذين يعيشون معاً ويتزوجون من داخل مجتمعهم يشتركون فى جينات متشابهة ، فإذا كانت الحيوية الجسمية منخفضة فى جماعة ما بمقارنتها بجماعات أخرى ، أو إذا انتشرت حالات عدم

---

(١) Kallman.

(٢) Hooton, E., Crime and The Man, Harvard University Press, Cambridge 1939, P. 87.

(٣) Groupmembership Deterninants.

التوازن فى إفرازات الغدد فى جماعة أخرى ، فإن شخصيات أعضاء الجماعتين ستتميز بسمات خاصة .

غير أن معظم الحالات تبين أن أكثر العوامل فاعلية فى تشابه شخصيات أعضاء جماعة ما هو انتماؤهم إلى ثقافة مشتركة ، فإن هؤلاء الذين ينشئون فى مرحلة الطفولة وفق تقاليد معينة ، وحتى هؤلاء الذين يتثقفون بثقافة جديدة بعد مرحلة الحلم ، يميلون إلى التصرف فى أشكال محددة يمكن التنبؤ بها فى مواقف كثيرة ، ويرجع هذا إلى الميل السائد نحو التوافق مع معايير الجماعة . وعندما نقول تحدد الثقافة بعض سمات شخصيات أعضائها ، نكون قد قطعنا شوطا طويلا فى التجريد ، لأننا لا نرى الثقافة ، ولا يمكن ملاحظتها ككل ، وإنما نلاحظ تفاعل الناس وما ينتج من ذلك التفاعل من تكرارات منظمة فى الأفعال تميز أعضاء جماعة ما عن غيرهم .

ولا يقتصر تأثير ثقافة الجماعة فى شخصيات أعضائها على أنماط الفعل وإنما يشمل كذلك النظم الدفعية ، ويتمثل ذلك فى الحاجات الثانوية المكتسبة ، مثل العمل للحصول على مذياع أوسيارة أو التفوق ، فهذه الحاجيات ليست أموراً متوارثة فى الجينات ، وكثيراً ما تتمتع الدوافع المكتسبة ثقافياً بأولوية الإشباع قبل الحاجيات البيولوجية ، فمثلا قد يؤجل الشاب إشباع الدافع الجنسى — الزواج — إلى أن يكمل تعليمه أو يدخر بعض النقود أو ينتهى من تجربة فى التصوف الدينى . كما تحدد العادات الثقافية الأساليب والظروف الخاصة بإشباع الحاجات البيولوجية ، فإن معظم المصريين يفضلون الجوع على أكل لحم الثعبان ، فى حين يستطيب أعضاء قبيلة البوشمن أكله .

ويتسع نطاق تأثير ثقافة جماعة ما على شخصيات أعضاء تلك الجماعة إلى أنه يشمل كل سمات الشخصية المكتسبة ، وإن تنوعت درجات ذلك التأثير . فالثقافة تحدد بصورة كبيرة المهارات التى تكتسب والمعارف التى تحصل والقيم والأذواق والافتراضات الرئيسية ، وتحدد الثقافة كذلك الظروف التى تصاحب عملية التعلم .

ومما هو جدير بالذكر أن تأثير ثقافة الجماعة فى شخصيات أعضائها لا يتسم بالجمود والصرامة والتطابق ، وإنما بالتنوع والمرونة والاختلاف ، إذ أن الثقافة تحدد فقط ما يتعلمه الفرد كعضو فى مجتمع معين ، وليس ما يتعلمه كفرد خاص — له سمات بيولوجية وجسمية معينة — أو كعضو فى أسرة معينة ، ولا تؤدى الثقافة دورها فى تحديد بعض سمات الشخصية بصفتها العامل الوحيد المقرر وإنما كأحد العوامل المقررة للشخصية .

وليس من شك فى أن الفرد عندما يختبر الأنماط الثقافية ويستجيب لها ، يصبغ تلك المواقف بمسحة فردية خاصة به . فإن تأثير الأنماط الثقافية فى الأفراد لا يتم بصورة متطابقة تماما إلا عن طريق الصدفة ، ومن هنا كان الانحراف عن المقاييس — الثقافية أمراً لا مفر منه ويحدث دائما وبصورة لا نهائية . فالأفراد الذين تعلموا ثقافة مجتمعهم منذ الصغر ، سيصبحون هم أنفسهم المعلمين الذين ينقلون التراث الثقافى للأجيال التالية ، وهؤلاء مهما حاولوا التمسك بالمحافظة على التقاليد ، سوف

يطبعون الأنماط الثقافية بمسحة شخصية تتفق مع صفاتهم الجبلية وتجاربهم الخاصة بالحياة .

وغني عن البيان أن المجتمعات المتمدينة تجمع بين حدودها الكثير من الثقافات الفرعية إلى جانب الثقافة العامة ، وفي الغالب تحتوي الثقافات الفرعية على درجة كبيرة من التنوع والاختلافات . وهذا واضح في الثقافة العربية ، إذ نجد أن الثقافة الفرعية لكل شعب عربي تتميز بخصائص مميزة ، وفي داخل الشعب العربي الواحد نجد اختلافات ثقافية فرعية بين المجتمعات الريفية والحضرية والبدوية ، وفي داخل المدينة العربية الواحدة . نجد اختلافات ثقافية فرعية على أساس اختلاف الطبقة الاجتماعية والمهنة ومستوى التعليم ، يصاحب تلك الاختلافات الثقافية الفرعية في المجتمع الواحد اختلافات في سمات شخصيات أعضاء ذلك المجتمع ؛ وعند التحدث عن أهمية الثقافة في محددات عضوية الجماعة للشخصية ، يجب أن نميز القيم بصفتها من أهم الأنماط الثقافية دلالة في هذا الموضوع : القيمة هي تصور للمعاني الكلية — ينسب لفرد أو لجماعة ما — خاص بالأمور المرغوبة ، والقيمة هي المسئولة عن الأحكام التي يصدرها الفرد على أي موضوع أو موقف ويرى فيها الفرد شيئاً من الحق أو الخير، أوحكماً على قضية مغيارية ينبع أساساً من القيم التي يؤمن بها[1] . وإذا حاولنا البحث عن المصادر التي يكتسب منها الفرد قيمه لوجدنا أن الفرد يكتسب قيمه من عضويته في الجماعة التي يعيش فيها ؛ فمن خلال تفاعله في جماعته يمتص القيم السائدة في تلك الجماعة . ويجب ملاحظة أن القيمة ليست مجرد رغبة أو تفضيل وإنما هي مركب يجمع الأمور المرغوبة لدى الفرد ومقاييس ما يجب أن يكون كما تحددها الثقافة . وإذا تساءلنا لماذا توجد قيم ؟ نجيب لأن الحياة الاجتماعية ستصبح مستحيلة بدونها ؛ فبدون قيم لا يستطيع النسق الاجتماعي تأدية وظائفه في تحقيق أهداف الجماعة ، ولا يمكن أن تستمر الحياة الاجتماعية بدون معايير في داخل الفرد ومعايير يوافق عليها بصورة ما الأفراد الذين يعيشون معاً ويعملون معاً في داخل الجماعة . وبدون تلك المعايير أي القيم لن يكون هناك أمان شخصي بالنسبة للفرد ولا تنظيم اجتماعي بالنسبة للجماعة ؛ وإنما ستعم الفوضى والإهمال وعدم تقدير المسئولية ويسود السلوك الفطري الخالص ، وبعبارة أخرى سينهار الفرد وتتفكك شخصيته وينهار التنظيم الاجتماعي للجماعة ، بدون قيم لا يستطيع الأفراد الحصول على ما يريدون وما يحتاجون إليه من الأفراد الآخرين فيما يتعلق بالأمور الشخصية والعاطفية . وبالتالي لن يشعروا في داخل ذاتهم بأي قدر من النظام ، ويختفي الشعور بوجود أهداف موحدة ، وزيادة على ذلك ، تضيف القيم القدرة على التنبؤ عن طريق توقع استجابات معينة في المواقف المعينة ، وهكذا بدون القيم يعيش الناس في عالم « مشوه متقلب الأوضاع يختفي منه النظام في داخل الجماعة وفي داخل الفرد . وقد لا نبالغ إذا استنتجنا من ذلك أنه بدون القيم لايمكن أن تتكامل شخصية أوتنتظم جماعة .

---

(١) د. عماد الدين سلطان وآخرون : صراع القيم بين الآباء والأبناء ، المجلة الاجتماعية القومية — القاهرة يناير ١٩٧٢ .

وإن كانت الثقافة من أهم العوامل التى تؤثر فى شخصيات أعضاء جماعة ما ، إلا أنها ليست العامل المقرر الوحيد ، فقد ذكرنا سابقاً أثر العامل البيولوجى الوراثى المترتب على نظام الزواج من الداخل المتبع فى الجماعة الواحدة وما يتبع ذلك من انتشار سمات جسمية وبيولوجية متشابهة بين أعضاء الجماعة الواحدة لتكوينهم ما يعرف بـ « بركة الجينات »[١] ؛ وكذلك يوجد بعد اجتماعى فى محددات العضوية فى الجماعات لا يحدد ثقافياً ، ويتمثل ذلك فى عدد أعضاء الجماعة وأعمارهم ونوعهم ، فلا شك أن كثافة الجماعة تؤثر فى عدد علاقات الوجه للوجه المتاحة للفرد العضو فى تلك الجماعة ، وتؤثر هذه الأمور بدورها فى صور ودرجة تكيف الفرد مع جماعته ، وبالتالى تؤثر فى تكوين شخصية الفرد .

خلاصة القول أن عضوية الفرد فى جماعات معينة تتيح له التفاعل مع باقى الأعضاء ، ومن خلال ذلك التفاعل يمتص الأنماط الثقافية السائدة وتطبع تلك الأنماط شخصيته بسمات مشتركة بين أفراد الجماعة الآخرين . وجدير بالذكر أن مفهوم الثقافة مفهوم واسع للغاية ، وهو تجريد غير مفيد لتوضيح أثر عضوية الجماعة فى تكوين شخصية الفرد ، بل إن عضوية الجماعة هى أيضا مفهوم تجريدى غير مفيد للتحليل ، وذلك لأن الفرد لا يتأثر بالجماعة التى ينتمى إليها « ككل » وإنما يتأثر بها عن طريق تعامله وتفاعله مع أعضاء معينين فى الجماعة ، وهم هؤلاء الذين يرتبط معهم فى اتصال مباشر ، هذا بالإضافة إلى التصور الذى يكونه عن الجماعة ككل ، وهو تصور شخصى ، قد يختلف عن الخصائص الموضوعية للجماعة ، ولذلك لا يمكن اعتبار أى فرد ممثلا بصورة كاملة لكل خصائص الجماعة ككل .

وهكذا من الناحية الواقعية ، ليست الجماعة ككل هى التى تؤثر فى تكوين شخصية الفرد وإنما وكلاء الجماعة ، وهم أفراد لهم سمات خاصة بهم بجانب السمات المشتركة بينهم وبين باقى أفراد الجماعة . ويتضح من الفصول القادمة أن من أهم وكلاء الجماعة تأثيراً فى تكوين شخصية الفرد الآباء وباقى أعضاء الأسرة من الإخوة والأخوات وكذلك الأقارب ، ويؤدى هؤلاء الممثلون للجماعة هذا الدور كأعضاء للجماعة الكبيرة ذات الثقافة العامة وكممثلين لجماعات أصغر ذات ثقافات فرعية ، وكذلك كممثلين لسمات فردية فى شخصياتهم[٢] .

وإذا كان هناك بعض العلماء الذين تحيزوا لتأثير العوامل البيولوجية والوراثية على الشخصية ، فإنه يوجد أيضاً من تحيز لتأثير العوامل الثقافية والاجتماعية ، وبعض هؤلاء من علماء النفس السلوكيين ، فمثلا يرى عالم النفس « واطسن »[٣] أن طبيعة الطفل مرنة وطيعة ويمكنه تشكيلها وصياغتها فى أية صورة

---

(١) Genes Pool.

(٢) Kluckhohn, C : & Murray, : Personality Formulation : The Determinants, in : Personality in Nature, Society and Culture, N.Y. 1959, PP. 58 - 64.

(٣) Watson, J., Behaviorism, W.W. Norton, Co. N.Y. 1925; P. 82.

يختارها أفراد الجماعة ، بل لقد صرح بأنه يستطيع إذا توافرت له الوسائل الفنية لتوجيه السلوك والتعليم أن يربي أى طفل صحيح الجسم ليجعل منه طبيباً أو محامياً أو فناناً أو زعيماً أو حتى متسولا أو لصاً – دون الأخذ فى الاعتبار بالعوامل البيولوجية أو الوراثية مثل قدرات الطفل واستعداداته ومواهبه .

٣ – محددات الدور [١]

يتفرع من محددات العضوية فى الجماعات للشخصية مجموعة من المحددات المتعلقة بالأدوار المرتبطة بالمراكز الاجتماعية التى يشغلها الأفراد فى الحياة الاجتماعية ، والمقصود بالمركز [٢] الوضع الاجتماعى لفرد ما بالنسبة لغيرة من أفراد الجماعة ، ويصبح النسق الاجتماعى بهذا الفهم سلسلة من المراكز الاجتماعية التى تربط جميع أعضاء المجتمع ، ويصاحب كل مركز مركب أو مجموعة من أنماط السلوك المحددة ثقافياً تسمى الدور [٣] .

يحتل الفرد عدداً من المراكز فى داخل الجماعة ، فقد يكون أباً وزوجاً ومدرساً بالتعليم الثانوى وعضواً فى النادى الأهلى وهاوياً لجمع طوابع البريد فى الوقت نفسه . وهو يقوم بالأدوار المصاحبة لتلك المراكز على التوالى ، أى عندما يستدعى الموقف ذلك ، ففى حالة القيام بالأدوار المصاحبة لمركز الأب تكون الأدوار الأخرى فى حالة كمون ، ولذلك تقسم الأدوار إلى أدوار نشطة وهى الأدوار التى يقوم بها الشخص صاحب مركز معين فى لحظة معينة وأدوار كامنة وهى تلك الأدوار التى لا يؤديها الفرد فى لحظة معينة لأن الوقت المناسب لها لم يأت بعد ، ويؤثر استمرار الفرد فى تأدية دور معين لفترات طويلة فى تكوين الشخصية ويجعلها تتميز بسمات معينة . ومما هو جدير بالذكر أن اللفظ الإنجليزى للشخصية مأخوذ من لفظ يعنى [٤] القناع أو الوجه المستعار الذى يلبسه الممثل فى المسرحيات ، والغرض من استخدام هذا القناع تشخيص شخصية أو دور الممثل فى المسرحية ، فالقناع هنا بمثابة العنوان عن طباع الشخص ومزاجه الخلقى كالبشاشة والضجر مثلا والشح والكرم والظلم أو التسامح والصدق أو النفاق وما إلى ذلك .

وهكذا من الناحية اللغوية ، اصطلاح شخصية مأخوذ من « الدور » الذى يمثله الفرد علنا ، ولا شك أن الشخصية العلنية تخفى الشخصية الذاتية . وما تحتويه من دوافع دقيقة .

تحدد الثقافة المراكز والأدوار ، ولذلك تختلف تلك المحددات من مجتمع إلى آخر تبعا لذلك ، وتؤثر المراكز والأدوار بصورة مباشرة فى تكوين الشخصية ، ويحتل الفرد فى أى مجتمع مراكز اجتماعية منوعة تقوم على أساس النوع والسن الأسرة والطبقة الاجتماعية والمهنة والدين والقومية ، ويحتوى كل مركز على مجموعة من الأدوار المحددة له والتى تمثل أنماط الثقافة الفرعية ، ويمثل الدور الاجتماعى الجانب الدينامى

---

(١) Role Determinants.

(٢) Status.

(٣) Role.

(٤) Persona.

للمركز الاجتماعى ، وما يرتبط به من واجبات وحقوق ، ويتحدد سلوك الفرد على ضوء توقعاته من الأفراد الذين يحتكون به بحكم مركزه وبحسب توقعات هؤلاء الأفراد منه ، وتنبثق هذه التوقعات من فهم الفرد والأفراد الذين يتعاملون معه للأدوار المرتبطة بمركزه الاجتماعى ، ويرجع الكثير من سمات الشخصية إلى المراكز الاجتماعية التى يحتلها الفرد فى المجتمع وإلى الأدوار المصاحبة لتلك المراكز التى يؤديها بصفة مستمرة نسبياً .

تختلف نظريات الشخصية فى مدى اهتمامها بالظروف المباشرة والأدوار الآنية التى يؤديها الفرد كمحددات أساسية للشخصية ، فبينما تهتم مدارس التحليل النفسى بمرحلة الطفولة وبالوقائع الماضية فى تفسير سمات الشخصية ، فإن المدرسة الفرويدية الجديدة[١] والمدرسة الميدانية[٢] والكثير من علماء الاجتماع والأنثروبولوجيين يركزون اهتمامهم على الظروف الحاضرة والأدوار التى يؤديها الفرد فى تفسير سمات الشخصية ؛ ويرى هؤلاء ، أنه بالرغم من أن الفرد قد يتأثر بصورة قوية بالحوادث الماضية ، إلا أنه يتمتع بقدر كبير من « الاستقلال الوظيفى » ، ولذلك يكون للموقف الحاضر وما يصاحبه من أدوار آنية الأثر الفعال والأقوى فى تحديد سمات الشخصية . وهناك الكثير من الدراسات والأبحاث التى تؤيد هذه النظريات ، فقد درس الأنثروبولوجى « لويس » ما سماه بثقافة الفقر ، وبين أهمية الفقر كعامل مؤثر فى الشخصية[٣] . ودرس العلامة « بوتر » تأثير الرخاء الاقتصادى على الشخصية القومية الأمريكية[٤] ، وتبين مؤلفات العلامة « ريسمان » وزملائه عن الشخصية الأمريكية المتغيرة تأثير الظروف الاجتماعية والأدوار الآنية على الشخصية[٥] ، وبين العلامة « جيمس » فى دراسته لشخصية أعضاء قبيلة « أوجيبوا » تأثير حالة العزلة التى يعيشون فيها على شخصياتهم[٦] .

كما درس بعض العلماء تأثير المهنة على الشخصية ، فمثلا درس العلامة « وولر » تأثير مهنة التعليم على شخصية المعلم ، وكيف أن المعلمين القدامى يختلفون عن زملائهم الجدد[٧] . وبيّن العلامة « ميرتون » تأثير الوظائف البيروقراطية على الشخصية[٨] .

وفيما يتعلق بالسلوك الإجرامى . تبين أن نشأة اللص فى حى إجرامى ومشاركة أفراد العصابات

---

(١) The Neo-Freudians.

(٢) The Field Theory.

(٣) Lewis, Oscar, The Children of Sanches, Autobiography of a Mexican Family, Random House, N.Y. 1961.

(٤) Potter, D., People of Plenty, Economic Abundance and the American Character, University of Chicago Press, Chicago 1954.

(٥) Riesman, D., Glazer and Denny, The lonely Crowd, Doubleday, N.Y. 1953.

(٦) James, B., Social-Psychological Dimensions of Ojibwa Accultration, American Anthropologist, 62, 1961, PP. 721-746.

(٧) Waller, W., The Sociology of Teaching, John, Wiley, N.Y. 1932, PP. 381-436.

(٨) Merton, R., Bureaucratic Structure and Personality, Social Forces, 18, 1940,PP. 560-568.

فى حياتهم وتعرضه للثقافة الفرعية الإجرامية ، يؤدى فى النهاية إلى انحرافه . شأنه فى ذلك شأن الطفل الذى يولد فى قبيلة الإسكيمو فإنه ينمو ويصبح حاملا لثقافة الإسكيمو . ويرفض هذا الاتجاه القول بالنزعات الإجرامية الفطرية أو بأن المجرمين مجرمون بالطبع .

وقد طُبِّق الاتجاه السابق فى مجال الأمراض العقلية ، ومن أمثلة تلك الدراسات التطبيقية دراسة العالمين « فارس » و « دانهام » للمرضى العقليين بمدينة شيكاغو : فقد لاحظا أن مرضى الفصام ينتمون إلى الأحياء الفقيرة فى وسط المدينة ، فى حين يقطن مرضى الهوس والاكتئاب فى الضواحى والمناطق الراقية ، وقد فسرا انتشار مرض الفصام فى شيكاغو الوسطى عن طريق الظروف الاجتماعية التى يعيشها سكان تلك المنطقة ، إذ يمثل هؤلاء السكان مجموعة سكانية مهاجرة غير منظمة وينقصها العلاقات الاجتماعية المتماسكة والمجزية ، وقد قررا كذلك أن العزل الاجتماعى يؤدى إلى انهيار عقلى[١] . كذلك درست بعض الأبحاث العلاقة بين الطبقة الاجتماعية والأمراض العقلية ، وقد بين أحد تلك الأبحاث أنه كلما اتجهنا من أعلى إلى أدنى فى الطبقات الاجتماعية زاد معدل الأمراض العقلية[٢] ؛ كذلك بينت أبحاث أخرى تأثير الهجرة على الصحة العقلية إذ يرتفع معدل الأمراض العقلية عند المهاجرين ، وفى بعض الدراسات تبين أن التغير الثقافى يؤدى إلى بعض الأمراض العقلية ، وتحاول دراسات أخرى تتبع النتائج النفسية التى تترتب وتصاحب تعرض الفرد لخبرات عنيفة أو ظروف اجتماعية قاسية مثل الرق أو معسكرات الاعتقال[٣] .

وتمثل الأدوار التى يقوم بها الأفراد فى حياتهم شاشة أو قناعا للدلالة على بعض سمات شخصياتهم ، ويميل معظم الناس إلى قبول سلوك شخص ما فى موقف معين أو فى حالة أدائه لدور خاص كصورة لشخصيته كلها . وكلما نجح الأفراد فى أداء الأدوار المطلوبة منهم وفق الأنماط الثقافية السائدة فى مجتمعهم تكيفوا فى حياتهم الاجتماعية ، وخاصة كلما قل التعارض بين تلك الأدوار ورغباتهم الشخصية . ويجب ملاحظة أن المحددات الثقافية ، سواء عضوية الجماعة أو أداء الأدوار الاجتماعية ، لا تفسر سوى بعض سمات الشخصية وخاصة السمات الظاهرية أو ما يسمى أحيانا بالشخصية الموضوعية وفى حالة الأشخاص الأسوياء يصل علماء النفس إلى اكتشاف السمات الأخرى للشخصية وهى ما يعرف بالشخصية الذاتية أو الإنية عن طريق إجراءات طويلة ومعقدة ومكثفة خاصة بالتحليل النفسى ، وذلك لأن أداء الأدوار يقدم لنا الشاشة التى من خلالها نرى شخصيات الناس من الخارج .

---

(١) Faris, R., and Dunham, H., Mental Disorders in Urban Areas, Uni. of Chicago Press, Chicago 1939, P. 128.

(٢) Hollingshead, A. and Redlich, F., Social Class and Mental Illness, John Wiley & Sons, Ines N.Y. 1958.

(٣) Barnouw, V., Culture and Personaltiy, The Dorsey Press, INC., Homewood, Illinois, 1963, P. 23.

أما اختراق تلك الشاشة للتوصل إلى السمات الذاتية فهو أمر خاص بعلماء النفس التحليليين . وفى حالة الأمراض النفسية والعصابية يكون الأمر أكثر سهولة . وذلك لأن هؤلاء المرضى لا يؤدون الأدوار المنمطة ثقافياً، وإنما يعبرون عما يعتمل فى نفوسهم تلقائياً . وذلك لضعف « الأنا » وعدم قدرته على التوفيق بين مطالب « الهو » من جهة ومطالب الأدوار أى الأنماط الثقافية فى المجتمع .

وكما لاحظنا أن بعض العلماء قد تحيز للمحددات البيولوجية الوراثية للشخصية ، ودرسها على أنها المحددات الوحيدة التى تشكل الشخصية ، فإن البعض الآخر من العلماء ، قد تحيز للمحددات الثقافية، وكأنها المحددات الوحيدة فى تكوين الشخصية ، ولذلك عرف البعض الشخصية بأنها الجانب الذاتى للثقافة . ويميل بعض علماء الأنثروبولوجيا بالأخذ بذلك المفهوم الثقافى للشخصية ، وقد أراد هؤلاء العلماء بهذا المفهوم تأكيد أهمية الظروف الاجتماعية والثقافية فى تكوين ونمو الشخصية .

ويتفق معهم بعض علماء النفس الذين تخصصوا فى دراسة الاستجابات وردود الأفعال ، لأنهم يرون الشخصية موجهة أساسا بالمثيرات والحوافز الخارجية والضغوط البيئية و بصورة الأب . و يعارض « ألبورت »[١] هذا التحيز المطلق للعوامل الثقافية فى تكوين الشخصية ويرى أنها ترجع إلى نظرة « لوك » إلى الطبيعة الإنسانية ، وهو لا ينكر أهمية العوامل الثقافية الاجتماعية فى تكوين الشخصية ، وذلك لأن الثقافة شرط هام فى نمو الشخصية ، إلا أنها ليست العامل الوحيد المقرر للشخصية ، فبينما نقبل قيما ثقافية معينة على أنها موحدة وممتدة وعلى أنها هامة فى عملية نمونا ، إلا أنه من الصحيح أيضا بالدرجة نفسها ، القول بأننا جميعا متمردين وفرديين ، لأننا نرفض بعض العناصر فى ثقافتنا رفضا تاماً ، ونعتنق الكثير منها على أنها عادات انتهازية ، ونغير العناصر التى لا تلائمنا حتى تناسب أسلوب حياتنا الشخصى ، فالثقافة شرط ضرورى للنمو ولكنها ليست فى حد ذاتها الصيغة النهائية[١] .

٤ — محددات أساليب النظر إلى الحياة[٢] :

يركز هذا المؤلف حول دراسة تأثير الثقافة على الشخصية، ولذلك تعرض المحددات الثقافية بشىء من التفصيل لا يتوافر للمحددات الأخرى للشخصية ، وقد تبين لنا فيما سبق أن قسما من المحددات الثقافية درس تحت عنوان عضوية الجماعة وقسما ثانيا شرح بصورة مستقلة وهو محددات الأدوار الاجتماعية ، ونسير فى الاتجاه نفسه الخاص بالشرح التفصيلى للمحددات الثقافية ، فنعرض قسما ثالثا من تلك المحددات، وهو محددات أساليب النظر إلى الحياة؛ يقصد بمفهوم أسلوب النظر إلى الحياة مجموعة القيم الثقافية والاتجاهات والتصورات الخاصة بالعالم ، فمن خلال عملية التنشئة الاجتماعية والتثقيف يكتسب الفرد تدريجيا ثقافة مجتمعه وما تحتويه من مفاهيم دينية ومبادئ أخلاقية وتصورات ميتافيزيقية ،

---

(١) جوردن ألبورت : نمو الشخصية — ترجمة د. جابر عبد الحميد جابر ومحمد مصطفى الشبيبى — دار النهضة العربية — القاهرة ١٩٦٣ ص ١٣٧ .

(٢) World View.

وهى تلك المركبات الثقافية التى تميز ثقافة ما عن غيرها من الثقافات . ووضع بعض[١] الأنثروبولوجيين اصطلاح « أسلوب النظر إلى الحياة » للتعبير عن المركبات الثقافية سابقة الذكر : واستخدم البعض الآخر[٢] مفهوم سجية[٣] ويقصد به الروح المميزة والصفة السائدة فى عواطف مجتمع محلى . وكذلك الروح المميزة لأى نسق أو نظام ثقافى . ويتضح من التعريف السابق أن مفهوم « سجية » يعبر عن جانب واحد من جوانب مفهوم « أسلوب النظر إلى الحياة » الذى يشمل كذلك قيم ومفاهيم الثقافة عن طبيعة الأشياء .

ويدرس علماء الأنثروبولوجيا مفهوم « أسلوب النظر إلى الحياة » ومفهوم « تماسك المجتمع المحلى » كمحددين للشخصية ، وهما محددان ينتميان للمحددات الثقافية التى تشمل كذلك محددات عضوية الجماعة ومحددات الأدوار الاجتماعية ، فقد درس العلامة « شبنجلر[٤] ما سماه « بالأسلوب الفاوستاوى »[٥] فى الثقافة الغربية ، ودرست العلامة « بينيديكت »[٦] « الأسلوب الأبوللونى » وما ترتب عليه من تأثير فى شخصيات أعضاء قبيلة « البيبلو »[٧] عرف باسم الشخصية « الأبوللونية »[٨] . وحلل العلامة « هالويل »[٩] البيئة السلوكية لقبائل « أوجيبيوا[١٠] ، ودرس العلامة « ريدفيلد »[١١] « أسلوب النظر إلى الحياة » فى المجتمعات الزراعية وتأثير ذلك على شخصيات المزارعين .

ولكن كيف يستطيع الأنثروبولوجى تحديد « أسلوب النظر إلى الحياة » فى ثقافة ما ؟ نستطيع ذلك باستخدام منهج الدراسة الميدانية أو الملاحظة بالمشاركة ، وقد استطاع العلامة « هورف »[١٢] تحديد بعض خصائص هذا الأسلوب وخاصة فيما يتعلق بمفهومى الزمان والمكان عن طريق تحليل اللغة التى يتكلمها أعضاء المجتمع قيد البحث .

ويجب ملاحظة أن « أسلوب النظر إلى الحياة » يفسر فقط بعض سمات الشخصية وليس كل تلك السمات . وكذلك يفسر بعض شخصيات أفراد المجتمع وليس كل شخصياتهم ، فقد لاحظت

---

(١) Benedict, R.-Mead, M.- Hallowell-Redfield, R.
(٢) Batson, G., Honigmann, J.
(٣) Ethos.
(٤) Spengler.
(٥) Faustian View.
(٦) Benedict.
(٧) Peublo.
(٨) Apollonian.
(٩) Hallowell.
(١٠) Ojibwa.
(١١) Redfield.
(١٢) Whorf, B.

العالمتان « ميد » و« بينيديكت » أن المنحرفين الموجودين فى مجتمع ما ، هم أفراد لم يتقبلوا « أسلوب النظر إلى الحياة » الموجود فى ثقافتهم ، وهنا نعود للنتيجة التى انتهت إليها مناقشة محددات الدور للشخصية : وهى أنه بالرغم من أن المحددات الثقافية تلعب دوراً هاماً فى تكوين الشخصية إلا أنها ليست المحددات الوحيدة وإنما هى تعمل بجانب المحددات الأخرى للشخصية وهذا هو الرأى السائد فى هذا الكتاب .

٥ ـ المحددات الموقفية [١] :

يمر الإنسان فى حياته اليومية بالعديد من المواقف العابرة والأحداث والمصادفات التى قد تحدث لمرات كثيرة وأحيانا تحدث مرة واحدة ، ولكن قد يحدث أن تؤثر تلك المواقف فى تشكيل شخصيته ، ولا يتم هذا التأثير بصورة مباشرة فورية وإنما تدريجيا وعلى مراحل ، فإن تعرض الفرد لموقف ما قد يحرك سلسلة من الأحداث التى تضعه فى مواقف عدة يكون لها أبلغ الأثر فى تشكيل شخصيته بسمات معينة . فمثلا قد يحدث أن يقابل فرد ما أحد الصحفيين المتحمسين لمهنتهم عن طريق الصدفة ، ويترتب على تلك المقابلة أن يعجب هذا الفرد بمهنة الصحافة ويعمل ما فى وسعه لتعلمها والتخصص فيها ويصبح فى النهاية صحفياً لامعاً ، هذا بالرغم من عدم اهتمامه بتلك المهنة قبل مقابلته مع هذا الصحفى. وفى الحياة اليومية يطلق الناس على المحددات الموقفية ألفاظاً عدة مثل الصدفة والحظ والقدر والمكتوب ، ويقصدون بذلك التعبير عن كيفية أن موقفاً عابراً يتعرض له الفرد يلعب دوراً كبيراً فى حياته وفى تشكيل شخصيته ، وهم يرددون من وقت لآخر كيف أن حادثا عابراً قد غير مجرى حياتهم .

ويمكن دراسة أثر المواقف فى تحديد بعض سمات الشخصية من زاوية أخرى ، فمن الواضح أن يتفق العلماء على أن الأسرة التى ينشأ فيها الشخص من أهم المحددات للشخصية ، وأن تأثير الأسرة فى تشكيل شخصية الطفل مشروط بتحديدات ثقافية للأدوار الخاصة بالآباء والأطفال . ولكن قد تحدث مواقف عابرة للأسرة ، أى أحداث عارضة لم تكن متوقعة ، تجرى تغييرات فى الأسرة وتنعكس تلك التغيرات فى شخصية الأطفال ، فإن الثقافة تحدد بصور عامة أدوار الآباء والأمهات والأبناء والإخوة فى الظروف العادية ، ولكن قد تحدث مواقف تغير الصورة العادية للأسرة ، فمثلا قد يحدث موقف خلاف فى الأسرة وينفصل الأب عن الأم ، ويعيش الطفل مع الأم فقط أو مع الأب فقط أو مع الأم وأسرتها ، وفى بعض المواقف الأخرى يحدث أن يكون هناك فارق كبير فى السن بين الأم والأب مما يغير الأدوار المحددة ثقافيا لها ، أو قد يضطر الأب إلى التغيب عن المنزل معظم الوقت أو إلى العمل ليلا والنوم نهاراً ، وفى مواقف أخرى يحدث أن يكون الطفل هو الطفل الأول أو الطفل الأخير فى الأسرة ، يصاحب تلك المواقف الكثير من الخبرات التى تؤثر فى شخصية الفرد .

---

(١) Situational Determinants.

وقد يتضمن اتصال الفرد بجماعة ما على خضوعه لعوامل تحدد بعض سمات شخصيته . ويمكن تصنيف تلك العوامل كمحددات العضوية فى الجماعة أو كمحددات موقفية على أساس توافر أو عدم توافر شعور الفرد بالانتماء بتلك الجماعة ، فعندما يتصل طبيب ما بزملائه فى نقابة الأطباء ، أو يتصل أحد التلاميذ بزملاء فصله الدراسى أو بجماعة أصدقائه ، تتأثر شخصية كل منهما بمحددات العضوية فى الجماعة . ولكن عندما يتصل أحد الأطفال بجماعة من الأطفال المنحرفين عن طريق المصادفة أو بتدبير أحد منهم ، أو عندما يحضر أحد الأشخاص المعتادى الإجرام اجتماعا دينياً ويتأثر بما يدور فيه من أحاديث حول الصلاح والتقوى وإمكانية التوبة ، تتأثر شخصية كل منهما بالعوامل الموقفية . ولا شك أن هناك تداخلا بين محددات العضوية فى الجماعة ومحددات أسلوب النظر إلى الحياة والدور ومحددات الموقف ، إذ لا يوجد فواصل قاطعة بين تلك المحددات .

٦ ــ محددات مرحلة الطفولة :

يعطى فرويد وعدد كبير من أتباعه أهمية كبرى لمرحلة الطفولة فى السلوك ويعتبرونها المحدد الحاسم فى تحديد شخصية الفرد ، فالشخصية تحدد أو تثبت عند سن الخامسة أو السادسة ، وتلعب الخبرات التى يمر فيها الطفل فى تلك السنوات دوراً أساسيا فى تكوين شخصيته كإنسان بالغ . وهناك وقائع وحالات معينة يخبرها الطفل فى تلك المرحلة من عمره تمثل المحددات الأساسية لتكوين الشخصية .

كذلك يرى فرويد أن الطفل يمر عبر سلسلة من المراحل المتفاعلة دينامياً خلال السنوات الخمس الأولى . ويليها لمدة تستمر خمس أوست سنوات فترة الكمون فيتحقق قدر من الثبات والاستقرار الدينامى ، وعند بداية المراهقة تنبعث القوى الدينامية مرة أخرى ثم تستقر بعد ذلك بالتدريج مع الانتقال من المراهقة إلى الرشد . ويؤكد فرويد على أن السنوات القليلة الأولى من الحياة تكون حاسمة فى تكوين الشخصية ، وذلك لأنه يرى أن كل مرحلة من النمو تتحدد خلال السنوات الخمس الأولى من حيث أساليب الاستجابة من جانب منطقة محددة من الجسم ، فى خلال المرحلة الأولى التى تستمر قرابة العام يكون الفم هو المنطقة الرئيسية للنشاط الدينامى ، ويلى المرحلة الفمية نمو الشحنات والشحنات المضادة حول وظائف الإخراج ويطلق على ذلك اصطلاح المرحلة الشرجية ، ويستمر ذلك خلال العام الثانى ثم يتبعه المرحلة القضيبية حيث تصبح الأعضاء الجنسية المناطق الشهوية الأساسية ؛ ويطلق على هذه المراحل الثلاث الفمية والشرجية والقضيبية المراحل قبل التناسل . إن الخبرات التى يمر فيها الطفل خلال تلك المراحل تحدد المعالم الرئيسية لشخصيته عند البلوغ . ويعين فرويد بعض تلك الخبرات ويعطيها أهمية كبرى فى تكوين شخصية الفرد ، من هذه الخبرات الأساسية « عقدة أوديب » ، وهى من أكبر اكتشافات فرويد، تستمد عقدة أوديب اسمها من قصة ملك طيبة الذى قتل أباه وتزوج بأمه .

وعقدة أوديب فى إيجاز هى شحنة جنسية تستهدف الوالد من الجنس المقابل وشحنة عدوانية تستهدف الوالد من نفس الجنس . فالصبى يرغب فى امتلاك أمه واستبعاد أبيه على حين ترغب الفتاة فى امتلاك أبيها وإبعاد أمها .

وتعرب هذه المشاعر عن نفسها فى تخيلات الطفل أثناء الاستمناء وفى التذبذب بين الأفعال الدالة على الحب والأفعال المعبرة عن التمرد والثورة إزاء والديه . ويتميز سلوك الطفل فيما بين الثالثة والخامسة من عمره إلى حد كبير بفاعلية عقدة أوديب ، وهى بالرغم من تعديلها وما تلقاه من كبت بعد الخامسة من العمر ، تظل قوة فعالة فى الشخصية طوال الحياة ، مثال ذلك أن — الاتجاهات نحو الجنس المقابل ، ونحو ذوى السلطة من الأفراد تكون بدرجة كبيرة رهن عقدة أوديب ، وترتبط عقدة أوديب بعقدة الخصاء لدى البنت . وذلك لاختلاف تاريخ عقدة أوديب ومصيرها لدى الذكر عنه لدى الأنثى . فالطفل من كل من الجنسين يحب الأم فى البداية ، لأنها تشبع رغباته وينقم على الأب لاعتباره غريما له فى حب الأم ، وتبقى هذه المشاعر لدى الصبى وتتغير لدى الفتاة ، فهى تغير موضوع حبها الأصلى وهو الأم بموضوع جديد هو الأب . أما سبب حدوث ذلك فيتوقف على استجابة البنت بالشعور بخيبة الأمل عندما تكتشف أن الصبى يمتلك عضواً جنسياً ممتداً على حين تمتلك البنت تجويفا . ويترتب على هذا الاكتشاف الصادم عدة عواقب هامة ، أهمها اعتبار الأم مسئولة عن حالة الخصاء هذه ، مما يضعف شحنتها الخاصة بأمها ، وتتحول بحبها لأبيها لامتلاكه العضو الممتد ، غير أن حبها لأبيها ولغيره من الرجال يمتزج بمشاعر الحسد لامتلاكهم شيئاً تفتقر إليه .

إن حسد القضيب هو المقابل الأنثوى لحصر الخصاء لدى الصبى ويطلق عليهما معا اسم عقدة الخصاء . ويقصد بحصر الخصاء لدى الصبى أن الصبى الذى يحب أمه ويكره منافسه المستبد وهو الأب يتخيل أن أباه سيوقع به الأذى ، ويتركز خوفه مما قد يوقعه به الأب من أذى حول أعضائه التناسلية إذ أنها مصدر مشاعره الجياشة بالشهوة ، وهو يخشى أن يستأصل والده الغيور هذه الأعضاء السيئة . ويؤدى الخوف من الخصاء أو كما يسميه فرويد حصر الخصاء إلى كبت الرغبة الجنسية فى الأم والعدوان نحو الأب . إن ظهور عقدتى أوديب والخصاء وتطورها هما الواقعتان الرئيسيتان فى الفترة القضيبية . وهما واقعتان يتركان العديد من المخلفات فى الشخصية [١] .

بالإضافة إلى عقدة أوديب وعقدة الخصاء توجد وقائع أخرى تؤثر فى الشخصية منها نظم الفطام ونظم التدريب على الذهاب للمرحاض وعلاقة الطفل بوالديه فى مرحلة الطفولة ، « والمنظر الأولى »[٢] .

---

(١) هول ولندزى : نظريات الشخصية — الترجمة العربية — الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر — القاهرة ١٩٧١ . من ص ٧٥ إلى ص ٧٩ .

(٢) Primal Scene.

يرى فرويد وأتباعه أن وقائع مرحلة الطفولة هي المحددات الرئيسية للشخصية ، أما العوامل التي تؤثر بعد ذلك مثل المركز والمهنة والتعليم فيعتبرونها عوامل ثانوية في تكوين الشخصية . ويرى فرويد كذلك أن اتجاهات الشخصية تمثل تجمعات تحتوى على الدوافع الغريزية والقوى الضابطة للأنا ، ولم يحاول فرويد إعداد قائمة كاملة للغرائز وإنما صنفها إلى فئتين عامتين غرائز الحياة وغرائز الموت . وتخدم غرائز الحياة غرض الحفاظ على حياة الفرد وتكاثر الجنس ويندرج تحت هذه الفئة الجوع والعطش والجنس . ويطلق على صورة الطاقة التي تستخدمها غرائز الحياة في أداء عملها اسم « الليبيدو » [١] .

أما غرائز الموت ، أو كما يسميها فرويد أحيانا بغرائز التدمير ، فتقوم بعملها بصورة أقل وضوحا بالمقارنة بغرائز الحياة ولكنها تنجح في النهاية في القيام بدورها . ولذلك افترض فرويد أن لدى الشخص رغبة شعورية في أن يموت .

وفيما يتعلق بالقوى الضابطة للأنا ، فهي العمليات السيكولوجية الضابطة مثل الإدراك والتذكر والحكم والتمييز والتجريد والتعميم والاستدلال المنطقي ، كما يستخدم الأنا قدراً من الطاقة لكبح جماح « الهو »[٢] كي لا يتصرف باندفاع ، ويطلق على هذه القوى المقيدة اصطلاح « الشحنات المضادة » ، على عكس القوى المحركة أو الشحنات ، وإذا ما أصبح « الهو » مصدر تهديد بالغ — فإن (الأنا) ينشئ الدفاعات حياله ، والدفاعات الرئيسية هي الكبت والإسقاط وتكوين رد الفعل والتثبيت والنكوص . وتتميز جميع عمليات الدفاع بسمتين مشتركتين : إنها تفكر وتزور وتحرف الواقع وإنها تعمل لا شعوريًّا بحيث لا يفطن الشخص إلى ما يحدث . ويستخدم الأنا ، بوصفه الجهاز الإداري لتنظيم الشخصية ، الطاقة لإقامة التكامل بين نظمها الثلاث : الهو والأنا والأنا الأعلى ، إن هدف هذه الوظيفة التكاملية للأنا هو إيجاد تآلف داخلي داخل الشخصية حتى يستطيع الأنا إقامة صلاته بالبيئة بكفاءة [٣] .

وهكذا يحدد فرويد سمات الشخصية بقوله :

« تتمثل السمات الدائمة للشخصية أما في الاستمرارات الثابتة للدوافع الأصلية أو في أمور إعلائية ترجع إليها أو في تكوينات استجابية ضد تلك الدوافع الأصلية[٤] .

وخلاصة القول أن فرويد وأتباعه يفسرون سمات الشخصية بإرجاعها للوقائع التي خبرها الفرد في مرحلة الطفولة ، فمثلا ، ميل الفرد « س » للحياة الاجتماعية ، لا يفسر هذا الاتجاه لكون الجسم مكتنزا كما ترى المدرسة التكوينية ، وإنما يفسر هذا الاتجاه الانبساطي عن طريق وقائع وظروف خاصة بالمرحلة

---

(١) Libido.

(٢) Id.

(٣) المرجع السابق — ص ٦٢ ، ص ٦٤ .

(٤) Freud, S. : Character and Anal Erotism, Collected Papers, II, The Hogarth Press, London 1950, P. 50.

الأولى من طفولته مثل توافر فترة رضاعة كافية ، أو توافر عناية كبيرة من الأم . وعلى العكس تفسر مدرسة التحليل النفسي سلوك الأفراد الباردين[١] على أنهم تعرضوا لنظم صارمة لتدريبهم على الذهاب للمرحاض . ويجب ملاحظة أن مراحل نمو وتكوين الشخصية تمر فى المراحل السابقة الذكر فى حالة الأشخاص الأسوياء ، ولكن إذا تعرض الفرد لإحباط قوى فى إحدى مراحل النمو ، فإنه يمكن حدوث نكوص للمرحلة السابقة ، وهنا يصبح الشخص غير سوى أى مريض نفسى (عصابى) أو ذهانى . وتحديد نوع العصاب أو الذهان ليس بشكل تكوين الجسم ، وإنما بدرجة وقوة ونوع الإحباط الذى يتعرض له الفرد ودرجة الشعور بالأمان الذى كان يتمتع بها [٢] . ويستمر اهتمام مدرسة التحليل النفسى بمرحلة الطفولة حتى فى تفسير السلوك الإجرامى ، فإنها تفسر بعض السلوك الإجرامى ، إن لم يكن كله ، فى إطار النظرية الفرويدية .

وقد أثرت مدرسة التحليل النفسى فى مؤلفات ودراسات الكثيرين من الأنثروبولوجيين وعلماء الاجتماع ، فمثلا اهتم الأنثروبولوجيان « جورير »[٣] و« لابار »[٤] بمرحلة الطفولة فى دراستهما عن الشخصية القومية ، وتوجد دراسات تبين النتائج المدمرة التى تترتب على الفصل المبكر بين الطفل وأمه ، والآثار الضارة التى يحدثها هذا الفصل فى شخصية البالغ[٥] ، ولكن توجد دراسات أخرى تحذر من المبالغة فى الآثار الضارة المترتبة على الفصل المبكر بين الطفل وأمه .

فمثلا ترفض «هيلدا ديفيز» القول بأن الأطفال الذين يعزلون عن أمهاتهم فى مرحلة مبكرة وهؤلاء الذين يتعرضون لنظم تربية صارمة يصابون بأمراض ذهانية عند الكبر ، وخاصة تلك التى من أعراضها اللامبالاة والاكتئاب[٦] ، وهناك دراسات أخرى تؤكد النتائج المدمرة للشخصية المترتبة على الإفراط والمبالغة فى رعاية الأمهات لأطفالهن ، وأهم هذه النتائج الخطيرة انتشار الأمراض العصابية والذهانية[٧] .

يتضح مما سبق أن هناك مدارس نفسية واجتماعية وأنثروبولوجية تؤيد أهمية مرحلة الطفولة كعامل محدد للشخصية ولذلك لا يمكن دراسة محددات الشخصية بدون الإشارة إلى مرحلة الطفولة ويجب الأخذ فى الاعتبار اختلاف الإطار المرجعى النظرى لكل مدرسة فكرية ، رغم الاتفاق على أهمية مرحلة الطفولة فى تكوين الشخصية .

---

(١) Cold Individuals.

(٢) Fenichel, O. : The Psychoanalytic Theory of Neurosis, W.W. Norton, N.Y., 1945, P. 470.

(٣) Geoffrey Gorer.

(٤) Weston La Barre.

(٥) Bowlby, Y., Child Care and The Growth of Love, Abridged and Edited by Fry, M., Penguin Books, London, 1953.

(٦) Devis, Hilda, Deprivied Children, The Mesham Experiment. Oxford University Press, London 1954.

(٧) Levy, D., Mental Overprotection, Columbia University Press, N.Y. 1943.

ترابط وتواقف محددات الشخصية [١] :

لا تعمل المحددات سابقة الذكر فى حالة استقلال أو تباعد وإنما تعمل معا ويتوقف بعضها على البعض الآخر ، ولا يمكن فصل تلك العوامل عن بعضها إلا عن طريق التجريد وبهدف الدراسة والتحليل. فسمات شخصية فرد ما هى نتاج التفاعل المستمر لتكوين الفرد البيولوجى والنفسى مع العوامل المادية والاجتماعية والثقافية التى تحيط به فى حياته . بل إنه يندر إرجاع سلوك معين أو اتجاه أو قيمة معينة إلى عامل واحد من العوامل المحددة للشخصية ، وإنما إلى عدة عوامل متشابكة ، ويتضح ذلك من الأمثلة التالية :

يخضع الطفل لعملية تنشئة اجتماعية معينة على أساس نوعه ، ولذلك فإن الطفل الذكر يعامل بأسلوب مختلف عن معاملة الطفل الأنثى ، وكلما مر الطفل بمراحل الطفولة وانتقل إلى مرحلة الحلم ثم مرحلة المراهقة وسار كشخص بالغ فى باقى مراحل العمر ، تنوعت أنواع السلوك المتوقعة منه . ولا شك أن ثقافة المجتمع تحدد الخطوط العامة والتنوعات السلوكية المتوقعة من الشخصيات السوية فى مراحل العمر المختلفة ووفق نوع الفرد إن كان ذكراً أو أنثى . هنا نلاحظ تواقف وتداخل بين المحددات البيولوجية المتمثلة فى النوع والعمر والمحددات الثقافية المتمثل فى الأدوار المحددة ثقافيا للشخصيات التى تنوعت على أساس النوع والعمر

وأحيانا تصنف بعض العوامل المحددة للشخصية ببساطة كعوامل بيولوجية ، ولكن الفحص الدقيق يبين أنها ليست كذلك ، وإنما هى نتاج عوامل متعددة معقدة ، فمثلا المرض وما يحتويه من آثار على تكوين الشخصية هو ظاهرة بيولوجية من حيث تعرض الجسم لجرثومة معينة ، وما يصاحب ذلك من أعراض جسمية مرضية ، وما يترتب على ذلك المرض من آثار فى تكوين شخصية المريض ، ولكن عندما يحدث مرض معين لشخص بالذات ، نجد أن هناك عدداً من العوامل المتشابكة التى تؤثر فى هذا الموقف ، منها العوامل البيولوجية باستعداد الجسم بمقاومة ذلك المرض أو التأثر به مباشرة ، هذا بالإضافة إلى عوامل ثقافية تتمثل فى المستوى الصحى والعلمى الذى وصل إليه المجتمع الذى ينتمى إليه الفرد ، وما يترتب على ذلك من عوامل تؤثر فى شفاء المريض أو عدم شفائه ، وفى تحديد مدة الشفاء وتحديد مدى معاناة المريض لأعراض المرض ، ولا يمكن إغفال عوامل العضوية فى الجماعة والمستوى الاجتماعى والاقتصادى لأسرة المريض ، وما يترتب على ذلك من تأثير فى شفاء المريض ومدة الشفاء وكذلك لا يمكن إغفال الأنماط الثقافية المحددة لدور المريض فى ذلك المجتمع ، والأدوار التى يؤديها المقربون له فى ذلك الموقف ، وما يستخدمونه من وصفات بلدية أو أساليب علمية فى ذلك الموقف ، وما يصاحب ذلك من تأثيرات فى حالة المريض وفى إمكانية شفائه السريع أو حدوث الوفاة أو حدوث مضاعفات

---

(١) Interdependence of The Deteuminants.

قد تؤثر فى شخصيته مدى الحياة . ويمكن إضافة مثال ثان فى هذا المجال ، وهو سمة البدانة سواء أكانت منتشرة بين أعضاء جماعة ما أو خاصة بشخص معين فى جماعة ما ، إن النظرة السريعة ترجع تلك السمة فى الشخصية إلى عوامل بيولوجية خالصة ، ولكن النظرة المدققة تبين وجود عدة عوامل متداخلة ، فمثلا لا يمكن إغفال العامل الثقافى المتمثل فى التكنولوجيا المستخدمة فى إنتاج المحاصيل الزراعية وفى تحديد أنواعها وعادات الطعام ومعايير الصحة والجمال المنتشرة فى الجماعة ؛ ولهذه العوامل الثقافية أثر كبير فى تحديد درجة البدانة وطول القامة ، فالأمر لا يرجع ببساطة إلى العوامل البيولوجية وحدها كما توحى النظرة السطحية السريعة .

وعند دراسة التوافق بين العوامل البيئية الطبيعية والثقافية فى تقرير سمات الشخصية ، تجدر الإشارة إلى ما تقوم به الثقافة من تأثير فى توجيه ، وأحيانا فى تشويه الإدراك الحسى بالعالم الخارجى ، فقد أثبتت التجارب أن الإيحاء الاجتماعى يلعب دوراً هاماً فى تكوين الإطارات المرجعية للإحساس ، إذ يمكن اعتبار الثقافة كغمامة أو مجموعة عدسات من خلالها يرى الإنسان بيئته الخارجية .

وأخيراً نشير إلى بعض الأبحاث التى بينت التداخل بين محددات الشخصية ، فقد قام العالم « سبيتز » والعالمة « وولف » بدراسة أظهرت بعض الاختلافات فى السلوك الجنسى الذاتى[١] بين الأطفال الخاضعين لتربية صارمة والأطفال المتمتعين بعناية كبيرة من الأمهات ، فقد بينت الدراسة كثرة حالات الإثارة الذاتية للأعضاء التناسلية فى المجموعة الأولى من الأطفال ، فى حين تقل تلك الحالات نسبياً فى المجموعة الثانية[٢] .

ويظهر ترابط العوامل الفسيولوجية والثقافية المحددة للشخصية فى الأمراض الهستيرية والأمراض النفسية الجسمية وفى نمو مفهوم « الذات » ، إذ تتكون صورة الذات عند الفرد ، بصورة جزئية ، عن طريق مجموعة من العوامل الفسيولوجية والثقافية وهى شعور الفرد بجسمه وإدراكه لمظهره والخبرات التى يكتسبها الفرد فى أثناء علاقاته مع الآخرين وميول الفرد واتجاهاته نحو ذاته .

وأخيراً نشير إلى مثال يبين التوافق بين المحددات الجبلية ومحددات العضوية فى الجماعة والمحددات الموقفية : يعيش الأخوان سعيد وإبراهيم فى عائلة متوسطة الحال وهما توأمان ومتشابهان كثيراً من الناحية البيولوجية ، ويخضعان لأنماط ثقافية متشابهة ، إذ أنهما يعيشان مع والديهما ومجموعة من الإخوة والأخوات ، وتسير بهما الحياة على هذا المنوال المتشابه لفترة من الزمان ، ولكن يتدخل عامل موقفى مفاجئ يغير الظروف المحيطة بهما رأسا على عقب ، فإن التوأم سعيد يصاب فى حادث سيارة مما يترتب عليه بتر إحدى ساقيه ويعيش باقى عمره بساق واحدة .

---

(١) auto-oerotic.

(٢) Spitz, R., Wolf, K., Autoerotism, Some Empirical Findings and Hypotheses, The Psycho analytic Study of the child, Internationol Universities Press, N.Y. 1949, Vol. 3 - 4, PP. 85-I20.

إن هذا الموقف العارض أدى إلى اختلاف رئيسى فى شخصية كل من التوأمين . هذا بالرغم من تشابه العوامل البيولوجية وعوامل العضوية فى الجماعة نفسها. يتضح مما سبق أن العوامل المحددة للشخصية يتوافق بعضها على البعض الآخر . إذ أنها لا تعمل فى فراغ وإنما تعمل بجانب بعضها البعض ، ويحدث تفاعل بين تلك العوامل ومن خلال ذلك التفاعل ، وتفاعل تلك العوامل مع عوامل البيئة الطبيعية تنبثق شخصية الفرد .

يرجع اهتمام المؤلف بالعوامل الثقافية المحددة إلى تركيز الأنثروبولوجيا النفسية على دراسة أثر الثقافة فى الشخصية ، ويجب ألا يقلل ذلك من أهمية الحقيقة القائلة بأن الشخصية هى نتاج ترابط العوامل الفسيولوجية والثقافية والاجتماعية والموقفية ، وأن العوامل الثقافية لا تفسر سوى بعض سمات الشخصية وليس جميع تلك السمات .

ثالثاً ــ سمات الشخصية وقياسها :

يتضح لنا مما سبق أن الشخصية هى تصور نستنتجه من ملاحظتنا لسلوك الفرد وتصرفاته فى المواقف المختلفة ، وتهدف تلك الملاحظة إلى تحديد التصرفات التى تتمتع بأكبر قدر من الثبات أو الاستمرار ، وهكذا تدل تلك التصرفات الثابتة نسبيًّا على الشخصية ، ولا تعد الشخصية تجسيداً لتلك التصرفات ، وإنما هى مصدر تلك التصرفات ، فى حين تمثل تلك التصرفات المظاهر الدالة على الشخصية .

ويطلق العلماء اصطلاح « سمات » للتعبير عن تلك التصرفات الثابتة نسبيًّا ، وقد اهتم علماء النفس بوضع قوائم للسمات التى يستخدمونها فى وصف شخصية الفرد . ويستخدم اصطلاح « سمة » هنا بمعناه العام فالسمة هى أى صفة فطرية أو مكتسبة تميز الفرد عن غيره من الناس .

ولكن لا يجب أن ننظر إلى السمة سواء كانت هى السمة المتغلبة أو إحدى سمات الشخص الأخرى كأنها صفة ثابتة بل كأنها استعداد عام دينامى من شأنه أن يعين كيفية الاستجابة ، وبناء على ذلك تكون السمة فى حكم الاستعداد الذى لا يبرز ولا ينشط إلا إذا كانت ظروف إبرازه وتنشيطه محققة ، وبما أن أهم الظروف التى تؤثر فى الاستجابات السلوكية هى المواقف الاجتماعية ، وبما أن المواقف الاجتماعية تتنوع وتتغير فلابد إذن من تجنب السرعة والتعميم فى تحديد سمات الشخصية ، ويجب ألا ننظر إلى السمة كأنها أحد أمرين لا ثالث لهما . وتختلف السمات فى درجة عموميتها فى مدى تأثيرها فى سلوك الفرد ، بل كأنها إحدى المتغيرات ذات الدرجات والمستويات المختلفة .

ويميز العلامة « ألبورت » بين ثلاث فئات من السمات على أساس درجة عموميتها ، وهى السمات الأصلية والسمات المركزية والسمات الثانوية ، ويعرف السمة الأصلية « بأنها تبلغ من السيادة قدراً لا تستطيع حياله سوى نشاطات قليلة ألا تخضع لتأثيرها إما بشكل مباشر أو غير مباشر ، ولا يمكن لمثل تلك السمة

أن تظل مختفية طويلا . فالفرد يعرف بها بل إنه قد يصبح مشهوراً بها . ويطلق أحياناً على مثل تلك الصفة السائدة اسم السمة البارزة أو العاطفة السائدة »[١] وهذا النوع من السمات ليس شائعاً ولا يمكن — إلى حد ما — ملاحظته لدى كل شخص .

أما السمات المركزية فأكثر شيوعاً وهى تمثل الميول التى تميز الفرد تماماً والتى كثيراً ما تظهر ويكون استنتاجها سهلا تماماً وعددها لايتجاوز خمس أو عشر سمات .

وفيما يتعلق بالفئة الثالثة ، وهى السمات الثانوية فهى أقل حدوثاً وأقل أهمية فى وصف الشخصية ، وأكثر تركزاً من حيث الا ستجابات التى تؤدى إليها وأيضا من حيث المنبهات التى تناسبها .

وبالإضافة الفئات إلى الثلاث السابقة للسمات ، يشير « ألبورت » ، إلى ما سماه بالسمات التعبيرية ، وتؤثر تلك النزعات على شكل السلوك أو تلونه ولكنها لا تكون واقعية لدى أغلب الأفراد (كما هو الحال بالنسبة للميول والقيم والغايات البعيدة) ومن أمثلة السمات التعبيرية السيطرة والمثابرة .

ويجب ملاحظة أن السمة فى حقيقتها صفة فردية ، وذلك لأن السمات توجد دائماً فى أفراد وليس فى المجموع بشكل عام ولأنها تتطور وتعمم إلى استعدادات دينامية بطرق فريدة وفقاً لخبرات كل فرد . ويجب ملاحظة أنه نظراً لمجموعة التأثيرات الشائعة التى تتضمنها الثقافة المشتركة وتشابه السلالات فإن الأفراد يبدون بالفعل ما يمكن اعتباره سمات مشتركة جمعية[٢]، ولكن يجب ملاحظة أن هذا التشابه بين سمات شخصيات الأفراد لا يلغى حقيقة أن السمة هى صفة فردية ، كما أن الشخصية هى حقيقة فردية فريدة لكل شخص ، وهنا فى دراسة موضوع تأثير الثقافة فى الشخصية والاهتمام بالسمات المشتركة الجمعية يجب علينا دائماً تذكر أن السمة وكذلك الشخصية كل منهما حقيقة فردية فريدة ؛ والسمات لا تكون فى حالة استقلال عن بعضها البعض وإنما ترتبط وتتداخل .

وتستخدم عدة طرق إحصائية لدراسة نوع ومدى الارتباط بين سمات الشخصية وأهم تلك الطرق طريقة التحليل العاملى التى تحدد أقل عدد من السمات البسيطة أو العوامل المستقلة (نسبياً) التى تتألف منها شخصية الفرد ، وهى ما أطلق عليها العلامة «ألبورت» اصطلاح السمات المركزية ، وهنا يقوم الباحث النفسى بتحليل السمات المتعددة إلى عواملها الأصلية أى إلى السمات الغالبة فى توجيه السلوك عامة ويستخدم فى ذلك أولا الاختبارات السيكلوجية وقوائم قياس الشخصية ثم يستخدم طريقة تحليل العوامل ومعاملات الارتباط لمعرفة مدى تداخل السمات أو استقلالها .

وبرغم أن السمة هى إحدى المتغيرات الهامة فى السلوك لأنها تعمل على اتساقه وانتظامه فى الطريقة التى يسلك بها الفرد وعلى ثباته نسبياً فى المواقف المتشابهة فإنه يجب ملاحظة أن ذلك الاتساق والثبات

---

(١) د. فرج فرج وآخرون : نظريات الشخصية (الترجمة العربية لكتاب هول ولندزى) — الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر — القاهرة ١٩٧١ — ص ٣٥٠ .

(٢) المرجع السابق — ص ٣٤٩ .

هى أمور متغيرة وليست جامدة ، نتيجة لتدخل عوامل وظروف معينة . منها الحالة المزاجية والعقلية للفرد ودرجة قوة الدافع ومدى وضوح المثيرات والصيغ الكلية للمواقف المختلفة . هذا بالإضافة إلى تأثير عوامل السن والنوع والمستوى التعليمى .

ولا يمكن إغفال عامل طبيعية السمة ذاتها ، فالسمات التى تحددها قيم ثقافية مثل الأمانة والصدق يظهر فيها التغير بصورة أوضح مما يحدث فى السمات التى تحددها العوامل الوراثية مثل النضج الانفعالى .

وتعد مقاييس التقدير المتدرجة من أفضل الوسائل لتقدير السمات ووصفها كميًّا : فبدلا من وصف شخص ما بالاعتدال فى تصرفاته : أو بالمرح أو بالثقة بالنفس : فإن المقاييس المتدرجة تبين مدى ما لدى الفرد من هذه السمات بنسبة مئوية أو برسم بيانى . وهكذا تقع السمات العامة أو المركزية على محور ذى قطبين ، يمثل كل قطب أقصى حدود التطرف ، ونقطة الاعتدال فى هذا المحور تقع فى الوسط حيث لا يسيطر فيها أى من القطبين على الآخر . فمثلا فيما يتعلق بسمة المرح والاكتئاب تمثل درجة ١٠٠ أكثر الناس مرحاً ، فى حين أن أشدهم اكتئابا تكون درجته صفراً ، أما الشخص المتوسط تكون درجته ٥٠ ، والسمات مثل باقى الظواهر النفسية الأخرى توزع على الأفراد اعتداليًّا ؛ وهناك أشكال عدة للمقاييس المتدرجة لسمات الشخصية ، من أكثرها شيوعاً ما يكون على صورة قوائم من السمات يشير فيها المقدر بعلامة إلى السمات التى يتسم فيها الشخص المفحوص ، وهى موازين يستطيع أن يطبقها الآباء والمدرسون على أطفالهم وتلاميذهم ، كما يستطيع الكبار تطبيقها على أنفسهم فتسمى فى هذه الحال المقاييس الذاتية . وفى مقاييس السمات يجب أن تعرف السمات تعريفاً واضحاً لكى تفهم بوضوح وعلى النحو نفسه وذلك بشرح الألفاظ وتوضيحها بالمرادفات والأمثلة السلوكية ، ويجب أن تعرف درجات السمات بوضوح وأن نقدر كل سمة على مقياس متدرج خاص .

مثال :

ضع علامة + على درجة السمة التى ترى أنها تتفق ومالديك من مثابرة :

مثابر جداً

يندر أن يستسلم

لا يترك عملا دون إنجاز

يعزف عن الأعمال الصعبة

متخاذل جداً

وكثيراً ما يشترك عدد من الحكام تقارن تقديراتهم ويؤخذ المتوسط ، ثم إن اتصال عدد من الحكام بالمفحوص فى مواقف مختلفة تعطيهم انطباعات عنه يمكن الموازنة بينها فى التقدير النهائى لسمة معينة ،

ومن المفيد أن يناقش الحكام تقديراتهم وأن يحاولوا التوفيق بينها ، فذلك أفضل من قيام كل منهم بتقديره مستقلا عن غيره[١] .

حاول علماء النفس تحديد الأقسام الأساسية لسمات الشخصية ويرى بعضهم أن تلك الأقسام هي :

١ ــ المميزات الجسمانية : القامة ــ القوة ــ الصحة ــ الجمال .

٢ ــ المميزات الحركية : سرعة الحركة أو بطئها ــ الاندفاع أو القدرة على الكف ــ الجلد والمثابرة ــ المهارة والحذق أسلوب الحركة .

٣ ــ المميزات العقلية : القدرة على حل المسائل ــ على التعلم والتذكر ــ على التخيل الإبداعي ــ حصافة الرأى وسلامة الحكم ــ المقدرة العامة على التكيف .

٤ ــ المميزات المزاجية : توافر الحالات الانفعالية ودرجة تغيرها ــ مدى الانفعال وشدته ــ الحالة المزاجية المتغلبة ــ الاتجاه الانفعالى العام .

٥ ــ أساليب التعبير عن الذات : النزعات المتغلبة ــ التعويض ــ الانبساط أو الانطواء ــ السيطرة أو الخضوع ــ البسط أو القبض ــ الرجولة الخلقية أو الأنوثة .

٦ ــ المميزات الاجتماعية : القابلية للتأثر بالعوامل الاجتماعية ــ القابلية للاندماج الاجتماعى ــ التعدى على الغير ــ الاشتراك الفعال فى النشاط الاجتماعى ــ الاتجاه العام فى تقدير القيم ــ الصفات الخلقية كالصدق والكذب والأمانة ــ الخداع[٢] .

إن هذا التصنيف لسمات الشخصية كسائر التصانيف لا يخلو من عيوب كإغفال بعض السمات أو عدم التمييز التام بين السمات التى قد تبدو متداخلة أو مكررة ، ولكن من العسير تلافى مثل هذه العيوب ، لأن الموضوع معقد لأقصى حد وبخاصة إذا نظرنا إلى الشخص وهو يسلك سلوكه فى ظروف اجتماعية متنوعة ومتغيرة . ويجب دائما أن نعقب على النظرة التحليلية بالنظرة التأليفية التى تحاول أن تحدد الصورة التكاملية التى تربط بين مختلف السمات مع بيان صلة كل سمة .

يتضح لنا مما سبق صعوبة وضع مقياس عام لتحديد جميع سمات الشخصية ، ولهذا اهتم علماء النفس بوضع اختبارات لقياس بعض سمات الشخصية ، أو بالأصح بعض مظاهر الشخصية .

ومن الطبيعى أن يتركز اهتمام علماء النفس حول السمات الأولية ، وهى تلك السمات التى تتميز بالاستقلال النسبى عن غيرها من السمات الأخرى ، كما أن عددها محدود ونصل إليها عن طريق

---

(١) د. عثمان فراج : الشخصية والصحة العقلية ــ ص ٨٢ .
(٢) د. يوسف مراد : مبادئ علم النفس العام ــ ص ٣٦١ ، ص ٣٦٢ .

منهج التحليل العاملى الذى يصنف السمات المتشابهة فى وحدات أعم وأشمل ترتبط فيما بينها ارتباطاً يميزها عن غيرها من السمات .

وقد اهتم علماء النفس أول الأمر باختبار السمات العقلية وقياسها وأهم هذه الاختبارات هى المعروفة باختبارات الذكاء ؛ أما اختبارات الشخصية لتقدير السمات الخلقية من انفعالية واجتماعية فهى حديثة العهد ومن أمثلتها :

١ ـ اختبار « ألبورت »[١] : لدراسة سمة السيطرة أو الخضوع . وتطبيق ذلك الاختبار أوضح أن سمة السيطرة أو الخضوع لا تكون ثابتة على الدوام . فالشخص الذى يبدى النزعة إلى السيطرة فى بيئة اجتماعية ما كالبيئة القروية قد يظهر فى صورة الخاضع المسالم إذا وضع فى وسط مدينة كبيرة ، فالسمة تكون دائماً مرهونة بالعوامل الاجتماعية المختلفة .

٢ ـ اختبارات «هارتشون وماى»[٢] : لتقدير الأمانة أو الخداع .

٣ ـ اختبارات « ترمان وميلز »[٣] : لتقدير الرجولة الخلقية أو الأنوثة سواء فى الذكور أو الإناث .

٤ ـ اختبار « ويللوفبى »[٤] : لتقدير درجة النضج الانفعالى .

٥ ـ اختبار « ثرستون »[٥] : لتقدير درجة توافق الشخصية ، وهو مكون من ٢٢٢سؤالا تتناول بصفة خاصة الجانب الانفعالى وذكريات الطفولة وموقف الشخص من والديه ومن سائر أفراد المجتمع .

٦ ـ اختبار « نيمان وكوهلست »[٦] : لقياس سمتى الانطواء والانبساط .

٧ ـ اختبار « برنروتر »[٧] : وهو شبيه باختبار ثرستون غير أنه يصلح فى الوقت نفسه لتقدير أربع سمات مختلفة هى النزعة إلى الانحراف النفسانى والاعتماد على النفس والانبساط والانطواء وأخيراً السيطرة والخضوع .

٨ ـ اختبار « دونى »[٨] : وهو اختبار تأليفى لتقدير مجموعة من السمات الحركية والإرادية والخلقية مثل : سرعة الحركة والمرونة وسرعة التصميم ومقاومة المعارضة وثبات الرأى والاهتمام بالتفاصيل والمثابرة الإرادية .

---

(١) Allport.
(٢) Harttshorne & May.
(٣) Terman & Miles.
(٤) Willoughby.
(٥) Thurstone.
(٦) Neymann - Kohlstedt.
(٧) Bernreuter.
(٨) Douney.

٩ ـ الاختبارات الإسقاطية : وهى أكثر اختبارات الشخصية استخداماً وإن كانت أصعبها تقديراً لنتائجها . وهى تلك التى تقوم على عملية الإسقاط التى بها ينسب الشخص بطريقة لا شعورية انفعالاته المكبوتة إلى غيره من الناس أو إلى الأشياء التى يراها أو الأصوات التى يسمعها ومن أشهرها اختبار بقع الحبر للعالم رورشاخ(١) . ويتكون من عشر بقع من الحبر منها خمس ملونة والأخرى غير ملونة ؛ تعرض الواحدة بعد الأخرى على من يراد فحصه ويطلب إليه أن يذكر ما يراه فيها ، وأن يعلق عليها تعليقاً حرًّا فيصف ما تذكره به وما يتوارد على ذهنه من خواطر بعددها .

ويوجد اختبار تفهم الموضوع(٢) وقد وضعه العالم الأمريكى موراى(٣) ؛ وتهدف هذه الاختبارات أصلا إلى إظهار الدوافع الرئيسية ، والانفعالات والعواطف والعقد والصراعات السائدة فى الشخصية . ويتكون هذا الاختبار من عشرين صورة تصور مواقف معينة ، بعضها للذكور وبعضها للإناث وبعضها للأطفال ، ويكون كل موقف فى هذه الصور مثيراً يدور حول شخص يماثل المختبر فهو من جنسه وفى نفس سنه قدر الإمكان ، ثم يطلب إلى الشخص المختبر أن يروى قصة توحى بها الصورة وتصف أحوال من فيها من الأشخاص . وقد اتضح بعد إجراء هذا الاختبار على كثير من الأشخاص أن المختبر فى قصته غالباً ما يتكلم عن حياته وعن متاعبه دون أن يشعر بذلك أى يسقط مشاعره فى روايته عن الشخص الذى يمثل شخصيته فى الاختبار .

١٠ ـ وهناك اختبار تداعى المعانى وهو يسمح أيضاً بالكشف عن العقد المكبوتة أو عن رغبات الشخص أومخاوفه ، وأول من استخدمه العالم السويسرى يونج(٤) ويشتمل على مائة كلمة تذكر للمفحوص واحدة بعد الأخرى ، ويطلب إليه أن يرد على كل كلمة تطرأ على ذهنه وبأسرع ما يستطيع ، ويقاس زمن الرجع الذى يمضى بين سماعه الكلمة وإجابته ثم يدرس طول زمن الرجع للكلمات المختلفة ، وطبيعة الاستجابة والتغيرات التى تطرأ عليها حين يعاد الاختبار مرة أخرى ، مع مراعاة ما يبدو على الشخص من تردد أو حرج أو انفعال عند الإجابة ، ومن ثم يمكن معرفة المعانى التى لها صلة بعقده أو مخاوفه ولو من بعيد ، وقد ثبت أن لهذا الاختبار قيمة بالغة فى التحقيق الجنائى .

رابعاً ـ نظريات الشخصية :

يتخصص اليوم فرع من علم النفس فى دراسة الشخصية وهو علم نفس الشخصية ، وهو فرع

---

(١) Rorschach.

(٢) TAT : Thematic Apperc

(٣) Murray, H.

(٤) Yung.

غنى بتعدد النظريات التى تحاول تفسير الشخصية عن طريق تحديد بنائها وديناميانها وارتقائها ، ويعكس تنوع نظريات الشخصية ثراء وتعقد ظاهرة الشخصية من ناحية وحداثة علم الشخصية من ناحية ثانية . فهو علم حديث لم تكتمل معالمه إلا قبل القرن العشرين بقليل وذلك بالرغم من أن الفلاسفة قد درسوا بعض جوانب الشخصية منذ آلاف السنين . وبرغم تنوع نظريات الشخصية وتشابه بعضها ببعض فقد صمدت فى الوجود حتى يومنا هذا لأن كلا منها يساهم بشىء فى فهم تلك الظاهرة المعقدة وهى الشخصية .

وترتب على تنوع وتعدد نظريات الشخصية أن كثرت تعاريف الشخصية بصورة لا نجدها فى أى ظاهرة نفسية أخرى ، وتنوع وتعدد نظريات الشخصية لا يرجعان فقط إلى تعقد الظاهرة قيد البحث وإلى حداثة علم الشخصية ، وإنما يرجعان كذلك إلى اهتمام علوم أخرى كثيرة بالشخصية ، فإلى جانب علم النفس نلاحظ أن كلا من علم الاجتماع وعلم وظائف الأعضاء وعلم الحياة وعلم الوراثة والأنثروبولوجيا والفلسفة تهتم أيضاً بدراسة الشخصية . ويخرج عن مجال هذا الكتاب عرض نظريات الشخصية لأن موضوعه علاقة الثقافة بالشخصية . وهوموضوع الأنثروبولوجيا النفسية ، الذى يشتمل على مجموعة من نظريات معينة ، وترتبط تلك النظريات بصورة ما بنظريات علم نفس الشخصية كما يتضح ذلك من الفصول السابقة والقادمة .

يجب أن تتكون النظرية بصورة عامة من مجموعة من الفروض المرتبطة والمتعلقة بالظاهرات التجريبية قيد الملاحظة ، ومن التعريفات التجريبية التى تسمح لمستخدمها بالانتقال من النظرية المحددة إلى الملاحظة التجريبية ، وبالتالى يجب أن تتكون نظرية الشخصية من مجموعة من الفروض تتصل بالسلوك الإنسانى بالإضافة إلى التعريفات التجريبية الضرورية ، ويجب كذلك أن تكون نظرية الشخصية شاملة نسبياً ، وأن تكون مستعدة لمواجهة أو لإصدار التنبؤات بخصوص نطاق واسع من السلوك الإنسانى .

لا ينطبق هذا التصور المثالى لنظريات الشخصية على نظريات الشخصية المتاحة حتى الآن . وهذه هى النتيجة التى توصل إليها العالمان النفسيان «هول» و«لندزى» فى مؤلفهما الشهير عن نظريات الشخصية ، فبعد مسح شامل وتحليل دقيق لأهم نظريات الشخصية ، تبين لهما أن معظم النظريات ينقصها الوضوح ، إذ أن نظريات الشخصية كثيراً ما تغلف فى كتلة ضخمة من الصور اللفظية الحية التى تهتم بإقناع القارئ المتردد ولكنها لا تعرض بوضوح الافتراضات النوعية التى تكمن وراء النظرية[1] .

ويرتبط بهذا الافتقار إلى الوضوح والتحديد تكرار الخلط بين ما هو معطى أو مفترض وبين ما هو مقرر على أساس تجريبى وقابل للاختبار ، وذلك لأن المشتقات أو التنبؤات التى تولدها النظرية هى وحدها القابلة للاختبار التجريبى ، أما بقية النظرية فإنه يفترض أو يعطى ولا يجب الحكم عليه على أساس من الإثبات أو النفى ، بل يحكم عليه طبقاً لنجاحه فى توليد فروض أو قضايا محققة ، وهكذا

---

(١) د. فرج فرج وآخرون : نظريات الشخصية (الترجمة العربية) — القاهرة ١٩٧١ ص ٢٩ ، ٣٠ .

فإن معظم نظريات الشخصية ينقصها التفرقة الواضحة بين نظرية الشخصية ذاتها وبين متضمناتها أو مشتقاتها

ويترتب على ذلك حدوث خلط خطير فى عملية اشتقاق التقريرات التجريبية من النظرية ، ولذلك فإنه من المحتمل أن يصل أفراد مختلفون يستخدمون النظرية نفسها إلى مشتقات متعارضة ، ويعكس هذا التناقض حقيقة أن معظم أصحاب نظريات الشخصية قد اتجهوا نحو التفسيرات التالية على الحقائق بدلا من الاتجاه نحو توليد التنبؤات الجديدة المتعلقة بالسلوك .

وبالرغم مما قد تكون عليه نظريات الشخصية من جدب بالموازنة إلى المثل الأعلى لما يجب أن تكون عليه ، فإنها لا تزال تمثل خطوة كبيرة إلى الأمام بالموازنة إلى التفكير الواقعى الساذج ، هذا بالإضافة إلى أن وجود تلك النظريات للشخصية يجعل من الممكن العمل من أجل تحقيق المثل الأعلى لما يجب أن تكون عليه نظرية الشخصية ، ومن الواضح أن الحالة الراهنة لنظرية الشخصية تمثل تحسناً كبيراً بالقياس إلى مكانتها الشكلية منذ عشرين سنة ، وتعمل نظريات الشخصية الحالية على استثارة أنواع عامة معينة من البحوث وتزودنا بمقاييس أو أبعاد معينة تعتبر ذات أهمية فى الكشف عن مشاكل جديدة ، وقد ينتج عن قدرة نظريات الشخصية على توليد الأفكار واستثارة حب الاستطلاع ، وتحريك الشكوك أو على توليد الإقناع ، ينتج عن ذلك ازدهار صحى للبحوث ، بالرغم من افتقارها إلى الدقة الشكلية[١] .

وفيما يتعلق بنظريات الشخصية ذات الأهمية ، فقد حددها العالمان « هول » و« لندزى » بالنظريات التالية : نظرية التحليل النفسى عند فرويد — نظرية يونج التحليلية — النظريات النفسية الاجتماعية : آدلر وفروم وهورنى وسوليفان — علم الشخصية لدى موراى — نظرية المجال عند ليفين — سيكلوجية الفرد عند ألبورت — النظرية العضوية — علم النفس الجبلى عند شيلدون — نظريات العامل — نظرية المثير والاستجابة — نظرية الذات عند روجرز — نظرية مورفى الاجتماعية والحيوى .

يتيح العرض السابق للمتخصصين فى علم الاجتماع والأنثروبولوجيا التعرف بصورة عامة على مفهوم الشخصية ، كما يتيح الفصل الثالث والخاص بالثقافة للمتخصصين فى علم النفس التعرف بصورة عامة على مفهوم الثقافة ، وأن مثل هذا التعرف أمر لابد منه للقارئ قبل الانتقال إلى دراسة نظريات الثقافة والشخصية ، وهى موضوع الفصل القادم .

---

(١) المرجع السابق ص ٣٢ .

الفصل الخامس

نظريات الثقافة والشخصية

- **تمهيد**
- **نظريات الصيغة الكلية**
- **نظريات البناء الأساسى للشخصية**
- **نظرية الشخصية المنوالية**
- **نظرية الشخصية القومية**

الفصل الخامس

نظريات الثقافة والشخصية

تمهيد :

سبق أن بينا أن موضوع الأنثروبولوجيا النفسية هودراسة العلاقة بين الثقافة والشخصية ، وأن الاختلاف بين الثقافة والشخصية هو اختلاف فى النوع وليس فى الدرجة ، وقد حاول بعض الأنثربولوجيين وعلماء النفس تفسير العلاقة بين الثقافة والشخصية عن طريق وضع النظريات .

والنظرية فرض لم يتأيد بعد ، أو تأمل حول الواقع لم يتأكد بعد بصورة تقطع بصحته ، ولا يمكن أن تكون النظرية صادقة أو خاطئة ، وإن كانت مشتقاتها أو متضمناتها يمكن أن تكون كذلك ، ويمكن تعريف النظرية فى صورتها المثالية بأنها مجموعة من الفروض ذات الصلة بالوقائع التجريبية التى تهتم بها النظرية ويجب أن تكون تلك الفروض مفيدة أو تنبئية فيما يتعلق بتلك الوقائع التجريبية ، ويتوقف على طبيعة النظرية احتمال أن تكون هذه الفروض عامة للغاية أم نوعية إلى حد ما . ويجب أن تضم النظرية كذلك مجموعة من التعريفات التجريبية ، وكثيراً ما تسمى هذه التعريفات بالتعريفات الإجرائية إذ أنها تحاول أن تحدد العمليات التى يمكن بها قياس المتغيرات أو المفهومات العامة .

إن جوهر أى علم يكمن فى اكتشاف علاقات تجريبية ثابتة بين المتغيرات أى القوانين ، ووظيفة النظرية أن تقود هذه العملية بأسلوب منظم وأن تدفعها للأمام ، ويتحقق ذلك عن طريق توفير الفروض أو القضايا التى يمكن قبولها أو رفضها على ضوء المادة التجريبية المحكمة الضبط ، إن المشتقات أو الفروض هى وحدها التى يمكن اختبارها تجريبياً ، أما النظرية نفسها فهى تفترض ، ويتحدد قبولها أو رفضها بمقدار فائدتها ، وليس طبقاً لصدقها أو خطئها .

ومن الواضح أن تلك الصورة المثالية غير متوافرة تماماً فى معظم النظريات ، كما هى غير متوافرة فى نظريات الثقافة والشخصية ، ويهمنا هنا تأكيد خاصية عدم خضوع النظرية ذاتها لاختبار الصدق والخطأ ، لأن هذه الخاصية تفسر تعدد بل وتناقص تلك النظريات ويتضح ذلك فى الفقرات التالية .

وبرغم تعدد وتناقص نظريات الثقافة والشخصية فإنه يمكن تمييز اتجاهين عامين تنتظم فيها تلك النظريات وهما الاتجاه التكرارى والاتجاه التنظيمى .

يتمثل الاتجاه التكرارى فى القول بأن كل عضو فى مجتمع ما هو حامل ثقافة ذلك المجتمع . وفى رأسه توجد صورة مصغرة[١] ومكررة[٢] لتلك الثقافة ، تتكون تلك الصورة المكررة تدريجياً وتندمج فى ذات الشخص من خلال التنشئة الاجتماعية وتتلاءم مع جهازه العصبى . وترى الصياغة المتطرفة لهذا الاتجاه أن هذه الصورة المكررة والمصغرة للثقافة هى شخصية الفرد ؛ أما الصياغة المعتدلة فترى أنها تمثل فقط جزءاً من شخصيته .

وقد ركزت الدراسات التى اتبعت ذلك الاتجاه على أساليب التنشئة الاجتماعية وهى الأساليب التى عن طريقها تتحد ثقافة المجتمع فى شخصيات أعضائه ؛ وكذلك على أساليب تكيف المهاجرين مع الثقافات الجديدة .

وفيما يتعلق بهؤلاء الأفراد الذين لاينطبعون بثقافة مجتمعهم ، فإنهم يمثلون الفئة المنحرفة أو الشاذة التى لا يخلو منها مجتمع ، ولا يلغون الفرض المشتق القائل بوجود شكل واحد للشخصية عند جميع الأفراد الحاملين لثقافة واحدة ؛ وهكذا يتضمن الاتجاه التكرارى وجود ترابط قوى بين الثقافة والشخصية ؛ وعلى ضوء هذا الفهم فإن العلاقة بين الثقافة والشخصية تصبح علاقة تطابق ؛ وبالتالى يمكن استنتاج الثقافة من الشخصية واستنتاج الشخصية من الثقافة[٣] .

وأفضل من تمثل الاتجاه التكرارى العلامة « ميد » التى تقول : « إن أى عضو فى جماعية معينة ، فى حالة تحديد مركزه بدقة فى الجماعة ، هو عينة كاملة لثقافة خاصة بجماعة كبيرة ؛ ويمثل هذا العضو تلك الجماعة ، ولذلك ينظر إليه كإخبارى يمدنا بالمعلومات اللازمة لمعرفة تلك الجماعة . وهكذا فإن شاباً عمره ٢١ سنة مولود من والدين أمريكيين من أصل صينى فى مقاطعة صغيرة بالقرب من نيويورك ومتخرج حديثاً من جامعة هارفارد ، وآخر أصم وأبكم من الجيل العاشر من أصل بريطانى مولود فى مدينة بوسطن ، يتساويان فى كونهما ممثلان كاملان للشخصية القومية الأمريكية ، هذا فى حالة الأخذ فى الاعتبار بصورة كاملة وضعهم الفردى وصفاتهم الفردية »[٤] .

وتستخدم النظريات التى تتبع الاتجاه التكرارى المنهج الثقافى والاستدلالى فى فحص الفروض المشتقة ، ويميل هذا المنهج إلى إخضاع الوصف الأثنوجرافى للتحليل النفسى ، وهنا يقوم الباحث بتحليل التقارير الوصفية عن الأنماط الثقافية وخاصة المتعلقة بالتنشئة الاجتماعية ومرحلة الطفولة المبكرة ويفسرها

---

(١) Microcosmic metaphor.

(٢) Replica.

(٣) Wallace, A., Culture and Personality, Random House, N.Y. 1961, PP. 85 & 86.

(٤) Mead M. and Metraux, R. (eds), The Study of Culture at a Distance, Univ. Of Chicago Press, Chicago, 1953, P. 648.

على ضوء إحدى نظريات التحليل النفسى ، وهكذا فإن هؤلاء المحللين النفسيين يستنتجون من المادة الثقافية معنى تلك المادة عند الفرد كعضو فى المجتمع . تسير فى الاتجاه التكرارى — بدرجات متفاوتة — مجموعة من النظريات ، وندرس منها فى هذا الفصل نظرية روح الثقافة ونظرية البناء الرئيسى للشخصية ونظرية أسلوب النظر إلى الحياة ونظرية الشخصية القومية .

تعرض الاتجاه التكرارى لكثير من النقد ، وتتمثل الصور المتطرفة فى رفض هذا الاتجاه تماماً، ووصفه بالتعسف والبعد عن الواقع ، أما الصور المعتدلة والمعقولة ، فترى أنه لا يمكن وجود علاقة تطابق أو تكافؤ بين الشخصية والثقافة لاختلاف مستويات التجريد ؛ فالقول بأن الشخصية هى تجسيد للثقافة يشبه القول بأن الطفل هو تجسيد لمعدل المواليد ، وترى كذلك أن شخصيات أفراد المجتمع الواحد تتنوع بدرجة عظيمة يستحيل فيها تطبيق صيغة واحدة عليها جميعاً .

هذا بالإضافة إلى أنه لا يوجد تبرير منطقى للافتراض بأن التنظيم الاجتماعى يتطلب درجة عالية من مطابقة السلوك الفردى للأدوار الاجتماعية .

لم يقف أصحاب نظريات الاتجاه التكرارى مكتوفى الأيدى أمام الاعتراضات السابقة ، وإنما سارع معظمهم بالاعتراف بأن أفراد المجتمع الواحد، حتى فى المجتمعات البسيطة المتجانسة ، يظهرون الكثير من التنوع والاختلاف فى تصرفاتهم نتيجة للتفاعل بين العوامل البيولوجية والبيئية ، ولكنهم يعودون فيقررون أن هذا التنوع لا ينفى وجود خصائص نفسية مشتركة ، وهكذا بالرغم من وجود اختلافات فردية بين أعضاء المجتمع الواحد فإنه توجد أيضاً تصرفات تتمتع بالانتشار والشمول ، وهى الموضوعات التى يجب التركيز عليها فى أبحاث الثقافة والشخصية[1] .

وكبديل للاتجاه التكرارى ظهر الاتجاه التنظيمى ، ويجمع هذا الاتجاه مجموعة من النظرات التى تعارض مبدأ تشابه أعضاء المجتمع الواحد لخضوعهم منذ صغرهم لثقافة واحدة ، فمثلا لا يمكن أن نفترض أن الذكور والإناث فى مجتمع ما يشتركون فى قيم واحدة أو فى الأدوار نفسها والبناء العاطفى نفسه .

تقرر الدراسة الميدانية وجود تنوع وتوزيع للخصائص النفسية والاجتماعية للأفراد فى كل لحظة، ولذلك تعارض نظريات الاتجاه التنظيمى الافتراض بأن الشخصية ما هى إلا صورة مصغرة من الثقافة أو هى عملية إدماج الثقافة فى الذات ، وإنما تقرر أن كلاً من خصائص الشخصية وخصائص الثقافة هى تجريدات شكلية يستنتجها الباحث من ملاحظة وقائع مختلفة تماماً، ففى حالة الشخصية يدرس الباحث فرداً واحداً معيناً للوصول إلى تعميمات مستنتجة من ملاحظة سلوك هذا الفرد لفترة كافية، أما فيما يتعلق بالثقافة فهى تعميمات مستنتجة من ملاحظة السلوك عند أكبر عدد ممكن من الأفراد الذين يعيشون فى مجتمع واحد . وتطبيقاً للاتجاه التنظيمى ، افترضت بعض النظريات وجود الشخصية المنوالية وشخصيات المركز وهى تعميمات من مادة خاصة بالشخصية ومادة خاصة بالثقافة ، إذ لا توجد قائمة محددة لفئات

(١) Ibid. PP. 87 - 90.

السلوك التى تحدد الشخصية ، ولا يوجد أى عدد محدد أو نسبة معينة للأفراد الذين يجب أن يشتركوا فى سلوك معين ليصبح نمطا ثقافياً ، كذلك تشمل خصائص الثقافة عبارات عن علاقات بين أنماط السلوك ، وهى علاقات لم يدل بها أى إخبارى ، ولا يستطيع أن يدلى بها . إن الخصائص الثقافية لا تتطلب أن تكون واقعاً سيكلوجياً بالنسبة للاخبارى .

ويعرض هذا الفصل بعض نظريات الاتجاه التنظيمى وهى نظرية ثنائية سجية الثقافة ونظرية شخصيات المركز ونظرية اليمات والشخصية المنوالية ، ولنتناول الآن عرض نظريات الأنثروبولوجيا النفسية ، سواء ما يرجع منها للاتجاه التكرارى أو للاتجاه التنظيمى .

أولا — نظريات « الصيغة الكلية » :

يتفق عدد كبير من الأنثروبولوجيين على الاعتقاد بأن ثقافة أى مجتمع تتميز بالتكامل والترابط وبوجود صيغة كلية[١] تجمعها ، وتتمثل تلك الصيغة الكلية فى مجموعة من القيم والاتجاهات التى تضفى عليها الثقافة قيمة كبرى ، وتؤثر تلك القيم والاتجاهات فى سلوك الأفراد وشخصياتهم .

ويتضح مفهوم « الصيغة الكلية » فى مؤلف العلامة « بينيديكت » نماذج من الثقافة ، فقد أوضحت كيف أن كل نموذج ثقافى قد درسته يحتوى على صيغة كلية أو على محور أو مركز يؤثر فى سلوك الأفراد وشخصياتهم ، وأن الذى يخرج فى سلوكه على تلك الصيغة الكلية يعد شخصاً منحرفاً ، وتبين دراسة العلامة «بينيديكت» ، أن تلك الصيغ الكلية ليست واحدة فى كل الثقافات وإنما هى مختلفة ، وقد تكون متناقضة كما أوضحت تحليلاتها للأسلوب الأبللونى فى قبائل البيبلو والأسلوب الديونيزيانى فى قبائل كيوكيوتل . وهكذا فإن النظرة النسبية هى الأساس التحليلى المستخدم عند مقارنة الصيغ الكلية فى الثقافات المختلفة . وقد تابع العلماء هذه النظرية بإجراء المزيد من الأبحاث الميدانية التى أظهرت جوانب جديدة ، فقد تبين أن الثقافة الواحدة قد تجمع أكثر من صيغة كلية واحدة ، وقد وضع العلماء اصطلاحات أخرى للتعبير عن مفهوم « الصيغة الكلية » ، وفيما يلى أهم مجهودات العلماء ونظرياتهم الخاصة بمفهوم الصيغة الكلية .

١ — نظرية « روح الثقافة » :

ترى تلك النظرية أن كل ثقافة تتميز « بروح »[٢] معينة ، وهى مجموعة من الخصائص النفسية المجردة التى تستنتج من تحليل المادة الثقافية ، وتسيطر تلك الروح على شخصيات حاملى الثقافة . ويشبه العلامة « ولاس » روح الثقافة بالهندسة ، فكما أن الهندسة يعبر عنها عن طريق بديهياتها الفطرية أو عن طريق النمو التاريخى لنظرياتها ، فالحال كذلك بالنسبة لروح الثقافة التى تتمثل فى جانبين هما ،

---

١) Configuration.

٢) Genius.

الجانب الاستمرارى والجانب التطورى ، ويتمثل الجانب الاستمرارى فى التواجد الدائم لإطار مرجعى أو منظور محدد يتكون من مجموعة من القواعد والمقاييس العامة التى تحكم العمليات العقلية ، ويشبه هذا المنظور البديهيات التى تقوم عليها الهندسة ، أما الجانب التطورى فهو خطة الثقافة التى تنكشف تدريجيًّا من خلال تاريخ الثقافة . حيث يحدث تراكم للمادة الثقافية عبر القرون . ومن خلال النظرة العامة لتاريخ ثقافة معينة يمكن الوصول إلى تحديد روحها . كما هو الحال بالنسبة لدراسة الهندسة من خلال العملية التاريخية لنمو نظرياتها [١] .

اهتم فلاسفة التاريخ بالجانب التطورى من روح الثقافات وصبغوه بصبغات قدرية وأسطورية ، وحددوا الخطط العامة لتطور الثقافة عبر القرون ، وقد اختلفوا فى تحديد مراحل التطور الثقافى ، ومن أشهر هؤلاء « فيكو» «وسبنسر» و« شبنجلر» . يحتاج التعريف السابق لروح الثقافة إلى أمثلة توضح تلك النظرية ، وأفضل مثال للجانب الاستمرارى لروح الثقافة يقدمه المتخصصان فى علم اللغة النفسى « سابير » و « هورف » ، ويرجع لهما الفضل فى نمو تلك النظرية ، وقد نادا بإمكانية التعرف على روح الثقافة من خلال التحليل الدقيق للغة المجتمع . وعرف هذا الاتجاه فى كتب الثقافة والشخصية بفرض «سابير وهورف» [٢] . وتجدر الإشارة فى هذا المجال إلى دور العلامة « سابير » فى تطوير دراسات الثقافة والشخصية ، فقد نظم مع العلامة « دولارد » حلقات للمناقشة حول الثقافة والشخصية فى جامعة ييل فى الثلاثينات ، وكان يصر دائماً على أهمية موضوع الشخصية عند دراسة وتحليل ثقافة مجتمع ما ، ولم يكن مقتنعاً بالنظريات الثقافية البحتة التى تنظر إلى الفرد على أنه مجرد حامل سلبى لثقافة ما ، وإنما كان يرى أن الثقافة يجب أن تدرس على أنها « صيغ كلية » تجريدية من الأفكار وأنماط الفعل ، ويرى أن لتلك الصيغ الكلية معان مختلفة بصورة لا نهائية عند الأفراد الحاملين لتلك الثقافة . ويعطى « سابير » وكذلك « هورف » أهمية كبرى للغة ولدورها فى تكيف الأفراد مع مجتمعهم ، ويرى أن كل لغة تبنى العالم الواقعى فى صورة معينة بالنسبة للمتحدثين بها ، ويتم ذلك فى صورة لا شعورية عن طريق العادات اللغوية للجماعة [٣] . تابع العلامة « هورف » نظرية سابير واهتم بدراسة مفهومى الزمان» و « المكان » فى النظم اللغوية المتضمنة فى بعض الثقافات المختلفة ، فقد جمع اللغات الأوربية الحديثة فى مجموعة لغوية أطلق عليها اسم « اللغات الأوربية المتوسطة القياسية» [٤] واختصرها إلى S.A.E. وقارن بين تلك اللغات ولغة قبيلة من الهنود الحمر تدعى « هوبى » ، ولاحظ وجود اختلافات جوهرية بين تلك اللغات ، مما ترتب عليه اختلافات جوهرية فى أرواح تلك الثقافات ، إذ لاحظ أن لغة

---

(١) Wallace, A., Cullure and Personality, Random House, N.Y. 1961, P. 95.

(٢) The Sapir - Whorf Hypothesis.

(٣) Mandelboum, D. (ed), Selected Writings of Edward Sapir, in Language, Culture and Personality, University of California Press, Berkeley and los. Angleles, 1949, P. 593.

(٤) Standard Average European-Languages,.

قبيلة « هوبى » لا تحتوى على كلمات أو تركيبات أو تغييرات لغوية تدل مباشرة على مفهوم الزمان وتفرعاته الماضى والحاضر والمستقبل والبقاء والاستمرار والحركة وما إلى ذلك .

ويختلف الأمر تماماً فى اللغات الأوربية .S.A.E إذ يوجد كلمات وتعبيرات وقواعد لغوية تدل مباشرة على مفهوم الزمان وتفرعاته[١] .

ولاحظ « هورف » كذلك أن اللغات الأوربية تتضمن طريقتين تستخدم فيهما أعداد الجمع[٢] والأعداد الأصلية[٣] ، تختص الطريقة الأولى بالأمور الواقعية المحسوبة فتقول عشرة رجال أو أربعة قروش أما الطريقة الثانية فهى التعبير عن الأمور الخيالية فنقول عشرة أيام وثلاث سنوات . وقد استنتج العلامة « هورف » أن إدراكنا لمفهومى الزمان والمكان يتم عن طريق خبرتنا الشخصية أو الذاتية ، ويترتب على ذلك إدراكنا لتلك المفاهيم بصورة موضوعية . فمثلا مفهوم المكان يتكون عن طريق إدراكنا لمسافة ما على أنها مجزأة إلى وحدات مثل البوصة أو المتر ، وكذلك الحال فى تصورنا لمفهوم الزمان ، على أنه فترة مجزأة إلى وحدات زمنية منفصلة مثل الدقيقة والساعة واليوم والأسبوع ، ويتصور الفرد الزمان على أنه مكون من وحدات متراصفة مثل إدراكنا لصف من الزجاجات[٤] ، ولاحظ « هورف » أن اهتمام اللغات الأوربية بمفهومى الزمان والمكان قد أثر فى روح الثقافة الغربية ، فمثلا تهتم تلك الثقافة باليوميات والتسجيلات والمحاسبة والرياضيات القائمة على المحاسبة ، وكذلك تهتم بالتتابع الزمنى الدقيق للحوادث والتاريخ والاهتمام بدقة المواعيد ، وتقويم السلع على أساس ساعات العمل ، هذا بالإضافة إلى الحوليات والحوادث التاريخية والاتجاه التاريخى الذى يتمثل فى تفسير وقائع الحاضر عن طريق الرجوع لأحداث الماضى ، وعلم الآثار ، وإعطاء أسماء للفترات الماضية مثل الكلاسيكية والرومانتيكية .

وهكذا استطاع العلامة « هورف » أن يحدد تأثير النظم اللغوية على الثقافة الغربية ، ولاحظ « هورف » أن اهتمام اللغات الأوربية بمفهومى الزمان والمكان لا وجود له فى لغة « هوبى » وإنما يوجد تصورات أخرى للزمان والمكان ، فبينما يفهم الزمان فى الثقافة الغربية على أنه حركة على المكان ويعد التكرار المتشابه فى السلوك مضيعة للجهد والوقت وعبثاً لا فائدة منه ، فإن الأمر يختلف عند قبيلة «هوبى» ففى تلك القبيلة لا يعد الزمان حركة وإنما « الحدوث المتأخر »[٥] لكل سلوك حدث من قبل ، ولذلك لا يعد التكرار المتشابه للسلوك جهداً ضائعاً أو عبثاً لا طائل منه ، وإنما هو مجهود متراكم ، أو تخزين كمية غير مرئية من الأحداث من السلوك يمكن استخدامها فى المستقبل ، ويتضح هذا التصور لمفهوم

---

(١) Corroll, J. (ed), Language, Thought, and Reality : Selected Writings of Benjamin Lee Whorf, Technology Press of Massachusetts Institute of Tecnology, Boston, 1956, P. 57.

(٢) مثل ١٢ ، ٢١ ، ٣٥ .

(٣) ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، . . . . . إلى ١٠ .

(٤) Ibid, PP. 139 & 14

(٥) Getting later.

الزمان من أشكال معينة السلوك عند قبيلة « هوبى » ، فمثلا تكرار الصلاة فى فترة معينة ، يتيح للفرد أن يستخدم هذا التكرار فى أوقات الصلاة فى المستقبل ، وبالتالى لا يؤدى الصلاة فى الأيام التالية ، على أساس أنه أداها دفعة واحدة فى الماضى ، فمثلا عندما يكرر فرد ما من قبيلة « هوبى » مراسيم الصلاة اليومية عشر مرات ، فإنه لا يصلى الأيام العشرة التالية على أساس أنه يستطيع استخدام أو استرجاع الصلوات المكررة التى أداها دفعة واحدة فى الماضى ، وهو فى ذلك يتساوى مع أى فرد آخر من القبيلة يؤدى الصلاة بصفة يومية ، ويظهر هذا الفهم الخاص للزمان فى الخطوات المكررة فى الاحتفالات الراقصة ، فإن تلك الخطوات المكررة يمكن أن يختزنها الفرد ، ويتصور أنه يستطيع أن يستخدمها فى احتفالات أخرى تحدث فى المستقبل ، وبالتالى عندما يقام احتفال راقص جديد ، فإنه لا يشترك فيه فعلا ، ولكنه يتصور أنه مشترك فيه لأنه كرر الرقصات فى احتفال سابق ، وأن هذا التكرار يتيح له حق استخدام الرقصات المكررة فى الاحتفال الجديد ، وبالتالى فإنه يتصور أنه مشترك فى الاحتفال ، وأنه يسهم فيه بالرقص ، برغم أنه لا يكون من الناحية الواقعية حاضراً ذلك الاحتفال أو يكون حاضراً كمشاهد وليس كراقص .

ولنتناول الآن فى إيجاز الجانب التطورى لمفهوم روح الثقافة ، يقصد بروح الثقافة فى معناها التطورى برنامج نمو وتتابع الإطار المرجعى للثقافة قيد البحث ، وقد بين العلامة « كروبر[١] » أن تاريخ ثقافة ما يعبر عن تتابع مميز لحالات تطور تلك الثقافة وعن وصولها إلى مرحلة الازدهار والتحقيق الكامل لروح تلك الثقافة ، وفى النهاية عن الوصول إلى مرحلة الإجهاد والضعف ، ويقترح أن هذا التابع هو بمثابة برنامج لعمل « الإمكانيات المنطقية » لأساليب وأنماط تلك الثقافة ، وبعد تحقيق تلك الإمكانيات المنطقية تكون الثقافة قد وصلت إلى أعلى درجة ، يمكن أن تصل إليها من خلال الإمكانيات المتوافرة لها والمتمثلة فى روحها ، ويقدم لنا « كروبر » نموذجاً توضيحياً للجانب التطورى لروح الثقافة من خلال تحليلاته لنمو الرياضة الإغريقية[٢] .

لاحظ « كروبر » أن علم ورياضة الإغريق قد وصلا فى القرن الرابع قبل الميلاد إلى الذروة ثم توقفا تماماً عن التقدم بعد ذلك ، ولاحظ كذلك أن الإغريق لم يحققوا الكثير فى علم الحساب البسيط ، ويرجع ذلك بصورة جزئية إلى أسلوبهم فى كتابة الكميات عن طريق رموز من الحروف تشير إلى أعداد خاصة محددة ، بدلا من استخدام الأعداد ، مما جعل العمليات الحسابية أمراً صعباً[٣] .

وكذلك لم يحقق الإغريق أى تقدم فى الجبر ، إن فرع الرياضة الوحيد الذى اخترعه الإغريق وطوروه هو الهندسة ، وقد وصلت الهندسة عند الإغريق إلى الذروة ، وذلك لأن الإغريق قد استنفدوا

---

(١) Kroeber, A., Configurations of Culture Growth, University of California Press, L.A. 1944.

(٢) Kroeber, A., Anthropology, Harcourt, Brace, N.Y. 1948, PP. 330 - 331.

(٣) قارن بين العدد ١٨ والرمز XVIII .

روح ثقافتهم وحققوا كل إمكانيات الهندسة ولم يتركوا شيئاً منه للآخرين، وإنما اكتشفوا كل ما يمكن أن يكتشف فيه من حقائق وقوانين، ويقرر « كروبر » أن الهندسة هى تجسيد للخصائص والعلاقات ويمكن أن ترسم لها الصور، هذا بالرغم من أن الهندسة هى مفهوم تجريدى، ولا تتوافر تلك الخاصية التجسيدية فى الجبر والحساب.

وأيضا لاحظ «كروبر» أن هذا الاتجاه الهندسى التجسيدى كان أسلوب الإغريق السائد فى جميع فروع الرياضية، ويتمثل أحد جوانب ذلك الأسلوب فى الاهتمام « بالنسب »، ويمكن التعبير عن ذلك الاهتمام برسم أشكال معينة، ولذلك كان الإغريق يتجنبون بقدر الإمكان كل الأرقام، فيما عدا الأرقام التكاملية التى يمكن التعامل معها على أنها قوالب محسوسة ومرئية، وللسبب نفسه كانوا يتجنبون الأرقام السالبة والكسور العشرية، وذلك لعدم إمكانية التعامل معها على أنها قوالب محسوسة، وفى الجانب الإيجابى، اهتموا بالهندسة وتعمقوا فيها وتوصلوا إلى الأشكال المخروطية التى تمثل التعامل مع السطح المستوى للأشياء عن طريق الاتجاه المخروطى.

يتضح قصور الأسلوب الإغريقى فى فشل هذا الأسلوب فى مجال اللوغاريتمات والهندسة التحليلية وحساب التفاضل والتكامل ومفهوم الوظيفة، يرى « كروبر » أن هذه الإمكانيات الرياضية قد تركت لكى تتحقق عن طريق ثقافات أخرى، وعلى وجه الخصوص الثقافة الغربية التى تتمتع بروح تسمح بتحقيق تلك الاكتشافات.

خلاصة القول، يمكن تعريف « روح » ثقافة ما على أنها مجموعة عامة جداً من المفاهيم الأولية التى تستخدم كإطار مرجعى لمعظم أفراد ذلك المجتمع.

ويجب ملاحظة أن هذه المفاهيم الأولية قد لا تكون معروفة شعورياً عند أصحابها، وأن المنهج المتبع لتحديدها هو تحليل المادة الثقافية أو النفسية للمجتمع قيد البحث، وتتضمن تلك المفاهيم برنامج التطور الثقافى الممكن، وبالتالى تضع روح الثقافة الحدود على النمو الثقافى الممكن تحقيقه عن طريق الشعب الذى يحمل تلك الثقافة.

٢ ــ نظرية « أسلوب النظر إلى الحياة » (١) :

صاحب هذا المفهوم هو الأنثروبولوجى « ريد فيلد » ، ويشير هذا المفهوم أساساً لمضمون معرفى، ويعرفه « ريد فيلد » بأنه النظرة الخارجية على الوجود، وهى نظرة عامة تميز شعباً ما، وهو الطريقة التى بها يرى عضو فى مجتمع ما نفسه بالنسبة لكل شىء آخر، وهو الصورة التى يكونها أعضاء مجتمع ما عن الأشخاص والأشياء التى تلعب أدواراً هامة فى حياتهم.

---

(١) World view.

ويشمل « أسلوب النظر إلى الحياة » الأفكار التى تتضمن الإجابة عن الأسئلة التالية : أين أعيش ؟ بين ماذا أتحرك ؟ ما هى علاقاتى بهذه الأشياء[١] ؟

يرى « ريد فيلد » أن هذا المفهوم يشمل مجموعة واسعة من المعتقدات التى تمثل الإجابات عن الأسئلة السابقة ، وهكذا يشير « أسلوب النظر إلى الحياة » إلى الافتراضات الرئيسية عن الطبيعة الوجودية للعالم التى يعتنقها شعب ما ، ويرى « ريد فيلد » أن بعض عقائد أسلوب « النظر إلى الحياة » هى عموميات نفسية ، وهى الاعتقاد فى تقسيم الأشياء إلى الأمور المتعلقة بالنفس والأمور الخارجة عن النفس ، والاعتقاد فى تقسيم الأمور الخارجة عن النفس إلى أمور إنسانية وأمور مادية وأمور فوق الطبيعية ، وأخيراً الاعتقاد فى التمييز بين الأرض والسماء وبين النهار والليل وبين الولادة والوفاة ، وما إلى ذلك .

اهتم « ريد فيلد » بدراسة « أسلوب النظر إلى الحياة » فى المجتمعات البدائية ، ولاحظ أنه يتميز بثلاث خواص أساسية هى :

١ — عدم وضوح التمييز بين النفس واللانفس ، ولذلك يميل البدائى إلى أن يرى نفسه متحداً مع الطبيعة وليس خارجاً عنها .

٢ — مشاركة الإنسان البدائى فى المحافظة على ذلك النظام الموحد ، الإنسان فى الطبيعة ، بدلا من محاولة السيطرة عليه أو تغييره .

٣ — الدلالة الأخلاقية للعالم ، على أساس أن كل شىء فى الطبيعة حى ، ولذلك يجب أن تكون علاقة الإنسان بالطبيعة علاقة أخلاقية ، مثل العلاقات الاجتماعية التى تربط الفرد بأفراد عشيرته أو قبيلته .

ويمكن تتبع هذا المفهوم فى الكثير من الدراسات ، فإلى جانب دراسة « ريد فيلد » للمجتمعات البدائية والزراعية والمدن ، توجد دراسات المجتمع المحلى والمجتمع الكبير ، ودراسة « كاسبرر » عن الشخصية الخالقة للأساطير للإنسان البدائى ، ودراسة العلامة « هالويل » عن الزمان والمكان فى قبيلة أوجيبوا ، ودراسة « فيبر » للأخلاق البروتستانتية ، ودراسة « ما نهيم » للإيديولوجيات واليوتوبيات[٢] .

٣ — نظرية سجيه الثقافة :

يقصد باصطلاح سجية[٣] فى هذه النظرية أسلوباً لخبرة عاطفية ما يضفى عليه أعضاء مجتمع ما قيمة مشتركة ، وكذلك يعرفه العلامة « هونيجمان » بأنه الصبغة العاطفية للسلوك المنمط اجتماعياً[٤] ، ويعرفه العلامة « باتسون » بأنه مجموعة من المشاعر والعواطف نحو العالم وتؤثر تلك المجموعة فى معظم سلوك حاملى الثقافة الواحدة .

---

(١) Redfield, R., The Primitive World View, Proceedings of the Amercian Philosophical Society, N.Y. 1952, 96, : 30-36, P. 30.

(٢) Wallace, A., Culture and Personality, P. 100.

(٣) Ethos.

(٤) Honigmann, J., Culture and Personality, Harper, N.Y. 1954, P. 84.

ومن أهم الدراسات التى توضح هذا المفهوم دراسة العلامة « بيندريكت » « نماذج من الثقافة » . فقد لاحظت وجود صورتين لسجية الثقافة تسيطران على شخصيات أعضاء مجموعة من قبائل الهنود الحمر . وهما الأسلوب الديونيزيانى والأسلوب الأبولونيانى . وهما مختلفان تماماً كما جاء فى الفصل الأول عند دراستهما بالتفصيل . وتقرر « بينيديكت » أن الثقافة الواحدة تسودها سجية واحدة . وهى عامل واقعى محدد لسلوك معظم أفراد المجتمع الواحد . وينظر للخارجين عليه كمنحرفين أو كأشخاص غير أسوياء من غالبية أفراد هذا المجتمع . ولكن نادى الأنثروبولوجى الإنجليزى «باتسون»[١] برأى آخر بعد دراساته الميدانية بغينيا الجديدة . فقد لاحظ وجود ثنائية فى سجية المجتمع الواحد . أى وجود مجموعتين من العواطف السائدة . مجموعة خاصة بالذكور والثانية خاصة بالإناث .

ويجب ملاحظة أن العلامة « باتسون » هو الذى استخدم اصطلاح « سجية »[٢] بالمعنى المحدد هنا . وقد توصل إلى هذا المفهوم أثناء دراسته الميدانية لقبيلة « ياتمول »[٣] فى غينيا الجديدة فى عام ١٩٢٣ . واهتم فى دراسته بالطقوس والاحتفالات وخاصة بالاحتفال الخاص « بتبادل الأدوار بين الرجل والمرأة[٤] » : وفيه يلبس الفرد ملابس النوع الآخر ويمثل الأدوار الخاصة بذلك النوع . ولاحظ « باتسون » وجود اختلاف كبير فى تصرفات الأدوار الواقعية للرجال والنساء . وبرغم توقع مثل هذا الاختلاف لاختلاف مركز الرجل عن مركز المرأة : إلا أن الجديد الذى أضافه « باتسون » هو تقسيم مفهوم سجية الثقافة إلى سجية للذكور وسجية للإناث ، بعد أن كان سجية للذكور يفهم على أنه صيغة كلية عامة تشمل سلوك الذكور والإناث معا . فقد لاحظ أن رجال ياتمول يشتركون دائما فى مناقشات حامية يتخللها حركات عنيفة ، ويجتمعون لهذا الغرض فى « بيت الاحتفالات » ، وفى تلك الاجتماعات يسود سلوك الرجال الخيلاء الشديدة إذ يمشون بطريقة استعراضية وقد ملأهم التيه والفخر والعزة ، وتمثل تلك الاتجاهات طابع الرجولة عندهم ، ولا يهتم هؤلاء الرجال بالعمل لتوفير الطعام لأسرهم ؛ لأن ذلك من عمل النساء : إن كل عملهم هو الاجتماع مع قرنائهم الذين يكرهونهم والاشتراك معهم فى مناقشات حامية والمشى الاستعراضى الملىء بالزهو والخيلاء وهم يلبسون أفخر الملابس ، ويشعر الرجال بالعظمة ويتصرفون فى تكبر شديد . أما الطابع الأنثوى فى السلوك فهو مختلف تماما ، إذ يسود التواضع الشديد واللطف والدعة تصرفات النساء ، ويتركز نشاطهن فى توفير الطعام وإعداده وترتيب البيت وتربية الأطفال ، وتتصف علاقات النساء بعضهن ببعض بالتعاون والود ويشتركن معاً فى أحاديث لطيفة ومرحة .

وهن فى ذلك يختلفن عن الرجال تماما ، إذ يتسم الرجال بحساسية بالغة ويجدون صعوبة فى التعاون مع بعضهم البعض ، وتسود بينهم المشاحنات والمناقشات الحامية والاختلافات المستمرة .

---

(١) Batson. G., Naven, Stanford University Press, London 1958, P. 258.

(٢) Ethos.

(٣) Iatmul.

(٤) Transvestism.

ولكن يحدث تبادل فى المراكز بصورة مؤقتة فى بعض الاحتفالات الخاصة بمناسبات معينة . وهنا تلبس بعض النساء ملابس الرجال الفاخرة وتقمن بتمثيل متقليد سجية الرجال . فتمشى النساء فى خيلاء وتيه ، ويقابل هذا العرض التمثيلى بالترحاب والقبول من الرجال والنساء معاً ، وفى مناسبات أخرى يتم تبادل الأدوار بصورة عكسية . فيلبس بعض الرجال ملابس النساء ويمشون فى تواضع تام ، ولكن يقابل هذا العرض بالسخرية من المشاهدين . ويستنتج « باتسون » من هذا الاختلاف فى الموقفين أن سجية الرجال أكثر سمواً وأعلى قدراً من سجية النساء . ويفسر « باتسون » تلك الثنائية فى سجية ثقافة ياتمول عن طريق مفهوم جديد أطلق عليه اصطلاح « سكيسموجينين »[1] ويعرفه بأنه عملية التنوع فى أنماط السلوك الفردى ، وينتج هذا التنوع من تكرار وتراكم التفاعل بين الأفراد ، وفيما يتعلق بتطبيق هذا المفهوم على قبيلة ياتمول ، يرى « باتسون » أن وجود النساء كجمهور متفرج فى حالة قيام الرجال بالمشى الاستعراضى الملىء بالخيلاء ، يؤدى إلى استمرار الرجال فى اتجاهاتهم الاستعراضية والمبالغة فيها ، وهذا يؤدى بدوره من جهة أخرى إلى تأكيد اتجاهات الإذعان والخضوع عند النساء اللائى يعبرن عن إعجابهن بتلك الاستعراضات عن طريق التجمهر لمشاهدتها وتكرار عبارات الإعجاب والسرور ، وهكذا نجد نوعاً من التكامل بين سجية الرجال سجية النساء ، إذ ينشط كل منهما الآخر ، ويدعمه ، وهذا هو التفسير الدينامى الذى وضعه « باتسون » لثنائية سجية ثقافة قبيلة ياتمول .

ومن الواضح أن نظرية «باتسون» «تضعف نظرية «الصيغة الكلية»[2] ، فبينما يتضمن مفهوم الصيغة الكلية مبدأ تكامل الثقافة حول محور واحد يتمثل فى مجموعة من القيم والاتجاهات والعواطف السائدة ، نجد أن مفهوم ثنائية سجية الثقافة يضعف هذا التكامل ، ولكنه يقر بوجود تكامل بين سجية الذكور سجية الإناث .

ولكن ، أدى مبدأ ثنائية « سجية الثقافة » إلى كثير من التساؤلات حول الدراسات التى قامت على أساس مبدأ وحدة روح الثقافة ، فمثلا ، هل كان وصف « بينيديكت » للاتجاه الديونيزيانى بقبيلة كيوكيوتل معبراً عن سجية الرجال فقط أوعن سجية الرجال والنساء معا ؟

لم توضح العلامة « بينيديكت » هذا الأمر فى دراستها .

هذا بالإضافة إلى أن مبدأ ثنائية السجية القائم على أساس النوع يجعلنا نتابع تطبيق هذا المبدأ فى المراكز الأخرى فى المجتمع ، مثل مركز الطفل ومركز الزوج ومركز الأم ومركز الأب ومركز الجد ومركز المحارب ومركز التاجر وما إلى ذلك من المراكز الأخرى .

---

(١) Schismogenesis.

(٢) Configuration.

وقد قدم العلامة « لينتون »[١] اقتراحاً بهذا الاتجاه . ويتمثل فى تقديم مفهوم « شخصية المركز » ويشرحه بأن شغل الأفراد للمراكز المختلفة والأدوار المرتبطة بها يطبع شخصيات تلك الأفراد بطابع معين أطلق عليها اصطلاح شخصية المركز . ويرى العلامة «لينتون» أن شخصيات المركز لا تتناقض مع البناء الرئيسى للشخصية فى المجتمع وإنما تتكامل معه ، وهكذا يعود «لينون» لتأكيد مبدأ التكامل الثقافى الذى هو أساس نظرية الصيغة الكلية . وقد سار العلامة « باتسون » فى الطريق ذاته . فبعد أن قرر وجود اتجاهين عامين مختلفين فى ثقافة ياتمول ، عاد يؤكد وجود التكامل بينهما ؛ بل إنه يرى عدم إمكانية استمرار أحدهما بدون الآخر .

هناك كتاب آخرون درسوا مفهوم سجية الثقافة ولكنهم استخدموا اصطلاحات أخرى ، فبالإضافة إلى الأنثروبولوجية بينيديكت التى استخدمت اصطلاح نموذج . نجد الأنثروبولوجية « بيلو » التى استخدمت اصطلاح مزاج[٢] والعلامة كلينبرج الذى استخدم اصطلاح التعبير العاطفى[٣] .

٤ ــ نظرية الثيمات[٤] :

عارض العلامة « أوبلر » بعض أصحاب نظريات الصيغة الكلية الذين يتصورون أن الثقافةالواحدة يسودها مبدأ تكاملى واحد ، فهو يرى من النادر وجود مثل تلك الثقافة ، إذ تبين الدراسات الميدانية أن الثقافة الواحدة يسودها عدد محدود من الثيمات أو القيم أو الاتجاهات ، ولذلك نادى بوجود « ثيمات » تميز كل ثقافة ، ويعرفها بأنها توكيدات دينامية[٥] تشكل طبيعة الواقع عند أعضاء الثقافة قيد الدراسة ، ففى كل ثقافة توجد مجموعة من القوى التى يؤكد أفراد الجماعة على أهميتها وتسيطر تلك الموضوعات على تفاعل الأفراد وسلوكهم أى على الكثير من الأنماط الثقافية ؛ فقد لاحظ العلامة « أوبلر » عند دراسته لثقافة إحدى قبائل الهنود الحمر المسماة «أباش»[٦] وجود مجموعة من الثيمات التى تعمل كقوى فعالة دينامية فى ثقافتهم ، منها ثيمة الاحترام الشديد لكبار السن ؛ إلى جانب هذه الثيمة توجد ثيمة إثبات

---

(١) Linton, R. The Cultural Background of Personality, Appleton Century, NIY. 1945, PP. 129 - 131.

(٢) Belo, J., The Balinese Temper, Character and Personality, 1935, 4; 120 - 146.

(٣) Klineberg, O., Emotional Expresion in Chinese Literature, Journal of Abnormal and Social Psychology, 1938, 33 : 517 - 520.

(٤) Themes.

(٥) Dynamic Affirmations.

(٦) Chiricahua Apach.

الصلاحية عن طريق المشاركة . ويتفاعل المبدآن معاً . بمعنى أن كبار السن يحوذون على احترام وإعجاب الآخرين طالما يعملون فى نشاط ويثبتون صلاحيتهم عن طريق المشاركة فى العمل ، ولكن عندما يضعف الفرد منهم فإن كبر السن لن يشفع له . ولذلك يعزل عن العمل ولا يعامل بالاحترام الذى كان يعمل به وهو نشيط . وهكذا يرى « أوبلر » أن الثقافة الواحدة تسيطر عليها أكثر من ثيمة واحدة ؛ وتتفاعل الثيمات كقوى دينامية ، وتتوازن مع بعضها . وبالتالى يعارض الاتجاه التكاملى الذى ينظر للثقافة كمجموعة من الأنشطة التى تدور حول محور واحد[١] .

وقد حدث تطور لمفهوم « الثيمات »[٢] ، وأصبح يدل على مجموعة من القضايا أو المبادئ العامة المتعلقة بموضوعات الحياة الطيبة والأهداف الصحيحة والدائمة للوجود الإنسانى كما تحددها ثقافة ما .

واليوم يستخدم اصطلاح « الثيمات » فى دراسة الإنتاج الأدبى للمجتمعات المتمدينة ، ومن أمثلة ذلك القصص والمسرحيات والأفلام والأساطير ، واستخدم هذا الأسلوب فى دراسة الثقافات عن بعد[٣] .

ثانياً — نظرية البناء الأساسى للشخصية[٤] :

صاحب هذه النظرية عالم النفس « كاردينر »[٥] ، وهو من مدرسة فرويد المجددة[٦] وقد عارض المدرسة الفرويدية وخاصة ما تنادى به فيما يتعلق بنظرية الليبيدو[٧] ونظرية النمو الجنسى النفسى ونظرية الكبت اللاشعورى ، وتأثر بتفسيرات الأنثروبولوجيين للثقافة وخصائصها ، واستخدام تلك التفسيرات فى صياغة نظرية البناء الأساسى لشخصية التى تمثل التعاون الوثيق بين الأنثروبولوجيا وعلم النفس ، ولا أدل على ذلك من كتاب « الحدود النفسية للمجتمع » الذى اشترك فى تأليفه عالم النفس « كاردينر » والأنثروبولوجى الشهير « لينتون » والأنثروبولوجية « كوراد ديبوا » « والأنثروبولوجى ويست »[٨] .

يرى « كاردينر » أن أفراد المجتمع الحاملين لثقافة واحدة يشتركون فى سمات معينة للشخصية ،

---

(١) Opler, M., Themes as Dynamic Forces in Culture, American Journal of Sociology, Vol. 51 1945, PP. 206.

(٢) Themes.

(٣) Mead, M. & Metraux, R. (eds), The Study of Culture at a Distance, University of Chicago Press, Chicago, 1953.

(٤) Basic Personality Structure.

(٥) Kardiner, I.

(٦) Neo-Freudians.

(٧) Libido.

(٨) Kardiner, A., With the collaboration of Ralph Linton, Cora Du Bois, and James West : The Psychological Frontiers of Society, Cloumbia University Press., N.Y. 1945.

وأطلق على تلك السمات المشتركة « البناء الأساسى للشخصية » وعرفها بأنها الأدوار الفعالة المتكيفة عند الفرد . وهى عامة عند جميع أفراد المجتمع الواحد . ويعطى « كاردينر » أهمية كبرى لمرحلة الطفولة المبكرة وما يتضمنها من أنماط ثقافية فى تشكيل البناء الأساسى للشخصية . فنى كل مجتمع توجد مجموعة من النظم التربوية يطبقها الآباء فى تربية أطفالهم فى مرحلة الطفولة . وبرغم وجود اختلافات فردية فى تطبيق تلك النظم . إلا أنه توجد أنماط عامة تمثل أكثر حالات السلوك تكراراً . فمثلا فى كل مجتمع تميل النساء إلى إرضاع أطفالهن لفترات زمينية متقاربة . بحيث تستنتج أن سن الفطام فى مجتمع (ا) هو سنة وفى مجتمع (ب) سنتان وفى مجتمع (ج) ثلاث سنوات . كذلك الحال بالنسبة لباقى النظم التربوية الخاصة بمرحلة الطفولة ؛ مثل نظام التدريب على المرحاض ونظام الثواب والعقاب . وعدد مرات الرضاعة فى اليوم الواحد . وأسلوب وضع الملابس على جسم الطفل . والتنظيمات الجنسية ، ونظام حمل الطفل ؛ ونظام نظافة الطفل بعد التبول والتبرز ، ونظام تدليل الطفل ؛ ونظام تشجيع الطفل على النوم ، ونظام تعليم الطفل النطق لأول مرة ، وما إلى ذلك من النظم الاجتماعية والثقافية الخاصة بمرحلة الطفولة .

يرى « كاردينر » — ويتفق معه عدد كبير من علماء النفس وكل الأنثروبولوجيين — أن تلك النظم هى عوامل حاسمة فى تكوين شخصية الفرد ، ولذلك تؤثر بقوة فى مرحلة الطفولة ؛ ويستمر هذا التأثير بدرجات أقل فى مراحل النمو التالية .

إن الجديد الذى أضافه « كاردينر » ، هو مفهوم « البناء الأساسى للشخصية » وتحليله للنظم الاجتماعية والثقافية بأسلوب أصيل يبين العلاقة بين الثقافة والشخصية ، فهو يرى أن خضوع الأطفال فى المجتمع الواحد لخبرات ذات طابع واحد ؛ واستجاباتهم المتشابهة لتلك الخبرات من أهم العوامل التى تؤدى إلى طبع شخصياتهم بسمات مشتركة ، ويتكون من مجموع وتفاعل تلك السمات المشتركة البناء الأساسى لشخصية هؤلاء الأفراد . إن هذا البناء الأساسى للشخصية هو الصيغة الكلية للشخصية العامة التى يشترك فيها معظم أعضاء المجتمع الواحد نتيجة للخبرات المبكرة المتشابهة التى يشتركون فيها . وكما تختلف أساليب تربية الأطفال من المجتمع إلى آخر ، تختلف كذلك أشكال الأسرة . وتختلف النظم الاقتصادية التى تؤثر بدورها فى العلاقات الأسرية ، وتتفاعل كل تلك العوامل فى تشكيل البناء الأساسى للشخصية .

يستخدم « كاردينر » مفهومى النظم الأولية والنظم الثانوية بطريقة خاصة تختلف عن التعريف التقليدى ، يعنى اصطلاح « نظام » عند « كاردينر » أى شكل محدد للتفكير أو للسلوك تأخذ به جماعة من الأفراد ، ويمكن أن ينتقل من فرد إلى فرد ؛ ويتميز بأن معظم أفراد الجماعة يقبلونه . ويترتب على الخروج عليه حدوث بعض الاضطراب عند الفرد أو عند الجماعة[1] ، أما النظم الأولية فهى

---

(١) Kardiner, A., The Individual and His Society, (with a Forward and two Ethnological

النظم الاجتماعية والثقافية التى تتمتع نسبياً بالقدم والثبات والتأثر الضعيف بالتغييرات المناخية والاقتصادية. وينظر أفراد المجتمع إلى النظم الأولية على أنها أمور طبيعية شأنها فى ذلك شأن عملية التنفس[١] .

ويحدد «كاردينر» موضوعات النظم الأولية بأنها نظام الأسرة والنظم التربوية فى مرحلة الطفولة مثل نظام الفطام ونظام التدريب على المرحاض والمحرمات الجنسية ، هذا بالإضافة إلى نظام التكوين الداخلى للجماعة وفنون توفير الطعام .

تلعب النظم الأولية دوراً جوهرياً فى تشكيل البناء الأساسى للشخصية ، وتمثل تلك النظم الوسائل التى تستخدمها الثقافة فى التأثير على الشخصية[٢] ، وبعد أن يتكون البناء الأساسى للشخصية . يقوم هذا البناء بدور فعال فى التأثير على الثقافة عن طريق النظم الثانوية . ويحدد «كاردينر» النظم الثانوية بأنها الآداب الشعبية والمعتقدات والطقوس الدينية . وقد لاحظ «كاردينر» أن فى بعض الأديان الوثنية تتشكل المعتقدات الدينية عن طريق عملية إسقاط لبعض خصائص البناء الأساسى للشخصية ، فمثلا قد ترجع مفاهيم أفراد المجتمع عن الآلهة وعلاقتهم بالآلهة للنظم الأولية التى تحدد علاقات الطفل بأبويه .

وهكذا تتلخص نظرية « كاردينر » فى أن كل مجتمع يتميز أفراده ببناء أساسى للشخصية ، ويتشكل هذا البناء عن طريق النظم الأولية السائدة فى هذا المجتمع ، وعن طريق عمليات إسقاطية يشكل البناء الأساسى للشخصية النظم الثانوية السائدة فى هذا المجتمع .

أهتم العلامة «كاردينر» بإخضاع نظريته للفحص عن طريق المادة الثقافية ، وبالتالى حقق التعاون المنشود فى ميدان الثقافة والشخصية ، وهو التعاون بين علماء النفس والأنثروبولوجيين ، وقد كشف هذا التطبيق والفحص الأنثروبولوجى للنظرية عن بعض أوجه القصور والضعف فيها ، ويحذرنا العلامة «كاردينر» فى مقدمة كتاب « الفرد والمجتمع » أن أوجه القصور لا تضعف من أهمية المنهج الذى اتبعه ، والذى يتمثل فى الاهتمام بإجراء التطبيقات الأنثروبولوجية على نظريته ، أما النتائج السالبة فهى أمور مؤقتة يمكن أن تغيرها تطبيقات وأبحاث أخرى تؤدى إلى نتائج موجبة .

يتضمن كتاب « الفرد والمجتمع » مناقشة قصيرة لخمس ثقافات لقبائل تروبرياند وكيوكيوتل وزونى وتشوكش والإسكيمو ، كما يحتوى كذلك على دراسة طويلة نسبياً قدمها العلامة « لينتون » لشرح ثقافة قبيلة ماركيزاس[٣] وثقافة قبيلة تانالا بجزيرة مدغشقر .

وفيما يتعلق بكتاب « الحدود النفسية للمجتمع » توجد مناقشات لثلاث ثقافات أخرى ، ودراسة العلامة « لينتون » لثقافة قبيلة كومانش[٤] ومناقشة العلامة « ويست » لقبيلة ألور[٥] وقبيلة بلا نفيل[٦] .

---

(١) Reports by Ralph Linton), Columbia University Press, N.Y. 1939, P.7.
Ibd, P. 471.

(٢) Ini - groups formation.

(٣) Marquesas.

(٤) Comanch.

(٥) Alor.

(٦) Plainville.

ومن الواضح أن هذين الكتابين لهما أهمية كبرى فى الأنثروبولوجيا النفسية . لأنهما يؤكدان أهمية تعاون علماء النفس والأنثروبولوجيين لنجاح الدراسات فى ميدان الثقافة والشخصية .

ثالثاً ـــ نظرية الشخصية المنوالية (١) :

قدم العلامة «كاردينر» مفهوم البناء الرئيسى للشخصية ، وهو مفهوم غير إحصائى يركز على البناء الجوهرى للشخصية ويفترض وجود هذا البناء عند كل أفراد الجماعة قيد البحث . وهو فى تركيزه على إبراز هذا البناء الجوهرى أهمل السمات الهامشية والانحرافات . ويختلف الوضع فى مفهوم الشخصية المنوالية الذى يمثل التركيب الإحصائى المتناظر ، ويقصد بصفة «المنوالية» أن متغيراً ما يتمتع بأعلى تكرار فى توزيع ما .

ولذلك يطبق مفهوم الشخصية المنوالية على أى منهج يحدد الشخصية المميزة لأى جماعة ثقافية عن طريق الميل المركزى لأى توزيع تكرارى معين . وبما أنه لا يمكن استنتاج التوزيعات الإحصائية لسمات الشخصية من المادة الثقافية المتمثلة فى التقارير الأثنوجرافية . اتجه البحث عن مادة أخرى لاستنتاج الشخصية المنوالية ، وتتمثل تلك المادة فى نتائج الاختبارات النفسية لعينة من الجماعة الثقافية قيد الدراسة .

ويضاف إلى نتائج الاختبارات النفسية ما يجمعه الباحث من مادة عن الأحلام وسير الحياة . ولقد ارتبط مفهوم الشخصية المنوالية بالاختبارات الإسقاطية مثل اختبار «رورشاخ» (٢) واختبار «ستوارت» للاستجابة العاطفية (٣) واختبار تفهم الموضوع (٤) . ويستخدم الباحث نتائج تلك الاختبارات الإسقاطية ويستنتج منها السمات النفسية الأكثر تكراراً ، ويتكون من مجموعها الشخصية المنوالية ، وهكذا فى حين يهتم مفهوم الشخصية المنوالية بالتكرار للسمات ، يهتم مفهوم البناء الرئيسى للشخصية بالنمط والبناء .

ويوجد اختلاف آخر يتمثل فى المادة المستخدمة لاستنتاج كل من المفهومين . فبينما يعتمد مفهوم البناء الرئيسى للشخصية على المادة الثقافية ، يعتمد مفهوم الشخصية المنوالية على مادة الاختبارات النفسية . إن واحداً من أوجه القصور لمفهوم الشخصية المنوالية هو أن مادة الاختبارات النفسية لا يمكن أن تمدنا إلا بقدر قليل من سمات الشخصية ، وهو القدر الذى يتمثل فى الميل المركزى للتوزيعات التكرارية ، وفى أفضل الظروف ممكن تحديد تكرار ترابطات معينة لعدد قليل من السمات ، فمثلا درس العلامة «ولاس» الشخصية المنوالية فى إحدى قبائل الهنود الحمر وهى قبيلة «توسكارورا» ، واستخدم اختبار «رورشاخ» فى تلك الدراسة ، وتبين له أن الترابط بين ٢١ بعد أوسمة للشخصية قد وجد فى عدد قليل

---

(١) Modal Personality.

(٢) The Rorschach Test.

(٣) Stewart Ematonal Response Test.

(٤) The Thematic Apperception Test.

من أفراد العينة الملاحظة (فقط ٣٧٪)[١] ويرى المعارضون أن تلك الترابطات سواء تحققت عن طريق الوسائل البسيطة للترابط والتجمع أو عن طريق عامل تحليلي ، لا تكون فى ذاتها بناء ديناميًّا وإنما هى أساسا أبنية تصنيفية ، ويرون كذلك أن الخبرة الإنسانية لا يمكن التعرف عليها بدقة عن طريق الاتجاه إحصائى ، وذلك لأن استخدام أى أداة إحصائية يعنى عادة تسجيل عدد قليل من أبعاد أو عناصر السلوك والجمع بين تلك الأبعاد فى أشكال مجردة يفرض عليها التكامل بصورة تعسفية[٢] .

ولكن ، بالرغم من أوجه القصور السابقة ، فإنه لا يمكن الإقلال من أهمية الدور الذى لعبه الاتجاه الإحصائى ، فقد أبرز وجود الاختلاف والتنوع فى شخصيات أفراد الجماعة الثقافية الواحدة ، ومهد لقيام النظريات التى تشرح كيفية انتظام الشخصيات المختلفة فى بناء واحد .

ومن أهم الدراسات المطبقة لمفهوم الشخصية المنوالية دراسة العالمة « ديبوا » لقبيلة ألور ، وتجمع العلامة «ديبوا» بين التخصص فى الأنثروبولوجيا والطب النفسى . قضت العلامة « ديبوا » حوالى١٨ شهراً فى عامى ١٩٣٨ و ١٩٣٩ فى قرية « اتيمالنج[٣] » فى جزيرة ألوى بأندونيسيا لإجراء دراستها الميدانية لجماعة ألور التى تقيم فى تلك القرية . استخدمت «ديبوا» عدة طرق بحث للحصول على المادة ، هذا بالإضافة إلى تعلمها ثلاث لغات وهى اللغة الهولندية ولغة « الملاى » ولغة جماعة ألور التى أطلقت عليها اسم لغة « ألوى »[٤] وفيما يتعلق بطرق البحث التى استخدمتها العلامة « ديبوا » فهى الملاحظة بالمشاركة والحصول على ثمانية « تواريخ حياة » مطولة ، وتطبيق اختبار «رورشاخ» على ٣٧ شخصاً وتطبيق اختبار « تداعى الكلمات »[٥] على ٣٦ شخصاً ، وإجراء اختبار متاهة « بورتيوس» على ٥٥ شخصاً وجمع لوحات رسم من ٥٥ طفلا (٣٣ولداً و٢٢فتاة) ، ولكى توطد علاقتها بالأهالى وكسب ثقتهم افتتحت العلامة « ديبوا » عيادة طبية يومية لعلاج الجروح والحميات .

والجديد الذى اتبعته العلامة « ديبوا » فى دراستها هو توخى الدقة التامة فى تحليل المادة التى جمعتها ، ولتحقيق تلك الدقة المنشودة قامت بتوزيع المادة على المتخصصين لتفسيرها ، فقدمت « تواريخ الحياة» للعلامة «كاردينر» الذى قام بتحليلها ، وأرسلت لوحات اختبار « رورشاخ» للعلامة « أوبرهولزر »[٦] الخبير فى تحليل هذا الاختبار فقدم ، تقريراً وافيا عنها ، وفيما يتعلق برسوم الأطفال فقد أعطتها للعلامة « شميدل واهنر »[٧] الخبير المختص فى تحليل مثل تلك الرسوم ، والجدير بالذكر هنا أن كل خبير أدى

---

(١) Wallace, A., The modal Personality Structure of the Tuscarora Indians, as Revealed by the Rarschach Test. Washungton 1952, Bulletin 150, Bureau of American Ethnology.

(٢) Wallace, A., Culture and Personality. P. 110.

(٣) Atimelang.

(٤) Alui.

Word Association Test.

Oberholzer, E.

Schmidl - Waehner, T.

عمله بصورة مستقلة عن زميليه . وجاءت المفاجأة الكبرى عندما اتفقت نتائج التحليلات . مما أضفى على تلك الدراسة قدراً كبيراً من الدقة والموضوعية قد لا يتوافران فى أى دراسة أخرى فى هذا الميدان. ولذلك تعد تلك الدراسة علامة مميزة وقدوة تحتذى فى أبحاث « الثقافة والشخصية » .

ولنتناول الآن فى إيجاز بعض خصائص ثقافة « ألور »[١]. يقوم تقسيم العمل على أساس النوع ويقع توفير الطعام وإعالة الأسرة على عاتق النساء . فتعمل المرأة فى الزراعة وجمع الخضراوات . أما الرجال فمهنتهم التجارة القائمة على المقايضة . يؤثر تقسيم العمل بهذه الصورة فى نظم التربية الخاصة بمرحلة الطفولة وتؤثر تلك النظم بقوة فى الشخصية وتطبعها بسمات خاصة .

ترتب على قيام المرأة بإعالة الأسرة . أن شغلت مهنة الزراعة معظم وقتها واهتماماتها . وفى حالة الوضع . تعود المرأة لمهنة الزراعة بعد عشرة أيام أو أسبوعين فقط . ولا تأخذ رضيعها معها إلى الحقل ، وإنما تتركه فى رعاية والده أو أخيه أو أخته أوجده أوجدته ، وترتب على ذلك حرمان الطفل من الرضاعة لفترات طويلة لندرة وجود نساء أخريات يقمن بالرضاعة ، لأن جميع النساء يشتغلن بالزراعة ، وترضع الأمهات أطفالهن فى الصباح قبل الذهاب إلى الحقل وبعد الظهر فور عودتهن من الحقل ، ويعنين بأطفالهن باقى ساعات النهار وفى الليل . إلا أن تلك الفترات من الرعاية والرضاعة ليست كافية . ولذلك يسود الأطفال الشعور بالجوع والحرمان معظم ساعات النهار .

وقد اطلقت « ديبوا » على هذا الموقف اصطلاح « مشاعر الإحباط الفمي » إذ لا يحاط الأطفال بالرعاية اللازمة من الأقارب فى فترات غياب الأم ، وعندما تعود الأم للمنزل تكون مرهقة من عمل الحقل وأمامها الكثير من الواجبات المنزلية مثل إعداد الطعام وإحضار الماء والنسيج والحياكة ونظافة الكوخ . هكذا فإن الإهمال والجوع هما مصير أطفال « ألور » ، ولا توجد جهود منظمة لتعليم الأطفال الكلام أو المشى أو التدريب على المرحاض أو الفطام ، وإنما تتم تلك العمليات بمجهودات غير منظمة ، ويسودها الإهمال وعدم الاهتمام، ويقاسى الأطفال الجوع فترة عمل الأمهات فى الحقول وهى فترة تمتد من الساعة الثامنة صباحا حتى الخامسة بعد الظهر ، ولا يهتم الأقارب بالأطفال فى غيبة الأمهات ، وفى حالة صراخ الأطفال من الجوع يخففون عنهم بتدليك الأعضاء التناسلية ، ويتم الفطام والتدريب على التحكم فى التبرز عند سن الثالثة ، ويبدأ المشى فى الفترة بين سنة وسنة ونصف سنة من عمر الطفل . ويستمر الإحباط الفمى حتى بلوغ الطفل سن الخامسة أو السادسة ، وهنا يكون لديه القدرة على البحث عن الطعام وإطعام نفسه، ويسود تلك الثقافة بعض نظم إباحية ، إذ يمارس الأطفال العادة السرية بصورة علنية . ويهدئ الكبار الأطفال عند بكائهم عن طريق تدليك الأعضاء التناسلية لهم ، ويعرف الأطفال معنى العلاقات الجنسية فى سن الخامسة ، ويشترك الأطفال فى ألعاب جنسية أمام الكبار .

---

(١) Du. Bois, Cora, The People of Alor, University of Mnnesota Press, Minneapolis, 1944.

ويستخدم الكبار التهديد كوسيلة للتربية ولدفع الأطفال للتوافق مع نظم الجماعة . هذا بالإضافة إلى استخدام وسيلة المكافأة عن طريق تقديم الطعام والهدايا ، ويستخدم الكبار أحيانا كثيرة سكينا لتهديد الأطفال بقطع آذانهم أو أيديهم ، ويأخذ الأطفال تلك التهديدات على محمل الجد . برغم أن الكبار لا ينفذون هذا التهديد مطلقًا ، وإنما يستخدمونه كنوع من المزاح .

ومن الظواهر المنتشرة فى مرحلة الطفل نوبات الغضب والصراخ . والسبب الرئيسى لتلك النوبات رحيل الأم فى الصباح للذهاب إلى الحقل ، وتبدأ النوبة بأن يقذف الطفل بنفسه على الأرض ويتمرغ فى التراب ، ويدق رأسه فى الأرض بعنف . ويصرخ ويتقلب على الأرض . تستمر تلك النوبات عند الأطفال حتى سن الخامسة أو السادسة ، وهنا ينتقل الأطفال إلى مرحلة جديدة وهى الإعداد لمرحلة البلوغ . وتبدأ بارتداء ملابس من جلد الأسد ، وفيها يصاحب الذكور الشبان فى تحركاتهم ، أو يذهبون للعمل فى الحقل مع النساء ، أما الإناث فيلازمن أمهاتهن ويتعلمن حرف الزراعة والنسيج والحياطة والتفصيل ، وكذلك يقوم الذكور والإناث برعاية إخوتهم الصغار .

وتتمثل علامة بلوغ الفتيان لمركز الكبار فى ظهور شعر الذقن ، وبالنسبة للفتيات ، تتمثل تلك العلامة فى الوشم الذى يمارس على أجسامهن عندما يبلغن العاشرة ، ويستمر حتى الرابعة عشرة . وتسود مرحلة المراهقة إباحية جنسية ، ومن خصائص الغزل عندهم أن الفتاة أو المرأة هى البادئة .

وتتضمن طقوس الزواج على عمليات مالية كثيرة ، وكان من المتوقع أن يترتب على ذلك استقرار الزواج ، ولكن الواقع غير ذلك ، إذ ينتشر التوتر والطلاق بين الأزواج والزوجات لدرجة أن نصف الزيجات تنتهى بالطلاق . ويتفق المحللون على أن هذا التفكك الأسرى يرجع إلى أن الزوج يبحث عن الأم فى المرأة التى يتزوجها . وكذلك الحال بالنسبة للزوجة التى تبحث عن حنان الأم فى الزوج . ولا تستطيع المرأة العادية إشباع هذه الحاجة عند الزوج ، وكذلك الحالة بالنسبة للرجال ؛ من هنا ينشأ التوتر الذى ينتهى بالطلاق فى معظم الأحيان .

وفيما يتعلق بالسمات العامة المشتركة فى شخصيات جماعة ألور ، تقدم لنا العلامة « ديبوا » مفهوما جديداً وهو « الشخصية المنوالية » وهو مفهوم إحصائى يختلف عن مفهوم « البناء الأساسى للشخصية » كما ذكر سابقا ، فقد لاحظت « ديبوا » وجود درجة كبيرة من التنوع فى شخصيات جماعة « ألور » ، ولكن برغم تلك الاختلافات توجد بعض سمات فى الشخصية أكثر تكراراً من غيرها ، وتكون تلك السمات الأكثر تكراراً الشخصية المنوالية عند « ألور » وعند غيرهم من الجماعات ، ويستخدم الباحث الدراسة الوصفية وتحليل نتائج اختبارات إسقاط الشخصية لتحديد السمات الأكثر تكراراً ، وهى عناصر الشخصية المنوالية ، ويفضل الكثير من العلماء مفهوم « الشخصية المنوالية » على مفهوم « البناء الرئيسى للشخصية » ، لأنه يعترف بوجود الاختلافات الفردية فى الشخصية ويضع أسلوبا إحصائيًّا موضوعيًّا لتحديد الشخصية المنوالية فى المجتمع قيد الدراسة .

إن واحداً من أهم أوجه القوة فى دراسة العلامة « ديبوا » هو اتفاق العلماء الثلاثة الذين اشتركوا ،

بصورة مستقلة ، فى تحليل نتائج الاختبارات النفسية ، على تحديد سمات الشخصية المنوالية لجماعة آلور . وأهم تلك السمات هى : الشعور بعدم الثقة فى النفس . ولا ينظر الأطفال للآباء على أنهم مثل عليا ولذلك يتسم الأنا الأعلى بالضعف . وعدم وجود إبداع فنى . وعدم وجود اهتمام بالعالم الخارجى . والارتياب وعدم الثقة فى الآخرين . وعدم الشعور بالراحة والأمان . والشعور بالخوف والقلق . وعدم المبالاة ، ولذلك يتركون الأمور تسير على هواها . وضعف العلاقات الشخصية ولذلك لا توجد صداقات عميقة .

وبالإضافة إلى اتفاق العلماء الأربعة على تحديد معالم الشخصية المنوالية فى جماعة ألور . فإنهم يتفقون أيضا على تحديد أثر ثقافة ألور فى تلك الشخصية . فإنهم يرجعون السمات السابقة إلى إهمال الأم لأطفالها فى مرحلة الطفولة . وهوالإهمال الذى درس بالتفصيل عند عرض ثقافة ألور . ترجع « ديبوا » عدم وجود « الطموح » فى تلك الشخصيات لإصابة الأطفال منذ الصغر بأمراض الملاريا والديزونتاريا .

وفى تعليق على تلك الدراسة ، يحذر العلامة « باودرميكر »[١] من تعميم نتائج تلك الدراسة على الجماعات التى تعمل فيها النساء بالزراعة ويغبن لفترات طويلة عن بيوتهن ، فقد أجرى دراسة ميدانية فى « نيوايرلاند »[٢] ، حيث يوجد نظام لإطعام الأطفال يشبه إلى حد ما النظام المتبع مع أطفال ألور ، ولم يجد مشاعر الإحباط الفمى فى القرية التى درسها .

ترجع الأهمية الكبرى لدراسة العلامة « ديبوا » لجماعة « ألور » للمنهج الدقيق الذى استخدمته فى دراستها والذى يقوم على ضرورة تعاون الأنثروبولوجيين وعلماء النفس فى مجال الثقافة والشخصية ، هذا بالإضافة إلى توصلها لنظرية « الشخصية المنوالية » من خلال دراستها لشخصيات أعضاء تلك الجماعة .

رابعاً ـــ نظرية الشخصية القومية[٣] :

من الواضح أن النظرية السابقة خاصة بالميدان التقليدى للأنثروبولوجيا الثقافية ، وهى الثقافات البسيطة الخاصة بالمجتمعات البدائية . ويختلف الوضع فى نظرية الشخصية القومية أو الطابع القومى ، لأنها تهتم بدراسة الثقافات المتمدينة . ولذلك استخدمت لشرح الخصائص النفسية للمجتمعات الكبيرة مثل الأمم والدول .

---

(١) Powdermaker, H., Review of the People of Alor, American Anthroplogist, Vol. 47, 1945, P. 160.

(٢) New Ireland.

(٣) National Character.

ويجمع مفهوم الشخصية القومية بين بعض المفاهيم والنظريات السابقة . وهى روح[١] الثقافة وأساوب « النظر إلى الحياة »[٢] والقيم .

وتتميز نظرية الشخصية القومية عن النظريات السابقة بأنها خاصة بالدول السياسية فتختص بتحديد شخصية الأمريكيين أو الصينيين أو الروس . وكذلك بأنها تتضمن ترابط وانتظام عدد كبير من العناصر فى بناء واحد ، ويجمع بين تلك العناصر علاقات دينامية متداخلة .

ويرى العلامة « والاس » أن مفهوم الشخصية القومى يشبه مفهوم الشخصية الرئيسية . وهو يفضل استخدام مفهوم الشخصية الرئيسية لأنه يطبق على جميع الثقافات والمجتمعات ، فى حين يطبق مفهوم الشخصية القومية على المجتمعات المتمدينة مثل الدول والأمم . ولا يمكن استخدامه فى دراسة القبائل البدائية أو المناطق الثقافية . ويرجع هذا القصور إلى لفظ « قومية » . ولذلك يفضل العلامة « والاس » استخدام اصطلاح الشخصية الرئيسية لأنه أكثر عمومية[٣] .

وفيما يتعلق بالمنهج الخاص بالشخصية القومية . فهو منهج الاستنباج الثقافى ، ويتمثل فى إعداد الوصف الإثنوجرافى للثقافة قيد البحث ، ثم يقوم الباحث بتحليل تلك المادة الثقافية بغرض استنتاج الأبنية النفسية الداخلية لأعضاء المجتمع الملاحظ ، وفى كثير من الأحيان يكون الباحث مزوداً بنظرية فى التحليل النفسي توجه تحليلاته للمادة الثقافية ، ويجب على الباحث فى دراسته للشخصية القومية أن يميز بين الدوافع المركزية والدوافع الهامشية ، ويقصد بالدوافع المركزية العناصر الرئيسية فى البناء النفسي الدينامى ، وتتسم تلك العناصر بالعمومية فى المجتمع . ويكتسب أعضاء المجتمع الدوافع المركزية فى مرحلة الطفولة المبكرة .

وهكذا تعنى دراسة الشخصية القومية دراسة أكثر سمات الشخصية شيوعاً فى أى مجتمع للوصول إلى تقديم صورة تجمع هذه السمات ، وقد يكنى الباحث بهذا الوصف أو يتبعه بمحاولة لتفسير نشوء هذه السمات أو بدراسة مقارنة بين الشخصيات القومية فى عدد من المجتمعات[٤] . ويقتصر استخدام مفهوم الشخصية القومية على مجتمعات الأمم والدول بالذات .

ويكاد يجمع الباحثون على أن الحرب العالمية الثانية كانت نقطة انطلاق ضخمة لبحوث الشخصية القومية ، فقط كون عدد من الأنثروبولوجيين خلال فترة الحرب فكرة مؤداها أن فهم المحددات الثقافية للاختلافات بين الشخصيات القومية له أهمية قصوى فى فهم المجتمعات الغربية ذاتها ، وآمن هؤلاء أيضاً بأن التفهم الواعى للسمات العامة للدول المشتركة فى الحرب يمكن أن يؤدى إلى فهم وتحليل التطورات الاجتماعية والسياسية التى تأخذ مجراها فى هذه الأمم ، واعتقدوا من ناحية أخرى أن التحليل المنهجى

---

(١) Genius.

(٢) World View.

(٣) Wallace, A., Culture ane Personality, P. 106.

(٤) د. مصطفى سويف ، مقدمة لعلم النفس الاجتماعى ، مكتبة الأنجلو المصرية — القاهرة ١٩٦٥

للشخصية القومية داخل المجتمعات الغربية . يمكن أن يؤدى إلى اكتساب استبصارات خاصة بضروب الأزمات الدورية وسوء الفهم الذى كثيراً ما كان بين الأفراد الذى ينتمون إلى الجماعات القومية المتعددة الداخلة فى حدود الدول المتحالفة وقتذاك[١] .

قادت الولايات المتحدة الأمريكية أبحاث الشخصية القومية فى فترة الحرب العالمية الثانية . إذ طلبت من الأنثروبولوجيين المتخصصين فى ميدان الثقافة والشخصية العمل فى المؤسسات العسكرية . فعمل العلامة « باتسون » فى مكتب الخدمات العسكرية وعمل كل من « جورير » و« لايون و « كلاكهوهن » و« بينيديكت » فى مكتب المعلومات الحربية الأمريكية . وقام فريق من هؤلاء العلماء بإشراف العلامة « بينيديكت » بدراسات لتحديد الشخصية القومية لدول مختلفة مثل رومانيا وتايلاند واليابان ، وكانت أهم عقبة منهجية قابلت هؤلاء العلماء هى ضرورة دراسة الشعب اليابانى « عن بعد »[٢] وذلك لأن الملاحظة المباشرة كانت مستحيلة فى ظروف الحرب. ولذلك أجروا مقابلات مع مئات اليابانيين من المهاجرين وأسرى الحرب وطبقت عليهم اختبارات نفسية . كما طلبوا منهم كتابة تواريخ حياتهم . وحللوا الأفلام والسينمائية اليابانية والكتب التاريخية والأدبية والمجلات الشعبية والكتب الدراسية . والكتيبات السياسية الصادرة فى اليابان .

ونشر بعض هؤلاء العلماء عدة دراسات مستقلة عن الشخصية القومية اليابانية . وهناك شبة اتفاق على المحدودات الثقافية التى شكلت بعض سمات تلك الشخصية . وتعد تلك الدراسات من أهم ما نشر فى ميدان الشخصية القومية . وفيما يلى عرض موجز لتلك الدراسات :

نشر العلامة « جورير » نتائج دراسته للشخصية القومية اليابانية فى مقالة بعنوان « الثيمات الرئيسية فى الثقافة اليابانية » فى عام ١٩٤٣ ، وحدد فى تلك المقالة بعض خصائص الثقافة اليابانية وهى الاهتمام الزائد بالطقوس وبالدقة وبالنظام ، وبتطبيق نظام حازم وقاس فى التدريب على المرحاض والتحكم فى عملية التبرز ، إذ يجبر الطفل على الإتيان بأفعال لا يستطيع أن يفهمها ، وقبل أن تقوى العضلات المختصة لدرجة تسمح بالقيام بوظائف معينة ، وترتب على صرامة نظم التربية فى مرحلة الطفولة ، شعور الطفل بامتعاض شديد ، ويستمر هذا الشعور فى المراحل التالية لنمو الشخصية ، ولا تسمح الثقافة اليابانية ، التى تعطى أهمية كبرى للنظام ودقة تنفيذ الطقوس ، بأى فرصة ، قد توجد فى المجتمعات الأخرى ، للتنفيس عن هذا الشعور القوى بالامتعاض وبالعداء بصورة مقبولة اجتماعية ؛ ولذلك تنفجر تلك المشاعر المعادية بقوة فى ظروف مناسبة مثل الحروب أو المشاجرات ، وهكذا يشرح « جورير » التناقض الواضح فى شخصية اليابانيين ، ويتمثل هذا التناقض فى الجمع بين اللطف المتزايد والرقة الشديدة السائدين فى الحياه الاجتماعية اليابانية والوحشية المتطرفة والسادية السائدتين فى سلوك اليابانيين أثناء الحرب .

---

(١) السيد ياسين، الشخصية العربية بين المفهوم الإسرائيلى والمفهوم العربى — مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ، مؤسسة الأهرام — القاهرة ١٩٧٣ — ص ٤٤ .

(٢) At A Distance or In Absentia.

وفيما يتعلق بالنظم القاسية جداً التي يتعرض لها الأطفال اليابانيون للتدريب على التحكم فى التبرز ، فهى تتمثل فى أن تمسك الأم بطفلها بعد الشهر الرابع من عمره وتكشف عن عورته فى الشارع أو على حاجز الشرفة ، وتهزه بعنف بغرض أن يتبول أو يتبرز ، وتكرر التدريب نفسه عدة مرات فى اليوم الواحد عندما يصرخ الطفل أو عندما تتصور أن الوقت قد حان لقضاء حاجته . وفى حالة تهرب الطفل من النظافة يعاقب بقسوة إذ تصرخ الأم فى وجه الطفل فى صوت يثير الرعب ، وكثيراً ما تمسك بالطفل وتهزه بعنف أو تضربه .

ويتبع « جورير » النظرية الفرويدية التى ترى أن التدريبات القاسية جداً على النظافة فى مرحلة الطفولة تساعد على نمو الاتجاهات العدائية وغيرها من أعراض الأمراض العصابية[١] .

وقدم العلامة « لابار » تحليلا مشابها للشخصية اليابانية فى الفترة نفسها بعد أن درس عدداً كبيراً من اليابانيين المعتقلين فى معتقل مدنى بمدينة « توباز » بولاية « يوتا » الأمريكية ، وحدد الشخصية اليابانية بأنها شخصية الفرد المجبر أو المكره ، بل إن اليابانيين — فى رأيه — هم أكثر شعوب العالم تعرضاً للجبر والإكراه والإلزام . ويحدد سمات الشخصية القومية اليابانية التابعة لصفة الإلزام والجبر بما يأتى :

الميل نحو السرية ، وعدم إظهار العواطف والاتجاهات الذاتية ، والمواظبة ، والمثابرة ، والضمير الحى ، والميل الذاتى للاستقامة ، والميل لإسقاط الاتجاهات ، والتعصب ، والتكبر والعجرفة ، وسرعة الغضب والدقة والميل نحو الكمال ، والأناقة والنظافة الطقوسية ، والميل للاشتراك فى الاحتفالات والتطبيق الدقيق للنظم ، ووسواس المرض ، والارتياب ، والحقد والغيرة ، والحزلقة ، والمبالغة فى إظهار العواطف ، وتفضيل الموضوعات الداعرة فى الأدب ، والفحش ، والمثلية الجنسية عند الذكور . ويفسر تلك الخصائص فى الشخصية القومية اليابانية بالرجوع للمحددات الثقافية الخاصة بالنظم القاسية الخاصة بالتدريب على المرحاض[٢] .

وهنا يتفق و « لابار » مع النتائج التى توصل إليها العلامة « جورير » .

وفى عام ١٩٤٦ نشرت العلامة « بينيديكت » كتابها الشهير عن الثقافة والشخصية القومية اليابانية[٣] ، وفيه تتفق مع الكاتبين السابقين على أهمية نظام التدريب على المرحاض فى تشكيل الشخصية اليابانية فتقول :

---

(١) Gorer, G., Themes in Japanese Cultrue, in Haring, D. (ed), Personal Character and Cultural Milieu, A Collcction of Readings, Syracuse University Press, Syracuse 1949, PP. 273 - 290.

(٢) La Barre, W. Some Observations on Character Structure in the Orient : The Japanese Psychiatry, Vol. 8, 1945, P. 326.

(٣) Bendedict, R., The Chrysanthemum and The Sword. Patterns of Japanese Culture, Houghton Mifflin, Co., Boston 1946.

« يوافق الجميع على أن الطفل فى اليابان . وكذلك فى الصين . يدرب على نظام التدريب على المرحاض فى وقت مبكر جداً . ويخضع الطفل فيه لروتين صارم فيه إصرار لا يمكن التهرب منه . إذ تمسك الأم بالطفل بعيداً عن جسمها . وتكون قبضتها قوية على جسم الطفل . وتهزه بعنف . إن ما يتعلمه الطفل من هذا التدريب العنيد (الذى لا يعرف التسامح) . يجعله مستعداً عند الوصول لمرحلة البلوغ . لأن يرضخ للأمور الملزمة فى الثقافة اليابانية »[١] .

وفى عام ١٩٤٧ نشر العلامة « سبيتزر » مقالا بعنوان « اتجاهات التحليل النفسى فى الشخصية اليابانية » . وفيه يؤيد نتائج الدراسات السابقة . ويضيف بأن الثقافة اليابانية تشكل الشخصية اليابانية فى صورة تتفق مع نمط العصاب الإلزامى[٢] .

تتفق جميع الدراسات السابقة فى نتائجها وفى استخدام نظام الدراسة « عن بعد » لعدم توافر إمكانية تطبيق الملاحظة المباشرة للشعب اليابانى فى فترة الحرب .

بعد الحرب العالمية الثانية استمر العلماء السابقون وغيرهم فى دراسة الشخصية القومية مستخدمين فى ذلك الدراسة « عن بعد » ، فقد أسست العلامة « بينيديكت » مشروعا يسمى : أبحاث جامعة كولومبيا فى الثقافة المعاصرة ، ودرست خلاله ثقافة كل من الصين وتشيكوسلوفاكيا ويهود أوربا الشرقية وفرنسا وبولندا وروسيا وسوريا وألمانيا .

واستمرت بعض تلك الدراسات فى مشروعين لاحقين هما « دراسات عن الثقافة السوفيتية » و« دراسات فى الثقافة المعاصرة »[٣] .

ومن الدراسات الهامة التى قام بها فريق جامعة كولومبيا الدراسة الخاصة بالشخصية القومية الروسية والتى قام بها العلامة « جورير » واهتم « جورير » باستخدام منهج الملاحظة المباشرة بالإضافة إلى الدراسة « عن بعد » ، فقد قام برحلتين قصيرتين إلى روسيا فى عام ١٩٣٢ وعام ١٩٣٦ .

والواقع أن دراسة الثقافات والشخصيات القومية « عن بعد » قد تعرضت لكثير من النقد ، وخاصة بعد أن وصلت الدراسات الميدانية إلى نتائج مختلفة تماماً عن النتائج الخاصة بالشخصية القومية اليابانية ، فبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، استطاع بعض الأنثروبولوجيين الأمريكيين إجراء دراسات ميدانية للثقافة اليابانية ، فمثلا قضى الباحث « نوربك » وزوجته « مرجريت »[٤] ثمانية أشهر فى عامى ١٩٥٠ و١٩٥١ فى مجتمع محلى يابانى لصيد السمك ، ودرسا التدريبات المحلية على المرحاض ، وأنكرا وجود صفات

---

(١) Ibid, PP. 258 & 259.

(٢) Spitzer, H., Approaches of the Psychoanalysis of the Japanese Personality, inRoheim, G. (ed), Psychoanalysis and The Social Sciences, International Universities Press, N.Y. 1947, Vol. I, PP. 131 - 156.

(٣) Mead, M., & Metraux, R. (eds), The Study of Culture at A Distance, University iof Chicago Press, Chicago 1953, PP. V & 6.

(٤) Edward & Margret Norbeck.

القسوة أو العنف فى تلك التدريبات التى لا تمارس فى مرحلة مبكرة جداً . كما ذكرت الدراسات السابقة . ولاحظا أن الطفل لا يهز أو يعامل بخشونة فى حالة التبول أو التبرز على نفسه ، وإنما بعد أن يتعلم الطفل الكلام ، تحذر الأم طفلها من تكرار التبرز أو التبول على نفسه فى كل مرة يحدث فيها ذلك. وعندما يصل الأطفال إلى السنة الثانية من أعمارهم يكونون قد تعلموا كيفية التحكم فى قضاء حاجاتهم فى أوقات النهار أما فى أثناء فترة الليل . فإن مثل هذا التحكم لا يحدث إلا فى سن الثالثة[١] .

وأجرت الباحثة « لانهام »[٢] دراسة سوسيولوجية على عينة تتكون من ٤٤٩ شخصاً فى مدينة «كاينان[٣] » وطلبت فى استمارة بحث من كل عائلة درستها أن تكمل ثلاث صيغ . صيغة خاصة بأطفال المنزل والثانية خاصة بالأب والثالثة خاصة بالأم التى لديها أطفال فى مرحلة الطفولة ، وقد أنكرت وجود صفة القسوة فى التدريبات على المرحاض ، ولاحظت أن هذا التدريبات لا تمارس فى سن مبكرة ، وترى أنها لا تختلف كثيراً عما هى عليه فى الولايات المتحدة الأمريكية .

وكذلك قام الباحثان « هوايتنج » و« تشايلد » ببحث مقارن فى الثقافات المختلفة عن نظم التدريب على المرحاض ، وقد لاحظا أن متوسط العمر الذى تبدأ فيه التدريبات الجادة هو سن الثانية . وفى حوالى نصف المجتمعات التى درست (١٤ من ٢٥ مجتمعاً) تبدأ تلك التدريبات فى وقت ما بين السنة والنصف والسنتين والنصف ، وفيما يتعلق بحالات الإفراط يوجد مجتمع واحد فى أفريقيا (قبيلة بانا) ، وفيه تبدأ التدريبات عندما يبلغ الطفل الخامسة ، أما حالات التفريط ، فيوجد مجتمعان تبدأ فيهما التدريبات على المرحاض أثناء السنة الأولى من عمر الطفل ، وعند مقارنة تلك المعلومات الخاصة بالمجتمعات البدائية بالثقافة الأمريكية، قرر الباحثان أن الطبقة المتوسطة فى أمريكا تقع بالقرب من حالة التفريط إذ تبدأ تلك التدريبات بعد أن يصل الطفل الشهر السادس بقليل ويعد هذا العمر أصغر من أى عمر آخر فى الثقافات البدائية المبحوثة ، مع وجود استثناء واحد وهو قبيلة « تانالا »[٤] .

وقد استمر النقاش العلمى حول هذا التناقض بين نتائج الدراسة « عن بعد » ونتائج الدراسة الميدانية للثقافة والشخصية القومية اليابانية ، وتولد عن هذا النقاش نظرية هامة عرفت باسم « الشخصية الشرجية »[٥] أو « الاتجاهات الإجبارية الشرجية » ، وملخصها أن النظم القاسية التى يتعرض لها الطفل فى سن مبكرة والخاصة بالتدريب على المرحاض والتحكم فى عملية التبرز تطبع شخصية الفرد عند البلوغ

---

(١) Roheim, G. (ed), Psychoanalysis and the Social Seiences, N.Y. 1947, Vol. I PP. 657 & 658.

(٢) Lanham, Betty, Aspects of Child Care in Japan; Preliminary Report in Haring, op. Cit, P. 581.

(٣) Kainan.

(٤) Whiting, J. & Child, I, Child Training and Personality : A Cross - Cultural Survey, Yale University Press, New Haven, 1953, P. 74.

(٥) Anal Charac

بطابع الخضوع والشعور بالجبر والإلزام . وغيرها من السمات التى سبق ذكرها عن الشخصية القومية اليابانية . ويؤيد اتباع فرويد تلك النظرية . وكذلك تؤيدها دراسات الأنثروبولوجيين عن الشخصية القومية اليابانية التى استخدمت منهج الدراسة « عن بعد » . وفى الوقت نفسه ترفضها الدراسات الميدانية التى أجريت بعد انتهاء الحرب على الثقافة اليابانية . وقام الباحث « أورلانسكى » بدراسة هذا الموضوع . ورجع إلى كثير من الدراسات الميدانية الخاصة بتأثير التدريبات المبكرة للمرحاض على الشخصية . وتوصل فى الخاتمة إلى رفض تلك النظرية لعدم وجود أدلة كافية عليها . ويقترح تفسير « الشخصية الشرجية » بالرجوع للعوامل الثقافية الأخرى التى تنمى سمات تلك الشخصية بدلا من الرجوع إلى التدريبات على المرحاض فقط[١] . وفى مقال قصير أكد الباحث « داى » وجود الأعراض العصابية الإجبارية الاستحوازية والسمات التى عرفت باسم « الشخصية الشرجية » فى الصين ، برغم أن الأمهات الصينيات لا يفرضن تدريبات المرحاض والنظافة على أطفالهن فى سن مبكرة[٢] .

نعود الآن إلى الشخصية القومية اليابانية . شجعت كثرة الاعتراضات على نظرية « الشخصية الشرجية » الأنثروبولوجى « هارينج » على البحث عن محددات ثقافية أخرى لتفسير الشخصية القومية اليابانية ، إذ يرى أنه من الأفضل تفسير سمات الإجبار والإلزام والإكراه فى الشخصية اليابانية بالرجوع إلى حقيقة هامة وهى استمرار وجود حكومة بوليسية لمدة ثلاثة قرون وما تمارسه تلك الحكومة البوليسية من رقابة قوية على الفرد . ويرى أن خضوع اليابانيين لحكم مطلق لا يمكن التهرب منه قد أدى إلى خلق توترات نفسية عند الآباء ، ويفرض التحكم البوليسى قيوداً على الأفراد وتزداد تلك القيود عنفاً عندما يصل الفرد لمرحلة البلوغ[٣] . ويرى « هارينج » أن هذه العوامل أكثر أهمية فى تفسير الشخصية اليابانية من نظم التدريب على المرحاض ، ولكى يتأكد « هارينج » من صحة تفسيره ، يضع الفرضين التاليين ، ثم يفحص صحتهما ، هذان الفرضان هما :

١ ـ فى حالة ضعف قبضة وتحكم السلطة البوليسية يصاحب ذلك تغيير فى شخصية اليابانيين .

٢ ـ فى الأماكن التى لم يصل إليها الحكم البوليسى وهو نظام « توكوجاوا »[٤] توجد العادات التى كانت موجودة قبل هذا النظام البوليسى .

درس « هارينج » جماعة من اليابانيين تعيش فى جزيرة تسمى « أمامى »[٥] تقع بين « كيوشو »[٦]

---

(١) Orlansky, H., Infant Care and Persolality, Psycnological Bulletin, Vol. 46. No. 1. (January, 1949), PP. 19 - 23.

(٢) Dai, B., Obsessive - Compulsive Diorders in Chinese Culture, in Social Problems, April, 1957.

(٣) Haring, D., Japanese National Character; Cultural anthropology, Psychoanalysis, and History, in Haring, op. ct., P. 432.

(٤) Tokugawa.

(٥) Amami.

(٦) Kyushu.

و« أوكيناوا »[١] ، ولم تصل السلطة البوليسية لشعب تلك الجزيرة ، ولذلك تمثل ثقافة هذا الشعب الثقافة اليابانية قبل خضوع اليابان للنظام البوليسى سابق الذكر ، وفى دراسته الميدانية لشعب جزيرة « أمامى » لاحظ « هارينج » عدم وجود الشخصية المجبرة العصابية ، وقرر الأطباء المحليون ندرة الأمراض العصابية ، ولاحظ كذلك عدم وجود حالات الكبت المنتشرة عند اليابانيين الآخرين ، ويصف شعب جزيرة « أمامى » بالخصائص التالية : قلة أسرارهم ، وعدم إخفاء عواطفهم ، التساهل وعدم العند ، والاعتدال ، وعدم المبالغة فى تأنيب الضمير ، وعدم وجود الاستقامة الذاتية .

أثبتت هذه الدراسة الميدانية صحة الفرضين السابقين ، ويصل «هارينج» إلى نتيجة هامة وهى أن الإكراه والتحكم البوليسى هو عامل هام فى تشكيل الشخصية القومية اليابانية ، ويراه أكثر أهمية من عامل التدريبات على المرحاض ، وعندما زار اليابان حديثاً بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بفترة طويلة . دهش للتغير الواضح فى الشخصية اليابانية وفى أسلوب حياتهم ، إذ أصبح الناس يذهبون للمكان الذى يرغبونه ، ويختارون أصدقاءهم بأنفسهم ويكتبون الخطابات كما يرغبون ، ويعبرون عن مشاعرهم وآرائهم بحرية واضحة[٢] .

ويتفق باحث آخر مع « هارينج » فى أهمية مرحلة الحكم البوليسى « توكوجاوا» فى تشكيل الشخصية القومية اليابانية ، وانتشرت فى تلك المرحلة قيم الطبقة المحاربة الارستقراطية فى بعض الطبقات الزراعية والتجارية عن طريق عدة حركات شعبية ودينية ، وترتب على ذلك انتشار أخلاقيات تشبه الأخلاق البروتستانتية التى تنادى بالعمل الشاق وإنكار الذات[٣] .

ومن أهم أبحاث « الشخصية القومية » دراسة العلامة « جورير » للشخصية القومية الروسية[٤] ، وفيها طبق النظرية التى اتبعها فى دراسته للشخصية اليابانية ، وهى نظرية مرحلة الطفولة كمحدد أساسى للشخصية ، وتمتاز تلك الدراسة بدقة المنهج المتبع وبمعاونة زميل له وهو العلامة « ريكمان » مما جعل تلك الدراسة تمثل خطوة إلى الأمام فى ميدان الثقافة والشخصية .

قام « جورير » برحلتين قصيرتين إلى روسيا فى عام ١٩٣٢ وعام ١٩٣٦ ، وأجرى الكثير من المقابلات مع المهاجرين الروس فى مدينة نيويورك ، ويبلغ عدد الذين قابلهم بما بين ٣٠٠ و ٤٠٠ فرد ويمكن القول أن ١٠٪ منهم يمثلون إخباريين مؤهلين للإدلاء بمعلومات دقيقة عن الثقافة الروسية ، وكذلك درس « جورير » القصص والأفلام والمعلومات الثقافية الروسية وركز اهتمامه فى جمع المعلومات على عادات تربية الطفل ، وتتلخص النتيجة التى وصل إليها فى أن نظام التقميط هو مفتاح الشخصية الروسية .

---

(١) Okinawa.

(٢) Ibid., PP. 433 - 437.

(٣) Bellah, R., Tokugawa Religion, The Values of Pre - Industurial Japan, The Free Press, Glencoe. 1957.

(٤) Gorer, G. and Rikman, J., The People of Great Russia, Cresset Press, London 1949.

لا يعانى الأطفال الروس من مشاعر الجوع أو من قسوة نظام التدريب على المرحاض . وإنما يعانون فقط من الطريقة التى تستخدم فى تقميطهم . فمنذ الولادة والأيام التالية . تقمط الأم الطفل فى شرائط طويلة من القماش . بعد مد الساقين فى خط مستقيم ووضع الذراعين على الجنبين . ويفسر الروس استخدامهم لهذا الأسلوب من التقميط . بأن الطفل لديه من القوة والنشاط ما يمكنه من تدمير نفسه أى إيذائها إن لم يقمط بتلك الصورة . هذا بالإضافة إلى سهولة حمله فى حالة تقميطه . ومن التشبيهات الطريفة التى أطلقها الروس على أطفالهم وهم فى القماط العصى والطرود و (السجق) . ولا ينزع القماط إلا فى حالة الرضاعة أو النظافة فقط ، ويستمر تطبيق هذا النظام الصارم للتقميط حتى الشهر التاسع من عمر الطفل [١] .

ويؤثر هذا النظام فى تكوين الشخصية الروسية . ويؤثر كذلك فى صورة تكوين الجسم . ويقرر «جورير» أنه بعد قضاء ثلاثة أشهر فى إجراء مقابلات مع عدد من الروس . أصبح فى استطاعته من نظرة واحدة أن يعرف ما إذا كان الشخص الروسى الذى أمامه قد قمط وهو طفل أم لا ، ويستدل على ذلك عن طريق الشكل العام للجسم وهيئة الكتفين والذراعين ، ويرى أن تطبيق نظام التقميط الروسى يؤدى إلى شل حركة الأطفال ، وهو أمر مؤلم للغاية للأطفال ، ويسبب الإحباط . وما يصاحبه من مشاعر غضب مكثفة ومدمرة ، ولكن تكبت تلك المشاعر ولا يمكن التعبير عنها بحركات جسمية [٢] ، وتؤثر حالة الإحباط هذه فى شخصية الروس عند الكبر . ويتمثل هذا التأثير فى تأرجح المزاج من المرح إلى الاكتئاب ، ويرجع الاكتئاب لشعور اليأس الناتج عن استحالة التخلص من لفائف القماط ، أما المرح فيرجع إلى فترات فك القماط وما يصاحبها من عمليات الإطعام وإظهار الحب للأطفال وانطلاق الأطفال فى تحريك أعضائهم . ومن مظاهر المرح عند الكبار ميل الروس للاشتراك فى الاحتفالات الطقسية العربيدية [٣] وفى مباريات الشراب ، ومن مظاهر الاكتئاب الشعور العام بالذنب والميل للاعتراف حتى عن الخطايا التى لم ترتكب ، ويشير « جورير » إلى ولع الروس بالاعترافات كما هو واضح فى قصص « دوتستويفسكى » وفى محاكمات موسكو .

ويعلم « جورير » أن القماط يستخدم فى كثير من الشعوب التى تختلف شخصياتها القومية عن الشخصية الروسية ، فمثلا ، البولنديون والفرنسيون والإيطاليون ومعظم الهنود الحمر فى أمريكا الشمالية يقمطون أطفالهم . ويرجع « جورير » هذا الاختلاف فى الشخصية إلى اختلاف نظام التقميط فى تلك الشعوب عن النظام الروسى ، ومن مظاهر اختلاف نظم التقميط الاختلاف فى تحديد أجزاء الجسم التى تقمط ، والاختلاف فى طول وقصر فترة استخدام القماط ، وكذلك الاختلاف فى طول وقصر وعدد فترات فك القماط [٤] .

---

(١) Ibid, Op. cit., PP. 97 - 99.

(٢) Ibid., P. 123.

(٣) Orgiastic.

(٤) Ibid., pp. 221 - 222.

وقد درست العلامة « بينيديكت » اختلاف نظم القماط فى بعض الدول الأوربية وقررت وجود الكثير من الاختلاف فى تلك النظم [1] .

تعرض تحليل « جورير » للشخصية القومية الروسية لكثير من النقد . فمثلا يرى الباحث « وولف » أن حالات الاعتراف بجرائم لم ترتكب المنتشرة فى روسيا . ترجع إلى النظام البوليسى للدولة . ووسائل القمع والتعذيب ، وإلى ظروف ومواقف شخصية . وليس إلى نظام التقميط . ويبرهن على ذلك بأن كل المعترفين بجرائم لم يرتكبوها . والذين حوكموا أمام المحاكم الشعبية التى تلت الثورة الباشفية : كانوا من المثقفين الذين لم يتعرضوا لنظام التقميط فى طفولتهم ؛ هذا بالإضافة إلى أن الكثيرين من الفلاحين الذين رفضوا الاعتراف بجرائم لم يرتكبوها تعرضوا لذلك النظام فى طفولتهم .

ويشير « وولف » إلى تجاهل « جورير » الآثارالعميقة التى يمكن أن تخلفها الظروف القاسية على الشخصية . ومن أمثلة ذلك وضع الأبرياء فى المعتقلات والمعسكرات ، واستخدام وسائل التعذيب ومذهب تقديس الحاكم وأسلوب تبرير الدكتاتورية الجماعية عن طريق « تطويق العداء » وتنظيم حملات الحقد وما إلى ذلك من النظم التى لازمت الحكم النازى وحكم ستالين لروسيا [2] .

وقد حاولت العالمة « ميد » أن تدافع عن « جورير » وأن تجيب عن الاعتراضات التى وجهت إليه فى مقالة لها ، وذكرت فيها أن أفكار « جورير » قد أسيء فهمها ، وأن اعتراضات « وولف » والروس كانت موجهة بدافع سياسى [3] .

كذلك قدم العلامة « جورير » تحليلا عن الشخصية القومية الأمريكية كما فعل بالنسبة لليابانيين والروس . وقد أتاحت له فرصة إقامته الطويلة بالولايات المتحدة الأمريكية وإتقانة اللغة الإنجليزية وصلته الوثيقة بالأنثروبولوجيين الأمريكيين أن يقدم تحليلا قيما للشخصية القومية الأمريكية .

فقد لاحظ أن الأمريكيين يطبقون نظاماً صارماً بالنسبة لمواعيد إطعام أطفالهم ، وقبل أن يتكيف الأطفال مع مواعيد تقديم الطعام يمرون بفترة يشعرون فيها بالجوع والغضب ، ويعبرون عن تلك المشاعر بالصراخ ، ويلازمهم شعور الخوف من الجوع عند الكبر ، ويبدو ذلك فى المخاوف التى تنتشر عند الكثيرين من الأمريكيين من قلة المحاصيل فى المستقبل ، وتعرض أمريكا لمجاعة إذا استمرت فى تصدير طعامها ومواردها خارج البلاد تحت اسم « المعونة الأمريكية » [4] .

---

(١) Benedict, R., Child Rearing in Certain European Countries, American Journal of Orthopsychiatry, Vol. x 1 x, No. 2, 1949, PP. 342 - 348.

(٢) Wolfe, B., The Swaddled Soul of the Great Russians, The New Leader, January 29, 1951, P. 16.

(٣) Mead, M. The Swaddling Hypothesis : Its Reception, American Anthropologist, Vol. 56, 1954, PP. 395 - 409.

(٤) Gorer, G, The American People, A Study in National Character, W.W. Norton, N.Y. 1948.

ولاحظ « جورير » أن الأمريكيين يضفون قيمة عظيمة على صدر المرأة . ويصفها بأنها قيمة شبقية وعمياء ، ويرجعها إلى شعور الأطفال الأمريكيين بالجوع لحرمانهم من الرضاعة فى فترات معينة لتطبيق النظام الأمريكى الصارم الخاص بإرضاعهم وفق جدول زمنى محدد[١] .

من الواضح أن نظرية الشخصية القومية عند « جورير » تقوم على أساس أن مرحلة الطفولة هو المحدد الرئيسى للشخصية ، وتعرضت تلك النظرية لكثير من النقد كما سبق أن ذكرنا . وتبلور بعض هذا النقد فى صورة نظرية تعارض مبدأ مرحلة الطفولة كمحدد للشخصية . فقد لاحظ بعض الأنثروبولوجيين وجود تعارض بين شخصية الطفل وشخصية البالغ فى بعض المجتمعات . وأنه ليس دائماً تنتقل سمات الشخصية من مرحلة الطفولة إلى مرحلة البلوغ . فبينما يعامل الأطفال بحنان واعتدال فى قبيلتى هوبى ونافاهو ويتمتعون بحياة سعيدة سهلة ، نلاحظ أنهم يتغيرون تماماً عند الكبر . إذ يسود القلق والتوتر شخصياتهم . ولاحظت كذلك الباحثة « ولفنشتين » وجود تعارض واضح بين شخصية الطفل وشخصية البالغ فى الثقافة الفرنسية ، وهنا تنعكس الصورة التى توجد فى قبيلتى هوبى ونافاهو ، فبينما تمتلئ مرحلة الطفولة بالقيود والتدريبات الشاقة للإعداد لحياة الكبار ، يتمتع الفرنسيون عند الكبر بشخصية متفتحة للتمتع بالحياة . وهكذا فإن القيود المفروضة فى مرحلة الطفولة ذات تأثير مؤقت ويختفى ذلك التأثير عند نمو الطفل وانتقاله إلى مرحلة المراهقة والبلوغ ، أى يوجد نوع من « الاستقلال الوظيفى » بين مراحل نمو الشخصية[٢] .

لقد أثارت نظريات هؤلاء العلماء الكثير من الفروض التى أثرت ، ولا شك ، ميدان الثقافة والشخصية ، ولا تزال تجرى الأبحاث حول تلك الفروض الهامة .

---

(١) Ibid, P. 7.

(٢) Walfenstein, M., French Parents Take Their Children to the Park, in Mead, M. & Wolfenstein, M. (eds), Childhood in Contemporary Cultures, University of Chicago Press, Chicago, 1955. PP. 114 & 115.

الفصل السادس

منهج وأبحاث الأنثروبولوجيا النفسية.

- تمهيد
- طرق البحث
- نماذج من الأبحاث

الفصل السادس

منهج وأبحاث الأنثروبولوجيا النفسية

تمهيد :

يدرس الكتاب موضوع الثقافة والشخصية كأحد فروع الأنثروبولوجيا الثقافية . ويتبع هذا الفرع المنهج العام للعلوم الاجتماعية والذى يتمثل فيما عرف باصطلاح المنهج العلمى أو الطريقة العلمية ، وهو المنهج الذى يضفى خاصية العلم على فرع المعرفة الذى يتبعه، ويتميز المنهج العلمى بخصائص عامة توجد فى العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية ، وأهم تلك الخصائص الموضوعية والدقة وإمكانية التنبؤ .

ولكن برغم وجود تلك الخصائص العامة للمنهج العلمى الذى تستخدمه العلوم عامة ، فإن العلوم الاجتماعية تتميز بخصائص منهجية تفصيلية تجعلها تختلف عن العلوم الطبيعية ، وكذلك تختلف العلوم الاجتماعية بعضها عن بعض عن طريق نوع وطبيعة طرق البحث التى تستخدمها كل منها فى أبحاثها. وفيما يتعلق بالأنثروبولوجيا النفسية فإنها تجمع بين طرق بحث الأنثروبولوجيا الثقافية وطرق بحث علم نفس الشخصية . وتتلخص أهم تلك الطرق فى ملاحظة السلوك ودراسة سير الحياة وتفسير الأحلام والرؤى والاختبارات الإسقاطية ودراسة الأدب الشعبى ودراسة الفن وأخيراً الدراسات الترابطية . وفيما يلى عرض موجز لهذه الطرق مع بيان أهم الأبحاث التى اعتمدت عليها .

من الواضح أن الفصول السابقة تزخر بمعلومات عن الكثير من أبحاث الثقافة والشخصية، ولكن قد يشعر القارئ بحاجته للتعرف عن كثب على مجموعة من الأبحاث الخاصة بمجتمع معين بالذات ، حتى يتسنى له معرفة المشكلات التى تواجه الباحث فى جمع المعلومات وفى تحليل المادة الثقافية والنفسية لاستنتاج العلاقة بين الثقافة والشخصية . ومن أشهر أبحاث الثقافة والشخصية الأبحاث التى طبقت على جماعات تشيبوا من قبائل الهنود الحمر ، ويعرض هذا الفصل لأهم تلك الأبحاث كنماذج من أبحاث الثقافة والشخصية .

طرق البحث

أولا — ملاحظة السلوك :

يعتمد الأنثروبولوجيون الثقافيون فى جمع المادة الثقافية على ملاحظة ما يفعله الناس والتحدث معهم وإجراء مقابلات معهم . ولا يقتصر عمل الأنثروبولوجيين النفسيين على جمع وتحليل المادة الثقافية وإنما يهتمون كذلك بالمادة النفسية ، ولذلك يركزون انتباههم على ملاحظة

سمات الشخصية ، ويضيف هذا الجهد المزدوج عبئاً كبيراً على المتخصصين فى الثقافة الشخصية . ولتخفيف هذا العبء ينتظم هؤلات المتخصصون فى جماعات أو فرق بحث لتوزيع هذا العبء على أكثر من باحث . وللسبب نفسه يميل بعضهم إلى إجراء أبحاثهم فى الجماعات التى سبق دراستها إثنوجرافياً ، وخاصة عندما يستخدمون فى أبحاثهم الاختبارات الإسقاطية وطريقة سير الحياة .

و يمكن تقسيم الملاحظة إلى عدة أقسام . فمن حيث نوع فئات السلوك الملاحظة . تنقسم الملاحظة إلى ملاحظة عامة وملاحظة موجهة[1] . وتتمثل الملاحظة العامة فى ملاحظة كل أنواع السلوك المتاحة أمام الباحث . ويطبق هذا النوع الأنثروبولوجيون بصفة عامة . أما فى الملاحظة الموجهة فإن الباحث يلاحظ فئات معينة من السلوك ، ولذلك يعد الباحث قبل إجراء الملاحظة قائمة بأنواع السلوك التى يرغب فى ملاحظتها . وبالتالى لا يلاحظ الباحث كل ما يجرى أمامه من سلوك وإنما يلاحظ الفئات المحددة — سابقاً ويهمل الفئات الأخرى . يهتم علماء النفس بالملاحظة الموجهة . ووضع بعضهم قوائم لفئات السلوك التى يجب ملاحظتها . يطبق الأنثروبولوجيون النفسيون أسلوب الملاحظة الموجهة لأنه يتفق مع طبيعة أبحاثهم التى ترتبط فى الغالب بفئات معينة من السلوك وليس السلوك بصفة عامة .

كذلك يمكن تقسيم الملاحظة على أساس تدخل أو عدم تدخل الملاحظ فى بناء الموقف الذى يلاحظه إلى قسمين آخرين وهما الملاحظة العادية والملاحظة التركيبية[2] ؛ الملاحظة العادية هى ملاحظة الأفراد فى أثناء الحياة اليومية العادية ولا يتدخل الباحث هنا فى بناء أو صياغة المواقف التى يلاحظها . أما الملاحظة التركيبية فتشمل ملاحظة الباحث للأفراد وهم فى مواقف غير عادية من صياغة الباحث نفسه ، ومن الواضح أن الملاحظة التركيبية لها أهمية منهجية فى أبحاث الثقافة والشخصية تزيد على أهمية الملاحظة العادية ، لأنها تتيح للباحث فرصة ملاحظة سلوك الأفراد فى المواقف التى ترتبط مباشرة بموضوع البحث بدلا من انتظار حدوث تلك المواقف بصورة عادية ، مما قد يضيع الكثير من وقته وجهده، ولكن لا تسمح ظروف الدراسة الحقيقية باستخدام الملاحظة التركيبية فى جميع الحالات ؛ ومن أكثر صور الملاحظة التركيبية انتشاراً فى أبحاث الأنثروبولوجيا النفسية دراسات «لعبة العرائس»[3] . وفيها يلاحظ الباحث الأطفال وهم يلعبون بعرائس من صنعه تمثل أعضاء الأسرة . يستطيع الباحث بفضل تلك الطريقة تحديد بعض أشكال الاتجاهات والعواطف داخل الأسرة مثل المنافسة والغيرة بين الإخوة والأخوات وعقدة أوديب والدلالة القضيبية للثعبان وما إلى ذلك من الموضوعات الخاصة بالمدرسة الفرويدية، فمثلا ، قام العلامة «هنرى» وزوجته باستخدام لعبة العرائس عند دراسة شخصيات أعضاء قبيلة بلاجا ، وهى إحدى قبائل الهنود الحمر بأمريكا الجنوبية ، وقد استخدما فى دراستهما عرائس من الصلصال ممثلة لأعضاء الأسرة وكذلك للأنا ، وكانا يطلبان من الطفل أو الطفلة اللعب

---

(١) Directed Observation.

(٢) Structured Observation

(٣) Doll Play.

بتلك العرائس ، وقد استطاعا تحديد بعض الاتجاهات الجنسية عند هؤلاء الأطفال . وقد لاحظا أن الاتجاهات الجنسية ترتبط باتجاهات عدائية من ناحية وترتبط بعقدة أوديب من ناحية أخرى[١] .

كذلك يستخدم الأنثروبولوجيون النفسيون طريقة الملاحظة العادية فيلاحظون الناس أثناء حياتهم اليومية ، ويمكن تقسيم ملاحظاتهم إلى فئات مختلفة منها الأحاديث اللفظية ومعدلات التفاعل وشكل وقفة الجسم أو شكل الجلسة وحركات الأعضاء وتعابير الوجه . ويعتمد الباحث فى الملاحظة العادية على حواسهم وعلى الأجهزة الحديثة مثل النظارة المكبرة وآلة التصوير وآلة التسجيل وآلة السينما . وفى بعض الأحيان يستخدمون الأفلام الصوتية إذا سمحت الموارد المالية بذلك . واستطاع العلامة «شابل» اختراع آلة لقياس معدلات التفاعل الاجتماعى ، فمثلا عندما يشترك شخصان فى حديث ما يقوم الملاحظ بتشغيل الجهاز الذى يسجل ويقيس فترات حديث كل منهما وفترات السكوت ، ولا تسجل الآلة المضمون اللفظى للحديث وإنما معدلات التفاعل والطاقة المستخدمة فى الحديث وإيقاع الحديث ، ولا يقتصر الجهاز على قياس السلوك اللفظى وإنما يستخدم أيضاً فى دراسة الابتسامات وإيماءات الرأس وتقطيب الجبين وحركات الأعضاء[٢] .

يهتم بعض علماء النفس بملاحظة تعابير الوجه وشكل وقفة وجلسة الجسم وحركات الأعضاء ، ويرون فى تلك الظواهر مفاتيح اتجاهات وأنماط الشخصية . ولذلك يعتمد بعض البحاث على تلك الظواهر فى أبحاث الثقافة والشخصية . ومن أشهر الصور المعبرة عن مظاهر العظمة والفخر التى تميز شخصية الرجال فى قبيلة ياتمول الصور التى أخذها العلامة « باتسون » لرجال تلك القبيلة فى أثناء المشى الاستعراضى وفى أثناء الجلوس .

أثبتت الدراسات الحقلية أن الثقافة تؤثر فى وضع الجسم عند الوقوف والمشى والجلوس والنوم ، وقدم لنا العلامة « هيوس » توزيعاً جغرافيًّا عالميًّا لعادات وضع الجسم[٣] . ودرست الأنثروبولوجية « فلورا بالى » العادات الحركية فى قبيلة نافاهو من الهنود الحمر ، ولاحظت اختلافات واضحة بين تلك العادات والعادات الحركية عند الأمريكيين . فبينما تتميز العادات الحركية عند النافاهو بالنعومة والسيولة ، تتسم العادات الحركية الأمريكية بالخشونة والتقطع وعدم الترابط . يتناول أعضاء النافاهو طعامهم ببطء شديد وبرشاقة ويمشون فى خطوات رشيقة طويلة . ويؤرجحون أذرعهم وسيقانهم وكأنها غير مثبتة فى أجسامهم

---

(١) Henry, J. and Henry, Z., Doll Play of Pilaga Indian Children, in Kluckhohn, C. and Murray, H. (eds), Personality in Nature, Society and culture, N.Y. 1959, PP. 292 - 307.

(٢) Chapple, E. Quantitative Analysis of Complex Organizational Systems, Human Organization, 1962, PP. 67, 68.

(٣) Hewes, G., World Distribution of Postural Habits, American Anthropologist, Vol. 57, 1955, PP. 231 - 244.

وعندما يتقابلون يصافحون بعضهم برقة متناهية فلا يضغطون على اليد ولا يحركون اليد إلى أسفل وأعلى[١] .
ودرس الأنثروبولوجى « بروير » العادات الحركية لعرب الهلال الخصيب . ولاحظ تشابهاً بين تلك العادات والعادات الحركية عند سكان البحر الأبيض المتوسط . فهى تتميز بالوضوح والسيولة وقد وضع قائمة للحركة الرمزية ، وقرر أن بعض تلك الحركات ترمز للإهانة والإيذاء . والبعض الآخر يرمز لعدم الرغبة فى تحمل المسئولية . وترمز بعض الإشارات الأخرى إلى الرغبة فى عدم الانضمام لجماعة ما[٢] .

اهتم عدد كبير من الأنثروبولوجيين بدراسة جماعة « بالى » لتحديد العلاقة بين العادات الحركية وسمات الشخصية ، ومن هؤلاء « مارجريت ميد » و « جين بيلو » و« باتسون » و« ماكريجور » ، وتتفق تلك الدراسات على أن حركات أعضاء « بالى » تتصف بالبطء الشديد ، ويربط البعض بين هذا البطء الحركى الشديد وانخفاض توتر العضلة السوى عند الأطفال ، ولاحظ هؤلاء البحاث أن الأطفال فى تلك الجماعة لا يمرون بمرحلة الزحف (الحبو) وإنما يتعلمون المشى مباشرة ، وترتب على ذلك طول فترة حمل الطفل على الذراعين . وتصل تلك الفترة إلى ثمانية أشهر فى بعض الحالات . ويحملون الطفل على الذراعين إلى أن يتعلم المشى مباشرة ، وتحرم ثقافة « بالى » (حبو) الأطفال . وترتب على ذلك تقييد حركة الأطفال لفترة طويلة ، وقد يفسر ذلك البطء الشديد فى عاداتهم الحركية ، وكذلك تتميز تحركاتهم بالاقتصاد فى الجهد . ولذلك يقومون بأقل عدد ممكن من الحركات اللازمة لأداء عمل معين ، ولاحظ البحاث أن وضع الجسم فى حالة الراحة والجلوس على الأرض يتسم بالانطواء والانسحاب ، إذ يجلس الفرد على الأرض ثم ينحنى واضعاً رأسه بين ركبتيه ، ويستنتجون من هذا الأسلوب فى الراحة والجلوس أن شخصياتهم تتسم بالانسحاب الانطوائى . ويرجع الأنثروبولوجيان «ميد» و« باتسون» هذا الميل إلى إحباطات يتعرض لها الأطفال فى مرحلة الطفولة المبكرة . وذلك لتعود الأمهات على مضايقة أطفالهن وإثارة الغيرة بينهم ، فمثلا تدلل الأم طفلاً غريباً أمام طفلها ، وأحيانا تقرب الطفل الغريب من ثدييها أمام طفلها مما يثير طفلها ويجعله يتألم كثيراً ، ويحدث أن ترفع الأم الطفل الغريب فوق رأس طفلها مما يثيره ، لأن تلك الحركة ترمز للإهانة والتحقير فى ثقافة جماعة بالى ، وأمام تلك الأساليب يضطر الطفل إلى الانطواء على نفسه والابتعاد عن الناس فى الفترة مابين سن الثالثة وسن السادسة. ولكن على نقيض سمات الهدوء والسلبية وبطء الحركة التى تتميز بها شخصيات تلك الجماعة فى حياتهم اليومية العادية تظهر سمات عدوانية وعنيفة خلال نوبات الهياج التى تميز بعض احتفالاتهم . ومن أمثلة ذلك الحركات العنيفة وخدش صدورهم بالخناجر[٣] .

---

(١) Bailey, F., Navaho Motor Habits, American Anthropologist, Vol. 44, 1942, pp. 210 - 216.

(٢) Brewer, W., Patterns of Gestures Among the Levantine Arabs, American Anthropologist, Vol. 53, 1951, P. 237.

(٣) Barnouw, V., Culture and Personality, N.Y. 1963, PP. 185 - 187.

ويتصل موضوع ملاحظة السلوك بموضوع تسجيل السلوك الملاحظ . وعادة يعتمد البحاث على كتابة المذكرات . وفى بعض الأحيان يستخدمون الآلات سابقة الذكر . ويفضل البحاث كتابة المذكرات فى أثناء الملاحظة وذلك حتى لا يتعرض الباحث لخطر نسيان بعض الملاحظات . وفى حالة قيام فريق بحث بالدراسة يمكن توزيع الاختصاصات المختلفة للملاحظة على أعضاء الفريق . فمثلا عند ملاحظة سلوك الأفراد فى أثناء الاحتفال بعيد ما ، يمكن أن يتخصص باحث فى ملاحظة الأصوات والأغانى ويتخصص باحث ثان فى ملاحظة الملابس ويتخصص باحث ثالث فى ملاحظة حركات الرقص وما إلى ذلك .

وهناك طرق بحث هامة تعتمد على الملاحظة . ومن أمثلة ذلك الملاحظة بالمشاركة والمقابلات المفتوحة والمقابلات الموجهة وتوطيد الصلة بعدد من الإخباريين .

وقبل الانتهاء من هذا الموضوع نتناول فى إيجاز الصعاب الأساسية التى تقابل استنتاج سمات الشخصية من ملاحظة السلوك ، فمن تلك الصعاب مشكلة تأثير وجود الباحث الملاحظة على سلوك الأفراد الملاحظين ، ولكن توجد هذه المشكلة فى كل دراسة قائمة على الملاحظة ، وليست مقصورة على أبحاث الثقافة والشخصية . ولا يمكن التخلص من تلك المشكلة إلا فى حالة استخدام الشاشة ذات الاتجاه الواحد[1] . ولا تستخدم تلك الشاشة فى أبحاث الثقافة والشخصية . ولكنها تستخدم فى أبحاث علم النفس والتربية ، وهناك مشكلة ثانية وهى أن الملاحظ قد يسقط بعض أفكاره على ما يلاحظه ، هذا بالإضافة إلى مشكلة التحيز فى الاختيار[2] . وتتمثل فى أن الباحث قد يلاحظ بعض صور السلوك فى حين يهمل صوراً أخرى ، ويتأثر الباحث فى ملاحظاته بمزاجه واتجاهاته وقيمه وحالته الجسمية من مرض وصحة ، ولا شك أن معرفة الباحث بتلك المشاكل تدفعه إلى اتخاذ الاحتياطات التى تقلل من الآثار السلبية لتلك المشكلات بما يحقق الموضوعية المطلوبة .

ثانياً — دراسة سير الحياة[3] :

يقصد بطريقة سير الحياة اعتماد الباحث فى دراسته للثقافة والشخصية على أقوال بعض أفراد المجتمع الخاصة بسير حياتهم ، فيقصون على الباحث أهم الأحداث التى مرت بهم منذ طفولتهم حتى ذلك الوقت . وقد استخدم بعض البحاث هذه الطريقة واعتمدوا عليها فى تحديد سمات شخصيات الأفراد قيد البحث ، ولكن فى الغالب يجمع الباحث بين هذه الطريقة وطريقة بحث أخرى أو عدة طرق فى دراسته ، ومن أمثلة الدراسات التى اعتمدت كلية على طريقة سيرة الحياة دراسة العلامة « سيمونز »

---

(١) One - way sci

(٢) Bias of Selecti

(٣) Life History.

عن سيرة الحياة لأحد هنود قبيلة هوبى ، ودراسة العلامة « ديك » عن سيرة حياة أحد هنود نوفاهو ، ودراسة العلامة « فورد » عن حياة أحد زعماء قبيلة كيوكيوتل . ودراسات العلماء كاردينز واوفيرس ودولارد ودافيز الخاصة بسير حياة بعض الزنوج الأمريكيين. ودراسة العلامة « وينتر » لسير حياة أربعة أفراد من قبيلة إيما بأفريقيا[1] وتستخدم تلك الطريقة لتوفير مادة تفصيلية عن حياة الفرد ، ويستنتج الباحث من تلك المادة سمات الشخصية وتأثير الثقافة فى الشخصية . ويشك بعض الأنثروبولوجيين فى صحة وسلامة المعلومات التى تمدنا بها هذه الطريقة ، وذلك لإمكانية كذب الإخبارى فى سرد بعض الأحداث أو خلط الخيال بالواقع لإرضاء الباحث . وفى أحسن الأحوال تكون تلك المعلومات صادقة ودقيقة. وهنا نتساءل : كيف يتعامل الباحث مع معلومات سير الحياة ؟ فى بعض الأحيان يقدم الباحث تلك المعلومات كمادة خام ويترك عملية تفسير تلك المعلومات للقارئ . ولكن فى معظم الأحيان يقوم العلماء وخاصة فى أبحاث الثقافة والشخصية ، بتحليل تلك المعلومات ويجب عند استخدام تلك الطريقة ملاحظة مشكلة مدى تمثيل العينة المختارة للجماعة قيد الدراسة والإجراءات المستخدمة فى تسجيل المادة . فقد حدث أن اعتمد بعض العلماء على أفراد فاشلين أو مصابين بأمراض نفسية أو انتهازيين يبحثون عن المكافآت المادية التى تقدم لهم فى مثل تلك الظروف .

ويرتبط بموضوع سير الحياة استخدام طريقة سيرة حياة الأسرة ، وقد طبقها العلامة « لويس » فى دراسة قصة أسرة من الطبقة السفلى فى مدينة مكسيكو[2] ، إذ طلب من كل فرد فى الأسرة أن يقص بصورة مستقلة عن الآخرين قصة حياته . وقد قام الباحث بتسجيل أحاديث أفراد الأسرة ثم ترجمها إلى اللغة الإنجليزية وقام بتفسيرها .

ولكى يحصل الباحث على صورة واقعية للثقافة أو الشخصية قيد الدراسة يجب عليه أن يحصل على معلومات سير الحياة من مجموعة من الأشخاص وليس من شخص واحد ، وأن يجمع المعلومات من الأشخاص الناجحين والأغبياء الفاشلين والفقراء ، من الرجال والنساء ومن الصغار والكبار . ويجب ملاحظة أن سيرة الحياة التى يدلى بها الشخص أمام الباحث وعلى حسب طلبه لا تكون فى أمانة ودقة سيرة الحياة التى يحكيها الشخص تلقائياً ، ومن المشكلات الأخرى التى تصاحب استخدام تلك الطريقة صعوبة نشر كل ما يجيء على لسان الإخبارى . فإن ما ينشر عادة لا يتعدى جزءاً صغيراً مما يجمعه الباحث من معلومات وذلك لكثرة المعلومات التى توفرها تلك الطريقة . ويجب ملاحظة أن إمكانية سرد الأكاذيب والخيالات خلال سرد الإخبارى لقصة حياته لا تؤدى إلى الإقلال من أهمية تلك المعلومات كوثائق نفسية ، إذ يعتمد البحاث فى ميدان الثقافة والشخصية على معلومات

---

(١) Ibid. PP. 197 - 198.

(٢) Lewis, O., The Children of Senchez. Autobiography of a Mixican Family, Random House, N.Y. 1961.

سير الحياة لتحديد قيم واتجاهات الفرد وللوصول إلى العوامل التي أدت إلى تشكيله فى تلك الصورة ، ويجب ملاحظة أن سيرة الحياة لا يمكن أن تكون كاملة وإنما هى تعطينا فقط معلومات عن بعض جوانب حياة الفرد ، وذلك لأن الإخبارى لا يستطيع أن يتذكر كل شىء حدث فى حياته وإنما يختار - شعوريًّا أولا شعوريًّا - بعض الأحداث التى يراها ذات أهمية أو تستحق الذكر .

ثالثاً - تفسير الأحلام والرؤى :

الحلم ظاهرة نفسية فردية خاصة بفرد معين بالذات وهو الحالم ، ولا يشاركه أحد فى حلمه ، ولكن ظاهرة اهتمام الأفراد بالأحلام ومحاولة تفسيرها هى ظاهرة ثقافية عالمية . بمعنى أن جميع الثقافات تهتم بظاهرة الأحلام وتضع مبادئ يتبعها أفراد المجتمع فى تفسيراتهم لتلك الظاهرة ، ولكن تختلف الثقافات فى درجة الاهتمام بالأحلام ، ففى بعض الثقافات ، مثل ثقافات قبائل الهنود الحمر ، يضفى على الأحلام اهتماماً زائداً وتصبح الوسيلة الوحيدة للحصول على قوى غيبية ومراكز راقية ، وفى ثقافات أخرى . مثل ثقافة جماعة تروبرياند يقل الاهتمام بالأحلام ، لدرجة يندر فيها أن يتحدث الفرد عن أحلامه بصورة تلقائية ، ويختفى فيها مبادئ التفسير الرمزى. يشترك علماء النفس مع الأنثروبولوجيين فى دراسة الأحلام ، وإن اختلفت طرق البحث ، فبينما يهتم علماء النفس وخاصة المحللون النفسيون بدراسة الأحلام على أنها رموز تعبر عن سمات الشخصية وخاصة فى حالة الأمراض العصابية والذهانية ، يهتم الأنثروبولوجيون بدراسة الأحلام على أنها ترمز لثقافة الحالم من ناحية ولأنها ذات وظائف اجتماعية وثقافية فى المجتمع قيد الدراسة ، ويجمع الأنثروبولوجيون النفسيون بين الاتجاهات السابقة فى دراسة الأحلام ، ولكن يتفق الرأى على أن تفسير الأحلام من اختصاص المحللين النفسيين . ولذلك يطلب الأنثروبولوجى معاونة المحلل النفسى فى هذا المجال ، ولا يحاول القيام بهذا العمل التخصصى . ولكنه يستطيع دراسة الوظائف الاجتماعية والثقافية للأحلام فى المجتمع قيد الدراسة .

ومن الواضح أن الأحلام تعكس ثقافة المجتمع التى يعيش فيها الحالمون . ويؤيد هذا الفهم شيخ المحللين النفسيين العلامة «فرويد» الذى درس بعض الأحلام النموذجية[١] . أى الأحلام التى يحلم بها كل فرد تقريباً فى مجتمع معين . ومن أمثلة ذلك حلم الارتباك المصاحب للعرى ، وينتشر ذلك الحلم فى الثقافة الغربية ولا يوجد فى المجتمعات البدائية التى يسير فيها الناس عراة . وحلم دخول الامتحان المدرسى ؛ وينتشر هذا الحلم كذلك فى الثقافة الغربية والثقافات التى تطبق نظام الامتحانات ويختفى فى المجتمعات البدائية التى لا تأخذ بنظام المدارس والإمتحانات[٢] ، وحلم العثور على نقود معدنية الذى يوجد فقط فى المجتمعات التى تطبق هذا النوع من النقود . وحلم مطاردة الأبقار للحالم الذى ينتشر فى غانا

(١) Typical dreams.

(٢) Freud, S., The Interpretation of Dreams, Modern Library, N.Y. 1938, P. 292.

الغربية وخاصة عند الأفراد المطاردين ولا يوجد فى باقى المجتمعات التى لا توجد بها ظاهرة مطاردة الأبقار للأفراد .

يمكن تمييز اتجاهين فى دراسات الثقافة والشخصية التى تقوم على أساس دراسات الأحلام . وهما لاتجاه الجمعى والاتجاه الفردى . ويتمثل الاتجاه الجمعى فى أن يقوم الباحث بجمع أكبر عدد ممكن من أحلام الأفراد فى المجتمع قيد الدراسة . ويدرس تلك المجموعة من الأحلام على أنها عينة لأحلام جميع أفراد ذلك المجتمع . ويحلل تلك الأحلام بهدف تحديد الخصائص العامة للمضمون الظاهرى لها . ومن أمثلة تلك الدراسات دراسة الأنثروبولوجية « دوروثى إيجان » التى اعتمدت على عدد كبير من الأحلام الخاصة ببعض أعضاء قبيلة هوبى من قبائل الهنود الحمر . وبعد قيامها بتحليل المضمون الظاهرى لتلك الأحلام تبين لها أن تلك الأحلام تعكس وتصور قوة الاتجاهات القبلية نحو الالتزامات التعاونية نحو القبيلة . وتصور كذلك تمسكهم بالمعتقدات الدينية الوثنية برغم اعتناقهم للمسيحية(١) . وقد طبق الاتجاه السابق على دراسة الأحلام فى المجتمات المتمدينة . ومن أهم تلك الدراسات بحث العلامة « هول » ، وفيه جمع «هول» عشرة آلاف حلم ودرسها كعينة للأحلام المنتشرة فى المجتمع الأمريكى . واستطاع « هول » أن يصل إلى تعميمات خاصة بالثقافة الأمريكية فقط . فقد لاحظ أن المواطن الأمريكى يحلم فى معظم الأحيان بشئون حياته الخاصة ، ومن النادر أن يحلم بالأحداث الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فى المجتمع . وعادة لا يحلم الشخص بأمور متعلقه بعمله . ولاحظ كذلك أن ١٠٪ من تلك الأحلام تصور الفرد وهو يمشى فى الطريق ، وأن ١٥٪ منها تصور الفرد وهو فى إحدى المركبات ، وأن ٣٣٪ من الأحلام تصور حوادث تحدث فى منزل غريب ، أى ليس منزل الحالم ، وأن الفرد يحلم عادة بأعضاء أسرته وأصدقائه ولكنه يحلم أيضاً بأشخاص أغراب ، ويمكن القول إن نسبة الأغراب للأشخاص المشتركين فى الأحلام هى حوالى ٤٠٪ ، وفيما يتعلق بالأنشطة التى يحلم بها الأمريكيون ، لاحظ هول أن السباحة والرقص والألعاب من الأنشطة المنتشرة فى الأحلام الأمريكية ، فى حين يندر فى تلك الأحلام المأكل والمشرب . ولاحظ كذلك أن الأحلام غير السارة أكثر انتشاراً من الأحلام السارة فى المجتمع الأمريكى ، وتزداد الأحلام غير السارة مع زيادة عمر الفرد ، ولاحظ كذلك أن حوالى ٣٣٪ من الأحلام ذات ألوان . وتظهر الحيوانات الأليفة فى أحلام الأمريكيين بصورة أكثر تكراراً من ظهور الحيوانات المتوحشة ، وأكثر تلك الحيوانات الأليفة هى الجياد ويتلوها الكلاب ثم القطط ، وعند مقارنة أحلام النساء بأحلام الرجال لاحظ «هول» أن عدد أحلام النساء التى تتضمن الجياد يصل إلى ضعف عدد أحلام الرجال المتضمنة للجياد(٢) .

---

(١) Eggan, D., The Manifest Content of Dreams : A Challenge to Social Science, American Anthropologist, Vol. 54., 1952, P. 479.

(٢) Hall, C., The Meaning of Dreams, Dell, N.Y. 1959, PP. 19 - 41.

أما الاتجاه الفردى فى دراسة الأحلام فيتمثل فى تسجيل أحلام فرد معين بالذات . ويستخدم علماء النفس هذا الاتجاه مع طريقتى سيرة الحياة والاختبارات النفسية فى دراستهم لشخصية فرد معين . وفى تلك الحالة يفسرون الأحلام لتحديد المضمون الكامن[١] . وخاصة عندما يستطيعون الحصول من الفرد على أحلامه وعلى خواطره المرتبطة بتلك الأحلام . إن ارتباط تطبيق الاتجاه الفردى فى دراسة الأحلام باستخدام طريقة سيرة الحياة يعد أمراً ضرورياً ، وذلك لحصول الباحث على معلومات يمكن استخدامها فى تفسير أحلام الفرد المراد دراسته .

ومن أمثلة الدراسات التى اعتمدت على الاتجاه الفردى فى دراسة الأحلام بحث العالمة «ديبوا» الخاص بقبيلة ألور ، فقد كانت تسأل كل صباح الإخباريين الأساسيين عن أحلامهم فى الليلة السابقة ، وقد اعترفت بأن محاولاتها الخاصة بتطبيق طريقة تداعى المعانى أو الخواطر على الموضوعات الرئيسية فى الأحلام لم تحقق النجاح المنشود[٢] ، ولكن لا يمنع ذلك من أن هناك محاولات أخرى ناجحة قام بها علماء آخرون . ومن أهم المشكلات التى تقابل استخدام الاتجاة الفردى فى دراسة الأحلام مشكلة التفسير ، وذلك لتعدد وتناقض مبادىء تفسير الأحلام ، فمثلا ترجع بعض المبادئ لنظرية فرويد . والبعض الآخر يرجع للعالمين «أدلر» و «يونج» . وقد وضع العلامة « هول » طريقة لحل تلك المشكلة . وتتمثل تلك الطريقة فى عدة خطوات يمكن اتخاذها فى حالة وجود تعارض بين الآراء فى تفسير حلم معين أو عدة أحلام ، وتتمثل أول خطوة فى عرض الحلم على أكثر من متخصص ثم مقارنة تلك التفسيرات بعضها ببعض ، فإذا كان هناك اتفاق تنتهى المشكلة ، وفى حالة عدم الاتفاق يمكن دراسة مضمون الحلم واختيار التفسير الذى يكون أكثر ملاءمة لذلك المضمون ، ويمكن كذلك مقارنة التفسيرات المتعارضة بتفسيرات الاختبارات الإسقاطية إن وجدت ، واختيار التفسير الذى يتفق مع نتائج تلك الاختبارات[٣] .

ولنتناول الآن فى إيجاز موضوع اختلاف نظريات تفسير الأحلام : يرجع هذا الاختلاف إلى ارتباط مشكلة الرمزية بتفسير الأحلام ، فالأحلام تتضمن موضوعات متنوعة ، وهناك اختلاف فى الرأى حول الاتجاهات والعواطف التى ترمز لها تلك الموضوعات ، فمثلا يرى العلامة فرويد أن أحلام البالغين ترمز لرغبات جنسية ممنوعة ، وأن هذه الرغبات تتخفى فى شكل رمزى ، فترمز أشياء مثل الثعابين والسيوف والعصى للقضيب فى حين ترمز أشياء مثل الصناديق والشنط والمغارات للمهبل ، ويقدم «فرويد» مثلا ثانياً للرمزية فى الأحلام ، وهو أن الأحلام تنقل المعلومات فى هيئة حكاية مصورة ، ومن طبيعة تلك الحكايات أن تكون رمزية . ويرفض العلامة « هول » الآخذ برأى «فرويد» الخاص بإرجاع الرمزية إلى

(١) The Latent content.

(٢) Du Bois, C., The People of Alor, Univ. of Minnesota Press, Minneapolis 1944, PP. 191 - 192.

(٣) Hall, C., Diagnosing Personality by the Analysis of Dreams, Journal of Abnormal and Social Psychology, Vol. 42, 1947, PP. 73 - 79.

مبدأ إخفاء الرغبات الجنسية ، وذلك لأنه لاحظ أن الكثير من الأحلام تحتوى على رغبات جنسية مكشوفة ، فتلك الرغبات لا تحتاج إلى التخفى فى الأحلام وإن كانت قد تحتاج إلى ذلك فى حالة اليقظة . ويجب ملاحظة أن رموز الأحلام تختلف معانيها باختلاف الثقافات ، فمثلا بالرغم من كثرة الثقافات التى يرمز فيها الثعبان لعضو الذكر ، نجد ثقافات أخرى يرمز فيها الثعبان إلى الشفاء أو الخلود أو الحكمة أو العالم الآخر أو الفصل الممطر أو قوس قزح . ولذلك يجب على الباحث أن يدرس المفاهيم الثقافية المحلية حول المعنى الرمزى للأشياء التى ترد فى الأحلام . هذا بالإضافة إلى دراسة تداعى خواطر الحالم نفسه . ويتفق الأنثروبولوجيون على مبدأ النسبية الثقافية لموضوع الرمزية فى الأحلام ، ولا يوافقون «فرويد» وأتباعه من المحللين النفسيين الذين يضعون تفسيرات ثابتة ودائمة للأحلام يمكن تطبيقها فى كل زمان ومكان. وهكذا يقرر العلامة « بواز » أن الرموز مثل المركبات الثقافية الأخرى . لها خلفية تاريخية ، وقد ينتشر شكل رمز أما من مجتمع إلى آخر ، ولكن المعنى المرتبط بهذا الرمز قد لا ينتشر مع الشكل[1] ، وتشير العلامة « روث بانزل » إلى المعانى المختلفة التى يرمز لها الصليب فى بعض قبائل الهنود الحمر ، فبينما يرمز الصليب إلى جهات الدنيا الأربع عند قبيلة « فرون » فإنه يرمز لنجمة الصباح عند قبيلة « اراباهو » ويرمز إلى القمح أو نوع من الصبار أو شرارة فى قبيلة « هيوسول » ، وقد تحدث اختلافات فى تفسير الرمز فى داخل المجتمع الواحد وكذلك فى داخل الجماعة الواحدة ، بل إنه أحياناً يختلف الفرد الواحد فى تحديد معنى رمز شىء معين فى أوقات مختلفة[2] .

ولكن ما هى أهمية جمع الأحلام وتفسيرها بالنسبة لأبحاث الثقافة والشخصية .

حقًّا اعتمدت بعض الأبحاث على تلك الطريقة فى البحث ، إلا أنه يمكن القول بصفة عامة أن هذه الطريقة ليست ملائمة لتحديد سمات الشخصية ، ولا يمكن الاعتماد عليها وحدها فى تحديد تلك السمات ، ولا شك من فشل تلك الطريقة فى تحديد ثقافة المجتمع قيد الدراسة . وتمتاز طريقة دراسة سير الحياة وطريقة الاختبارات الإسقاطية على طريقة دراسة الأحلام من ناحية توفير المعلومات الدقيقة عن سمات الشخصية وعدم الدخول فى مشكلة الرمزية وتعدد نظريات تفسير الأحلام ، هذا بالإضافة إلى ارتفاع احتمال الكذب والتخيل والنسيان فى سرد الأحلام ، ولكن لا يمنع ذلك من أهمية الأحلام فى ميدان التحليل النفسى والطب النفسى .

رابعاً — الاختبارات الإسقاطية :

تتألف الاختبارات الإسقاطية من صورة مبهمة أو موقف غامض أو سلوك ناقص يعرض على الشخص فى صورة تشكيلية أو لفظية ، ويعرض بمنبهات بصرية أو منبهات سمعية ، ثم يطلب من

---

(١) Boas, F., Primitive Art, Dover N.Y. 1955, P. 120.

(٢) Bunzel, R., Art, in Boas (ed). General Anthropology, Heath, N.Y. 1938. P. 584.

المختبر تأويله على حسب ما يدركه منه . فيسقط المختبر فى هذا التأويل محتويات حياته النفسية الشعورية واللاشعورية من مخاوف وصراع وقلق ، ولذلك سميت هذه الاختبارات بالإسقاطية ، وتستخدم لقياس الشخصية . ومن أكثر الاختبارات الإسقاطية استخداماً فى أبحاث الثقافة والشخصية اختبار رورشاخ ، وقد لعب هذا الاختبار دوراً هاماً فى بعض الأبحاث الهامة مثل دراسة العلامة « ديبوا » لجماعة ألور ودراسة العالمين « جلادوين » . و «سيرسون » لجماعة « تروك » ، ودراسة « هالوويل » لجماعة « سولتوكس » ، ولكن لا يمنع ذلك من تعرض استخدام اختبار رورشاخ فى أبحاث الثقافة والشخصية لبعض النقد .

اخترع اختبار رورشاخ الطبيب النفسى السويسرى «هيرمان رورشاخ» ونشر الاختراع فى عام ١٩٢٢ ويتألف هذا الإختبار من عشر بقع من الحبر ، خمس منها ملونة وخمسة غير ملونة ، ولقد اختار تلك البقع من آلاف البقع التى أجرى عليها الكثير من التجارب ، وتعرض الواحدة بعد الأخرى على الشخص المختبر ويطلب منه أن يذكر ما يراه فيها ، وأن يعلق عليها بوصف ما تذكره به وما يتوارد على ذهنه من خواطر بصددها ، ثم تسجل إجابته بكل تفاصيلها وتدرس دراسة فاحصة من حيث محتوياتها ونوعها ، فيدرس مثلا هل رأى الشخص المختبر فى الصورة أناسا أو حيوانات أو مناظر طبيعية ، وهل رأى البقعة فى جملتها أو تفاصيلها ؟ وهل تأثر بشكل البقعة أو بلونها ؟ وهل رأى الناس فى حالة حركة أو سكون ؟ ولكل طريقة من طرق الاستجابة السابقة دلالة . فمثلا رؤية البقعة فى جملتها لا فى تفاصيلها تشير إلى أن الشخص يتسم بالقدرة على التأليف والتجريب ، وتفسير هذا الاختبار يتطلب إعداداً فنياً كبيراً بعد التخصص فى علم النفس الإكلينيكى [١] ، ولقد تدرب الكثيرون من الأنثروبولوجيين على تطبيق ذلك الاختبار ، ولكن يندر أن نجد أنثروبولوجيا واحداً قادراً على تحليله . ولذلك يقدم الأنثروبولوجيون استجابات الأشخاص المختبرين للمحللين النفسيين المتخصصين فى هذا الاختبار لتحليل الاستجابات ، وتحديد سمات شخصيات أصحابها .

يهمنا هنا تطبيق هذا الاختبار فى الثقافات المختلفة ، لقد استخدم الأنثروبولوجيون هذا الاختبار فى أبحاثهم عن الثقافة والشخصية لأنه يمتاز عن غيره بعدة مميزات ، منها أنه لا يحتاج فى تطبيقه إلى معرفة الشخص بالقراءة والكتابة ، وبالتالى يمكن استخدامه فى المجتمعات الأمية ، وجميع المجتمعات البدائية مجتمعات أمية ، هذا بالإضافة إلى أنه غير مرتبط بثقافة معينة ، وذلك لأن البقع فى ذاتها لا تعبر عن أى عناصر ثقافية معينة ، ويمتاز كذلك بإمكانية تطبيقه على أفراد فى أعمار مختلفة ، ولكن هناك صعوبات تقابل استخدام هذا الاختبار فى أبحاث الأنثروبولوجيا النفسية ، التى تجرى عادة فى مجتمعات غريبة على الباحث ، أهمها مشكلة اللغة ، وذلك لأن تطبيق هذا الاختبار يتطلب دراية تامة بلغة الأشخاص المختبرين ، ولا يتوافر ذلك المطلب فى معظم الأبحاث الأنثروبولوجية التى يعتمد فيها

---

(١) د. عثمان فرج : الشخصية والصحة العقلية ، مكتبة النهضة العربية — القاهرة ١٩٧٠ — ص ٩ .

الأنثروبولوجى على المترجمين أو على معرفة سطحية للغة المجتمع قيد البحث . وقد استطاع أستاذى العلامة « ماينر »[1] التغلب على تلك المشكلة فى أثناء تطبيقه لاختبار رورشاخ على عدد من الجزائريين وذلك عن طريق تسجيل الاستجابات باللغة الأصلية أى اللغة العربية . ثم تسجيل الترجمة الفرنسية لتلك الاستجابات . واستخدم فى هذا التسجيل المسجل الكهربائى مما أتاح له سماع تلك الاستجابات لعدة مرات ومقارنتها بلغتها الأصلية وباللغة المترجمة إليها . ولكى نحصل على استجابات كافية لنجاح هذا الاختبار ، يجب على الشخص المختبر أن يشعر بالراحة وأن يكون هادئا أثناء استخدام الاختبار . ولا شك أن مثل هذه الراحة والهدوء من الصعب توفيرها فى حقل الدراسة ، وإن كان يمكن توفيرها فى العيادات النفسية فى المجتمعات الغربية ، وذلك لأن الأنثروبولوجى هو شخص غريب بالنسبة للشخص المختبر . وكذلك قد تبدو بقع رورشاخ أموراً غريبة عند بعض البدائيين . ثم إن مطالبة الشخص المختبر بالتعبير عما يتصوره عند رؤية تلك البقع قد يبدو أمراً لامعنى له أو غير مفهوم ، وقد قرر بعض الأنثروبولوجيين أن المواطنين قيد الدراسة كانوا يرفضون بشدة تطبيق اختبار رورشاخ عليهم . وتصور بعضهم أنه لون من السحر قد يضرهم . ولكن لا تمنع تلك المواقف السلبية من نجاح تطبيق هذا الاختبار فى الكثير من أبحاث الثقافة والشخصية ، ومن نجاح هذا الاختبار فى الكشف عن الكثير من سمات الشخصية ، وتتفق نتائج هذا الاختبار مع نتائج الاختبارات الأخرى الخاصة بتحديد سمات الشخصية مما يدل على دقة هذا الاختبار . وبالإضافة إلى اختبار رورشاخ يوجد اختبار إسقاطى آخر لتحديد سمات الشخصية وهو اختبار تفهم الموضوع[2] . الذى يختصر إلى (TAT) ، ويتكون الاختبار من مجموعة من الصور تقدم إلى الشخص المختبر ، الواحدة بعد الأخرى . ويطلب الباحث منه أن ينظر إلى كل صورة جيداً ، ثم يطلب منه أن يضع قصة تعبر عن تلك الصورة ، ويسأله عن الظروف التى أدت إلى المنظر الموجود فى الصورة ، ويطلب منه كذلك وصف أفكار ومشاعر الأفراد المشتركين فى الصورة ، وعليه كذلك أن يتنبأ بالأحداث التالية لهذا المنظر . صمم هذا الاختبار العالمان « مورجان » و« موراى »[3] ونشراه فى عام ١٩٣٥ ، وتقسم الصور إلى مجموعات متخصصة : المجموعة الأولى خاصة بالأشخاص المختبرين من الرجال فقط والمجموعة الثانية خاصة بالإناث فقط والمجموعة الثالثة خاصة بالأطفال فقط . أما المجموعة الرابعة فهى عامة أى تقدم لجميع الأشخاص ، ويوجد تتابع معين يجب احترامه عند تقديم الصور للشخص المختبر ، ولكن حدث أن غير بعض البحاث هذا التتابع فى بعض دراساتهم ، وفيما يتعلق بنوع تلك الصور ، فإن بعضها يمثل صوراً مرسومة والبعض الآخر يشبه صور المجلات ، ويوجد كارت واحد أبيض تماماً أى خال من أى صورة ،

---

(١) Miner. H. and De Vos, G., Oasis and Casbah : Algerian Culture and Personality in Change, Anthropological Papers, Univ. of Michigan, No. 15. 1960, P. 13.

(٢) The Thematic Apperception Test.

(٣) Morgan, C. and Murray, H.

ويتمثل الأسلوب التقليدى لهذا الاختبار فى عرض عشرين صورة على الشخص المختبر : الواحدة بعد الأخرى ، ثم يطلب الباحث منه أن يضع قصة تعبر عن كل صورة . وفى بعض الأحيان لا يقدم الباحث كل الصور وإنما يختار بعضها فقط . وفى تلك الحالات يختار الباحث الصور التى تلائم موضوع بحثه ويهمل الصور الأخرى ، وفيما يتعلق بمضمون تلك الصور فإنها متنوعة . وتشمل العديد من العلاقات الاجتماعية والشخصية ؛ فمثلا توجد صور تنبه إلى وضع قصص خاصة بعلاقة الفرد بأمه أو بأبيه أو بصديقه ، وهناك صوى أخرى تدفع الفرد إلى وضع قصص عن الطموح وما إلى ذلك . وتسجل تلك القصص بعناية ، ثم يقوم المتخصصون بتفسيرها ، ويستنتجون منها بعض اتجاهات وسمات شخصية الفرد المختبر . ويهمنا هنا تطبيق هذا الاختبار فى أبحاث الثقافة والشخصية ، ومن الواضح أن تطبيق هذا الاختبار فى الثقافات البدائية يقابله الكثير من الصعووبات ، وذلك لأن الكثير من تلك الصور تمثل عناصر ثقافية خاصة بالثقافة الغربية ، مثل الملابس الغربية والأدوات الموسيقية الغربية ، وهى أمور لا تكون مفهومة فى الثقافات البدائية التى لم تتأثر بقوة بالثقافة الغربية. هذا بالإضافة إلى أن الأشخاص المتضمنين فى تلك الصور يمثلون السلالة القوقازية فقط . فى حين كثيراً ما تعرض تلك الصور على أفراد من السلالة الزنجية أو السلالة المغولية ، ولتذليل تلك الصعوبات اضطر بعض البحاث إلى إدخال تعديلات فى صور الاختبار السابق ، بحيث تتفق موضوعات تلك الصور مع الثقافة المراد دراستها . وهنا يطلب الباحث من أحد الفنانين تعديل مضمون تلك الصور وتصميم صور جديدة شبيهة بالصور الأصلية. وقد استخدمت الصور المعدلة بنجاح كبير فى دراسة أطفال قبيلة «وبى وقبيلة نافاهو وفى دراسة العالمين «جلادوين» و «ساراسون» عن جماعة تروك ، وفى كثير من الأبحاث الخاصة ببعض القبائل الأفريقية ، وكذلك طبقت بعض صور معدلة للاختبار على بعض النساء الريفيات فى اليابان[١] ، ويرى العلماء المتخصصون أن تلك الصور المعدلة يجب أن تحتوى على منظر خاص بعلاقة الطفل بأمه ، ومنظر خاص بعلاقة الطفل بأبيه ، ومنظر ثالث يتكون من شخص واحد ، ومنظر رابع يمثل رجلا وامرأة ، ومنظر خاص بمجموعة الناس ، ومنظر آخر يمثل السلطة ومنظر يمثل البيئة المحيطة ، ومناظر خاصة بالأنشطة الاقتصادية المختلفة . ويجب كذلك أن تشمل الصور المعدلة منظراً واحداً أو اثنين يتضمنان ترتيباً غير منطقى للأشياء الواقعية ، ومنظراً واحداً أو اثنين يتضمنان أحداثاً غير واقعية ، ومنظراً أو أكثر يعبر عن المشاكل المحلية[٢] . ولا شك أن تلك الصور المعدلة تختلف كثيراً عن الصور الأصلية للاختبار ، وتختلف كذلك عن بعضها البعض ، مما يجعل من تلك الصور المعدلة اختبارات محلية أى لا تصلح إلا فى الثقافة التى صممت من أجلها . وهكذا يتضح لنا أن النماذج المعدلة من اختبار تفهم الموضوع لا تصلح

---

(١) Deves, G. and Wagatsuma, H., Value Attitudee Toward Role Behavior of Women in Two Japanese Villages, American Anthropologist, Vol. 63, 1961, PP. 1204 - 1230.

(٢) Barnouw, V., Culture and Personality, PP. 261 - 262.

لتطبيقها في الثقافات المختلفة . وهنا يمتاز اختبار رورشاخ على اختبار تفهم الموضوع سواء في النموذج الأصلى أو النماذج المعدلة . وذلك لأن اختبار رورشاخ يتمتع بإمكانية التطبيق فى جميع الثقافات . ولا يعنى ذلك أن اختبار تفهم الموضوع ليس مفيداً فى تحديد سمات الشخصية ، وإنما يعنى أنه لا يمكن تطبيق هذا الاختبار بصورة عالمية ولذلك أدخلت علية التعديلات حتى يمكن تطبيقة فى الثقافات المختلفة . وقد صاحب تطبيق هذا الاختبار صعوبات جمة فى المجتمعات البدائية التى لم يتعود أفرادها على الصور لعدم وجودها فى مجتمعاتهم .

وبالإضافة إلى اختبار رورشاخ واختبار تفهم الموضوع بوجد من الاختبارات الإسقاطية دراسة رسوم الأفراد المختبرين . ولكن لا تعطى أبحاث الثقافة والشخصية لدراسة الرسوم الأهمية التى أعطتها للاختبارين السابقين ، هذا بالرغم من أن الرسوم لا تتطلب إلا القليل من الكلمات والوقت والأدوات البسيطة مثل الورقة والقلم ، وهى أمور ذات أهمية فى أبحاث الثقافة والشخصية الخاصة بالثقافات البدائية أو المتخلفة ، ولا تؤثر كثيراً عقبة عدم إتقان لغة الأشخاص المختبرين عند استخدام هذا الاختبار الإسقاطى ، هذا بالإضافة إلى أن تلك الرسوم تبقى كوثيقة دائمة لتعبير الفرد عن شخصيته ويمكن الرجوع إليها فى أى وقت .

لقد جمع بعض الأنثروبولوجيين العديد من الرسوم من الإخباريين أثناء دراساتهم الحقلية ، ولكن القليل منهم حلل تلك الرسوم واعتمد عليها فى تحديد سمات الشخصية قيد البحث . ولكن أخذ الاهتمام بتحليل الرسوم يتزايد تدريجيا فى أبحاث الثقافة والشخصية فى الفترة الأخيرة . ولا يعنى قلة استخدام هذا الاختبار فى أبحاث الأنثروبولوجيا النفسية ضعفه أو عدم فائدته فى اكتشاف سمات الشخصية ، فعلى العكس ، يستخدم هذا الاختبار بجانب الاختبارين السابقين بنجاح تام فى العيادات النفسية .

حقق اختبار الرسم نجاحا كبيراً عنه دراسة الأطفال والأشخاص الخجولين والأشخاص الذين لا يستطيعون ، لسبب ما ، الكلام . ويرى أحد علماء النفس أن اختبار الرسم يتميز على اختبار رورشاخ واختبار تفهم الموضوع من ناحية أنه أقل تأثراً بالباحث الذى يجرى الاختبار وأكثر صراحة ووضوحا فى التعبير عن الشخصية[(١)] .

ومن أهم أبحاث الثقافة والشخصية التى اعتمدت على طريقة تحليل رسوم الأطفال بحث الأنثروبولوجية « ديبوا » عن جماعة ألور[(٢)] ، أعطت « ديبوا » بعض أطفال تلك الجماعة ورقاً وأقلام رصاص وطلبت منهم أن يرسموا أى شىء يريدونه ، وجمعت « ديبوا » رسوماً من ٣٢ ولداً و٢٢ فتاة ، وعند فحصها لاحظت « ديبوا » وجود بعض الفروق بين رسوم الأولاد ورسوم الفتيات ، فقد أظهر الأولاد اهتماماً أكبر بالأشياء الغريبة وبالاحتفالات ، فى حين ركزت الفتيات اهتماماتهن على رسم

---

(١) Hammer, E., The Clinical Application of Projective Drawings, Charles C. Thomas, Springfield, Ill. 1958, PP. 600 & 601.

(٢) Dubois, C., The People of Alor, Univ, of Minnesota Press. Minneapolis, 1944.

أشكال الوشم ، وقد لوحظ كذلك أن النبات يمثل أكثر الأشياء تكراراً فى رسوم الأولاد والبنات على السواء . ويتلو النبات الحيوانات عند الأولاد والأدوات عند الفتيات ، وتأتى المبانى فى المرتبة الثالثة بالنسبة للنوعين ، أما البشر فقد ندر وجودهم فى تلك الرسوم ، فقط فى ٧٪ من رسوم الأولاد وفى ١٪ من رسوم الفتيات . وتعد تلك النتائج مناقضة للنتائج التى توصلت إليها بعض الأبحاث التى أجريت على أطفال المجتمعات الغربية ، ففى دراسة خاصة برسوم الأطفال الإنجليز تبين أن الموضوع الرئيسى فى تلك الرسوم هو الإنسان . ويتلو ذلك المنازل ثم الأشجار ثم الأزهار . ولنتناول الآن فى إيجاز تحليل المتخصصين لرسوم أطفال جماعة ألور ، فقد حلل المحلل النفسى « شميدل واهنر »[1] الرسوم السابقة دون أن يعلم شيئا عن ثقافة وشخصية جماعة ألور ، ووصل إلى نتائج تتفق مع النتائج التى توصل إليها علماء آخرون عن طريق استخدام اختبار رورشاخ وطريقة سير الحياة ، ويقرر هذا المحلل النفسى أن هؤلاء الأطفال يشعرون بالوحدة ، ويستدل على ذلك من عدم الضغط على القلم فى الخطوط ومن الإتقان فى رسوم الخط ذاته . ويتمتع هؤلاء الأطفال بقدرات جيدة ولكنهم متفرقون عن بعضهم ، وتوجد فى رسومهم عناصر جيدة ولكن تنقصها الوحدة دائما ، ويدل عدم وجود منحنيات أو أقواس فى تلك الرسوم على عدم قدرتهم على الترابط العاطفى فيما بينهم ، وينقصهم كذلك الاتجاه الخلاق ، ويتضح هذا النقص من صغر الأشكال ومن عدم وجود تنوع فى الضغط على القلم ، وبالتالى لا توجد خطوط غامقة وفاتحة ، وكذلك من عدم وجود القوس المتنوع والإيقاع المتنوع[2] ، وهذه من المؤشرات الدالة على الخلق والإبداع . ويعرف هؤلاء الأطفال بصورة واقعية الحدود التى يجب أن يقفوا عندها ، ويستنتج ذلك من عدم الرسم على أطراف الورق ؛ وفى رسومهم النادرة المتعلقة بالأشخاص ، لوحظ أنهم يخفون الأعضاء التناسلية من تلك الرسوم ، هذا بالرغم من وجود بعض الإباحة الجنسية قبل الزواج فى قبيلة ألور ، وترى العلامة « ديبوا » أن تلك الظاهرة تدل إما على خوف شديد من الخصاء أو على عدم اهتمام بالأمور الجنسية ، وهى تفضل التفسير الأخير ، فى حين يؤكد المحلل النفسى « روهيم » التفسير الأول على أساس أن الخوف من الخصاء من أهم الخصائص النفسية لجماعة ألور[3] .

ومن أهم الاختبارات الإسقاطية الخاصة بالرسوم اختبار رسم شخص[4] ويختصر باللغة الإنجليزية إلى «DAP» وهو من اختراع العلامة « ماشوفر »[5] واختبار المنزل والشجرة والشخص ويختصر باللغة الإنجليزية إلى «H-T-P» وهو من اختراع العلامة « باك »[6] .

---

(١) Schmidl, Waehner.

(٢) Differentinted curve and differentiated rythm.

(٣) Roheim, G., Psychoanalysis and Anthropology, International Univ. Press, N.Y. 1950, P. 264.

(٤) The Draw - A - Person Test.

(٥) Machover.

(٦) Buck.

وقد طبق اختبار رسم شخص فى عدة أبحاث للثقافة والشخصية وان كانت نتائج تطبيقه لم تصل إلى نجاح اختبار الرسم فى جماعة ألور، بل يمكن القول أن استخدامه قدمنى بالفشل . ولم يطبق بعد اختبار المنزل والشجرة والشخص فى أبحاث الأنثروبولوجيا النفسية(١) .

خامساً – دراسة الأدب الشعبي :

يمكن تمييز ثلاثة اتجاهات واضحة فى استخدام دراسة الأدب الشعبي فى أبحاث الثقافة والشخصية ، يتمثل الاتجاه الأول فى الدراسات الرائدة التى قام بها كبار المحللين النفسيين مثل فرويد ويونج وإبراهام ورايك وروهايم . وتشتمل تلك الدراسات على مسوح تجمع أكبر عدد من الأساطير والحكايات الشعبية من جميع أنحاء العالم . وتهدف تلك الدراسات إلى إثبات وجود مفاهيم نظريات فرويد فى المجتمعات المختلفة مما يؤيد فرض عالمية وعمومية تلك الخصائص النفسية . أما الاتجاه الثانى فهو القيام بمسوح للأساطير والحكايات الشعبية فى الثقافات المختلفة لتحديد أوجه الاختلاف والاتفاق فى الموضوعات التى تتضمنها تلك الأساطير والحكايات . ولتحديد مدى انتشار الترابطات بين بعض الموضوعات وأنماط ثقافية معينة مثل نظم تربية الأطفال ؛ وتعتمد تلك الدراسات على سجلات مناطق العلاقات الإنسانية(٢) . فقد قامت خمس عشرة جامعة أمريكية بمشروع علمى مفيد يتمثل فى جمع وتصنيف المعلومات الوصفية الخاصة بعدد كبير من ثقافات المجتمعات ونظمها الاجتماعية، وطبعها فى سجلات يسهل تداولها . وتوضع مجموعة كاملة من تلك السجلات فى الجامعات التى قامت بتنفيذ المشروع ؛ وبفضل هذا المشروع أصبح فى الإمكان الحصول على الكثير من المادة الأنثروبولوجية عن المجتمعات المختلفة .: وبالتالى يمكن إجراء المقارنات والوصول إلى نتائج عامة . ويتخصص الاتجاه الثالث فى الدراسة التفصيلية الأدب الشعبي فى مجتمع معين وتحليلها بهدف معرفة القيم والاتجاهات الأساسية فى شخصية وثقافة هذا المجتمع .

إن أكثر تلك الاتجاهات انتشاراً فى أبحاث الثقافة والشخصية هو الاتجاه الثالث . ويقوم اتجاه التحليل التفصيلى للأدب الشعبي فى مجتمع ما على افتراضين ، افتراض وجود شخصية رئيسية أو منوالية فى المجتمع قيد البحث . وافتراض أن التكامل الثقافى يميل إلى تأكيد نوع من الثبات والتماسك فى الأدب الشعبي ، وبالتالى يمكن استنتاج بعض خصائص الشخصية الرئيسية فى المجتمع قيد البحث عن طريق تحليل أدبه الشعبي ، برغم وجود شبه اتفاق على أن دراسة الأدب الشعبي فى مجتمع معين تؤدى لمعرفة اتجاهات الشخصية فى هذا المجتمع ، إلا أنه أثيرت حول هذا الموضوع ثلاثة اعتراضات . يقول البعض إن الأدب الشعبي قد يعكس أنماطاً ثقافية وسمات للشخصية قديمة لم يعد لها وجود

---

(١) Honigmann, J, and Correra, R., Cross - Cultural Use of Machover Figure Drawing -Test, American Anthropolgist, Vol. 59, 1957, PP. 650 - 654.

(٢) Human Relations Area Files.

فى الوقت الحاضر ، ولكن يمكن الرد على ذلك الاعتراض من زاوية أن الأدب الشعبى ينقرض فى حالة عدم تعبيره عن الثقافة الموجودة . ويتمثل الاعتراض الثانى فى القول بأن الحكايات الشعبية من شأنها الانتشار من مجتمع إلى آخر ، وبالتالى لا تعبر بدقة عن قيم المجتمع قيد البحث ، لأنها قد تكون مستعارة من مجتمع آخر . ويمكن الرد على هذا الاعتراض من ناحية أن الاستعارات الثقافية تتعرض دائما للتعديلات التى تجعلها فى النهاية متفقة مع ومعبرة عن قيم المجتمع المنقولة إليه ، ونصل الآن للاعتراض الأخير وهو القول بأنه من الصعب معرفة ما إذا كانت القيم والاتجاهات المتضمنة فى الأدب الشعبى تعبر عن اتجاهات وقيم موجودة فعلا فى ثقافة المجتمع قيد البحث ، أو هى مجرد أمنيات وتمنيات أو صور من ردود الفعل لأحداث مؤقتة ، ويمكن الرد على هذا الاعتراض أيضا بالقول أن معرفتنا الوثيقة بثقافة المجتمع قيد الدراسة تمكننا من التأكد ما إذا كانت تلك الاتجاهات والقيم أموراً حقيقية أم مجرد تمنيات. ومن الواضح أن المناقشة السابقة تؤكد أن الأدب الشعبى يعبر عن قيم وشخصية الثقافة قيد البحث ، وهى حقيقة عرفها منذ زمن ليس بقريب الأنثروبولوجى الكبير « بواز » وله كتاب بعنوان « ثقافة كيوكيوتل ممثلة فى الأساطير » [1] .

ولكن يجب ملاحظة أن الأدب الشعبى فى مجتمع ما لا يعكس جميع جوانب حياة الناس فى هذا المجتمع ، وتقوم الدراسات الميدانية بتحديد الموضوعات التى تهتم بها الحكايات الشعبية فى مجتمع ما والموضوعات التى تتجاهلها تلك الحكايات ، فمثلا قد يتوقع الدارس أن الحكايات الشعبية فى قبائل الإسكيمو تهتم بالجو البارد وبالثلوج ولكن الدراسات الميدانية تقرر عكس ذلك ، فالجو لا يعد من الموضوعات الرئيسية فى الأدب الشعبى لدى الإسكيمو . وإنما يتركز الاهتمام على العلاقات الشخصية ، وبينما يمثل الرعى عنصراً هاماً فى حياة قبائل « زونى » من الهنود الحمر » لا تذكر الحكايات الشعبية فى تلك القبائل عنه شيئاً .

وتبين دراسة العلامة « ميلفيل جاكوب » لجماعات « كلا كاماس تشينوك » من الهنود الحمر ، شدة اهتمام ثقافتهم بالطقوس الموسمية واحتفالات بلوغ البنات ومفاوضات وطقوس الزواج والخوف من السحر والوصفات العلاجية الشامانية ، ولكن برغم ذلك تكاد تخلو الحكايات الشعبية من ذكر تلك الموضوعات الرئيسية ، ويستنتج من دراسته أن الحكايات الشعبية فى مجتمع ما تمثل شاشة لإسقاط المشاعر والاتجاهات التى تكبت أو تعارض عن طريق ثقافة ذلك المجتمع ، وهى المشاعر والاتجاهات التى لا تهتم بها الأنماط الثقافية ولذلك يوجد اختلاف واضح بين الموضوعات التى تهتم بها الثقافة بصورة ظاهرة والموضوعات التى يركز عليها الأدب الشعبى فى تلك الثقافة . ويتفق هذا الرأى مع رأى المحللين النفسيين فى الوظيفة النفسية للأدب الشعبى . وقد يساعد هذا الرأى على تفسير وجود

---

(١) Boas, F., Kwakiutl Culture as Reflected in The Mythology, Memoirs of The American Folklore Society, Vol. xx VIII. N. Y.1935.

أو غياب بعض جوانب ثقافة مجتمع ما في أدبه الشعبي [١] .

ومن أهم دراسات الثقافة والشخصية التي اعتمدت على تحليل الأدب الشعبي دراسة العالمة « مارجريت لانتيس » لبعض جماعات الإسكيمو التي تقطن جزيرة « نونيفاك » في ألاسكا . وإلى جانب دراسة الأدب الشعبي ، أجرت اختبار رورشاخ على اثنين وثلاثين شخصا مختبراً من هؤلاء الإسكيمو . وقد قدمت نتائج هذا الاختبار لعالمتين متخصصتين هما ايوجينا هانفان وأليس جوزيف لتحليلها بصورة مستقلة ، وكانت أكثر الموضوعات انتشاراً في تلك الحكايات الشعبية موضوع بطل يستطيع التغلب على الصعاب ، ويمكن القول بأن ثلث الحكايات الشعبية عند تلك الجماعات تعالج هذا الموضوع . وتحكى نصف تلك الحكايات الشعبية قصة ولد يتيم استطاع في النهاية الانتصار على أعدائه ، وعادة يعيش مع إحدى قريباته ، أخت أو جدة . وتؤكد تلك الحكايات أهمية الإنجازات الفردية بصورة أقوى من تأكيدها للتعاون الجماعي . ولكن تهتم الحكايات الحربية بموضوع التعاون الجماعي ، ولا توجد حكايات خاصة بموضوع الآباء والأبناء ، وتهتم بعض الحكايات بموضوع فتاة متغطرسة ترفض المتقدمين للزواج منها ، وفي النهاية تهجر زوجها وتعيش وحدها . ويندر وجود حكاية تصور زوجاً هاجراً لزوجته ، ودائماً تصور تلك الحكايات الأم والجدة في شخصيات طيبة ومثيرة ، ولكنها تصور الزوجات كشخصيات عدائية ومتكبرة . وتفسر العلامة «لانتيس» ذلك التصور العدائي للزوجة عن طريق إرجاعه إلى حرمان الأطفال من رعاية الأم عند بلوغهم سن الخامسة . وذلك لأن الأطفال عند بلوغهم الخامسة يتركون منازل آبائهم ويعيشون معا في بيت الاحتفالات ، ويتزوج الفتيات في سن صغيرة تتراوح بين الحادية عشرة والثالثة عشرة . ولذلك يرفضن بشدة الزواج ولا يقبلنه إلا مرغمات في هذا السن المبكر . وتصل العلامة « لانتيس » إلى نتائج عامة خاصة بشخصية تلك الجماعة من الإسكيمو ، منها أن تلك الجماعة لديها صورة واضحة لأهدافهم ، ويعملون على تحقيقها بصورة واقعية ، وتكثر حوادث الاعتداء والعنف وسفك الدماء في تلك الحكايات ، وقد وضعت العلامة « لا نتيس » جدولا للأخطار البدنية المذكورة في تلك الأساطير ، ومن أكثر تلك الأخطار انتشاراً عض وأكل لبعض أجزاء جسم الإنسان ، ومن الموضوعات النادرة الذكر في تلك الحكايات قصص الاحتيال [٢] ، ولكن تنتشر تلك الموضوعات في الحكايات الشعبية عند هنود السهول ، ويتضح ذلك من الدراسة القيمة التي قام بها العلامة « بارنو » لجماعة تشيبوا من الهنود الحمر ، فقد تبين له ندرة الحكايات الشعبية الخاصة بالإنجازات الفردية أي عكس الاتجاه السائد في جماعة الإسكيمو سابقة الذكر ، تدور معظم حكايات تشيبوا حول الخداع والاحتيال ، وأشهر أبطال هذه القصص بطل مخادع

---

(١) Jacobs, M., The content and Style of an Oral Literature. Clackamas Chinook Myths and Tales, Viking Fund Publications in Anthropology, No. 26, N.Y. 1959, P. 130.

(٢) Lantis, M., Nunivak Eskimo Personality as Revealed in Mythology, Anthopological Papers of the Univ. of Alaska Vol. 2, No. 1, 1953, PP. 109 - 174.

يدعى وينيبوجو[١] . كذلك من أهم عناصر الأدب الشعبي الأمثلة الشعبية والنكت وخاصة فى المجتمعات التى تنتشر فيها الأمية ، وتدرس الأمثلة الشعبية للتعرف على خصائص الشخصية القومية ويمثل المثل الشعبي خبرة اجتماعية يتناقلها الناس جيلا بعد جيل . وقد اعتمد الكثير من البحاث العرب[٢] على تحليل الأمثلة الشعبية المصرية والعربية لاستنتاج خصائص الشخصية المصرية والعربية .

سادساً ــ دراسة الفن :

يرى بعض الأنثروبولوجيين أن دراسة وتحليل فن مجتمع ما يؤدى إلى معرفة بعض سمات الشخصية المنوالية فى هذا المجتمع . وقد سبق بعض مؤرخى الثقافة ومؤرخى الفن الأنثروبولوجيين فى اتباع هذا المنهج ، فقد حلل المؤرخون هايزينجا وفريدل وبيفسنير وسيفر[٣] الفنون الأوربية فى العصور الوسطى وعصر النهضة بهدف التوصل إلى الاتجاهات الرئيسية ، وقيم وتصور العالم عند حاملى هذه الثقافات ، ويقوم هذا المنهج على افتراض أن الأفراد يسقطون اتجاهاتهم الرئيسية وقيمهم فى فنون الرسم والموسيقى والنحت والعمارة والآداب ، وهكذا يتمثل هذا المنهج فى تفسير تلك الفنون بهدف الوصول إلى القيم والاتجاهات الرئيسية التى ترمز إليها .

وفى دراسة مقارنة بين الثقافة الأمريكية والثقافة الصينية حلل الأنثروبولوجى « فرانسيس هسو » اللوحات الفنية الأمريكية والصينية ، وركز اهتمامه على المضمون دون الأسلوب ، ولاحظ « هسو » كثرة الأشخاص فى الرسوم الأمريكية وقلتهم فى الرسوم الصينية ، وفى حالة وجودهم فى الرسوم الصينية ، لا يمثلون الموضوع الرئيسى فى اللوحة وإنما موضوعات فرعية ، وتغلب على اللوحة المناظر الطبيعية ، هذا بالإضافة إلى أنهم لا يعبرون عن أية حركة وتكون وجوههم خالية من التعبير أو الانفعال . وكذلك تخلو لوحات الصينيين من الإيحاءات الجنسية ، ولكن توجد تلك الإيحاءات فى صورهم الإباحية .. ويختلف الوضع تماماً فى اللوحات الأمريكية حيث يركز الاهتمام على رسم الأشخاص ، وتوضح التعابير والعواطف على الوجوه ، وتوجد إيحاءات جنسية فى تلك الرسوم . ويستنتج « هسو » من تلك المقارنة أن الثقافة الغربية عامة والثقافة الأمريكية خاصة هى ثقافة متمركزة حول الفرد ، وتضفى أهمية

---

(١) Barnouw, V., A-psychological Interpretation of a Chippewa Origin Legend, Journal of American Folkore, Vol. 68, No. 267, 1955, PP. 73 - 85.

(٢) د. حسن الساعاتى : حكمة لبنان ــ من منشورات جامعة بيروت العربية ــ بيروت ١٩٧١ .
د. حسن حنفى : التفسير الدينى وازدواجية الشخصية ــ مجلة الفكر المعاصر العدد ٥٠ ــ القاهرة ١٩٦٩ .
د. عزت حجازى : الشخصية المصرية بين السلبية والإيجابية ــ مجلة الفكر المعاصر ــ العدد ٥٠ القاهرة ١٩٦٩
د. سيد عويس : من ملامح المجتمع المصرى المعاصر ــ دار مطابع الشعب ــ القاهرة ١٩٦٥ .
د. شوقى عبد الحكيم : أساطير وفولكلور العالم العربى ــ روز اليوسف ــ القاهرة ١٩٧٤ .

(٣) Huiziuga - Friedel - Pevsner - Sypher.

كبرى على ميول الفرد ورغباته . أما الثقافة الصينية فهى ثقافة متمركزة حول الموقف . وتؤكد أهمية إدراك الفرد لمكانه الصحيح بالنسبة للآخرين . وهكذا فإن مركز الفن الأمريكى هو الرجل أو المرأة كفرد أما فى الفن الصينى فإن الموضوع الهام هو مكان الفرد فى الشكل الخارجى للأشياء . وبينما يعكس الفن الأمريكى الاضطراب الداخلى عند الفرد. لا يعبر الفن الصينى عن انفعالات الفرد. وكذلك لاحظ « هسو » وجود هذين النمطين المتعارضين فى آداب الثقافتين . فبينما تصف القصص الصينية السلوك الخارجى . تهتم القصص الأمريكية بأفكار وعواطف الشخصيات . وهكذا فإن الآداب الغربية يغلب عليها الصفة الإسقاطية بصورة أقوى من الآداب الصينية . وتتميز القصص الأمريكية بأن التقاء البطل بالبطلة والفوز بها هو قمة ونهاية قصة الحب . وفى سبيل تحقيق هذا الالتقاء تظهر الكثير من الصعاب . وتتولد الكثير من العواطف فى عملية التغلب على تلك الصعاب . أما فى القصص الصينية . فإن موضوع التقاء البطل بالبطلة والفوز بها يعتبر أمراً عرضياً ويحدث غالباً فى أول القصة ، ولا يمثل نهايتها أو قمتها[1] .

ومن أهم دراسات الثقافة والشخصية التى اعتمدت على دراسة الفن دراسة العلامة « والاس » لفن جماعات « مايا » من الهنود الحمر ؛ وقد استطاع التوصل عن طريق دراسة الفن فى تلك الجماعات إلى تحديد القيم الأساسية وسمات الشخصية المنوالية[2] .

اهتم بعض الأنثروبولوجيين بدراسة العلاقة بين الفن والشخصية عن طريق دراسة الثقافات التى تتشابه فيها الأساليب المطبقة فى الفن والبحث عن وجود سمات متشابهة فى شخصيات حاملى تلك الثقافات ، فمثلا تتميز فنون جماعات « مايا » وجماعات « بالى » بخاصية مشتركة وهى الإفراط فى الزخرفة أو الأسلوب الباروكى . وفى الوقت نفسه نجد تشابها فى خصائص الشخصية المنوالية فى تلك الجماعات ويتمثل هذا التشابه فى الحرمان من الرعاية الكافية من الأم عند الصغر . وعدم توافر الروابط العاطفية مع الآخرين وانتشار سمة الانطواء فى شخصيات الأفراد .

وجدير بالذكر فى هذا المجال الإشارة إلى المسح الثقافى المقارن الذى قام به العلامة « هيربرت بارى » ودرس فيه الفن التصويرى لثلاثين مجتمعاً بدائياً . وكان العالمان « هواتينج » و «تشايلد » قد جمعا مادة عن التنشئة الاجتماعية من هذه المجتمعات ، فحص العلامة « بارى » ٥٤٩ لوحة من رسوم تلك المجتمعات . ولاحظ وجود ترابط بين خاصية الأسلوب المعقد فى الفن وظاهرة صرامة نظم التنشئة الاجتماعية ، ويفسر هذا الترابط على أساس أن صرامة نظم التنشئة الاجتماعية تضغط على الأفراد وتدفعهم إلى الاعتماد على النفس واستقلال السلوك ، وليس إلى الخضوع وتبعية السلوك ؛ فى تلك

(١) Hsu, F., Americans and Chinese : Two Ways of Life, Henry Schuman, N.Y. 1953, P. 21.

(٢) Wallace, A., A Possible Technique for Recognizing Psychological Characteristics of the Ancient Man from an Analysis of Their Art, American Imago, Vol. 7, 1950, P. 255.

المجتمعات يتعلم الفرد منذ الصغر كيف يعتمد على نفسه ، ويعاقب فى حالة اعتماده على الآخرين[١] .

وبرغم وجود مثل تلك الدراسات التى تعتمد فى دراستها للسمات النفسية للجماعة قيد البحث على تحليل فن تلك الجماعة : فإن هذه الطريقة فى البحث ليست منتشرة ، وإن كان بدأ مؤرخو الفنون والفنانون تطبيقها فى دراساتهم .

سابعاً ــ الدراسات الترابطية[٢] :

اعتمدت بعض دراسات الثقافة والشخصية على سجلات مناطق العلاقات الإنسانية[٣] ، فمثلا استعانت العلامة « ديبوا » بتلك السجلات فى دراستها المكثفة لثقافة جماعة ألور ، واعتمدت العلامة «بينيديكت» على تلك السجلات فى دراستها المقارنة الشهيرة « نماذج من الثقافة » ، وكذلك استعانت بتلك السجلات العلامة « مير » فى دراستها المقارنة المعروفة « النوع والمزاج » ؛ ويتلخص هدف تلك المسوح فى الوصول إلى تعميمات عن طريق دراسة ظاهرة معينة فى عدد من الثقافات المختارة من مناطق ثقافية مختلفة فى العالم ، وعادة تبدأ تلك المسوح بوضع فرض معين ثم يستعان بتلك السجلات فى الحصول على المادة الثقافية التى تؤيد أو ترفض هذا الفرض ، ولا يحتاج هؤلاء البحاث إلى القيام بالأبحاث الميدانية ، وإن كان قام بعضهم بتلك الأبحاث ، وإنما يعتمدون فى الحصول على المادة اللازمة على سجلات مناطق العلاقات الإنسانية (تختصر باللغة الإنجليزية إلى HRAF) ، وقد قام بجمع تلك السجلات الهامة جامعة ييل الأمريكية بمعاونة عدة جامعات أمريكية أخرى ، ويعرف هذا المشروع العلمى المفيد باسم مسح ييل الثقافى المقارن[٤] ، ويتكون من مجموعة هائلة من السجلات التى تضمن مادة إثنولوجية لعدد كبير من ثقافات العالم يبلغ عددها عدة مئات مختارة من مناطق ثقافية مختلفة ، ولقد نظمت وصنفت تلك المادة الهائلة بأسلوب علمى دقيق يجعل استخدامها والانتفاع بها أمراً سهلا وميسوراً للعلماء ، فيمكن جمع المادة الخاصة بوسائل الصيد البحرى المطبقة فى عدد كبير من الثقافات فى لحظات وبجهد قليل ، وهكذا يوفر هذا المشروع جهد الأنثروبولوجيين الذى يبذل فى الحصول على المادة الثقافية اللازمة لمسوحهم المقارنة ، ويساعد كذلك على انتشار الدراسات الترابطية التى تعالج العلاقات الترابطية بين الأنماط الثقافية فى المجتمعات المختلفة .

ومن أمثلة دراسات الترابط بين الأنماط الثقافية فى عدة ثقافات دراسة الأنثروبولوجية « بياتريس

---

(١) Barry III, H., Relationships between Child Training and the Pictorial Arts, Journal of Abnormal and Social Psychology, Vol. 54, P. 1957, P. 382.

(٢) Correlational Studies.

(٣) Human Relations Area Files.

(٤) Yale Cross - Cultural Survey.

هوايتنج» الخاصة بوجود ترابط بين انتشار ظاهرة الخوف من السحر وصرامة الضبط الاجتماعى فى كثير من ثقافات الهنود، وخاصة فى المجتمعات « المبعثرة الأجزاء »[١] فى تلك المجتمعات يهتم الآباء فى العائلات الممتدة بتربية أطفالهم تربية صارمة تتمثل فى منع السلوك العدوانى خوفاً من تعرض الفرد لسحر الآخرين أو من اتهامه بممارسة أعمال سحرية ضد الآخرين. ولذلك يمنع الكبار الصغار من الضحك بصوت عال ومن السخرية من الآخرين ويطلبون منهم أن يكونوا دائماً مؤدبين وأن يتحدثوا مع الآخرين برقة بالغة . ولكن لا يمنع ذلك الضبط الاجتماعى الصارم من وجود اتجاهات عدوانية داخل الأسرة ذاتها . ومن أمثلة ذلك ضرب الأزواج لزوجاتهم وانتشار الانتحار[٢] .

ودرس العلامة « هورتون » وظائف الخمر فى المجتمعات البدائية واعتمد فى تلك الدراسة على مادة ثقافية مأخوذة من سجلات مناطق العلاقات بالإنسانية . ويؤكد « هورتون » أن الوظيفة الرئيسية لتعاطى الخمور فى المجتمعات البدائية هى تهدئة القلق . هذا بالرغم من أن القلق العكسى قد ينتج من السكر ، وذلك لتعرض السكارى للعقاب لما يقترفونه من مخالفات وجرائم أثناء السكر . وضع « هورتون » ثلاثة فروض ، وفحص مدى صحتها بالرجوع إلى سجلات مناطق العلاقات الثقافية : يقرر الفرض الأول أن شرب الخمر يصاحبه عادة انطلاق للدوافع النفسية والعدوانية ، ويحدد الفرض الثانى أن مدى قوة الميل للشراب تتأثر مباشرة وبصورة قوية بمستوى القلق فى المجتمع قيد البحث : أما الفرض الثالث فيقرر أن مدى قوة الميل للشراب تتأثر بصورة عكسية بقوة القلق العكسى الذى ينتج من الخبرات الأليمة التى يتعرض لها المدمن أثناء وبعد الشراب . ويرجع « هورتون » للمعلومات الخاصة بتعاطى الخمور فى ٥٦ مجتمعاً مختلفين ثقافياً ، وتبين له تنوع مصادر القلق فى تلك المجتمعات ، ولاحظ أن أهم تلك المصادر هى الحرمان الاقتصادى[٣] وحالات الامتزاج الثقافى[٤] ، وصنف تلك المجتمعات إلى ثلاث مجموعات على أساس ضعف أو شدة الحرمان الاقتصادى : مجموعة (أ) ، وفيها المجتمعات التى تعانى من حرمان اقتصادى مرتفع ، ومجموعة (ب) ذات الحرمان الاقتصادى المتوسط ، ومجموعة(ج) تقل فيها درجة الحرمان الاقتصادى ، ثم قام بتصنيف تلك المجتمعات إلى ثلاث مجموعات أخرى على أساس شدة أو ضعف الميل للشراب عند الرجال : فتمثل المجموعة (د) المجتمعات ذات الميل القوى للشراب ، والمجموعة (هـ) المجتمعات ذات الميل المتوسط للشراب ، أما المجموعة (و) فتشمل المجتمعات ذات الميل البسيط للشراب ، وقد اكتشف وجود ترابطات بين المجموعة (ا) والمجموعة (د) وبين المجموعة (ب) والمجموعة (هـ) وبين المجموعة (ج) والمجموعة (و) وبالتالى يقرر صحة الفرض الثانى .

---

(١) Atomistic Societies.

(٢) Whiting, B., Paiute Sorcery, Viking Fund Publications in Anthropology, No. 15, N.Y. 1959, P. 13.

(٣) Subsistenc insecurity.

(٤) Acculturation.

وكذلك لاحظ « هورتون » أن المادة الثقافية الخاصة بالمجتمعات السابقة تبين تتابعاً معيناً فى صور السلوك التى تحدث فى أثناء وبعد الشراب عند الرجال ، ففى المراحل الأولى من الشراب يسود الجماعة الود والجو المرح ولكن فى المراحل المتأخرة يتعارك السكارى ويتشاجرون ، ولاحظ كذلك عدم انتشار عادة تعاطى الشراب عند النساء. وفى كثير من المجتمعات تخفى النساء الأسلحة لكى لا يستخدمها الرجال عندما يتشاجرون فى حالة السكر ، ويبين « هورتون » أن معظم الجماعات البدائية التى ينتشر فيها عادة الشراب يسودها التتابع السابق لصور السلوك فى أثناء وبعد الشراب مما يؤكد صحة الفرض الأول الخاص بأن الاتجاهات العدوانية التى تكبت فى الحالات العادية تطلق فى حالة السكر [١] .

ولكن فى مسح ثقافى مقارن آخر أكثر حداثة من دراسة هورتون قرر العلامة « فيلد » عدم اقتناعه بصحة نظرية ترابط القلق وتعاطى الشراب سابقة الذكر ، وذلك لأنها لا تشرح لماذا يختار مدمن الشراب هذه الوسيلة لإنقاص القلق ، ويهمل ميكانيزمات أخرى تحقق الوظيفة نفسها ، وكذلك يعارض « هورتون » فى قوله بأن حالات الامتزاج الثقافى من أهم مصادر القلق ، وذلك لأنه لاحظ أنها تؤدى — على العكس — إلى إنقاص القلق ، وذلك عن طريق توفير حلول جديدة لمشاكل قديمة أو عن طريق إقلال مشاعر الخوف من قوى غيبية وتوصل « فيلد » فى نهاية مسحه إلى إرجاع شدة الميل لتعاطى الشراب إلى وجود تنظيم اجتماعى غير رسمى يتميز بحرية الأفراد واستقلالهم وضعف الضبط الاجتماعى ، ولذلك تنتشر حالات السكر فى المجتمعات المتنقلة التى تعتمد على الصيد والجمع وتقل فى المجتمعات المستقرة الثابتة التى تقوى فيها سلطات الجماعات القرابية والتى تمتلك الأرض مصدر الرزق ، ولاحظ كذلك أن المجتمعات التى من خصائصها نظام السكنى مع والد الزوج ومهر العروس تتميز بعدم انتشار عادة السكر ، وهكذا يؤكد « فيلد » أن مثل تلك العوامل الاجتماعية هى أكثر دلالة فى تفسير ظاهرة تعاطى الشراب من عامل القلق [٢] .

وفى مسح ثقافى مقارن آخر يقرر ثلاثة علماء أن المجتمعات الزراعية تتميز بالخضوع التام للروتين ولذلك يخشون التجديد وتؤكد نظم تربية الأطفال فيها أهمية الخضوع للكبار ، فى حين تتميز مجتمعات الصيد البرى والبحرى بأهمية المبادرة الفردية ، ولا يخاف الأفراد من التجديد بنفس الدرجة السابقة نفسها ، وتؤكد نظم تربية الأطفال فيها على أهمية الاعتماد على النفس والمبادرات الفردية [٣] . وقد تابع العلامة « داندراد » الدراسة السابقة بمسح ثقافى مقارن لظاهرة الأحلام ، وافترض أن

---

(١) Horton, D., The Functions of Alcohol in Primitive Societies : A Cross - Cultural Study, Quarterly Journal of Studies on Alcohol, Vol. 4, 1943, PP. 230 - 279.

(٢) Field, P., A New Cross - Cultural Study of Drunkness, in Pittman, D. and Synder, Ch. (eds). Society, Culture and Drinking Patterns, John Wiley, Sons, N.Y. 1962, PP. 48 - 47.

(٣) Barry III, H., Child, I. and Bacon, M., Relation of Child Training to Subsistence Economy, American Anthropologist, Vol. 61, 1959, PP. 51 - 63.

المجتمعات التى تعتمد على الصيد البحرى والصيد البرى تميل بصورة أقوى من المجتمعات الزراعية إلى استخدام الأحلام لاكتساب قوى غيبية . ويفسر هذا الفرض من ناحية أن مشقة الحصول على الطعام فى مجتمعات الصيد والقلق الناتج من عدم توافره دائمًا ومن المعيشة فى جماعات صغيرة منعزلة ومن اعتماد الفرد على نفسه فى توفير الطعام يؤديان إلى الاتجاه إلى الأحلام والتخيلات للحصول على قوى سحرية مساعدة ، ولا توجد العوامل السابقة فى المجتمعات الزراعية المستقرة . وبالتالى تقل فيها الحاجة إلى تلك القوى الغيبية . وقد أثبتت سجلات مناطق العلاقات الإنسانية الفرض السابق . فبينما تستخدم ٨٠ ٪ من مجتمعات الصيد الأحلام بهذه الصورة . فإن ٢٠٪ فقط من المجتمعات الزراعية تستخدمها كوسيلة لاكتساب قوى غيبية[1] .

وبالإضافة إلى الدراسات السابقة توجد دراسات أخرى هامة تتبع أسلوب المسح الثقافى المقارن لإثبات وجود ترابطات بين الأنماط الثقافية المختلفة . ولا يمكن إغفال دراسة العالمين «هوايتنج» و«تشايلد» الخاصة بدراسة العلاقة بين نظم تربية الأطفال والعادات المرتبطة بعلاج الأمراض[2] .

وأخيراً ، يجب ملاحظة أن طريقة البحث السابقة قد تعرضت للكثير من النقد ، فمثلا القول بأن الترابطات الإحصائية كثيراً ما تعبر عن علاقات عارضة ومن الخطورة بمكان تصور أن كل علاقة ترابطية تمثل علاقة علية حقيقية ، ولذلك يجب عند استخدام هذه الطريقة ملاحظة أن الترابطات لاتتكلم عن نفسها ، وإنما يجب التأكد من وجود أو عدم وجود علاقة علية خلف الترابط قيد البحث . ولكن من مميزات الدراسات الترابطية إتاحة الفرصة لصياغة الفروض ثم الرجوع إلى المادة الثقافية لفحص تلك الفروض . وبانتهاء الدراسات الترابطية نصل إلى نهاية طرق البحث التى تستخدمها أبحاث الأنثروبولوجيا النفسية .

نماذج من الأبحاث

يمكن تقسيم أبحاث الثقافة والشخصية إلى أقسام عدة تبعًا للأسس المستخدمة فى التقسيم ، ومن أهم تلك التقسيمات التفرقة بين الأبحاث المطبقة فى المجتمعات البدائية وتلك المطبقة فى المجتمعات المتمدينة ، ولذلك اختار المؤلف مجتمعاً بدائيًّا ومجتمعاً متمديناً ، أما المجتمع البدائى فهو جماعات تشيبيوا من الهنود الحمر بأمريكا الشمالية وقد أجريت على تلك الجماعات العديد من أبحاث الثقافة والشخصية واختلفت وجهات النظر فى تحليل المادة الثقافية والنفسية ، وفيما يتعلق بالمجتمع المتمدين ، لا يمكن للمؤلف أن يغفل دراسة الشخصية المصرية فى كتاب متخصص فى الثقافة والشخصية ،

---

(١) D'Andrade, R., Anthropological Studies of Dreams, in Hsu, F., (ed)., Psychological Anthropology, The Dorsey Press, Inc., Homewood, 1961, PP. 325 - 356.

(٢) Whiting and Child, Child Training and Personality : A Cross - Cultural Study, Yale Uni. Press, New Haven 1953.

وذلك لأهمية هذا الموضوع من ناحية ولكثرة الأبحاث الحديثة التى تناولت الشخصية المصرية بالتحليل من ناحية أخرى، وقد خصص الفصل السابع لدراسة الشخصية المصرية التقليدية، والهدف من هذا الفصل هو إعطاء القارئ العربى فكرة واضحة عن بعض نماذج أبحاث الثقافة والشخصية وبالتالى يجمع بين دراسة المبادئ الأساسية للأنثروبولوجيا النفسية ودراسة بعض نماذج من أبحاثها .

أولا ـ ثقافة جماعات تشيبوا :

جماعات تشيبوا[١] هى أكبر جماعات الهنود الحمر عدداً . وتعيش البقية الباقية منهم فى ولايات ميتشيجان وويسكونسن ومينيسوتا وداكوتا الشمالية ومونتانا بالولايات المتحدة الأمريكية وفى ولايات أونتاريو ومانيتوبا وساسكا تشوان بكندا .

وقد أجريت على تلك الجماعات عدد كبير من أبحاث الثقافة والشخصية ، واستخدمت فى تلك الأبحاث معظم طرق البحث الخاصة بالأنثروبولوجيا النفسية، ومن أمثلة ذلك تحليل السير الذاتية وتحليل الرسوم والاختبارات الإسقاطية وخاصة اختبار رورشاخ واختبار تفهم الموضوع ، ويمكن القول أنه لا توجد جماعة بدائية أخرى قد تعرضت للدراسة من جانب عشرين عالماً أو يزيد، ونذكر منهم على سبيل المثال لانديس وهالوويل وجيلين ورامى[٢] .

عاشت تلك الجماعات قديماً فى إقليم البحيرات العظمى بقارة أمريكا الشمالية وكان أفرادها يعتمدون فى معيشتهم على الصيد البرى والبحرى بصورة رئيسية ، وعلى بعض الزراعات القليلة بصورة فرعية ، فقد كانوا يزرعون محاصيل بسيطة من الذرة والقرع فى الصيف ، ويحصدون الأرز البرى فى الخريف ، ويجمعون السكر من أشجار القيقب فى الصيف .

تعيش تلك الجماعات فى معاشر صغيرة مبعثرة وشبه منعزلة بعضها عن بعض، ولذلك تسمى بالمجتمع التجزيئى أو المبعثر[٣] ؛ ولم تصل تلك الجماعات فى بنائها الاجتماعى إلى مستوى القبيلة ، والمجتمع التجزيئى هو المجتمع الذى لا يصعب على وحداته المكونة له أن تنفصل وتعيش بعيداً بعضها عن بعض، ولذلك فمن خصائصه ضعف السلطة السياسية وعدم وجود أجهزة تجديد وتدعيم التماسك الاجتماعى ، وهكذا عاشت جماعات تشيبوا فى معاشر صغيرة متنقلة من مكان إلى آخر بحثاً عن الصيد البرى والبحيرى . وكانت تتجمع فى الصيف فقط فى صورة قرى صغيرة تتكون الواحدة من حوالى اثنتى عشرة عائلة ، ولكن ،

---

(١) Chippewa Or Ojibwa.

(٢) Ruth Landes, A.I. Hallowell, John Gillin, Victor Raimy, Ernestine Friede, Victor Barnouw, William Caudill Blanche Watrous, Alan C. Kerkhoff, Thomas G. McCormick - Bernard James, Stephen T. Boggs, Morris Teicher, and Saymour Parker.

(٣) Atomistic Society.

ما إن يحل الخريف إلا وينفرط عقد تلك القرى ، إذ تتحرك العائلات فى إتجاهات مختلفة لجمع الأرز البرى . ويستمر تفرقهم فى الشتاء كذلك ، وذلك لندرة الطعام . ولذلك يضطرون إلى التفرق حتى يحصلوا على أكبر قد ممكن من الصيد البرى والبحرى الذى يندر فى فصل الشتاء . ويبدو أن هذا التفرق يمثل ضرورة لاستمرار بقائهم ، لأنه يصعب توفير الطعام الكافى فى حالة تجمعهم فى هيئة قرى مستقرة على قطعة أرض صغيرة . ومع الربيع تتحرك العائلات إلى مناطق بساتين القيقب فى الجنوب لاستخراج سائل يصنعون منه السكر . ويتجمعون فى هيئة قرى فى الصيف حيث يتوافر الطعام لإطعام التجمعات الكبيرة نسبياً ، وذلك لوفرة الصيد البرى والبحرى فى الصيف وسهولة الحركة لاعتدال المناخ . ويجب ملاحظة أن تلك القرى الصيفية هى قرى متنقلة أيضاً ، أى أن مواقعها ليست ثابتة . وكذلك يطرأ عليها تغيرات فى عدد سكانها ، ومن أسباب تغيير المواقع انتشار الأمراض ونشوب القتال بين قرية وأخرى وزيارة أقارب المصاهرة وأوامر القوى الغيبية ، وتبرز خصائص انعدام التماسك الاجتماعى والتعاون الجماعى والاستقرار الاجتماعى عند مقارنة جماعات تشيبوا بقبائل السهول مثل قبيلة تشيين[1] . تعيش قبائل السهول من الهنود الحمر فى قرى مستقرة ودائمة ، ويسودها التماسك الاجتماعى التابع من تنظيم سياسى متطور ، إذ يحكم القبيلة مجلس يتكون من رؤساء العشائر ، ويعاونه جهاز من الجنود يؤدى وظيفة القوة البوليسية بالإضافة إلى حماية القبيلة من هجمات الأعداء . لا يوجد مثل تلك التنظيمات فى جماعات تشيبوا ولا توجد بها الرموز الدالة على وحدة الجماعة مثل السهام الطبية أو القبعة المقدسة الموجودة فى جماعة تشيين ، ولا يخرج التعاون الاقتصادى فى تشيبوا عن نطاق الأسرة الصغيرة ولذلك لا تتكون فيها فرق الصيد الجماعى التى تلعب دوراً هاماً فى اقتصاد قبيلة تشيين ويصل الأمر بجماعات تشيبوا إلى عدم وجود الاحتفالات الدينية التى تقام لمصلحة الجماعة ككل . ولا توجد جمعيات لرجال الطب ، وإنما يمارس الطب بصورة فردية . ويبدأ الطفل فى سن الرابعة أو الخامسة فى البحث عن روح حارسة لحمايته ، وعندما يحصل الفرد على روح حارسة له عن طريق الأحلام والرؤى ، يبدأ فى ممارسة الطب بصورة فردية . وتتبع جماعات تشيبوا نظام التسلسل القرابى الأبوى ، ولذلك تتكون عشائر أبوية ، ولكن تقتصر وظيفة تلك العشائر على تنظيم الزواج ، ويتبعون فى ذلك نظام الزواج من خارج العشيرة الأبوية التى ينتمى إليها الفرد . ولا تلعب تلك العشائر أى دور فى النشاط الدينى أو السياسى . ويتفق الرأى على أن صعوبة الحصول على الطعام هى التى فرضت عليهم التنقل وعدم الاستقرار وعدم تكوين عشائر وقبائل بالمعنى الدقيق للمصطلحين .

ولكن حدثت تغيرات فى ثقافة تلك الجماعات بعد اكتشاف الأمريكتين واتصالهم بالرجل الأبيض وخاصة بتجار الفراء ، وتشمل تلك التغيرات بعض العناصر المادية ، فقد استعاروا البنادق والشراك والقماش والدقيق والشاى والخمور وما إلى ذلك ، ولكن لم يحدث تغيير فى النسق الاقتصادى وهو الصيد البرى والبحرى . وكذلك لم يحدث تغيير فى النظم الدينية والقرابية ، ولم يطرأ تغيير على

(١) Cheyenne.

بحركاتهم الموسمية وعلى البناء الاجتماعى التجزيئى . بل يمكن القول أن اتصالهم بتجار الفراء واهتمامهم بالحصول على كميات كبيرة من الفراء جعلتهم يزدادون فى التبعثر والتفرق فى مناطق بعيدة للحصول على أكبر كمية من الصيد البرى ، وقد حدث بعض الاختلاف فى تحديد مدى قدم النظام التجزيئى فى تلك الجماعات ، إذ يرى البعض أن هذا النظام مستحدث بعد اكتشاف الأمريكتين واتصال تلك الجماعات بتجار الفراء ، ولكن الرأى الأكثر ترجيحا يرجع هذا التنظيم الاجتماعى إلى عصور قديمة قبل اكتشاف الأمريكتين . ومما يدعم هذا الرأى أن نظام الصيد وندرة الحيوانات فى الشتاء . وهما العاملان الأساسيان لظهور البناء الاجتماعى التجزيئى ، من العوامل القديمة جداً .

وننتقل الآن إلى عرض بعض أبحاث الثقافة والشخصية التى أجريت على تلك الجماعات والنتائج التى توصلت إليها .

أولا — بحث روث لاندز :

ترى الأنثروبولوجية «لاندز» أن نظام الصيد البرى يؤثر بقوة فى شخصيات أفراد تلك الجماعات ، ومن أهم خصائصها الشعور القوى بالملكية الفردية ، وقد يتصور الباحث أن كل فرد فيها يملك منطقة صيد خاصة به ، ويحددون تلك المناطق بجذوع الأشجار ، ويطلقون النار على الغرباء الذين يدخلون تلك المناطق ، وفى أحسن الأحوال يعاقبونهم عن طريق إجبارهم على شرب سوائل ضارة وسامة . وترتب على قوة الشعور بالملكية الفردية انعدام الكرم فى تلك الجماعات فلا يوجد بها أى عادات خاصة بكرم الضيافة . وعندما يزور الأبناء الكبار آباءهم يعاملون معاملة الزائرين العاديين ، فلا يقدم لهم شىء من الطعام أو الهدايا ، ولا يقدم لهم شىء إلا إذا طلبه الأبناء صراحة ، وفى تلك الحالة يكون من المتوقع رد تلك الهدايا إلى الآباء(١) .

وكذلك لاحظت « لاندز » أن الأسرة الصغيرة من خصائصها التفكك وعدم الاستقرار ، برغم أنها مركز الإخلاص والانتماء فى ثقافة تلك الجماعات ، وتستدل على ذلك من كثرة الخيانات الزوجية وحالات الهرب والانفصال والمشاجرات حول النساء . وتنمو فى تلك الظروف الاجتماعية والثقافية شخصية تتسم بالانعزالية ، ويسود تلك الجماعات اتجاهات محافظة ، فالتعبير المكشوف عن العواطف من الأمور المحرمة فى تلك الجماعات . ويوجد عزل ملحوظ بين الإخوة والأخوات فى الأسرة الواحدة . وتتميز شخصية الفرد بالاستقلال والاعتماد على النفس ، ويرجع ذلك إلى تركز الاهتمام فى تدريب الطفل حول الاستقلال ، فمنذ الصغر يتعلم الأطفال أن الحياة هى معركة تتصارع فيها قوى كبيرة للحصول على قطعة من اللحم أو قطعة من الجلد تستخدم كغطاء ، فالحياة معركة وعلى الطفل أن يحارب فيها وحده لكى يعيش ، وذلك لأن كل فرد آخر مشغول مثله بمعركة الحياة . وعندما يبلغ الطفل الثالثة من عمره يكون قد تعلم صيد بعض الطيور وقتلها ، وبعد سنوات قليلة يتعلم صنع مصايد بسيطة ، وبعد ذلك

(١) Landes, R., The Personality of the Ojibwa, Character and Personality, Vol. 6, 1937, P. 59.

بقليل يخرج الولد مع أبيه فى رحلات الصيد . وعند بلوغ الثانية عشرة من عمره يكون قادراً على ترك مسكن والده والصيد فى أراض خاصة به ؛ ويمكن تلخيص شخصية عضو جماعة تشيبوا فى أنها شخصية انعزالية وفردية وعدوانية وقلقة . ولا يوجد عندهم أى شعور بالمسئولية نحو الجماعة أو أى مشاعر بالانتماء إلى الجماعة . ويرجع القلق إلى تذكر الفرد دائماً بقدوم فصل الشتاء القارس البرودة وندرة الصيد فى هذا الفصل ، وإلى خوفه الدائم من هجوم الآخرين على منطقته وحرمانه من مورد رزقه ، ولا يتكلم أعضاء تشيبوا بصراحة إلا فى حالة السكر . ويحاول كل فرد معرفة مشاعر ونوايا الآخرين دون أن يعبر عن مشاعره ، ولا يثق الفرد فى أصدقائه فى تلك الجماعات . وتقوى تلك الاتجاهات العدوانية كلما كبر الفرد فى العمر . وتصل أعلى درجاتها عند الشامان أى الكاهن . إذ يحتقر الكاهن جميع الأفراد الآخرين ، ولا يعترف بوجود شخص صالح فى الوجود ؛ ولا يبدى أى نوع من المودة فى التعامل مع الآخرين ؛ بل إنه يرفض الاستجابة للابتسامة من طفل صغير . ويترتب على هذه الاتجاهات شعور قوى ومتطرف بالأنا ، ويتضح هذا الشعور من الاتجاهات العدوانية نحو الآخرين ومن الرغبة فى السمو ، ومن مظاهر الشعور القوى بالأنا انتشار أوهام العظمة بين أعضاء تلك الجماعات وقد تنتاب بعضهم هيستيريا العظمة [١] .

وقد تعرض التحليل السابق لبعض النقد ؛ فقد اعتبره بعض المحللين الآخرين تصويراً مبالغا فيه [٢] .

ثانياً — بحث هالوويل .

يعد «هالوويل» من أكبر المتخصصين فى مجال الثقافة والشخصية . وكذلك من الرواد فى تطبيق اختبار رورشاخ على المجتمعات البسيطة بنجاح كبير ، وقد نشر أبحاثه عن جماعات تشيبوا فى مجموعة من المقالات وجمع بعضها فى كتابه الشهير الثقافة والخبرة . وتتميز أبحاثه بالدقة وعدم المبالغة ، ولم يهتم «هالوويل» بتحديد جوانب ثقافة تلك الجماعات ؛ وإنما ركز اهتمامه على بحث النتائج الاجتماعية المترتبة على بعض المخاوف ومشاعر القلق المحددة ثقافياً فى تلك الجماعات . ومن النتائج التى وصل إليها انتشار مشاعر القلق والخوف من المرض . عندما يمرض الشخص يفسر هذا المرض على أنه نتيجة لسلوك سيئ ارتكبه أو لخطيئة ارتكبها الآباء ، وكذلك يرجع المرض للسحر الذى يقوم به شخص تعرض للإيذاء فى الماضى ، فينتقم عن طريق ممارسة أعمال سحرية تؤدى إلى مرض الشخص الذى بدأ بالإيذاء . وفى حالة تفسير المرض عن طريق إرجاعه إلى اقتراف المريض لسلوك سيئ فى الماضى يتعين على المريض أن يعترف بخطئه بصورة علنية ، وبالتالى يقل القلق والشعور بالذنب عنده ،

---

(١) Landes, R., The Ojibwa of Canada, in Mead, M. (ed). Cooperation and Competition Among Primitive Peoples, McGraw - Hill Book Co., Inc.,N.Y. 1937, P. 88 - 105.

(٢) Barnouw, V., Culture and Personality, P. 146.

وتؤدى هذه الاعترافات العلنية وظائف اجتماعية هامة فى تلك الجماعات التى تنعدم فيها السلطة السياسية وعملية الضبط الاجتماعى ، وهكذا تؤدى تلك الاعترافات العلنية وظيفة هامة فى المحافظة على الأمن وفى تقوية ضبط النفس وفى الإقلال من الجرائم ، وذلك لأن مشاعر الخوف من الإصابة بالمرض فى حالة اقتراف الجرائم ثم ضرورة الاعتراف العلنى باقتراف تلك الجرائم ، تكون أكثر فاعلية فى المحافظة على الأمن من العقاب المباشر الذى تفرضه الجماعة على المخطئين (١) . ويقرر « هالوويل » أن شخصيات أعضاء جماعات تشيبوا تتميز بعدم إظهار العداء عند المقابلة وجهاً لوجه ، ولكنها داخلياً مفعمة بالاتجاهات العدوانية وتوجد بعض الاستثناءات التى لا يصاحبها اتجاهات عدوانية داخلية ، ومن أمثلة ذلك تبادل النكات بين أولاد العم ، وإبداء الملاحظات الساخرة والمقلة للشأن بالنسبة للعشائر الأخرى . ولاحظ أيضا أن رقصة الطب التى لا يؤديها إلا أعضاء معينون تعتبر من الوسائل للتنفيس عن الاتجاهات العدوانية المكبوتة ، وذلك للسماح فى تلك الرقصة بتبادل الضربات بسيور جلدية دون خوف من الانتقام فى المستقبل ، وبالتالى لا يعانون من الشعور بالذنب والخوف من المرض . وتقوم الحروب بالوظيفة نفسها ، فمن خلالها يعبر الفرد عن اتجاهاته العدوانية دون أى خوف من الانتقام ، ولكن برغم وجود هذه المنافذ للتنفيس عن الميول العدوانية ، فإن الصفة الغالبة هى كبت الاتجاهات العدوانية ، ولذلك ينظر إلى حالات تبادل الشتائم والتهديدات اللفظية والحركية والاعتداءات الجسيمة بصورة أكثر جدية مما يوجد عادة فى المجتمعات الأخرى ، ولذلك يندر حدوث مثل تلك الحالات ، هذا بالرغم من عدم وجود عقوبات مباشرة فى جماعات تشيبوا لخلوها من مؤسسات الضبط الاجتماعى ، وفى المواقف التى يزداد فيها التوتر والكراهية بين الأفراد ، فإن الأفراد المتنازعين يتجنبون المواجهة وتبادل الاتهامات ، وإنما يصرح كل فرد منهم من وراء ظهر الآخر عن مشاعر الكراهية . ويرجع «هالوويل» انتشار الاتجاه الفردى والتنظيم الاجتماعى التجزيئى إلى قوة الاعتقاد فى السحر وإلى خوفهم من الإيذاء عن طريق السحر . ولذلك يفضلون العزلة والابتعاد وكبت المشاعر العدوانية (٢) .

ثالثاً — بحث بارنو :

أوضح العلامة « بارنو» فى بحثه عن تلك الجماعات (٣) بعض مصادر الخوف والعزلة التى لم تتعرض لها الدراستان السابقتان . فقد لاحظ أن الكثير من المخاوف المباشرة فى تشيبوا يقوم الآباء بزرعها فى نفوس الأطفال من خلال عملية التنشئة الاجتماعية ، وذلك لأن هؤلاء الهنود لا يلجأون فى تربية أطفالهم إلى العقاب ، وإنما يستخدمون أسلوب التخويف ، ومن أمثلة ذلك تخويف الأطفال من بومة

(١) Hallowell, A, Culture and Experience, University of Pennsylvania Press, Philadelphia 1955, PP. 272 & 273.

(٢) Ibid. P. 278.

(٣) Barnouw, V., Acculturation and Personality among the Wisconsin Chippewa, American Anthropological Association Memoir, No. 72, L 950.

عملاقة تخطف الطفل بعيداً فى حالة عدم الذهاب إلى النوم. وتخويفهم من أرواح الموتى التى تنوم فى الخارج . والتخويف من الدببة والثعابين ورجال الطب والأعداء وأرواح تحت الماء . ولكى يزيدوا من فاعلية هذه الوسائل التخويفية يرسمون وجوها مخيفة على الأوانى ، ويضعون أقنعة مخيفة مصنوعة من لحاء الأشجار على الأكواخ . ولايقتصر زرع تلك المخاوف فى نفوس الأطفال على مرحلة الطفولة المبكرة وإنما يستمر الآباء فى زرع مخاوف أخرى فى المراحل التالية . ومن أمثلة ذلك تخويفهم من ملامسة النساء أثناء فترة الطمث على أساس أنها تؤدى إلى الإصابة بالشلل أو الموت . وكذلك تخويفهم من الاتصال بالرجل الأبيض أو بالجماعات الهندية الأخرى . ويرجع « بارنو » استخدام الآباء لأسلوب التخويف إلى فشلهم فى إشباع حاجات أطفالهم للأمان والعاطفة . ويرى كذلك أن اهتمام ثقافة تلك الجماعات بتأكيد استغلال الفرد والاعتماد على النفس، قد أدى بدوره إلى وجود رغبات مكبوتة للتعاون مع الآخرين وللشفقة على الأطفال فى حالات الشدة ، ويمكن اكتشاف مثل تلك الرغبات المكبوتة عن طريق الاختبارات الإسقاطية ، وعن طريق تحليل ظاهرة بحث الأطفال عن روح حارسة عن طريق الأحلام ، وفى تلك الأحلام تظهر للطفل الروح الحارسة وتناديه بالعبارة التالية « ياحفيدى إننى جئت لأشفق عليك » ، وتعنى كلمة « لأشفق » لأرعاك أو لأتبناك . وكذلك، بالرغم من كراهيتهم للرجل الأبيض، فإنهم يدعون تجار الفراء من البيض باصطلاح « أب » ، ويطلقون على الخمر التى يحضرها معهم هؤلاء الرجال اصطلاح « لبن » ، أن استخدام اصطلاح « أب » يدل على رغبة مكبوتة للتعاون معهم والاتصال بهم ، واستخدام اصطلاح « لبن » يدل على وجود حرمان من الإشباع الفمى ، ولكن برغم إعجابهم بنجاح وتفوق الرجل الأبيض ، إلا أنهم يكرهونهم فى الوقت نفسه .

رابعاً — بحث جيمس :

درس العلامة «جيمس» جماعات تشيبوا الجنوبية القاطنة فى مناطق « العزل » ، وهى المناطق التى وضعت حدودها الحكومة الأمريكية لتعيش فيها تلك الجماعات من الهنود الحمر وحدهم بعيداً عن المدن الأمريكية، ولكن تحت إشراف الحكومة الأمريكية التى تقدم لهم المعونات الاقتصادية والتربوية ، وقد حدد أهم سمات شخصيات هؤلاء الهنود الحمر بالقلق والانعزال والاعتماد على النفس وكثرة الاتجاهات العدوانية ، ويرى ضرورة تفسير تلك السمات عن طريق دراسة الظروف الحالية والمواقف الحديثة ، ويعارض تفسير تلك السمات عن طريق الرجوع إلى ثقافتهم الماضية أو التقليدية . ويسمى منهجه فى دراسة شخصية تشيبوا بالاتجاه الموقفى ، ويتمثل فى دراسة المواقف التى تعيشها تلك الجماعات فى الحاضر . وقد تبين له أن سمات شخصياتهم ترجع إلى الحرمان الاقتصادى والفقر واعتمادهم على الإعانات الحكومية وظروف الكبت اليومية المصاحبة للمعيشة فى مناطق العزل، إذ يشعر الهنود الحمر المقيمون فى تلك المناطق بعدم الحرية وبتدخل الحكومة فى شئونهم (١) .

(١) James, B, Some Critical Observations Concerning Analyses of Chippewa Atomism and Chippewa Personality, American Anthopologist, Nol. 56, 1954, PP. 283 - 296.

ويجب ملاحظة أن «جيمس» توصل عن طريق دراسته للمواقف الحاضرة إلى النتائج نفسها التى توصلت إليها الدراسات السابقة عن طريق تحليل الثقافة التقليدية أى القديمة لتلك الجماعات ، فهو يؤكد انتشار وسيادة القلق ، ويستدل على ذلك من اهتمامهم بصيانة حقوق الهنود وكثرة الشكوى من سوء معاملة الحكومة الأمريكية لهم والخوف من الشيوعيين ، ودرس «جميس» كذلك ظاهرة انتشار حالات السكر فى تلك الجماعات ويرى أن السكر يمثل وسيلة للتنفيس عن اتجاهاتهم العدوانية . ويتميز بحث «جيمس» عن الأبحاث السابقة فى اهتمامه بدراسة لنظام «العزل» وتأثيره على شخصية جماعات تشيبوا ، فقد درس منطقة تحفظ تدعى «كورت أوريلس »[١] . وتمثل تلك المنطقة مجتمعاً محليًّا فقيراً ، يكسب معظم سكانه عيشهم عن طريق العمل عند أرباب العمل من البيض فى مدن أمريكية خارج منطقة العزل . ويعامل أصحاب العمل هؤلاء الهنود بشيء من الحذر لتأثرهم بأحكام قبلية تحقر من شأن الهنود ، ولقد قبل هؤلاء الهنود تلك الأحكام بصورة جزئية ، وترتب على ذلك أن كون هؤلاء الهنود صورة ذاتية عن أنفسهم تتسم بالشعور بالنقص . وهكذا ينتهى جيمس إلى تقرير أن الفقر والعنصرية السلالية وحياة مناطق العزل هى المحددات الأساسية لشخصية تشيبوا[٢] .

خامساً ــ بحث فريدل :

أثار البحث السابق مشكلة تفسير استمرار خصائص تشيبوا برغم التغييرات الثقافية الحديثة ، فقد تبين أن تلك الخصائص قد استمرت منذ القدم ، وأن التغييرات الثقافية الحديثة الخاصة المتمثلة فى الاتصال بالثقافة الغربية والمعيشة فى مناطق العزل لم تحدث أى تغيير يذكر فى تلك الخصائص . وحاول بعض العلماء تفسير تلك المشكلة ، فمثلا يرى العلامة « بارنو » أن تلك التغييرات الحديثة لم تحدث تغييرات عميقة وجذرية فى التنظيم الاجتماعى وبناء العائلة ، وإنما أحدثت تغييرات سطحية تتمثل فى تقديم بعض المعونات وتعيين بعض الرؤساء ، ولذلك لم تؤثر تلك التغييرات الطفيفة فى خصائص شخصية تشيبوا[٣] .

ولكن العلامة «فريدل» يقدم تفسيراً ثانيا للمشكلة السابقة ، فهو يرى أن المفتاح الأساسى لاستمرار خصائص شخصية تشيبوا ، برغم التغييرات الثقافية الحديثة ، يتمثل فى وجود عقيدة أو اتجاه عند جماعات تشيبوا بأن كل تغيير يحدث فى حياتهم يجب قبوله على أنه حالة طبيعية للأمور ، وأن التغيير من طبيعته أن يستمر ، وأن التغيير لا تصاحبه آثار بعيدة المدى وإنما آثار قصيرة المدى ومؤقتة . وهكذا عندما يواجه الفرد فى تلك القبيلة بموقف جديد ، فإنه ينظر إليه على أنه موقف فردى ومؤقت وآنى ولا يترتب عليه التزامات طويلة المدى ، فمثلا الاتفاقات التى يعقدونها مع جيرانهم أو مع البيض ، لا يلتزمون

---

(١) Court Oreilles.

(٢) James, B., Social - Psychological Dimensions of Ojibwa Acculturation, American Anthropologist, Vol. 63, 1961, PP. 221 - 746.

(٣) Barnouw, V., Culture and Personality, P. 155.

بها إلا لفترات قصيرة ثم ينقضونها ، وترتب على ذلك الكثير من المشاكل والحروب . فهم يتصورون أن تلك الاتفاقات والمعاهدات ما هي إلا مواقف فردية غير ملزمة لهم جميعا . وبالتالى يعتقدون إمكانية تغييرها من جانب واحد فى أى وقت . ويرى فريدل أن الفقر استمر فى تلك الجماعات برغم إشراف ومعونة الحكومة الأمريكية ، وإن كان حدث تغيير فى معتقداتهم الخاصة بمصدر الموارد الاقتصادية ؛ فبعد أن كانوا يعتقدون أن مصدرها القوى الغيبية أصبحوا يدركون أن المقومات الاقتصادية مصدرها الحكومة الأمريكية[1] . وهكذا فإن التفسير الذى قدمه فريدل لاستمرار خصائص شخصية تشيبوا برغم التغيرات الثقافية الحديثة يتمثل فى عدم اهتمام تلك الجماعات بتلك التغييرات وعدم الالتزام بها ؛ هذا بالإضافة إلى أن حالة الفقر الشديد التى تفسر الكثير من خصائص شخصية تشيبوا لا تزال موجودة برغم إشراف الحكومة الأمريكية على تلك الجماعات .

سادساً — بحث بوجز :

درس «بوجز» مشكلة استمرار خصائص شخصية تشيبوا برغم حدوث تغييرات ثقافية حديثة ، ويفسرها عن طريق وضع فرض يقول إن الآباء لم يغيروا نظم تربية أطفالهم برغم تلك التغييرات الحديثة ولذلك استمرت خصائص شخصية تشيبوا ، ولفحص هذا الفرض قام « بوجز » بدراسة حقلية لمجتمعين محليين من مجتمعات تشيبوا ، الأول فى كندا والثانى فى ولاية ويسكونسن بالولايات المتحدة الأمريكية ، ويتميز المجتمع الثانى بأنه أكثر اتصالا بالثقافة الغربية الأمريكية من المجتمع الأول ، واستخدم فى دراسته طريقة الملاحظة بالمشاركة واستغرقت ثلاثة عشر شهراً ، وركز اهتمامه على دراسة التفاعل الاجتماعى بين الآباء والأبناء فى عدد قليل من الأسر ، حوالى عشر أسر ، ولاحظ أن المجتمع الأول الأقل اتصالا وتأثراً بالثقافة الغربية الأمريكية يقل فيه التفاعل بين الآباء والأبناء بمقارنته بالمجتمع الثانى . إذا أن حالات التفاعل فيه أقل تكراراً وأقل كثافة بصورة واضحة من مثيلاتها فى المجتمع الثانى ، ولكن الصورة العامة للتفاعل بين الآباء والأبناء فى المجتمعين معا هى قلة حالات التفاعل وعدم عمقها ، ويرجع «بوجز» هذه الحالة إلى حدوث تغييرات أدت إلى ترك بعض الأنماط الثقافية التقليدية ، ومن أمثلة ذلك الأنشطة الاقتصادية التقليدية الهجرة الموسمية للبحث عن موارد الرزق ونظام المهد المتنقل ، الذى يتكون من لوح من الخشب يربط عليه الطفل وتحمله الأم فى كل مكان تذهب إليه ، ونظام الرضاعة الطبيعية ونظام أخذ الطفل إلى كل مكان تذهب فيه الأم ، أدت التغييرات الحديثة التى حلت محل تلك الأنماط الثقافية القديمة إلى عدم مصاحبة الأطفال لأمهاتهم فى تنقلاتهم خارج المنزل ، وبالتالى انخفض معدل حالات التفاعل ، إذ تترك الأمهات أطفالهن فى المنزل فى رعاية الآخرين الذين يرضعونهم باستخدام زجاجة اللبن ، وكذلك لم يعد الآباء يشعرون بالحاجة إلى تعليم الأطفال

(١) Friedl, E., Persistence in Chippewa Culture and Personality, American Anthropologist, Vol. 58, 1956. P. 816.

مهارات وفنون الصيد لاعتمادهم بصورة أساسية على المعونات المقدمة من الحكومة الأمريكية ، وترتب على ذلك انخفاض بمعدلات التفاعل بين الآباء والأبناء إذ لم يعد هناك مهارات تعلم للصغار . أدت هذه التغييرات إلى عدم اهتمام الآباء بالعناية بأطفالهم وإلى مغادرة الآباء منازلهم لفترات طويلة تاركين أطفالهم وحدهم أو فى رعاية إخوتهم ، ولذلك يعتمد الأطفال على أنفسهم فى إعداد الطعام ، ويتعودون على ذلك منذ الصغر ، وحتى فى حالة وجود الآباء بالمنزل . وهكذا قلت فرص اللقاء والتفاعل بين الآباء والأبناء وضعفت الارتباطات العاطفية بينهم ، وترتب على ذلك انقراض بعض العادات والتقاليد التى كانت تقوى الالتزامات العاطفية نحو الأطفال ونحو الآباء كذلك ؛ فمثلا اختفت رقصات الصغار التى كان هدفها تسلية الكبار ، وكذلك اختفى أسلوب معاملة الأطفال بالرقة واللطف كما كان الحال فى الماضى ، ولم يعد الآباء يشجعون أطفالهم على الإنجازات والأعمال الناجحة ، ولم يعد الآباء يناقشون أبناءهم فى مشاكل الحياة[1] .

ونعود الآن إلى الفرض الأساسى الذى وضعه «بوجز» ، حقا أثبتت الدراسة الميدانية حدوث تغييرات أساسية فى نظم تربية الأطفال فى جماعات تشيبوا وحدث انخفاض فى معدل التفاعل الاجتماعى بين الأبناء والآباء ، ولكن الدراسة الميدانية أثبتت أيضا أن هذه التغييرات لم يصاحبها أى تغيير فى خصائص شخصية تشيبوا ، وأن الخصائص القديمة مستمرة فى الوجود برغم حدوث التغييرات السابقة ، ولاحظ كذلك أن الاختلافات الموجودة بين المجتمعات الحالية التى تأثرت بقوة بالثقافة الغربية والمجتمعات المحلية التى لم تتأثر بالثقافة الغربية لم يصاحبها اختلافات فى خصائص الشخصية ، وينتهى فى بحثه إلى إثبات عدم صحة الفرض الذى وضعه فى أول البحث ، وهنا يتساءل عن أسباب استمرار وتشابه خصائص شخصية تشيبوا ، هنا يعود للأخذ برأى «فريدل» القائل بأن جماعات تشيبوا لا تتأثر بقوة بالتغييرات الثقافية لأنهم ينظرون إليها كتغيرات مؤقتة سرعان ما تفقد قوتها ، وكذلك يأخذ برأى «جيمس» القائل بأن استمرار الفقر فى تلك الجماعات وشعورهم بمركب النقص لتفوق الرجل الأبيض هما سبب استمرار خصائص شخصية تشيبوا .

تهدف المناقشة السابقة إلى إعطاء فكرة عن أبحاث الثقافة والشخصية والصعاب التى تقابل الباحثين فى تحليل المادة التى يحصلون عليها وإمكانية اختلاف وجهات النظر فى الموضوعات التى يجب التركيز عليها والموضوعات التى يجب إهمالها ، فبالرغم من أن موضوع تلك الأبحاث هو دراسة وتفسير شخصية تشيبوا ، ورغم اتفاق الباحثين على تحديد خصائص الشخصية ، إلا أنه ظهرت اختلافات واضحة فى التحليل والتفسير . وهذا يؤكد أهمية التخصص فى هذا المجال الحديث حتى يمكن تحقيق قدر أكبر من الدقة والوضوح .

---

(١) Boggs, S., Culture Change and the Personality of Ojibwa Children, Amecrian Anthropologist, Vol. 60, L 958, P. 48.

الفصل السابع

الشخصية المصرية التقليدية ومحدداتها الثقافية

- تمهيد
- رأى فى الحتمية الجغرافية والحتمية الاقتصادية
- المشكلات المنهجية
- أبعاد الشخصية المصرية التقليدية

الفصل السابع

الشخصية المصرية التقليدية ومحدداتها الثقافية

تمهيد :

استخدم مفهوم الشخصية المصرية للدلالة على الشخصية القومية المصرية ويقصد به فى الدراسات التى سنشير إليها هنا ، أكثر سمات الشخصية شيوعاً فى طبقة الفلاحين المصريين . واعتمدت تلك الدراسات على تكنيك تحليل التاريخ الاجتماعى وتكنيك تحليل الفولكلور المصرى وبخاصة الأمثال الشعبية .

وقد كثرت دراسات الشخصية المصرية بعد نكسة عام ١٩٦٧ ، ويمكن تقسيم تلك الدراسات إلى مجموعتين . مجموعة الدراسات التى قام بها بحاث مصريون وعرب ، ومجموعة الدراسات التى قام بها المفكرون الإسرائيليون والغربيون ، وينقص معظم تلك الدراسات المنهج العلمى الدقيق ، ولذلك كانت أشبه بتأملات أو انطباعات عامة مؤيدة ببعض الأحداث التاريخية أو ببعض الأمثال الشعبية ، مع إهمال الأحداث التاريخية والأقوال المأثورة التى لا تؤيد صحة تلك الانطباعات .

وينبغى الحذر حين نرى اتفاقاً ظاهراً بين بعض السمات التى ينسبها البحاث الإسرائيليون والغربيون للشخصية العربية وبخاصة المصرية وتلك التى يسبغها الباحثون العرب على الشخصية العربية ، فالغرض من المحاولات الأولى هو التشويه المتعمد للشخصية العربية ، فى حين أن الهدف من المحاولات العربية هو النقد الذاتى والترشيد .

وقد فشلت بعض المحاولات السابقة فى التمييز بين السمات التى ترد إلى ظروف مجتمعية أو إلى مواقف عارضة ، كفشل الصفوة السياسية فى حشد الشعب للمعركة ، أو الانهيار المفاجئ فى ميدان القتال ، نتيجة لاضطراب القيادات العسكرية ، وفشلها فى إدارة المعركة باستخدام الحد الأدنى الضرورى من المهارات اللازمة لذلك . وبين السمات الأصلية التى تميز الشخصية العربية[1] .

من المهم إذن تضافر المتخصصين فى علم النفس والأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع على إجراء أبحاث علمية دقيقة تهدف إلى تحديد سمات الشخصية المصرية وشخصيات الشعوب العربية الأخرى ، ثم الانتقال بعد ذلك إلى صورة واقعية للشخصية العربية .

---

(١) السيد ياسين : الشخصية العربية بين المفهوم الإسرائيلى والمفهوم العربى – مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية – مؤسسة الأهرام – القاهرة ١٩٧٣ ، ص ٢٣٦ .

أحدثت هزيمة ١٩٦٧ صدمة انفعالية في الأمة العربية . وشعر المفكر العربي بحاجة شديدة إلى وقفة تأمل ينقد فيها ذاته ويراجع مفاهيمه التي وضعها لتحديد الذات والآخر على حد سواء ، واستمر هذا الاتجاه التشاؤمي الذي يركز على السلبيات دون الإيجابيات في الشخصية المصرية ، والذي ساهم فيه الكتاب المصريون أنفسهم بغرض التعرف على تلك السلبيات ومحاولة إصلاحها . حتى حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ التي انتهت بانتصار الجيش المصري وعبور قناة السويس والاستيلاء على حصون خط بارليف . هنا تغير الاتجاه التشاؤمي وحل محله اتجاه تفاؤلي يركز على إيجابيات الشخصية المصرية والشخصية العربية بصفة عامة ، وفسرت بعض السمات التي كانت تعد من السلبيات الأساسية مثل الصبر والصمت والتدين على أنها إيجابيات يرجع إليها تحقيق النصر الكبير . وأخذ المفكرون الغربيون والإسرائيليون في إعادة النظر فيما كتبوه عن خصائص الشخصية القومية العربية وبخاصة الشخصية المصرية ، وأرجع قادتهم انتصار ٦ أكتوبر إلى الجندي المصري الذي يتميز بشجاعة وإقدام وتصميم وتضحية ، يندر وجودها في أي جندي آخر .

ويقول الأستاذ السيد ياسين في تفسير هذا التناقض : « ترى ما هو تفسير هذا الموقف ؟ إن ذلك يرد في رأينا — بعيداً عن الاهتمام بالعوامل الشخصية والنزاعات الذاتية — إلى سيادة نظرة تجزئية مسطحة للشخصية المصرية . لقد أخطأنا في الموقفين : موقف الهزيمة وموقف النصر . فلا المغالاة في تجريح الذات والتركيز على سلبيات الشخصية المصرية كان يستند إلى أساس علمي ، ولا القناعة بتمجيد السمات الإيجابية كفيل بتصحيح الخطأ أو التخلي عن الأحكام الذاتية غير الموضوعية[1] » .

رأي في الحتمية الجغرافية والحتمية الاقتصادية :

تهدف هذه الدراسة إلى رسم صورة عامة عن أبعاد الشخصية المصرية وتفسيرها في ضوء النظرية الأنثروبولوجية التي تركز الاهتمام على المحددات الثقافية ، وتعتمد هذه الدراسة على الأبحاث والدراسات المتاحة حول أبعاد الشخصية المصرية ، مع استبعاد دراسات المفكرين الإسرائيليين والغربيين التي تهدف إلى تشويه الشخصية العربية وبخاصة الشخصية المصرية ، ومن الواضح أن هذا الموضوع من أصلح الموضوعات التي تركز عليها أساليب الحرب النفسية التي تشنها الشعوب المتحاربة بغرض تشويه صورة العدو .

إن اهتمام هذه الدراسة بتحديد المحددات الثقافية للشخصية المصرية يتفق مع منظور هذا الكتاب ، وهو الأنثروبولوجيا النفسية التي من أهم موضوعاتها دراسة تأثير الثقافة في الشخصية .

وجدير بالذكر أن النظرية الأنثروبولوجية لا تمثل سوى اتجاه واحد من بين عدة اتجاهات تتعلق بتفسير الشخصية القومية ، ومن أهم تلك الاتجاهات النظرية الجغرافية التي طبقها الدكتور حمدان في دراسته القيمة « شخصية مصر : دراسة في عبقرية المكان» وفيها يقول : « والنظرية العامة التي تقدم في تفسير هذه الشخصية الفلتة ، هي ، التقابل — ائتلاف أو اختلافات بين بعدين أساسيين

---

(١) المرجع السابق ص ٢٤٢ .

فى كيانها ، وهما الموضع والموقع ، فالموضع نقصد به البيئة الطبيعية بخصائصها وحجمها ومواردها فى ذاتها ، أى البيئة النهرية الفيضية ، بطبيعتها الخاصة وجسمها المادى بشكله وتركيبه .. إلخ . أما الموقع فهو صفة نسبية تتحدد بالنسبة إلى توزيعات الأرض والناس والإنتاج حول إقليمنا . وتضبطه العلائق المكانية التى تربطه بها . الموضع خاصية محلية داخلية ملموسة . ولكن الموقع فكرة هندسية غير منظورة »(١) .

ولا تقتصر تلك الدراسة القيمة على تحديد الشخصية الإقليمية لمصر وإنما نتعرض كذلك لتفسير بعض أبعاد الشخصية المصرية فى ضوء النظرية الجغرافية ، فمثلا يقول : « أما الفردية العارمة واستقلال الشخصية ونمو روح المقاومة والتمرد التى يمكن أن تشجع عليها السكنى المتغيرة فى البيئات الجبلية أو الوعرة ، فلم تعرفها مصر ، وحتى العزب التى ظهرت أخيراً جداً منذ قرن لا تمثل سكنى متغيرة بمعنى الكلمة ، وهذا كله قد يعنى النظام والوداعة الاستقرار ، ولكنه يمكن أن يكون له ثمنه الباهظ من انعدام روح المبادرة وزمام المبادأة ، فضلا عن روح المغامرة ، وينتهى بالفلاح فى النهاية إلى جهاز استقبال وخضوع »(٢) .

وعلى الرغم من تمتع النظرية الجغرافية لكثير من الاتساق بين المقدمات والنتائج مما يؤدى إلى انبهار القارئ بها منذ أول وهلة ، فإن النظرة التحليلية النقدية تبين خطورة انزلاقها فى مأزق الحتمية الجغرافية ، ويتعرض مبدأ الحتمية الجغرافية إلى الكثير من التساؤلات التى لا يجد لها إجابة، فمثلا إن تفسير الشخصية القومية بالمحددات الجغرافية وحدها يجعل احتمال تغير تلك الشخصية أمراً شبه مستحيل لأنه يتطلب تغيير المحددات الجغرافية أولا ، وهو أمر يتنافى مع الواقع ، فقد حدثت تغيرات كبرى فى الشخصية القومية الصينية والشخصية القومية الأمريكية ولم يصاحبها أى تغيير فى المحددات الجغرافية ، وإنما سبق تلك التغيرات تغيرات فى ثقافات تلك المجتمعات .

أما فيما يتعلق بالحتمية الاقتصادية فإن النظرية الماركسية خير من يمثلها، وقد تأثر بها إلى حد ما الأستاذ السيد ياسين فى كتابه القيم عن الشخصية العربية ، إذ يقول تحت عنوان « موقفنا من مفهوم الشخصية القومية » : « وهذا التصور الشامل ينطلق من الإطار الاشتراكى العلمى الذى ينظر للشخصية نظرة جدلية فى تفاعلها الدائم مع التكوين الاقتصادى والاجتماعى فى مجتمع محدد ، أو فى تأثرها بنمط الإنتاج السائد فى عدة مجتمعات متشابهة » .

« وهذا يعنى على وجه التحديد أن نمط الإنتاج السائد فى عصر ما أو منطقة حضارية محددة (كنمط الإنتاج الإقطاعى أو الرأسمالى أو الاشتراكى) من شأنه أن يشكل الشخصية الإنسانية وفق خطوط متميزة»(٣) .

---

(١) د. جمال حمدان : شخصية مصر — كتاب الهلال — القاهرة ١٩٧٣ ، ص ١٤ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٥٧ ، ٥٨
(٣) السيد ياسين : الثقافة العربية من المفهوم العربى والمفهوم الإسرائيلى .... ص ٦٧ ، ٦٨ .

الكثيرون منا يدركون قصور نظرية الحتمية الاقتصادية فى تفسير الكثير من التغيرات الاجتماعية الكبرى التى غيرت من معالم التاريخ . والتى لا ترجع لأسباب اقتصادية . ولا أدل على ذلك من الأديان السماوية وما صاحب ظهورها من تغيرات اجتماعية كبرى فى العالم . بل لقد أرجع بعض المفكرين بعض النظم الاقتصادية الكبرى إلى محددات دينية وأخلاقية فمثلا . استطاع العلامة « ماكس فيبر » أن يكشف عن العلاقة العلية بين المذهب البروتستانتى ونشأة الرأسمالية الحديثة فى أوربا . إذ تعتمد الرأسمالية على مجموعة من القيم والمعتقدات تسمى روح الرأسمالية ، مثل الاتجاه الفردى وتقدير العمل الشاق والإخلاص فى العمل والطموح والاعتماد على النفس والنظام الدقيق والنجاح . واستطاع « ماكس فيبر » أن يرجع تلك القيم إلى مبادئ المذهب البروتستانتى التى آمن بها أصحاب المشروعات الصغيرة من الطبقة الوسطى فى إنجلترا وفرنسا وألمانيا . وبفضل هؤلاء ظهر وانتشر النظام الرأسمالى .

ولقد تنبه الأستاذ ياسين إلى المشاكل المصاحبة للنظرية الاشتراكية الماركسية فنراه يعدل بصورة جزئية من موقفه ويعترف بأهمية العوامل غير الاقتصادية فى تشكيل الشخصية القومية فيقول : « بيد أنه لا ينبغى أن يغيب عن أذهاننا أن الحديث عن تأثير نمط الإنتاج على تشكيل الشخصية الإنسانية ، لا يجب أن يحجب عن أعيننا الحقيقة الهامة التى مؤداها أن التكوين الاقتصادى والاجتماعى فى مجتمع محدد يظل هو الحاسم فى تشكيل الشخصية ، بمعنى أن التاريخ الاجتماعى لقطر ما ، تسوده العلاقات الرأسمالية على سبيل المثال ، من شأنه أن يخلق نموذجا منفرداً للشخصية الإنسانية الواقعية : قد يختلف نسبياً فى كثير أو قليل من النموذج العام للشخصية الإنسانية فى ظل نمط الإنتاج الرأسمالى . . . »[1] .

المشكلات المنهجية :

يواجه الدارس للشخصية المصرية بعدة مشكلات منهجية ، أولها ندرة الأبحاث العلمية الدقيقة المتخصصة فى هذا الموضوع ، وكذلك توجد مشكلة الثبات النسبى للشخصية القومية عبر الزمان ، وقد أدى وجود تلك الخاصية أن اعتقد بعض البحاث أن المصرى اليوم هو صورة مطابقة للمصرى القديم ، وبالتالى يهملون من تاريخ مصر آلاف السنين وما صاحبها من أحداث ثقافية واجتماعية كبرى أدت إلى تغير كامل فى ثقافة المجتمع المصرى وفى بنائه الاجتماعى وبالتالى فى الشخصية المصرية ، وهكذا ظن البعض أن استخدام الفلاح المصرى للفأس أو للمحراث أو للساقية ، وهى من عناصر الحضارة الفرعونية ، لهو دليل على أن الإنسان المصرى لم يتغير منذ القدم ، ومما يساعد على انتشار هذا التصور وجود بعض الرواسب الاجتماعية التى ترجع إلى عصر الفراعنة ، ومن أمثلة ذلك عادات النذور ورثاء الموتى واستخدام بعض الألفاظ ذات الأصل الفرعونى ، ولا يمكن إغفال الميل إلى تمجيد الماضى والتغنى بالتقدم الذى أحرزته الحضارة الفرعونية ، فإن هذه العوامل فى جملتها أدت إلى الاعتقاد

(١) المرجع السابق — ص ٦٩ .

بثبات الشخصية المصرية منذ العصور القديمة حتى الآن . تثبت الأدلة والشواهد التاريخية خطأ هذا التصور ، ويجب ملاحظة أن الشخصية القومية هي صيغة كلية متكاملة ، ويجب أن تدرس على هذا الأساس ، ولا يمكن دراستها بصورة تجزئية لتتبع الأصل التاريخى لبعد من أبعادها ، ولا شك أن إغفال هذا المبدأ ، قد أدى إلى فشل الكثير من المحاولات الخاصة بتحديد أبعاد الشخصية المصرية .

إن تغير الشخصية المصرية حقيقة واقعية وتاريخية ، ولم يقتصر هذا التغير على تأثير الثقافات الأساسية التى توالت على مصر ، الثقافة الفرعونية والثقافة القبطية والثقافة العربية الإسلامية ، وإنما حدثت تغيرات فى الشخصية القومية المصرية داخل إطار كل وحدة من تلك الثقافات الكبرى ، وفى هذا الموضوع يقول الأستاذ ياسين : إن البعض ممن يتعرضون للشخصية يظنون — خطأ — أن المصرى اليوم هو ابن فراعنة الأمس ، ويغيب عنهم أننا يكفى أن نستشير التاريخ لنعرف أن الشخصية المصرية قد أعيدت صياغتها بالكامل تقريبا عقب الفتح العربى الإسلامى لمصر ، وليس معنى ذلك أن الفتح العربى قد وجد أمامه شخصية مصرية فرعونية متكاملة ، على العكس ، فإن هذه الشخصية كانت قد لحقتها تغييرات جسيمة نتيجة تدهور الحكم الفرعونى الخالص منذ فترة بعيدة ، بالإضافة إلى ظهور الشخصية المصرية المسيحية ، فقد غير المصرى لغته ودينه . فالشخصية المصرية لحقها التغير بفعل التلقيح الحضارى الواسع المدى الذى تم نتيجة تعرض مصر لعديد من الغزوات الأجنبية ، التى استوطن بعضها دلتا وادى النيل فترات طويلة ، هذه الدلتا التى كانت أشبه بمعمل حضارى واسع الأرجاء ، متعدد الأبعاد تلاقت فيه الشخصية المصرية مرات عديدة بأنماط شتى من الحضارات أثرت فيها وتأثرت بها »(١) .

تقتصر هذه الدراسة على تحليل سمات الشخصية المصرية التقليدية ، وهى الشخصية القومية التى تولدت بعد الحملة الفرنسية واتصال الثقافة المصرية الإسلامية بالثقافة الغربية ، وقد استمرت المعالم الأساسية لتلك الشخصية حتى قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ وبعدها ، وقد أحدثت ثورة يوليو تغيرات جذرية فى بناء المجتمع ونظمه ترتب عليها بدء حدوث تغيرات فى الشخصية المصرية التقليدية ، ونحن نعاصر فى هذه الفترة تلك التغيرات ، فيمكن القول أننا نعيش الآن فترة انتقالية يصاحبها تغيرات فى الشخصية المصرية التقليدية ، وأعتقد أن تلك التغيرات لم تصل بعد إلى درجة من الاستقرار والثبات تسمح لنا بتغيير واضح فى الشخصية المصرية ، وخاصة أن تلك التغيرات نابعة من الطبقة الوسطى ، فى حين تتعلق الشخصية المصرية بطبقة الفلاحين التى لم تتأثر بعد بعمق بتغيرات الطبقة الوسطى التى تتركز فى المدن .

يتضح لنا مما سبق أن هذه الدراسة تختص بإلقاء الضوء على أهم أبعاد الشخصية المصرية التقليدية ، وهى الخاصة بطبقة الفلاحين التى تعيش فى القرى المصرية ، ويعتمد المؤلف فى تحديد تلك الأبعاد على الدراسات التى قام بها علماء مصريون ، بعد تمحيصها واختيار الصالح منها ، ويعالج كل بعد من أبعاد الشخصية المصرية التقليدية من ثلاثة جوانب ، وهى شرح البعد ثم عرض بعض الشواهد والأدلة

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٤٣ .

الثقافية التى تثبت وجوده وأخيراً تحديد بعض المحددات الثقافية التى يمكن أن تفسر وجود هذا البعد فى الشخصية المصرية . وجدير بالذكر أن هذه المحاولة هى دراسة استكشافية لموضوع معقد ومتشعب الأطراف ، ولا يمكن لهذا الموضوع أن يدرس بأسلوب علمى دقيق إلا عن طريق فريق من العلماء المتخصصين فى علم النفس والأنثروبولوجيا الثقافية وعلم الاجتماع والجغرافيا والتاريخ . ويأمل المؤلف أن تكون تلك الدراسة دافعا لتحقيق هذا الأمل من خلال مجهودات المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية .

يستخدم اصطلاح المحددات الثقافية بمعناه الواسع المشتق من مفهوم الثقافة كما تحدده الأنثروبولوجيا الثقافية ، وبالتالى تشمل جميع أنماط السلوك المكتسبة الخاصة بمجتمع معين ، سواء كانت فكرية أو اجتماعية أو مادية ، وبالتالى تندمج النظم الاجتماعية من اقتصادية وسياسية ودينية فى المفهوم الكلى لاصطلاح ثقافة ، ويشمل هذا المفهوم كذلك القيم والعادات والتقاليد . ويعترف المؤلف أن هناك العديد من المشكلات التى تواجه تلك الدراسة ، فإلى جانب عدم خضوعها لقواعد البحث العلمى الدقيق وعدم الدقة فى إصدار التعميمات ، توجد مشكلة ترتيب أبعاد الشخصية المصرية التقليدية ، وحاول المؤلف حل تلك المشكلة عن طريق ترتيب تلك الأبعاد على أساس مدى عمومية كل بعد ، بمعنى أن يبدأ الترتيب بالبعد الأكثر عمومية ويليه الأقل عمومية وهكذا يتم الترتيب بصور تنازلية ، هذا بالإضافة إلى أن كل بعد يتضمن مجموعة من الأبعاد الخاصة ، وقد حاول المؤلف تطبيق هذا المبدأ قدر المستطاع ، وبرغم ذلك فإن المحاولة لا تخلو من الأحكام التعسفية . وهذه الأبعاد هى : الاستمرار والثبات النسبى — التدين — الوطنية والفداء — الازدواجية — الحزن والفكاهة — الكرامة .

ويشير المؤلف إلى إمكانية خضوعه فى تلك الدراسة إلى التحيز ، فهو مصرى ويكتب عن الشخصية المصرية ، ولا يستطيع أن يتخلص من تأثير القيم المصرية التى درج عليها منذ صغره .

بقى أن نشير إلى ملاحظة متعلقة بعلاقة شخصيات المركز بموضوع دراستنا ، فبالإضافة إلى الشخصية القومية الخاصة أساسا بطبقة الفلاحين توجد شخصيات خاصة بمراكز معينة فى المجتمع المصرى ؛ فهناك شخصية الرجل المصرى وشخصية المرأة المصرية ، وشخصية الطبقة البورجوازية وشخصية الطبقة الراقية ، وشخصية الحضرى وشخصية القروى وشخصية البدوى ، تقتصر هذه الدراسة على الشخصية المصرية التقليدية الخاصة بطبقة الفلاحين بوصفها قاعدة المجتمع المصرى ، ولا تفرق تلك الشخصية القومية بين الرجال والنساء أو بين الكبار والصغار وإنما تتعلق بأكثر السمات شيوعا بين تلك الفئات جميعا ، ومن الواضح أننا فى أشد الحاجة إلى إجراء الأبحاث المتعلقة بهذه الشخصيات المركزية ، وفيما يلى تحليل أهم أبعاد الشخصية المصرية التقليدية ، ويجب ملاحظة أن تلك الأبعاد تتداخل وتكون صيغة كلية دينامية ، وأن تحليل تلك الصيغة الكلية إلى عناصرها إجراء تتطلبه الدراسات التحليلية ولا يعبر عن طبيعة الشخصية القومية بوصفها صيغة كلية وليس مجموعة من العناصر المرصوصة .

أبعاد الشخصية المصرية التقليدية

أولا – الاستمرار والثبات النسبي :

من أهم خصائص الشخصية القومية عامة خاصية الاستمرار والثبات النسبى ، ولكن لا يعنى ذلك الجمود والتصلب ، فإن التغير والتطور من أهم خصائص الشخصية القومية كذلك ، ويحدد معدل التغير عوامل ثقافية وغير ثقافية ، وبرغم تلك التعميمات فإن تحديد مدى استمرار وثبات شخصية مجتمع معين، يرجع أساسا للدراسة الميدانية لهذا المجتمع ، ويتعاون فى تلك الدراسة مجموعة من العلماء المتخصصين فى الجغرافيا والتاريخ وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا وعلم النفس .

يتفق الرأى على أن الشعب المصرى من أقدم شعوب العالم ، ويتميز بقدم الحضارة فى ربوع أرضه وبوحدة تاريخه وبوحدة أرضه منذ آلاف السنين ، فهو شعب عريق فى القدم ، وهو أول من صنع الحضارة والمدنية فى العصور القديمة ، فقد نفض عن نفسه الثقافة البدائية منذ آلاف السنين ، ولا أدل على ذلك من أنه أقدم شعوب العالم فى اكتشاف الزراعة وفى بناء المدن وفى اكتشاف نظام الدولة ، ويرى البعض أن هذه الأسس الحضارية الكبرى ، قد نبعت فى مصر لأول مرة ثم انتشرت بعد ذلك إلى باقى أجزاء العالم .

وهكذا فالمجتمع المصرى مجتمع متمدين منذ القدم ، ولذلك لا يرتبط عن قرب أو عن بعد بالثقافة البدائية، وإنما يرتبط منذ القدم بالثقافات المتمدينة التى تتميز بعنصرين أساسيين هما الزراعة وبناء المدن، بل يمكن القول بأنه صانع المدنية ، فالمدن الفرعونية من أقدم مدن العالم ، وربما لا يسبقها فى القدم إلا المدن البابلية . إن الاستمرار والثبات النسبى فى الشخصية المصرية التقليدية خاصية عامة جداً ، لأنها تسود باقى الأبعاد ، وقد اختلف المفكرون المحدثون فى فهم هذا البعد ، ففى فترات النكسات الحربية والتخلف الحضارى، يطلقون على هذا البعد صفات الجمود والتصلب والسكون وضعف روح المبادرة وانخفاض مستوى الطموح، فمثلاً يقول د. عزت حجازى :

« أهم مفاتيح فهم الشخصية فى نظرنا هى الوحدة الطبيعية السياسية والاستقرار النسبى عبر التاريخ : وهما طرفان قل أن يتوافرا معا أو بالدرجة نفسها التى توفر بها للفلاح المصرى لشعب آخر ، ولهذا فليس غريبا أن يكون " التصلب النسبى " من أبرز ملامح الشخصية المصرية ، وهى خاصية تبدو فى عروق المصرى تمنعه من أن يقبل طواعية إجراء تغيير جذرى فى أى جانب من جوانب حياته ، وقيمه وأساليب سلوكه بالذات »[1] .

أعتقد أن العبارة السابقة تخلط بين جمود بعض الأنظمة اجتماعية وبين أبعاد الشخصية المصرية ،

---

(١) د. عزت حجازى : الشخصية المصرية بين السلبية والإيجابية – مجلة الفكر المعاصر – العدد ٥٠ – القاهرة ١٩٦٩ ، ص ٤٥ .

فالمصرى ، إذا أتيحت له الظروف الاجتماعية الملائمة ، فإنه يخلق ويبتكر ، ولا أدل على ذلك من أنه صانع الحضارة الفرعونية ، وبانى المدن المصرية ، وأبناء الفلاحين هم العناصر الأساسية فى الفئات المهنية والمثقفة ، وإذا أتيحت للمصرى فرصة الالتحاق بالجامعات الغربية الكبرى . فإنه يحصل على أعلى الدرجات ويقفز إلى مكان الصدارة ، وكذلك الحال بالنسبة للمصريين الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة الأمريكية وكندا . فقد حققوا إنجازات كبرى ، وتفوقوا فى العمل والخلق على أصحاب البلاد ، وهكذا لا يمكن القول مطلقا بأن « المصرى لا يقبل طواعية إجراء تغيير جذرى فى أى جانب من جوانب حياته » .

وما تشكو منه اليوم الجامعات المصرية من ضعف مستوى الطالب المصرى ، لا يرجع إلى سمات معينة فى عقلية المصرى تمنعه من الإبداع والاختراع ، وإنما يرجع إلى نظام التعليم الجامعى ، وفى هذا الموضوع يقول د . ملاك جرجس : « إن العقلية المصرية حاليا غالبا ماتقدس النصوص أو الكلمة المكتوبة ولا تعنى فى الغالب بالتفكير الإبداعى الخلاق ، ولا غرو فى أن طالب الجامعة يدرس كتابا يحدده الأستاذ ، وفى أغلب الحالات يكون هو مؤلفه ، ولا تخرج الامتحانات عن كتاب الأستاذ أو مذكراته ومحاضراته ، ولذلك فطالب الجامعة يلقن معلومات ولا يتدرب على التفكير ، إن التعلم أساسا ، تدريب على التفكير ، هذا بعكس الطالب فى جامعات الدول الصناعية ، فالأستاذ يشرح المادة وفقا لخبراته ومعلوماته ، ويرشد الطالب إلى عدة مراجع علمية يرجع إليها ، وكثيراً ما تتضارب آراء هذه المراجع مما يدفع الطالب ويدربه على التفكير والنقد العلمى والاعتماد على نفسه فى استخلاص واستنباط الحقائق العلمية »[1] . يوافق المؤلف على كل ما جاء بالفقرة السابقة فيما عدا السطر الأول ، فالعيب هنا ليس فى العقلية المصرية ، وإنما فى نظم التعليم الحالية ، فالعقلية المصرية بخير ، ولا أدل على ذلك من أن الأستاذ الجامعى المصرى عندما يهاجر إلى الجامعات الغربية حيث الإمكانيات وقلة عدد الطلاب يغير من أسلوبه فى التعليم ويتبع الأسلوب الصحيح .

أما فى فترات الانتصارات والتقدم الحضارى فتصاغ صفة الاستمرار والثبات فى الشخصية المصرية بألفاظ أخرى تمجد تلك الخاصية ، فيوصف المصرى بأنه أصيل متمسك بأخلاق القرية ، حريص على القيم العربية ، ونحن نسمع هذه العبارات اليوم بعد أن حقق الجنود المصريون انتصارات أكتوبر عام ١٩٧٣ ، فهل حدثت كل تلك التغييرات الكبرى فى الشخصية المصرية فى ست سنوات ؟ بعد نكسة عام ١٩٦٧ ، فسرت خاصية الاستمرار والثبات فى الشخصية المصرية بالجمود والتخلف وعدم الإبداع وضعف روح المبادرة ، إن هذه التفسيرات لا تخرج عن كونها انطباعات شخصية لمواقف مؤقتة ولا تتصل عن قرب أو بعد بموضوع أبعاد الشخصية القومية المصرية .

---

(١) د. ملاك جرجس : سيكولوجية الشخصية المصرية ومعوقات التنمية ، روز اليوسف ، القاهرة ١٩٧٣ ص ٣٦ .

وجدير بالذكر أن النظم الثقافية التى من شأنها خلق سمات الاستقلال والاعتماد على النفس والمبادرة فى الشخصية لا يقتصر وجودها على المجتمعات الصناعية المتقدمة ، كما يظن البعض ، فقد يحدث أن توجد تلك السمات فى مجتمعات بدائية شديدة التأخر ، فنى أبحاث الثقافة والشخصية التى أجريت على بعض الجماعات المبعثرة من الهنود الحمر المعتمدين على الصيد وجمع الثمار مثل جماعات شيبوا ، تبين أن نظم تربية الأطفال تعمل على تأكيد سمات الاعتماد على النفس والمبادرة والتجديد فى شخصيات الصغار ، ولكن لم تفعل شيئا تلك السمات فى تغيير ثقافتهم البدائية البسيطة ، وفى مسح ثقافى مقارن يقرر ثلاثة علماء أن المجتمعات الزراعية تتميز بالخضوع التام للروتين ولذلك يخشون التجديد ، وتؤكد نظم تربية الأطفال فيها أهمية الخضوع للكبار ، فى حين تتميز مجتمعات الصيد البرى والبحرى بأهمية المبادرة الفردية ، ولا يخاف الأفراد من التجديد بنفس الدرجة السابقة ، وتؤكد نظم تربية الأطفال فيها على أهمية الاعتماد على النفس والمبادرات الفردية[١] .

وفيما يلى عرض موجز لبعض الشواهد الثقافية التى تدل على وضوح خاصية الاستمرار والثبات النسبى للشخصية المصرية التقليدية بصورة عامة .

الشواهد الثقافية :

١ — ترجع معظم أدوات الزراعة فى الريف المصرى إلى عهود قديمة تصل إلى العصر الفرعونى .

٢ — ارتباط الفلاح المصرى بالماضى المتمثل فى أرضه وبيته وقريته .

٣ — احترام الفلاح لكل ما هو قديم ، فهو يوقر ما قاله الذين سبقوه إلى الحياة ، ويوقر حكمة الشيوخ ، ويحترم الآباء والأجداد وكبار السن عامة .

٤ — تعبر عن هذا الاتجاه نحو احترام الماضى والتمسك به بعض الأقوال المأثورة مثل « اللى ملوش قديم ملوش جديد » « اللى تعرفه أحسن من اللى ما تعرفوش » « احترم أبوك ولو كان صعلوك » « احترم كبيرك يحترمك صغيرك»[٢] .

٥ — يدل سلوك عمال التراحيل وأغانيهم على أن الفلاح المصرى شديد الإحساس بالتربة ، ووطن آبائه وأجداده ، إذ اضطرته ظروفه إلى الخروج من القرية ، فإذا اضطر تحت ظروف طرد قوية لا قبل له بتعديلها إلى الهجرة من موطنه الأصلى إلى مكان آخر ، احتفظ فى المهجر بكثير من قيمه وأساليب سلوكه التى اعتاد عليها فى القرية ، حتى حين تكون هذه القيم والأساليب السلوك غير وظيفية ، والاختلاف

---

(١) Barry III, H., Child, I. and Bacon, M., Relation of Child Training to Subsistence Economy, American Anthropologist, Vol. 61, 1959, PP. 51 - 63.

(٢) رشدى صالح : شخصيات فى المأثورات الشعبية ، مجلة الفكر المعاصر ، العدد ٥٠ أبريل ١٩٦٩ ص ١٣٨ .

الذى يسميه البعض فوضى فى لباس القاهريين ولهجاتهم وسلوكهم فى الأماكن العامة مثلا هو مظهر من مظاهر احتفاظ المهاجرين من الريف ببعض المقومات الثقافية الريفية ومقاومتهم — التى تصدر عن وعى أحيانا — لعملية امتصاص المدينة لهم (١) .

٦ — استمرار الكثير من الخرافات والبدع رغم عدم اعتراف الأديان السماوية بها ، ومن أمثلة ذلك ظاهرة النذور وظاهرة كتابة رسائل إلى الأولياء والاعتقاد فى الحسد .

« والناس إذ يفعلون كل هذا .. والمسلمون منهم خاصة .. يفعلونه على الرغم من أن الإسلام ينهى عن الاعتقاد فى قبور الصالحين والأولياء أنها تنفع أو تضر أو تقرب إلى الله تعالى ، فإن ذلك من عادة المشركين ومن الظواهر القديمة جداً فى المجتمع المصرى » (٢) .

٧ — استمرار البيروقراطية المنحرفة فى المجتمع المصرى : ويقصد بها حكم المكاتب الذى يتصف بتحكم الموظفين مما يعطل الأعمال ولا يساعد على تحقيق الكفاية الإنتاجية ، بل على العكس يؤدى إلى التبذير والفساد والظلم ، والتهرب من المسئولية ، وترجع الجذور الأولى لتلك البيروقراطية إلى شخصية « الكاتب » الجالس القرفصاء فى أيام الفراعنة ، ثم شخصية « شيخ البلد » (٣) .

المحددات الثقافية :

المجتمع المصرى بلد عريق التاريخ ، واستطاع المصريون اكتشاف الزراعة منذ ثمانية آلاف سنة أو يزيد ، وتعد مصر من المراكز الأساسية فى العالم التى انتشر منها هذا الاختراع العظيم إلى أجزاء كثيرة من العالم ، وباكتشاف الزراعة عرف المصريون الاستقرار وصنعوا أعظم حضارة فى التاريخ القديم وهى الحضارة الفرعونية ، وعاش غالبية المصريين على الزراعة منذ القدم حتى اليوم ، وتسكن تلك الغالبية الدلتا ووادى النيل فى عدد هائل من القرى يزيد على أربعة آلاف قرية اليوم ، ولا يقتصر نشاط الفلاح على قريته ، وإنما يساهم بتوفير الطعام والقوى البشرية فى بناء المدن وازدهارها وهكذا يتم الاتصال والتعاون بين القرية والمدينة فى مصر ، وفى جميع الدول التى يعيش معظم سكانها على الزراعة .

لاحظ الأنثروبولوجى الكبير « ريدفيلد » تشابها واضحاً فى أسلوب الحياة عند فلاحى العالم ، واستخدم نموذجا مثالياً لتوضيح خصائص هذا الأسلوب فى الحياة ، أطلق عليه اصطلاح « الثقافة

---

(١) د. عزت حجازى : الشخصية المصرية بين السلبية والإيجابية ، مجلة الفكر المعاصر العدد ٥٠ أبريل ١٩٦٩ ص ٤٥ ، ٤٦ .

(٢) د. سيد عويس : ظاهرة الموت فى حياة المصريين — مجلة الفكر المعاصر — العدد ٥٠ أبريل ١٩٦٩ ص ٧٦ ، ٧٧ .

(٣) د. ملاك جرجس : سيكلوجية الشخصية المصرية ومعوقات التنمية ، ص ٦٧ ، ٦٨ .

القروية » ، وهو أسلوب الحياة المطبق فى القرية التى أطلق عليها اصطلاح «المجتمع القروى » ، تمييزاً له عن نموذج « المجتمع الشعبى » ونموذج « مجتمع المدينة »[1].

حدد « ريدفيلد » عدة خصائص للثقافة القروية ، من شأن بعضها أن يطبع الشخصية القومية لحاملى تلك الثقافة بأبعاد معينة ، من أهم تلك الخصائص أنها ثقافة جزئية ، وذلك لارتباط ثقافة القرية بثقافة المجتمع الكبير ، سواء أكان دولة أم أمة ، ومن هنا كان لابد من دراسة علاقة القرية بالمدينة ، لأن كلا منهما يكمل الآخر . ويدرس « ريدفيلد » الفلاح على أنه مركز ثقافى وليس كمركز مهنى ، بمعنى أن الفلاح هو حامل للثقافة القروية ، وليس مجرد شخص يمتهن الزراعة ، فالزراعة ليست فقط مهنة وإنما هى كل ثقافى متكامل ، ويعرف «ريدفيلد» الفلاح بأنه : « ذلك الرجل الذى يسيطر بطريقة فعالة على قطعة من الأرض الزراعية يرتبط بها منذ وقت طويل بروابط العاطفة والتقاليد ، ويكونان هو والأرض جزءاً من شىء واحد أو مجموعة واحدة من العلاقات الراسخة منذ وقت طويل »[2]. ويجب دراسة الثقافة القروية كثقافة مركبة ، فهى ليست بالبساطة التى قد يتصورها البعض ، وذلك لأن الثقافة القروية تتزود بروافد فكرية متعددة عن طريق اتصالها بالإنتاج العلمى والفكرى للطبقات الاجتماعية الأخرى ومراكز الفكر فى المدينة ، فثقافة القرية مدنية[3] بمعنى الكلمة ، ويؤكد «ريدفيلد» على ضرورة تمييز نوعين من التراث فى تلك المدنية التراث الكبير[4] والتراث الصغير[5] ، ويقصد بالتراث الكبير تراث المدارس والمعابد فى القرية ، أى تراث المثقفين من رجال الدين والعلماء ورجال الأدب ، أما التراث الصغير فهو الثقافة المحلية للقرية ، ويجب تحليل العلاقات الاجتماعية والثقافية لمجتمع القرية المحلى الصغير فى ضوء إطار أشمل ، أى فى نطاق علاقته بالدولة والمدينة ككل ، ومن أهم المحددات الثقافية التى تؤثر فى شخصية الفلاح أسلوب النظر إلى الحياة وتصوره للحياة الطيبة ، ينظر الفلاح إلى الأرض نظرة تبجيل واضحة ، ويعتقد أن العمل الزراعى هو أسمى الأعمال ، ويتصف العمل الزراعى بصفة التقديس ، فالزراعة شىء عملى تسوده مشاعر دينية ، ومن خصائص الفلاحين كذلك الرزانة والمزاج المعتدل والمشاعر الرقيقة واحتقار التعبير عن العواطف بصورة علانية ، ويقرر « ريد فيلد» أن الفلاحين فى الوقت الحاضر يسعون إلى أن يصبحوا شيئاً مختلفاً ، إذ تجذبهم المدينة للعمل الصناعى ، كما تتكون وتنمو الكثير من التطلعات بين الفلاحين ، وبذلك يتحول الفلاحون إلى أنواع أخرى من الأفراد مثل العمال الصناعيين أو الطبقات الاجتماعية الحضرية فى المدن[6]. وبرغم

---

(١) د. فاروق العادلى : مقدمة كتاب : « المجتمع القروى وثقافته » تأليف روبرت ردفيلد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الاسكندرية ١٩٧٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٤ .

(٣) Civilization

(٤) Great tradition.

(٥) Little tradition.

(٦) المرجع السابق ، ص ٢٢ ، ٢٣ .

هذه الخصائص العامة للثقافة القروية فإن « ريدفيلد » يؤكد أن هذا التصور يمثل « نموذجاً مثالياً » . وأن القرى الواقعية تختلف فى بعض تلك الخصائص . وتحدد الدراسات الميدانية تلك الاختلافات التى يعترف بوجودها ، فمثلا يقول « ريدفيلد » وفى «الواقع توجد اختلافات كثيرة بين الشعوب القروية بالنسبة لمسائل العنف والتركيز على المغامرة الجنسية »[١] .

وبرغم وجود مثل تلك الاختلافات ، فإن بعض أوصاف « ريدفيلد » لشخصية الفلاح نجد لها مثيلا فى شخصية الفلاح المصرى . فإلى جانب الأوصاف السابقة يصفها « ريد فيلد » بالأوصاف التالية :

« وعندما ينظر المرء إلى التاريخ القديم يرى أن الفلاح قد تغير قليلا عبر آلاف السنين »[٢] .

« وفى كل أجزاء العالم عامة ، كان الفلاحون أحد العوامل التى تقف فى وجه التغير الاجتماعى أو كبح جماح الثورة أو إعاقة عملية تكامل المجتمع المحلى الذى غالبـًا ما يصاحب التغير التكنولوجى السريع . وبرغم هذا يتغير بسرعة كثير من الفلاحين فى الوقت الحاضر تغيراً سريعـًا . وقد يمكن القول بأنه لن يوجد فلاحون فى المستقبل »[٣] .

يتضح لنا مما سبق أن الثقافة القروية وهى ثقافة راسخة فى المجتمع المصرى ، هى المحدد الثقافى الأساسى لخاصية استمرار وثبات الشخصية المصرية التقليدية ، وذلك لأن الغالبية من الشعب المصرى لا تزال غالبية قروية وثقافة القرية من خصائصها طبع شخصيات الفلاحين بالثبات والاستمرار ، ولكن إمكانيات التغير كامنة فى ثقافة القرية التى تتصل بصورة وثيقة بثقافة المدينة ، والمدينة هى منبع التغيرات الثقافية والاجتماعية .

والملاحظ أن أساليب التنشئة الاجتماعية فى المجتمعات القروية هى المسئولة عن استمرار بعض سمات شخصيات الفلاحين عبر الأجيال ، إذ تعطى تلك الأساليب أهمية كبرى للانصياع وللامتثال للعادات والتقاليد المحلية ، وقد توصل الدكتور محمود على إلى نتيجة مشابهة فى دراسته التجريبية القيمة لأساليب الثواب والعقاب التى تتبعها الأسرة المصرية ، وفى هذا المعنى يقول :

« . . . كما أنها (أى أساليب الثواب والعقاب التى تتبعها الأسرة) ترتبط بجهاز القيم الذى يدور محوره حول مبدأ الانصياع أو الطاعة أو الامتثال بمعنى أن جميع أساليب الممارسة والمجازاة التى يتبعها آباؤنا فى مجتمعاتنا المحلية المختلفة تهدف فى المقام الأول إلى بث مفهوم حب الطاعة أو الانصياع عند الطفل ، ويختلف وضوح هذا المفهوم من والد إلى آخر ، كما أنه يختلف كميـًا باختلاف طبيعة البيئة الاجتماعية والجغرافية التى يعيش فى نطاقها الفرد »[٤] .

(١) المرجع السابق ص ١٨١ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٨٨ .
(٣) المرجع السابق ، ص ١٨٨ .
(٤) د. محمود على : دراسة تجريبية لأساليب الثواب والعقاب التى تتبعها الأسرة فى تدريب الطفل وأثرها على شخصية الأبناء — رسالة دكتوراه — جامعة القاهرة ١٩٦٥ ، ص ٢ .

ثانياً — التدين :

الوطن العربى هو مهد الديانات السماوية ، ومصر ، قلب العروبة ، ظلت منذ القدم حتى الآن قلعة تحافظ على الأديان من عبث العابثين ، والمصريون متدينون ، ولذلك هم قوم متسامحون ، لم يدخل التعصب الدينى قلوبهم ولم يبخلوا يوماً فى الاستشهاد فى سبيل دينهم ، ويصاحب تدين المصريين ، شأنهم فى ذلك شأن باقى شعوب الأرض ، بعض الخرافات والبدع التى ليست من الدين فى شىء ، وتنتشر تلك المعتقدات الشعبية فى الريف المصرى ، ويرجع بعضها إلى عصور قديمة ، ولذلك تمثل رواسب اجتماعية فى طريقها للزوال بفضل التعليم الدينى الصحيح والتعليم العلمانى الموضوعى ، ويمكن تحديد تلك المعتقدات الشعبية التى لا يوافق عليها كل من الإسلام والمسيحية فى القدرية والغيبية والتواكل ، ويقصد بالقدرية الاعتقاد بأن كل ما يحدث للإنسان نجاحه أو فشله ، عافيته أو مرضه ، بقاؤه أو موته . . إلخ هو مقدر له[1] ، وبأن الجهد الإنسانى ، مهما عظم ، عاجز عن أن يدفع القدر ، وقد انعكس ذلك فى عدة ظواهر منها الدعوة فى الأغانى الشعبية إلى الصبر والرضا بالمقسوم والمكتوب والقناعة والاستسلام وقبول الحياة كما هى بمرها وحلوها[2] ، ويرى الكثيرون أن الفلاح المصرى يتسم بالتواكل ، نتيجة للقدرية التى يعتقد فيها ، فهو يعتمد على الغير فى إحداث الظروف التى تضمن له إشباع حاجاته وحماية مصالحه . وينتظر حتى تحدث الواقعة ولا يتحرك قبل حدوث الأمر لمنعه ، ولا يثق فى قدرته وحده على تغيير الأمر إن هو وقع فعلا ، ويوجد رأى آخر ينادى بعدم المبالغة فى تعميم سمة الاتكالية على الفلاح المصرى ؛ وذلك لأن تاريخ الفلاح المصرى ملىء بمقاومة الطغاة كما هو ملىء بفترات الخضوع والرضا بالمقسوم ، ويفضل المؤلف الرأى الأخير ، أما الغيبية فيقصد بها عدم ربط الأسباب بالمسببات بأسلوب واقعى ، وإنما الاعتقاد فى قوى غيبية ، لها المقدرة على حل المشكلات بأسلوب غيبى ما فوق الطبيعى فالغيبية تمثل التفكير الخرافى المناقض للتفكير العلمى . وفيما يلى عرض موجز للشواهد الثقافية على وجود هذا البعد العام .

الشواهد الثقافية :

١ — تعرف القاهرة بأنها مدينة الألف مئذنة ، وذلك لكثرة بيوت الله فيها .

٢ — تكتظ المساجد بالمصلين المصريين فى يوم الجمعة خاصة ، وكذلك يهرع المسيحيون للكنائس يوم الأحد .

٣ — يمثل المسجد المركز الدينى والثقافى للقرية ، ويلعب إمام المسجد دوراً هاماً كزعيم روحى لأهل القرية ، ويستشيره الفلاحون فى كل كبيرة أو صغيرة فى شئونهم .

---

(١) د. عزت حجازى : الشخصية المصرية بين السلبية والإيجابية ، ص ٤٧ .

(٢) د. محمد الصياد : نفسية الشعب المصرى من أغانيه — مجلة علم النفس — أكتوبر ١٩٤٥ ص ٧٢ .

٤ — الاهتمام بالدين ،سواء على المستوى الحكومى أو المستوى الشعبى . فجامعة الأزهر أكبر جامعة دينية إسلامية فى العالم . مقرها القاهرة . وتخرج رجال الدين الذين يوجهون النشاط الدينى للمصريين وغيرهم من المسلمين فى العالم منذ مئات السنين . ويظهر الاهتمام الشعبى بالدين فى المساهمة فى بناء المساجد فى كل حى ، وأحياناً فى كل شارع .

٥ — يستخدم المصريون بعض العبارات الدينية عشرات المرات وفى الحياة اليومية. فمثلا لا يتكلم أحد من المصريين على المستقبل ، إلا ويستخدم عبارة « إن شاء الله . أو بإذن الله » . ولا يؤيد المؤلف بعض المفكرين الذين فسروا هذا الاتجاه بأنه تهرب من المسئولية . إن استخدام تلك العبارة دليل ثقافى على أننا شعب متدين . ويمكن إضافة عادة القسم باسم « الجلالة » وباسم « النبى » عليه الصلاة والسلام .

٦ — عادة وضع المصحف الشريف فى مكان بارز من المنزل . ومعاملته بشىء من التقديس، ويحمل الكثيرون المصاحف الصغيرة فى جيوبهم ، وتتحلى النساء بالمصاحف الذهبية . ويعلق المصريون الآيات القرآنية فى حجرات الضيافة تقديراً واحتراماً للكتاب الكريم . ولا يمكن إغفال ترديد جنودنا الأبطال لعبارة «الله أكبر» فى أثناء عبور قناة السويس والاستيلاء على خط بارليف فى حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ ، مما رفع الروح المعنوية وأشعل الحماس للبذل والعطاء والاستشهاد فى سبيل الله والوطن .

٧ — التمسك بالزواج الدينى ، ومعارضة مبدأ الزواج المدنى، واحترام فريضة الصوم بصورة لا نجد مثلها فى كثير من المجتمعات الإسلامية .

٨ — وهناك الكثير من الأمثلة الشعبية التى تؤيد وجود الاتجاهات السلبية فى ظاهرة التدين عند الفلاحين وسكان المدن ، ومنها : « اللى انكتب على الجبين لازم تشوفه العين » « اللى من نصيبك لا بد يصيبك » « اديني عمر وارميني البحر » « أكل العيش نصيب » . « تجرى جرى الوحوش غير رزقك ما تحوش » « قليل البخت يلاقى العضم فى الكرشة » « المتعوس متعوس ولو علقوا على رأسه فانوس » — « قيراط حظ ولا فدان شطارة » — « جيت أتاجر فى الحنة كترت الأحزان وجيت أتاجر فى الكتان عدموا النسوان » « اللى ما يرضى بقضايا يطلع من تحت سمايا » .

جدير بالذكر ضرورة الحذر فى تعميم معانى تلك الأمثلة الشعبية ، لأنه توجد أمثلة شعبية متناقضة ، فإن بعض تلك الأمثلة تعبر عن خبرات شخصية مكررة ، ولكنها لا تمنع من وجود خبرات أخرى مختلفة ، ترتب عليها انتشار أمثلة شعبية تحمل مضامين مناقضة للأمثلة الشعبية الأولى ، فإلى جانب الأمثلة الشعبية السابقة نجد المثل القائل : « الشاطرة تغزل برجل حمار » ، ويناقض هذا المثل جميع الأمثلة الشعبية السابقة ، وهناك أمثلة متناقضة كثيرة ، فمثلا :

(١) . «اصرف ما فى الجيب يأتيك ما فى الغيب» يناقض «القرش الأبيض ينفع فى اليوم الأسود» ،

وأيضا يناقض « من وفر غداه لعشاه ما شمت فيه عداه » .

(ب) « النواية تسند الزير » ، يناقض « عمر التشفيط ما يملاش قرب » .

(حـ) « لبس البوصة تبقى عروسة » ، يناقض « ايش تعمل الماشطة فى الوش العكر » [١] .

ولذلك يجب الحذر عند الاعتماد الكلى فى تحديد أحد أبعاد الشخصية القومية لمجتمع ما على الأمثلة الشعبية .

٩ — « نحن شعب نؤدى النذور ، ونفى بها عادة ، وقد لا نفى بها أحيانا . . كما نؤدى القرابين كذلك — نفعل ذلك منذ الماضى السحيق حتى الآن ، ونحن إذ ننذر . . نوفى النذر مشروطا ، وإذا كنا نؤدى قربانا ، نفعل ذلك بقصد التقرب إلى الله أى بدون شروط . . ونحن ننذر لله جل وعلا كما ننذر لأولياء الله . . . ونحن إذ ننذر قد ننذر صياماً لله إذا تم مطلب معين أو ننذر مالا نقديا أو عينيا فى مقابل رغبة شخصية نحن فى حاجة إليها أو فى مقابل دفع ضر نريد أن نتجنبه ونتحاشاه » [٢] .

وقد جمع عالمان ما يقرب من ٣٠٠ خرافة فى مجتمعنا ، وتبين أن الكثير منها قديم جداً يعود إلى عصر الفراعنة ، وبعضها يرجع إلى أبعد من هذا ، إلى العصر الحجرى مثلا ، ويقرران شمول انتشارها بقولهما إن ٩٦٪ من أهل الريف عندنا وأن ٦٢٪ من أهل المدن يؤمنون بالخرافات [٣] ، ولا يمكن فى هذا المجال إغفال ظاهرة انتشار الدجالين الذين يدعون « فك السحر » ، و « معرفة الغيب » وشفاء « الرجال من الضعف الجنسى » وكذلك ظاهرة الاعتقاد فى الحسد ، وهى ظاهرة قوية الانتشار فى الريف والمدينة على السواء .

ويحذر المؤلف من المبالغة فى تقدير تأثير تلك الخرافات على إمكانيات النمو الاقتصادى ، وذلك لأن الخرافات ، توجد فى المجتمعات المتقدمة ، كما توجد فى المجتمعات النامية والمتأخرة ، وإن كانت بنسبة أقل ، فمثلا نلاحظ أن عدد قارئى الطالع فى الولايات المتحدة الأمريكية يصل إلى أرقام مذهلة ، وأن الاعتقاد فى إمكانية الاتصال بالأرواح والتحدث معهم ينتشر فى دولة مثل إنجلترا بصورة أقوى مما يوجد فى كثير من المجتمعات النامية والمتأخرة .

١٠ — اهتمام الصحف والمجلات المصرية بالطالع ، ولذلك تخصص له مساحات ثابتة ويقرؤه معظم القراء ، وربما كان هو كل ما يهم بعض القراء فى الصحف [٤] ، ولكن يجب ملاحظة أن

---

(١) على فهمى : شخصيتنا بين القدرية والتواكلية ، مجلة الفكر المعاصر العدد ٥٠ — أبريل ١٩٦٩ — من ص ٨٠ إلى ص ٨٤ .

(٢) د. سيد عويس : ظاهرة الموت فى حياة المصريين — مجلة الفكر المعاصر العدد ٥٠ أبريل ١٩٦٩ ص ٧٢ .

(٣) د. نجيب إسكندر و د. رشدى إمام ، التفكير الخرافى — مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٦٢ .

(٤) د. عزت حجازى : الشخصية المصرية بين السلبية والإيجابية — ص ٤٧ .

هذا الاهتمام بالطالع موجود بصورة عالمية ، وتهتم به جميع الصحف والمجلات فى العالم . وتنشر الصحف والمجلات المصرية الكثير من المقالات والتحقيقات التى تشير إلى وجود اتجاهات غيبية عند سكان المدن كذلك ، فمثلا فى خبر نشر فى مجلة صباح الخير فى باب « ملف صباح الخير » تحت عنوان « عين الحسود . . . تصيب لاعبى الأهلى » جاء ما يأتى : « عين الحسود . . . أصابت لاعبى الأهلى . . هكذا يؤكد أغلب مشجعى الأهلى الذين خرجوا من مباراة الأوليمبى وكأن على رؤوسهم الطير ؟ متعجبين لحالة لاعبى الأهلى أمام الأولمبى . . بينما لعبوا مباراة العمر أمام الإسماعيلى وفازوا بهدفين فقط . . وكان يمكن أن يخرجوا فائزين بخمسة أهداف . . وطالبوا « بتبخير » اللاعبين وعمل « أحجبة لهم »[1] ، وفى خبر آخر بنفس المجلة جاء ما يأتى :

« وفى المباراة التى أقيمت يوم الجمعة ٢٥ أكتوبر عام ١٩٧٤ بين فريق المحلة وفريق تنزانيا ، ظل فريق المحلة مهاجماً طوال الوقت دون جدوى مشدداً هجماته إلا أن جميع الفرص ضاعت منه . بدأ الجمهور يشعر بأن هناك شيئاً غير عادى . . وبالفعل لاحظوا وجود بعض التمائم والأحجبة وضعها حارس المرمى خلفه . . على الفور تقدم أحد المتفرجين واختطف الأحجبة . . وحدثت مطاردة ثم استؤنف اللعب وجاء الهدف الأول بين تكبيرات المتفرجين» .

المحددات الثقافية :

تتميز الثقافة القروية بقوة نظام الدين فى المجتمع الذى يحمل تلك الثقافة . وقد تركزت الثقافة القروية فى مصر منذ آلاف السنين ، بل يمكن القول أن المصريين هم أول من اخترع تلك الثقافة ، لأنهم من أقدم الشعوب التى اكتشفت نظام الزراعة . وكان لاعتماد الزراعة فى مصر على فيضان النيل ، أن قدس المصريون منذ القدم نهر النيل وقدسوا الحاكم الذى يتحكم فى مياه النيل وهى مصدر رزقهم ، ولذلك عبدوا الفراعنة ، ويمكن تمييز طبقتين واضحتين فى البناء الاجتماعى لمصر الفرعونية ، الطبقة الحاكمة وتتكون من الملوك الآلهة والكهنة ، والطبقة المحكومة وهى طبقة الفلاحين الخاضعين روحياً واقتصادياً للطبقة الأولى ، ولم يقتصر تأثير الدين فى العصر الفرعونى على البناء الاجتماعى المصرى ، وإنما تعداه إلى جميع مظاهر الحضارة ، وتشهد على ذلك الآثار الفرعونية المنتشرة فى جميع أرجاء الوطن ، وعرفت الحضارة الفرعونية بأنها حضارة دينية استنفدت كل ما يمكن أن تحققه المعتقدات الدينية الفرعونية من أعمال ، فإن بناء أهرامات فى دقة وفخامة أهرامات الجيزة ، وتحنيط الجثث بالأسلوب المستخدم فى المومياء المصرية والعناية بالعالم الآخر بالطريقة الفرعونية ، لا نجد لها مثيلا فى أى حضارة أخرى فى التاريخ البشرى .

وعندما دخلت المسيحية مصر وجدت فى الثقافة القروية بيئة صالحة للازدهار والانتشار ،

---

(١) مجلة صباح الخير — العدد ٩٨٣ — القاهرة ١٩٧٤ — ص ٥٢ .

وظهرت مصر القبطية التي تميزت بخصائص أو بشخصية قومية لا نجد مثلها في الشعوب المسيحية الأخرى ، ومن أهم خصائص الشخصية المصرية القبطية الرهبانية والاستشهاد ، وفي ذلك يقول الأنبا غريغوريس : « لكن الروح المصرية قد برز امتيازها أيضاً لا في الفكر الرهباني وحده بل في الفكر اللاهوتي . لقد تميز المصري بتقواه وتدينه ، وببساطته في دينه ، واطمئنانه إلى اعتقاده بالله والحياة الأخرى ، ونفذ الدين إلى أعماق نفسه . فألهمه أسلوب الحياة الدنيا وطرائقها ، فلم يفصل بين الدين وبين الحياة وإنما امتزج عنده الدين بالحياة . الدين سدتها ولحمتها . يتنفس الدين ، ويحياه من صباحه إلى مسائه ، . .

« من هنا كان تمسك المصري بدينه ، واستمساكه بعقيدته ، وحرصه عليها وتعلقه بها ، ولن نجد في العالم كله كالإنسان المصري ، في مثل حبه لدينه وثباته على عقيدته ، وصموده أمام العواصف المضادة . ولقد ساد المثل قديماً : أن تحويل جبل عن موضعه أيسر من تحويل قبطي أو مصري عن عقيدته »[1] . وجاء الإسلام إلى مصر ، ووجد أرضاً ممهدة أمامه ، وثقافة قروية تعطي للدين أهمية كبرى ، ولقد أكسب الإسلام مصر طابعها الذي تعيشه اليوم ، وتغلغل الإسلام في كيان المجتمع المصري كما تدل الشواهد الثقافية السابقة .

وصفوة القول أن الثقافة القروية وهي الثقافة العالمية العريضة التي ينتمي إليها الفلاح المصري تعطي للدين أهمية كبرى ، بل إن الدين هو مركز الثقافة القروية ، ولذلك وجدت الأديان التي ظهرت أو قدمت لمصر الجو الثقافي الملائم للتأصل في التراث الثقافي . ويرجع البعض اهتمام الثقافة القروية بالدين إلى أن الزراعة من الحرف التي تظهر فيها قوة الخالق بوضوح ، إذ تتحول البذرة إلى شجرة أمام عيون الفلاحين ولا يساهمون في ذلك التحول بأي مجهود مباشر ، وإنما يقتصر مجهودهم على توفير الماء والتربة الصالحة للبذرة ، ويختلف الأمر في الصناعات التحويلية ، وهي التي يساهم فيها العامل الصناعي بالعمل كله في صناعة السلعة ، هذا بالإضافة إلى أن الزراعة تعتمد على الماء ، ويأتي الماء إما عن طريق الفيضانات أو الأمطار ، وفي كلتا الحالتين يلمس الفلاح بصورة محسوسة قدرات الخالق ، وهناك أيضاً تعرض المحاصيل للضياع بسبب الآفات الزراعية أو الأعاصير أو السيول ، مما يجعل الفلاح خاضعاً في رزقه للقدر ، مما يساعد على انتشار الاتجاهات الخاصة بالقدرية .

وهناك أيضاً بعض أساليب التنشئة الاجتماعية في القرية المصرية . ومنها الأسلوب الخاص بتخويف الأطفال كوسيلة من وسائل التربية والتهذيب ، وكثيراً ما يخيف الآباء أطفالهم من العفاريت والجن والغولة ، وفي المدن من « أبو رجل مسلوخة » و « حجرة الفيران » و « الظلام » ، يؤدي هذا الأسلوب في تخويف الأطفال في فترة الطفولة المبكرة إلى بذر اتجاهات الغيبية والخرافة — وتبقى تلك الاتجاهات

---

(١) الأنبا غريغوريوس — مقدمة كتاب « ملامح الشخصية المصرية في العصر المسيحي » تأليف دكتور رأفت عبد الحميد ، روز اليوسف ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ٨ ، ٩ .

مع الطفل حتى بعد نموه فى مراحل البلوغ والكبر . وفى الأدب الشعبى المصرى . الكثير من الأساطير الشعبية التى تتضمن موضوعات العفاريت والجن والغول ، وتتحدث تلك الحكايات عن تلك الموضوعات كأنها حقائق واقعية ، مما يساعد على تكوين الاتجاهات والمعتقدات الخاصة بالغيبية عند المصريين .

الكثيرون منا يدركون أن الشعب المصرى ، وخاصة طبقة الفلاحين قد عانت منذ عهد بعيد من ثلاث ظواهر اجتماعية خطيرة وهى الاستعمار والإقطاع والأمية . وتتلخص النتائج المترتبة على هذا الثالوث المزمن فى ثالوث آخر التصق باسم الفلاح المصرى منذ عهد بعيد وهو الفقر والجهل والمرض ، وقد لعبت تلك الظروف الاقتصادية والاجتماعية المتخلفة دوراً هاماً فى تأكيد القدرية والتواكل والغيبية فى القرية المصرية ، ويعطى البعض لعامل الأمية أهمية كبرى فى استمرار هذه الخصائص فى الشخصية المصرية التقليدية .

ثالثاً — الوطنية والفداء :

يتمسك الإنسان المصرى بأرضه ووطنه حتى الموت . ويشهد على ذلك وحدة تراب الوطن منذ آلاف السنين ، والعدد الهائل من الشهداء الذين افتدوا مصر منذ القدم حتى اليوم؛ وعادة تتعرض الشعوب لحملات مسعورة لتشويه الشخصية القومية والنيل منها فى فترات الهزائم العسكرية . ولم يخرج الشعب المصرى عن تلك القاعدة العامة ، ولذلك نظم الإسرائيليون والصحفيون الغربيون الخاضعون لسيطرة الصهيونية العالمية حملات واسعة لتشويه الشخصية العربية بعد هزيمة ١٩٦٧ ووصفوها بالملامح التالية :

« العرب لا يفهمون سوى لغة القوة ، ولذلك فاتباع سياسة الردع والعنف معهم هى الأسلوب الأمثل . وهم قوم فرديون مفككون . يميلون إلى الكذب والمبالغة وخداع الذات . وهم بالمقارنة بالإسرائيليين كسالى وجبناء وخونة ، ومستوى ذكائهم منخفض ، وعلى الجملة هم أدنى من الإسرائيليين »[١] .

ولا تمثل تلك الحملة لتشويه الشخصية المصرية المحاولة الوحيدة التى يشنها الأعداء فقد تعرض الإنسان المصرى دواماً لحملات التشويه ، فى العصور الوسطى ، وخلال الحكم العثمانى ترفع الأتراك على المصريين واحتقروا الفلاح المصرى ، وكانت كلمة فلاح تعتبر نوعاً من السب إلى وقت قريب ، وعندما احتل الإنجليز مصر ، شن المستعمرون الإنجليز الحملات المسعورة لتشويه شخصية الفلاح المصرى ، وخاصة بعد هزيمة الثورة العرابية ، وذلك لأن العدو يستغل الجو النفسى الكئيب الذى يسود الشعب المصرى بعد الهزائم العسكرية ، فيصدر التعميمات السطحية المزيفة ، ومن

(١) السيد ياسين : الشخصية العربية بين المفهوم الإسرائيلى والمفهوم العربى .. ص ١٧٥ .

أمثلة ذلك أن الشعب المصرى شعب غير مقاتل ومصر بلد زراعى ، متناسين أن التاريخ المصرى ملىء بالانتصارات العسكرية والشعبية ، وأن الإنسان المصرى هو صانع الحضارة الفرعونية التى انتشرت فى جميع أنحاء العالم . فهدف تلك الحملات جميعاً هو بث اليأس فى النفوس والاستسلام للعدو فى نهاية الأمر . وإذا وضعنا فى اعتبارنا الظروف القاسية التى عاشها الإنسان المصرى ، وهى الاستعمار والإقطاع والطغيان ، يتبين لنا أن الفلاح المصرى كان يصارع فى جبهتين ، فى الداخل والخارج ، وكان يحتاج بعد كل انتصار إلى فترات راحة وهدوء ، وبعد كل هزيمة إلى فترات صمود واستعداد . وخاصة أن مصر بلد عريق فى التاريخ ، ولذلك نحتاج إلى نظرة شاملة عميقة عند دراسة أبعاد الشخصية المصرية . وفيما يتعلق بالصورة المزيفة التى وضعها الإسرائيليون عن مصر ، فإنها سرعان ما تغيرت بعد أن حقق العرب انتصارات أكتوبر عام ١٩٧٣ . وشهد قادة إسرائيل للمقاتل المصرى بالشجاعة والذكاء ، وأصيب العالم بالذهول والدهشة لدقة التخطيط ودقة التنفيذ فى معارك عبور قناة السويس والاستيلاء على حصون خط بارليف ، وترجع تلك الدهشة لنجاح الدعاية الصهيونية فى تشويه الشخصية العربية بعد هزيمة عام ١٩٦٧ .

إن وطنية وفداء وذكاء الشعب المصرى من الأبعاد الأساسية فى الشخصية المصرية ، ولذلك لا تختفى فى فترات الهزائم العسكرية ، وإنما تكون فى حالة كمون ، تطول أو تقصر ، وتعود للظهور فى صورة الانتصار تلو الانتصار ، وحتى فى حالة الهزائم تتحول إلى صمود وإعداد ومقاومة ، ولا يمكن القول بأنها تختفى إلا فى أعين الذين يتمنون لها الاختفاء من الأعداء والسطحيين . وفيما يلى عرض موجز لبعض الشواهد الثقافية التاريخية على تأصل هذا البعد فى الشخصية المصرية ، ولا يدخل فى إطار هذا الكتاب العرض التفصيلى لانتصارات الشعب المصرى ، فهذه الموضوعات خاصة بكتب التاريخ التى تزخر بتلك الانتصارات .

الشواهد الثقافية :

١ — تؤكد كتب التاريخ أن المقاتل المصرى هو أقدم من حمل السلاح فى التاريخ البشرى ، فقد صاحب نشأة نظام الدولة فى مصر حروب متعددة ، وذلك لأن الحضارة المصرية الزراعية بدأت فى صورة دويلات صغيرة مستقلة ، وكان لكل دويلة أو إمارة جيشها الخاص ، وكانت الحروب الداخلية لا تهدأ ، حتى اتحدت هذه الدويلات وتشكل فى مصر مملكتان ، مملكة الشمال ومملكة الجنوب ، ثم قامت عدة حروب لتوحيد مصر ، وتم ذلك بقيادة الملك مينا . وتوحدت مصر منذ ذلك التاريخ البعيد حتى اليوم . وشهدت مصر خلال هذه الحقبة الكثير من المعارك ، وكان الجندى المصرى أول من استخدم وسائل التمويه وقد برع فى فن الكمائن ، وكانت أجهزة المخابرات الفرعونية ذات مستوى عال فى مجالى الاستطلاع وتجميع المعلومات عن الأعداء ، والطريف أن كلمة (نفر)

التى تطلق أحيانًا على الجندى ، هى أصلا كلمة فرعونية (نضرت) . وكانت تطلق على الجندى ومعناها الشاب الصالح[1] .

وهكذا يتضح لنا أن الإنسان المصرى هو مخترع فن القتال على مستوى الجيوش المنظمة . فكيف يطلق جزافًا أن الإنسان المصرى غير مقاتل .

٢ — يتمسك المصرى بأرضه ووطنه حتى الموت . وتمثل الوطنية بعداً أساسيًّا فى الشخصية المصرية . ولا أدل على ذلك من أن المصريين لم يحترف منهم أحد القتال بغرض القتال فى حد ذاته ، ولم ينخرط بعضهم فى جيش دولة أجنبية كمرتزقة ، فلم يعرف التاريخ المصرى الطويل هذه الظاهرة أبداً ، إنما كان المصرى يحمل السلاح دائمًا للدفاع عن الوطن أو للخروج فى حملات تستهدف مطاردة بعض الغزاة وتأمين البلاد[2] .

٣ — وفى حالة هجوم الأعداء ، يهب الشعب المصرى كرجل واحد للدفاع عن الوطن ، وهكذا لا يتحمل الجيش وحده مسئولية القتال . إنما يهب أهل البلاد جميعًا ، سكان المدن وسكان الريف ، وسكان الصحارى ، الرجال والنساء ، الكبار والأطفال ، لدفع الخطر ، وتتكرر تلك الوقفة الجماعية التعاونية فى جميع حالات الغزو . سواء كان المعتدى من الهكسوس أو الفرس أو اليونانيين أو التتار ، الصليبيين ، العثمانيين ، الفرنسيين ، الإنجليز ، الإسرائيليين ، إن الصورة التى يمدنا بها التاريخ عن هبة الشعب المصرى فى عهد الملك بيبى تتشابه مع أسلوب المصريين عندما تصدوا للعدوان الثلاثى على مدينة بورسعيد الباسلة عام ١٩٥٦ . وعندما تصدوا للهجوم الإسرائيلى على مدينة السويس البطلة عام ١٩٧٣ ، الكل يدافع عن الوطن ، الكل يتسابق للاستشهاد فى سبيل الله والوطن ، يدل هذا التلاحم الشعبى فى القتال على تأصل بعد الوطنية والفداء عند المصريين ، ولا يقتصر هذا التلاحم الشعبى فى القتال على التاريخ القديم والتاريخ الحديث لمصر وإنما كذلك فى التاريخ الوسيط ، فى عهد المماليك خرج المصريون لرد الخطر المغولى وتم الانتصار فى موقعة عين جالوت ، وتصدوا لجيش لويس التاسع فى دمياط والمنصورة وطاردوا الصليبيين فى الشام ، وجدير بالإشارة هنا إلى أن الجيوش المملوكية التى كانت تخرج لمحاربة التتار أو الصليبيين أو للجهاد تعتبر جيوشاً مصرية خالصة ، وذلك لأن هؤلاء المماليك كانوا ينشأون فى مصر ، ويندمجون فى الشعب المصرى ويصبحون من أهل مصر . وعندما خرج السلطان الغورى عام ١٥١٧ م على رأس الجيش ليدفع الخطر العثمانى ، خرج الفقهاء والمشايخ يقرءون القرآن : والتف أفراد الشعب حول طومان باى ، وكانوا يحملون الذخيرة ، ويحفرون الحفر لتستقر فيها المدافع ، وكانوا يلتفون حوله داخل القاهرة نفسها ، وهو يبذل الجهد لمقاومة العثمانيين ، وتزخر كتب الجبرتى وابن إياس بمقاومة الشعب

(١) جمال الغيطانى : المصريون والحرب — روز اليوسف — القاهرة ١٩٧٤ ، ص ١٣ ، ١٤ .
(٢) المرجع السابق ص ١٦ .

المصرى للمحتلين الأجانب ، وهكذا . لم تكن حياة الشعب المصرى جبناً واستسلاماً وخضوعاً كما أرادت الدعاية الصهيونية أن تصورها بعد هزيمة عام ١٩٦٧ .

٤ ــ وإذا بحثنا عن أدلة لتأصل خاصية الفداء فى الشعب المصرى ، نجد أن صفحات تاريخ مصر مليئة بملاحم الفداء ، فاليوم تملأ قصص البطولة والاستشهاد صفحات الصحف والمجلات والكتب ، ولا تزال وقائع اقتحام قناة السويس وخط بارليف حية فى الأذهان ، وإذا رجعنا قليلا إلى وراء ، عندما قام الشعب المصرى بالثورة العرابية عام ١٨٨٢ ، نرى صفحة أخرى مشرفة لخاصية الفداء والاستشهاد ، وتروى تلك الصفحة بطولات الجنود المصريين بقيادة الأميرالاى محمد عبيد فى التل الكبير ، إذ فاجأ الإنجليز حامية التل الكبير بهجوم شامل ، فصحا المصريون من نومهم ليجدوا الإنجليز بين خيامهم يعملون فيهم النار والقتل ، واستشهد من المصريين فى هذه الليلة عشرة آلاف ، فى جو الهزيمة تبرز بطولة محمد عبيد ، الذى نصب العلم المصرى فوق مرتفع من الأرض وجمع الفيلقين اللذين كانا يرأسهما ، وكان عددهم ثلاثة آلاف مقاتل ، صوب الإنجليز عليهم المدافع ، وأخذ الجنود يستشهدون واحداً بعد الآخر ولم يبق إلا هو ، نفدت ذخيرته فرمى الأعداء ببندقيته ، وعندما فاضت روحه كان ممسكاً بالعلم المصرى الذى هوى معه مبللا بدمه فوق التل الكبير [١] .

٥ ــ خلال الشهور الأولى من عام ١٩٧٠ ، برز وجه رائع من وجوه بطولة الإنسان المصرى ، وعظمه فى جبهة القتال بقناة السويس . خلال هذه الشهور جاء العمال المصريون من أطراف الصعيد البعيد ، من القرى النائية من الريف ، جاءوا ليشتركوا فى بناء قواعد الصواريخ المضادة للطائرات ، كان لابد من إقامة هذه القواعد فى الجبهة مهما كان الثمن . وكان السباق مروعاً ، من ناحيتنا لابد من الانتهاء منها بسرعة ، ومن الناحية الأخرى كان العدو يركز كل قواه الجوية بجنون وبعصبية لمنع إقامة هذه القواعد . تدفق الفلاحون من القرى لمعاونة رجال الجيش فى إقامة تلك القواعد ، وكانوا يعرفون تماماً ما ينتظرهم ، فعدد غير قليل مضى إلى هناك ، ولم يرجع ، سقطوا شهداء فوق الرمال ، مع هذا كانت طوابير الرجال تمضى فوق الجسور الواقعة خارج القرى ، النساء والأطفال يودعونهم ومنهم من اصطحب طفله معه ، وبرغم تساقط الشهداء ، استمر العمل ، وتم بناء القاعدة الصاروخية الضخمة . هنا تبرز أهم عوامل الأصالة التى تشكل الشخصية المصرية ، البساطة ، التضحية ، الشجاعة [٢] .

المحددات الثقافية :

١ ــ ترجع هذه الوطنية العارمة إلى تدين الشعب المصرى ، فإن شدة إيمانه بمعتقداته الدينية جعلته يدافع عنها حتى الموت ، ففى مصر الفرعونية . كان فرعون الإله هو قائد الجيوش ، ولذلك

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٣ .

(٢) المرجع السابق من ص ١٦٢ إلى ص ١٦٥ .

كانت أوامره فى الدفاع عن الوطن أوامر إلهية . ولذلك كان المصرى ينفذها بدون تردد وبحماس صوفى يهون فيه الموت والاستشهاد . وعندما دخلت المسيحية مصر ، كان الأقباط شديدى الإيمان بمعتقداتهم الدينية . وتحملوا اضطهاد الرومان لهم ولم يغيروا عقائدهم الدينية وفى ذلك يقول الأنبا غريغوريوس :

« ومن هنا أيضًا كان بروز المصريين فى الاستشهاد ، أن أباطرة الوثنيين كانوا يرون المصريين أكثر الشعوب عناداً وإصراراً . ولذلك اختصوهم بنصيب أوفر من العنت والاضطهاد . . وأقسم ديوقلديانوس بآلهته الوثنية . أنه سيعمل بسيفه فى رقاب المسيحيين تشفيًا وانتقامًا وحقداً . وأنه لن يكف عن ذبح المسيحيين بيده ، حتى تغوص سنابك جواده فى بحر من دماء المسيحيين . وقد جاء فعلا ، وبر بما وعد وتوعد . ولذلك نعت المؤرخون اضطهاده . بأكثر جميع الاضطهادات عنتًا وعنفًا . وبدأ الأقباط بالسنة التى ارتقى فيها عرش الإمبراطورية حلقة جديدة من تاريخهم المصرى القديم ، عرفت فى التاريخ المصرى بتاريخ الشهداء وفيه تبدأ السنة القبطية » [1] .

واستمر هذا المفهوم الخاص بالاستشهاد فى سبيل الله ودفاعًا عن الوطن والدين فى الإسلام ، فحين اعتنق المصريون الإسلام ، وجدت تلك العقيدة أرضًا طيبة ونفوسًا متلهفة للاستشهاد ، والقرآن الكريم يكرم الاستشهاد صراحة ، فتقول الآية الكريمة : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتًا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون » . ويقرر الإسلام كذلك أن « لكل أجل كتاب » ، فيحارب المسلم وهو يعلم أن أجله مكتوب . وبالتالى يحارب بشجاعة ، لأن الجبن والتخاذل لن يؤخرا موعد أجله .

يتضح مما سبق استمرار قوة الإيمان بالمعتقدات الدينية فى الشعب المصرى ، واهتمام الأديان التى اعتنقها المصريون بالاستشهاد فى سبيل الدين والوطن ، وهكذا تبعث الوطنية والفداء من قلوب المصريين المؤمنة بدينهم كنوع من العبادة ، وليس فقط كواجب وطنى .

٢ — يقول الأستاذ الكبير عباس العقاد إننا لو أحصينا الثورات فى تاريخ مصر القريب ، لما كانت فى عددها دون ثورات الأمم التى اشتهرت بالتمرد ولم تشتهر بالاستسلام ، ويرى أن تلك الثورات ترجع للعقيدة والموروثات بصورة أقوى من رجوعها للمصلحة والمرافق القومية أو الفردية . ويرى أن قدم عهد المصريين بالمدنية ترتب عليه حب الأسرة والاستقرار ، وهنا يشير إلى التناقض فى أبعاد الشخصية المصرية بين شدة محافظة المصرى على تقاليده وموروثاته وكثرة ثوراته ، ويرى أن هذا التناقض هو تناقض ظاهرى ، وذلك لأن شدة محافظته على تراثه يجعله مستعدًا للثورة بهدف المحافظة على تلك الموروثات والتقاليد ، « وقد يبدو غير معقول فى ثورته وهياجه لأن العهد بالناس

---

(١) الأنبا غريغوريوس : مقدمة كتاب : ملامح الشخصية المصرية فى العصر المسيحى — روز اليوسف القاهرة ١٩٧٣ ، ص ١٠ ، ١١ .

أن يستغربوا الثورة من المحافظين المقلدين . ويزيدهم استغراباً لها ألا يجدوا تفسيراً لها من خوف الضرر على المصالح والمنافع فيقولون مدهوشين ، أمثل ذلك الشعب الوادع المستقر يثور لمثل هذا الضرر اليسير أو لغير ضرر على الإطلاق ، والواقع أن الذى يثور هذه الثورة غالباً هو المحافظ المغرق فى المحافظة ، لأنه لو فرط فى محافظته ينسى المصلحة فى سبيل العادات»[1] ، وهكذا يقدم لنا الأستاذ العقاد تفسيراً ثقافياً واضحاً لجمع الفلاح المصرى بين الاستقرار والثورة فى شخصية واحدة .

٣ ــ الارتباط الشديد بالأرض ، يرتبط الفلاح المصرى عاطفياً بأرضه ، مصدر الحياة ، ومثوى الأجداد ، ومنبع الأمان والاستقرار ، ومكان لقاء الأقارب والأحباب ، ولذلك يحب الفلاح المصرى أرضه ، ويخاف عليها كما يخاف على عرضه ، ويدافع عن قيراط أرضه أو عن حقه فى رى أرضه أو عن محصول أرضه بكل ما أوتى من قوة ، بل قد يجود بحياته راضياً من أجل أرضه . يفسر هذا الارتباط العاطفى بالأرض شدة وطنية الفلاح المصرى ، وهناك أدلة كثيرة على الارتباط الشديد بأرض الوطن ، منها أن الفلاح المصرى لم يهاجر فى صورة جماعية برغم عمليات الاضطهاد والتعذيب التى تعرض لها من الملوك الطغاة والإقطاعيين والمستعمرين المستغلين ، فخلال تاريخ مصر الطويل ، لم تحدث أى هجرة جماعية إلا فى عهد محمد على ، وفى أيامنا هذه عندما هاجر الفلاح المصرى من حقول منطقة القناة فى فترة التهجير ، وقد تعرضت تلك المنطقة لكثير من الأهوال والدمار بسبب المعارك الحربية التى لم تهدأ لعدة سنوات ، وعندما حدثت الثغرة ، رفض الفلاح المصرى ترك أرضه برغم وجود الجنود الإسرائيليين وبرغم الجرائم البشعة التى اقترفوها فترة تواجدهم : « إن الارتباط بالأرض نتاج طبيعى للوضع التاريخى والجغرافى والحضارى لمصر ، فإذا ما أراد عدو أن يزحزح الإنسان المصرى عن أرضه ، إلى أين يذهب ، ليس حوله إلا الصحراء من كل جانب ، حيث الجدب والموت ، إذن فإما أن يموت شهيداً فوق أرضه ، أو يبقى »[2] .

يشعر المؤلف أن الحماس الوطنى وفرحة الانتصار قد أثرا فى عرض هذا البعد من الشخصية المصرية ، مما يجعلنا فى حاجة إلى عرض بعد آخر لا يتسم بتلك الصبغة الوردية وهو بعد الازدواجية ، وللأسف أن الدراسات التى بحثت هذا البعد ، قد صبغت بنزعة تشاؤمية وهى النزعة التى سادت دراسة الشخصية المصرية والعربية بعد هزيمة عام ١٩٦٧ .

رابعاً ــ الازدواجية :

شرح د . حسن حنفى تلك الخاصية فى مقالة قيمة ، وحدد مظاهرها فى أربعة جوانب ، الازدواجية بين الإنشاء والإخبار ، وبين القول والاعتقاد ، وبين القول والعمل ، وأخيراً بين الداخل والخارج . يقصد بالازدواجية بين الإنشاء والإخبار أننا كثيراً ما نفكر ويكون تفكيرنا تعبيراً عن تمن لا إخباراً

---

(١) عباس العقاد : سعد زغلول ــ المقدمة ــ القاهرة ١٩٤٥ .
(٢) جمال الغيطانى : المصريون والحرب ــ روز اليوسف ــ القاهرة ١٩٧٣ ــ ص ٣٩ .

بواقع . ولذلك فقد الخبر قيمته لأنه يعبر عن الواقع . حتى فقد تأثيره وأهميته . ويتمثل المظهر الثانى من مظاهر الازدواجية فى الفصل بين القول والاعتقاد . فنحن نقول ما لا نعتقد . ونعتقد ما لا نقول حتى لقد أصبحت النصيحة الشائعة هى أن نردد ما يعتقده الآخرون . وتبدو الازدواجية فى مظهر ثالث ، فكثيراً ما نصرح بشيء ولا نعمله . ونعمل شيئا لا نصرح به . حتى لقد أصبح القول ميدانا خاصًّا تتحقق فيه المنجزات . ويجمع المظهر الرابع ، وهو الأزدواجية بين الداخل والخارج . المظاهر الثلاثة السابقة[١] .

ويشبه تركيز د . حسن حنفى على سمة الازدواجية فى الشخصية المصرية — تركيز د . حامد عمار على سمة « الفهلوية » ، وهى سمة عامة يندرج تحتها عدة سمات خاصة ، ويحدد د. حامد عمار الشخصية الفهلوية بست سمات أساسية ، وهى أولا ، القدرة على التكيف السريع لمختلف المواقف ، وإدراك ما تتطلبه من استجابات مرغوبة والتصرف وفقاً لمقتضياتها إلى الحد الذى يراه مناسباً . وتتميز تلك القدرة بجانبين متلازمين ، وهما المرونة ، والفطنة والقابلية للهضم والتمثل للجديد والمسايرة السطحية والمجاملة العابرة التى يقصد منها تغطية الموقف وتورية المشاعر الحقيقية ، مما لا يعنى الارتباط الحقيقى بما يقوله المرء أو بما قد يقوم به من مظاهر سلوكية ، وهنا تطابق بين هذه السمة وسمة الازدواجية بين القول والعمل ، أما السمة الثانية فهى النكتة المواتية التى غدت من الخصائص التى يتميز بها النمط المصرى ، والسمة الثالثة هى المبالغة فى تأكيد الذات والميل الملح إلى إظهار القدرة الفائقة والتحكم فى الأمور ، والسمة الرابعة هى سيادة نظرة رومانتيكية للمساواة ، حيث يشعر المصرى فى قرارة نفسه بالنقمة والسخط على الأوضاع التى توجد التمايز والتفرقة أيًّا كان نوعها ، ومهما تكن دوافعها ومبرراتها ، والسمة الخامسة هى الطمأنينة إلى العمل الفردى وإيثاره على العمل الجماعى ، والسمة السادسة والأخيرة هى سيادة الرغبة فى الوصول إلى الهدف بأقصر الطرق وأسرعها ، وعدم الاعتراف بالمسالك الطبيعية[٢] .

ومن أهم المعدات النفسية التى تتزود بها شخصية الفهلوى هى عملية « الإزاحة والإسقاط » ، وبفضل إزاحة المسئولية عن غيره من الناس أو إسقاطها على أمور خارج نطاق الذات يسهل تبرير ما قد يقع فيه المرء من مواقف محرجة ، أو تقصير فى المسئوليات الاجتماعية ، وتزداد الفهلوة بازدياد القدرة على احكام هذه العملية الإزاحية والإسقاطية ، ويجب ملاحظة أن هذا التصور الذى وضعه د . حامد عمار لا يخرج عن كونه « فرضاً » يحتاج إلى مزيد من المناقشة واستكمال الأدلة التى تثبته أو تدحضه . واعتقادنا الشخصية الفهلوية تنتشر فى الطبقة الوسطى من سكان المدن بصورة أقوى من انتشارها فى طبقة الفلاحين ، ومما يؤيد ذلك أن د . فؤاد مرسى[٣] قد حدد ملامح الطبقة البورجوازية الصغيرة بأنها التردد والتقلب وضيق الأفق والهرب من الواقع .

---

(١) د. حسن حنفى : التفكير الدينى وازدواجية الشخصية — مجلة الفكر المعاصر أبريل ١٩٦٩ من ص ٥٨ إلى ص ٦٣ . . .

(٢) د. حامد عمار : فى بناء البشر : دراسات فى التغير الحضارى والفكر التربوى ، منشورات سرس الليان ١٩٦٤ ، من ص ٧٩ إلى ص ٩٠ .

(٣) د. فؤاد مرسى : البعد الاجتماعى للشخصية المصرية الحاضرة — مجلة الفكر المعاصر — العدد ٥٠ — القاهرة ١٩٦٩ — ص

الشواهد الثقافية :

١ ــ يشير د . حسن حنفى إلى عدد من الأمثلة الشعبية للدلالة على وجود ازدواجية بين الإنشاء والإخبار فمثلا : « مين يقرأ ومين يسمع » ــ « نص الكلام مالوش جواب » ــ « يابو حسين اقرأ الجواب ، قال مين يقرا ومين يسمع » ــ « زى البرابرة عشرة يتكلموا وواحد يسمع » ــ « كلمة توديتا وكلمة تجيبنا »(١) ــ « كلمة باطل تجبر الخاطر » ــ « أقول طور يقول احلبه » ــ « أقول له أغا يقول ولاده كام » ــ « كلمة بكرة زرعوها ما طلعتش » ــ « عصفور فى اليد ولا عشرة فى الشجر »(١) .

٢ ــ وتوجد أمثلة شعبية أخرى تؤيد وجود سمة الازدواجية بين القول والاعتقاد فى الشخصية المصرية ، فمثلا : « اكتم سرك تملك أمرك » ــ « يا قلب يا كتكت اسمع الكلام واسكت » ــ « يا عينى إن شفتى ما رايتى ، وإن شهدوكى قولى كنت فى بيتى » ــ « ودن من طين وودن من عجين »(٢) .

٣ ــ ولا يخلو التراث الشعبى المصرى من بعض الأمثلة الشعبية التى تعبر عن وجود سمة الازدواجية بين القول والعمل ، فمثلا : « يحلف لى أصدقه أشوف أموره أستعجب » ــ « أسمع جعجعة ولا أرى طحنا » ــ « القد قد الفولة والحس حس الغولة » ــ « زى الكلب اللى ينبح ما يعضش » ــ ــ « خد من كلام الشيخ ولا تاخدوش من أعماله »(٣) .

٤ ــ ومما يؤيد وجود سمة الازدواج بين الداخل والخارج ، ظهور شخصيات شعبية تعبر عن تلك الازدواجية ، ومن أمثلة ذلك شخصية « الفشار » وشخصية « الرغاى » وشخصية « المهياص » و « البكاش » « وأبو لمعة » و« غنى الحرب » ، كذلك يوجد الكثير من الأمثلة الشعبية التى تعبر عن تلك الازدواجية منها : « كثير النط قليل الصيد » « زى الحما فاضية ومشبوكة » « ما كان ناقص على ستى إلا طرطور نسيدى » ــ « زى الحيله الكدابة » ــ ــ « زى بعجر أغا ما فيه إلا الاشنبات » ــ « الوش مزين والقلب حزين » ــ « ما كل من ركب الحصان خيال » « يا ما تحت السواهى دواهى » ــ « اتمسكن لما تتمكن » « كل راس مطاطية تحتها ألف بليه »(٤) .

٥ ــ أسهب المؤرخون فى سرد بعض الخصائص عن المصريين تتفق مع سمة الازدواجية ، ومن أمثلة ذلك أن المقريزى يذكر من بين الصفات التى تغلب على أخلاق المصريين : الدعة والجبن وسرعة الخوف والنميمة والسعى إلى السلطان ، ويقول أيضاً إن للمصريين خبرة بالكيد والمكر(٥) .

٦ ــ كثرة الحلفان بالله سبحانه وتعالى ، أو بالطلاق من الزوجة ، بصورة غير جدية .

---

(١) د. حسن حنفى : المرجع السابق ص ٥٩ .
(٢) المرجع السابق : ص ٦٠ .
(٣) المرجع السابق : ص ٦٢ ، ٦٣ .
(٤) المرجع السابق : ص ٦٣ .
(٥) المقريزى : الخطط ــ جـ ١ ص ٧١ ، ٨٨ .

٧ – الزلفى للرؤساء فى العمل . كثرة وتكرار الاحترامات والألفاظ المعبرة عن الترحيب بالزائرين والأصدقاء . وكثيراً ماتعبر تلك الألفاظ عن واجب المجاملة وليس بما يجول فى نفس الشخص من مشاعر .

المحددات الثقافية :

يتفق الرأى على إرجاع خاصية الازدواجية فى الشخصية المصرية إلى الطغيان الإقطاعى وإلى فترات الاستعمار الطويلة ، وإلى أساليب التعذيب الوحشية التى تعرض لها الفلاح المصرى لمئات السنين . وفى هذا المعنى يقول د . جمال حمدان : « ولهذا فإن الصفات والمزايا الأخلاقية التى يجدر بالبيئة الفيضية أن تعلمها – وعلمتها بالفعل حينا – لم تلبث أن انحرفت تحت البطش والطغيان الإقطاعى فى ظل انتخابه الاجتماعى المعوج إلى نقائضها . فالنظام والقانون أصبحا جبنا واستكانة ووشاية أو سلبية . وروح التعاون التى تربط السكان أصلا ضد « العنصر » تحولت إلى المحسوبية والمحاباة كما انقلبت إلى الآخذ بالثار وأما المزاج الانطلاقى الذى غذته بيئة القرية النووية فتدهور إلى تزلف ورياء وسعى لدى السلطان، وكذلك إلى روح السخرية المريرة المشهورة »[١]. « كان الإقطاع هو القاعدة الأصولية والاستغلال المطلق هو الأمر اليومى ، ولقد كانت السخرة والكرباج والتعذيب من وسائل الإرهاب منذ الفراعنة . وحتى العثمانيين وكانت تندرج على كل المستويات ابتداء من الحاكم خلال الباشا والعمدة حتى الخفير النظامى[٢]» « لا يعرف تاريخ مصر من ينكر أن الطغيان والبطش من جانب والاستكانة والزلفى من الجانب الآخر هو من أعمق وأسوأ خطوط الحياة المصرية على العصور . فهى فى الحقيقة النغمة الحزينة الدالة . . فى دراما التاريخ المصرى »[٣].

يتضح لنا مما سبق أن البناء الاجتماعى للمجتمع المصرى التقليدى كان يتميز بطبقة ملكية طاغية وطبقة أرستقراطية إقطاعية يسندها جهاز بيروقراطى ضخم ، وطبقة عريضة من الفلاحين الفقراء ، وكانت الطبقة الوسطى المتمثلة فى أرباب المهن والحرف صغيرة الحجم ، ولذلك لم تؤثر فى النمط العام للعلاقات بين طبقات المجتمع ، وهو نمط الاستغلال والاستبداد ، ويساعد الاستغلال والاستبداد على انتشار سمة الازدواجية فى شخصيات الفلاحين : « ولم يكن من العسير على الطبقة الحاكمة والمستغلة أن تجد من بين أفرادها ومن الانتهازيين من جماهير الشعب من يتولى عملية الدفاع عن هذه الأوضاع وتبريرها . والأغنية « الطريفة » التى تقول « محلاها عيشة الفلاح – مطمن قلبه ومرتاح الشكوى عمره ما قلهاش أن لاقى ولاملقاش » ، هى مثال من أمثلة عديدة على الدور الخطير الذى لعبه المثقفون

---

(١) د. جمال حمدان : شخصية مصر : دراسة فى عبقرية المكان ، كتاب الهلال القاهرة ١٩٦٧ ص٥٨ .
(٢) المرجع السابق ص ٦٥ .
(٣) المرجع السابق ص ٧٢ .

التقليديون فى تخدير الفلاح المصرى وقتل روح التمرد والقدرة عليه ، وبالتالى تمكين الطبقة المستغلة منه » [١] .

يسود الريف المصرى التقليدى نظام الأسرة الممتدة ، وهى الأسرة التى تتكون من الأب وزوجته أو زوجاته وأبنائه الذكور وزوجاتهم وأطفالهم وبناته غير المتزوجات ، وتكون الأسرة الممتدة وحدة اقتصادية متعاونة ، ويكون مؤسس الأسرة الممتدة إذا كان حياً هو رئيس ومنظم تلك الوحدة الاقتصادية ، وكثيراً ما يتمتع هذا الأب بسلطات واسعة على أبنائه وعائلاتهم ، ولذلك يسمى هذا الشكل للأسرة باصطلاح « الأسرة الأبوية الكبيرة » ، ويقوم الأب بإدارة كل الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية فى الأسرة مثل زراعة الحقول وتوزيع العمل ورعى القطعان واختيار الزوجات لأبنائه ودفع مهور تلك الزوجات ، ويتمتع الأب هنا بسلطات مطلقة ، وعلى الأبناء والبنات احترامه والخضوع لأوامره بدون مناقشة ، وطالما كان الأب حياً فإن الأبناء لا يستطيعون تكوين ثروات شخصية ، وعندما يموت الأب يرث الابن الأكبر مركز والده القيادى ولكن بصورة محدودة [٢] : تلعب السلطات المطلقة التى يتمتع بها الأب فى نظام الأسرة الممتدة دوراً هاماً فى تكوين اتجاهات الازدواجية فى الشخصية عند الأطفال الذين يخافون الأب الحاكم المطلق فى الأسرة .

عانى الفلاح المصرى من الفقر والحرمان الاقتصادى لقرون طويلة من الزمان . . . وخاصة أن الغالبية العظمى من الفلاحين أجراء وليسوا ملاك أرض ، وتملك الأقلية منهم مساحات صغيرة من الأرض يتقاسمها الأبناء بعد موت الأب ، ومن المتوقع أن يساعد الحرمان الاقتصادى المستمر على انتشار اتجاهات النفاق والرياء والخوف والزلفى ، وهى من مظاهر ازدواجية الشخصية . ويعطى الأستاذ محمود رجب فى بحثه عن الشخصية المصرية أهمية كبرى لعامل الفقر ، ويعتبر الفقر عنصراً أساسياً من عناصر اغتراب الإنسان المصرى ، ويقول : « فقد تغلغل الفقر فى جوانب كثيرة من الحياة المصرية ، لدرجة دفع معها أحد علماء الدين إلى أن يؤلف كتاباً يحلل فيه ظاهرة الفقر والفقراء ، والكتاب عنوانه : الفلاكة والمفلكون ، نشر سنة ١٣٢١ هجرية ، وإن يكن قد ألف قبل هذا التاريخ « والفلاكة » — فى نظره يلزمها القهر والإكراه ، (ومتى استولى القهر والغلبة على شخص ، حدثت فيه أخلاق رديئة : من الكذب وفساد الطوية ، والخبث والخديعة ، وثمة آفات نفسية تنشأ من الفلاكة ، لعل أهمها وأخطرها الحقد الذى يعوق المفلوك عن أعماله ، فيصير ألماً صرفاً ، ووسواساً سوداوياً ، ومنعصية مجردة) ص ١٥ » [٣] .

ويشير الأستاذ رجب إلى بعض الأمثلة الشعبية التى تمجد الفقر ، مثل « الفقر حشمة » ، والتى

---

(١) د. عزت حجازى : الشخصية المصرية بين السلبية والإيجابية — مجلة الفكر المعاصر — القاهرة ١٩٦٩ ص ٤٥ .

(٢) د. عاطف وصفى : الأنثروبولوجيا الاجتماعية — دار المعارف بمصر — القاهرة ١٩٦٧ ص ١٢١ .

(٣) محمود رجب : نحن وظاهرة الاغتراب — مجلة الفكر المعاصر — العدد ٥٠ — القاهرة ١٩٦٩ ص ٨٧ .

تذم الدنيا الفانية مثل « نضربها طبنجة » ، وفيما يتعلق بالخضوع للحكام . يذكر المثلين العامين : « فإن كنت فى بلد يعبدوا الجحش ، حش وارمى له » و« ارقص للقرد فى زمانه » ؛ وتسود النزعة التشاؤمية هذا البحث ، وهى النزعة التى سادت معظم المؤلفات بعد هزيمة عام ١٩٦٧ ويتضح ذلك من قول الباحث : « لقد عاش الإنسان المصرى الشقاء وتجسده . وشعوره به لم يمس سوى إدراكه العادى العام ، ولكن لم يتحول هذا الشعور بالشقاء إلى وعى جارف يدفعه إما إلى العبقرية أو الجنون . إن رد الفعل، رد فعل الإنسان المصرى على العصر البائس الذى يعيش فيه يتمثل فى قولته الموجزة : (هذا زمن أغبر) ، كأنما هى بصقة أو لعنة يقذفها فى وجه الوضع الفاسد وكفى الله المؤمنين القتال »[1] .

خامساً ــ الحزن والفكاهة :

يتفق معظم دارسى الشخصية المصرية على أن الحزن من أهم ملامحها ، ويستنتجون وجود تلك الخاصية من تحليل الكثير من عادات وتقاليد وطقوس الشعب المصرى . وكذلك من الفولكلور المصرى وخاصة الغناء العاطفى ، ويرى البعض أن المصرى يشعر فى أعماقه بالاكتئاب الذى هو طابع مزاجه الدائم ، وأنه يشعر بالقلق إذا استمتع « خلسة » بالحياة ولو للحظة ، ولهذا يعبر المصرى عن قلقه عندما تغمره السعادة والنشوة بترديد عبارة « اللهم اجعله خير »[2]. ونحن إذا حزنا نبكى ونبكى كذلك إذا فرحنا ، ونحن نضحك بصوت عال . وقليلا ما نبتسم ، « وإذا فرحنا ، وإذا كنا نبكى ، نبكى كذلك بصوت عال ، ونحن نحزن كثيراً ولكن قليلا ما نغضب . . ونحن إذا غضبنا . . فإن العواطف الجياشة تملأ صدورنا وتشل تفكيرنا الموضوعى . . وحتى إذا غضبنا فسرعان ما نصفو . . فغضبنا كالبرق اللامع »[3] هل نفهم من ذلك أننا شعب عاطفى ؟ أم أننا شعب منفعل ؟ أم أننا شعب عاطفى منفعل فى الوقت نفسه ؟ إن هذه التعميمات غير الدقيقة تحتاج إلى دراسات من المتخصصين فى علم النفس لتوضيحها ولصياغتها فى أسلوب علمى دقيق .

ويتفق الرأى كذلك على أن الشعب المصرى يحب الفكاهة، وتشغل النكتة مكانا هاماً فى التراث الشعبى المصرى ، لذلك اشتهر الشعب المصرى بأنه أكثر الشعوب العربية ، وربما أكثر شعوب العالم تنكيتا ، والنكتة سلاح ، يستخدمه الفلاح المصرى فى الرد على مستغليه من المستعمرين والإقطاعيين ، وهو سلاح يسهل إخفاؤه ، وكذلك تنتشر النكت السياسية والاجتماعية فى أوقات الأزمات والنكسات ، وفى التندر على الحكام الطغاة مثل قراقوش والحاكم بأمر الله ، وتضعف فى فترات الرخاء والانتصار ، ويرى البعض أن النكتة هى الوسيلة التنفيسية التى يعبر بها الفلاح المصرى عن سخطه وغضبه وسخريته من مستغليه . « ولعل هذا يفسر مابدا لأحمد أمين غريبا من (أن أشد الناس بؤسا وأسوأهم عيشة وأقلهم

(١) المرجع السابق ، ص ٨٦ .
(٢) د. عزت حجازى : الشخصية المصرية بين السلبية والإيجابية ــ ص ٤٨ .
(٣) د. سيد عويس : ظاهرة الموت .. فى حياة المصريين .. ص ٧١ .

مالا وأخلاهم يداً أكثر الناس نكتة) . . (وكأن الطبيعة التى تداوى نفسها بنفسها رأت البؤس داء فعالجته بالنكتة دواء) »[١] .

وقد يتبادر إلى الذهن أن هناك تعارضاً ، كما يبدو من العبارة السابقة ، بين بعد الحزن و بعد الفكاهة فى الشخصية المصرية ، ولكن الدراسة التحليلية للنكت المصرية ، وخاصة السياسية والاجتماعية منها ، تبين أن هذه النكت ، برغم قوه تأثيرها فى إضحاك المستمع إليها لدرجة جعلت القهقهة العالية من سمات المصريين تقوم بوظيفة تنفيسية بجانب وظيفتها الفكاهية ، فهى تعبر عن شده الألم والحزن الذى يشعر به المصرى فى فترات الطغيان والاستبداد والهزائم ، فإن هذا التعارض بين الحزن والفكاهة هو تعارض ظاهرى ، لأن الحزن الشديد هو سبب إطلاق النكت القوية ، ومما يؤيد هذا الفرض قلة تداول النكت فى فترات الرخاء والانتصار ، ونحن فى أشد الحاجة إلى الإكثار من الدراسات الخاصة بتدوين النكت المصرية وتصنيفها وتحليلها ودراستها دراسة علمية ، وذلك لأن النكت تشغل مكانا بارزاً فى الأدب الشعبى المصرى .

الشواهد الثقافية :

١ ـ يعبر الغناء المصرى ، سواء كان شعبيًّا أو رسميًّا ، على تأصل خاصية الحزن فى الشخصية المصرية ، وذلك لكثرة الأغانى العاطفية التى تعبر عن الحرمان وهجر الحبيب واستحالة الوصال وسهر الليالى والأرق فى التفكير فى الحبيب ، هذا بالإضافة إلى كثرة استخدام لفظ « الليل » الذى يعبر عن الظلام والحزن و « العين » التى ترمز للدموع التى تذرف ، وكثره « الآهات » فى الأغانى المصرية ، وتجمع الأغانى بين كلمة « الليل » وكلمة « العين » معاً فى عبارة واحدة ، وتنتشر تلك العبارة فى معظم الأغانى الشعبية والرسمية .

٢ ـ تتضح خاصية الحزن فى طقوس وعادات الجنازات ، تتسم تلك الطقوس ، منذ القدم ، بالمبالغة فى التعبير عن مشاعر الحزن التى تملأ صدور المصريين عند وفاة الأقارب والأصدقاء . ويقول الدكتور سيد عويس فى هذا الموضوع : « لقد أبدع مجتمعنا نظما اجتماعية فريدة لهذه المناسبة ، نظماً تنسق البكاء والصراخ والصوات . . ، نظماً خلقت دور « المعددة » أو دور « الندابة » . . . ودور « ضاربة الطار » ، نظماً يعمل بها الأحياء عند وفاة الأقرباء وغير الأقرباء ، وبعد الوفاة ، وفى أثناء تشييع الجنازة أو عند الدفن وبعد الدفن ، نظماً للتعزية والعزاء . . إلخ ، صحيح . . إن معظم هذه النظم غير ثابت ، وأنه يتطور ، ولكنه باق لا يزال ، وصحيح أنها بدع لا يقرها عقل أو دين ، ولكنها لا تزال باقية »[٢] .

---

(١) د. عزت حجازى : الشخصية المصرية بين السلبية والإيجابية .. ص ٤٨ .

(٢) د. سيد عويس : ظاهرة الموت .. فى حياة المصريين .. ص ٧١ .

٣ — يرتبط اللون الأسود بمشاعر الحزن فى بلدنا . ولذلك تلبس المرأة المصرية ملابس سوداء لفترة معينة عندما يموت قريب لها أو حتى جار أو صديق . وإذا تذكرنا أن الجلباب الشعبى للفلاحة المصرية هو رداء أسود اللون . يتضح لنا أن هذا الاختيار الشعبى التلقائى لهذا اللون قد يعبر . بصورة لا شعورية عن مسحة الحزن التى تسود الشخصية المصرية .

٤ — يضفى المجتمع المصرى قيمة مرتفعة على نظام التعزية . ولذلك ينسى المتخاصمون خصوماتهم فى حالة الموت ، ويسارعون إلى تقديم العزاء . وكثيراً ما تصفو النفوس بعد تقديم العزاء لأهل المتوفى . وفى الوقت نفسه تنشأ الخصومات بين العائلات والأفراد بسبب عدم احترام العادات المحلية المرتبطة بنظام التعزية .

٥ — وتعكس بعض الأقاصيص الشعبية والملاحم المصرية سمة الحزن والألم وتربطها بالصبر فى كثير من الأحيان ، ومن أمثلة ذلك القصص الخاصة بشخصية أيوب المصرى وهى شخصية المتألم الصابر ، وتعبر تلك الشخصية عن تصور المصرى لذاته .

٦ — يطلق الشعب المصرى النكات والفكاهات فى أحلك الأوقات وأشد الأزمات . واشتهر الإنسان المصرى بخفة دمه وإتقانه فن إلقاء النكتة ، حتى إنه إذا سافر إلى أى مكان فى العالم . فإن السؤال التقليدى الذى ينتظره دائما ، ما هى آخر نكتة فى مصر ؟ واشتهرت مصر بالصحافة الضاحكة ، ومن أشهر أدباء الفكاهة فى الماضى القريب الأساتذة يعقوب بن صنوع وعبد الله النديم وحسين شفيق المصرى وعبد السلام شهاب ومحمد مصطفى حمام . وكانت الصحف الفكاهية من أكثر الصحف المصرية انتشاراً ، مما يعبر عن حب الشعب المصرى للنكتة ، ومن أمثلة الصحف الفكاهية التى كانت منتشرة فى مصر إلى عهد قريب السيف والناس والمسامير وألف نكتة والمطرقة والكشكول والفكاهة والاثنين والبعكوكة .

واليوم تلقى الأفلام والمسرحيات الكوميدية إقبالا شديداً عند الشعب المصرى ، ويجب ملاحظة أن هذا البعد يتخطى الحواجز الطبقية وينتشر فى جميع طبقات الشعب المصرى ، ولا يقتصر وجوده على طبقة الفلاحين ، ولذلك يعتمد المؤلف على الشواهد الثقافية المكتوبة الخاصة بالطبقتين الوسطى والعليا .

المحددات الثقافية :

نعود هنا إلى الظروف الاجتماعية والسياسية القاسية التى خيمت على الفلاح المصرى لآلاف السنين ، وهى الطغيان والاستبداد والإقطاع والاستعمار ، فمن الواضح أن تطبع تلك النظم الاجتماعية القاسية شخصية الفلاح المصرى بالحزن والألم ، وخاصة أنه يرى ثمار جهده ينعم بها المستعمرون والسادة ، ولا يتركوان له سوى الفتات « ولقد كانت مصر . فى أواخر القرن السابع الهجرى ، تقسم إلى أربعة وعشرين قيراطا ، أربعة للسلطان وعشرة للأمراء ، وعشرة للجند ، ويتساءل الدكتور حسين فوزى الذى نقل إلينا الحسبة أو المعادلة من ابن إياس : أين نصيب الشعب المصرى منها ؟ ويجيب : إنه القيراط

الخامس والعشرون ، ومكانه . . مملكة السماء . لذلك ، غلب الفقر والإملاق على معظم المصريين ، وكثرت الأمثلة الشعبية التى تمجد الفقر بوصفه (حشمة) »[1] .

عانى الفلاح المصرى ، من استبداد المستعمرين والطغاة قرابة العشرين قرنا من الزمان . فأولا : الفترة من عام ١٧٠٠ ق.م إلى عام ١٥٥٥ ق.م ، وفيها احتل الهكسوس مصر ، وتعرض الفلاح المصرى لطغيان شديد من الهكسوس ومن حكم أسرات غير معروفة ، وثانيا الفترة من عام ٦٦٣ق.م إلى عام ٥٢٥ ق.م وفيها عمت الفوضى والخراب والدمار فى جميع أرجاء مصر ، وثالثا الفترة من ٥٢٥ ق.م إلى ٤٠٤ ق.م ، وهى فترة الاستعمار الفارسى الأولى وما صاحبها من مظالم وإفلاس للخزينة المصرية ، وفيها قام الفلاح المصرى بثلاث ثورات ، فشلت اثنتان منها ، ونجحت الثالثة بعد تدهور الحكم الفارسى . ولكن عاد الاستعمار الفارسى مرة ثانية فى الفترة ما بين عام ٣٤١ق.م إلى عام ٣٣٣ق. م وعاث فى البلاد فساداً وخراباً . ورابعا ، فترة الاستعمار الإغريقى والبطلمى من عام ٣٣١ق . م إلى عام ٣١ق.م فيها وصلت مصر إلى الحضيض ، وتلى ذلك مباشرة فترة الاستعمار الرومانى من عام ٣١ ق . م حتى عام ٦١٨ ميلادية ، وتسمى تلك الفترة بعصر الشهداء ، إذ شهدت تلك الحقبة الطويلة من تاريخ مصر عملية انتشار الدين المسيحى فى مصر وما صاحبها من حملات الاضطهاد الرهيبة التى قامت بها الإمبراطورية الرومانية ضد الشعب المصرى . وأخيراً فترة الاستعمار التركى والاستعمار الفرنسى والاستعمار البريطانى ، وهى الفترة التى امتدت إلى سبعة قرون من الزمان ، من عام ١٢٥٠ ميلادية حتى عام ١٩٥٢ ولا يجهل أحد ألوان العذاب التى لقيها الفلاح المصرى على أيدى الأتراك .

وهكذا عاش الفلاح المصرى طوال ألفى عام ، وهو معدم ، لا يملك شيئاً تقريباً ، ولا يعرف عن السلطة أو الحكومة إلا السخرة وتحصيل الضرائب وتعنت الموظفين وفظاظة رجال الشرطة ، ولا شك أن تلك المعاملة القاسية ، بالإضافة إلى الفقر الشديد ، هى المسئولة عن انتشار مسحة الحزن فى القاعدة العريضة من الشعب المصرى أى فى طبقة الفلاحين .

واستخدم الفلاح المصرى كل الوسائل الممكنة للتخلص من تلك القيود التى فرضها عليه الاستعمار القادم من الخارج والإقطاع المتأصل فى الداخل ، ومن تلك الوسائل الثورات الشعبية التى ترجع فى قدمها إلى قدم أول ثورة شعبية عرفها التاريخ الإنسانى ، فقد ثار الفلاح المصرى فى نهاية الدولة القديمة ضد النظام الإقطاعى ، وظلم الأمراء وجور الفراعنة ، واستمرت الثورة ما يقرب من مائة وخمسين عاما ، وتلى تلك الثورة ثورات وانتفاضات تزخر بها كتب التاريخ . وبالإضافة إلى الثورات الشعبية ، يستخدم الشعب المصرى سلاحا آخر ، وهو النكتة اللاذعة ، التى يسخر فيها من مستعمريه ومستغليه ، بل ويسخر فيها من نفسه ومن السلبيات التى تعوق تقدمه . وهكذا فإن النكتة المصرية ، كانت ولا تزال سلاحاً شعبياً للمقاومة والاحتجاج ، ويستخدم الإنسان المصرى هذا السلاح فى فترات الطغيان

---

(١) محمود رجب : نحن وظاهرة الاغتراب ، مجلة الفكر المعاصر ، العدد ٥٠ القاهرة ١٩٦٩ ص ٨٧ .

والهزائم . وأقرب الأمثلة إلينا . هذا السيل الجارف من النكت الذى انتشر بعد هزيمة ١٩٦٧ . للتعبير عن رأى الشعب فى السلبيات والأخطاء التى صاحبت تلك الهزيمة ، ولم يكن هناك وسيلة أخرى للتعبير عن رأى الشعب . وجدير بالملاحظة أن النكت قد قلت واختفت تقريبا بعد تحقيق انتصارات أكتوبر عام ١٩٧٣ ، مما يدعم الافتراض القائل بأن ظاهرة النكت هى وسيلة تنفيسية . يستخدمها الشعب المصرى للتنفيس عن آلامه وأحزانه . وهكذا لا تقتصر وظيفتها على الأضحاك فقط . « فمن المعروف فى سيكلوجية النكتة — كما فسرها فرويد بصفة خاصة — أن أحد الدوافع الأساسية فى خلق النكتة هو العدوان ، غير أنه عدوان مكبوت لأن التعبير عنه صراحة يثير الخوف والقلق . ولذلك تخرج النكتة عن نحو يخدع الرقابة والقوى الكابتة . والنكتة حيلة يلجأ إليها الفرد فى المجتمع ليريح نفسه من عناء الواجبات الثقيلة ، ويتحلل بها من الحرج الذى توقعه فيه المسئولية . وهى فى أوقات الألم والضيق والمشقة تعبر عن رغبات الناس وآمالهم المكبوتة المكفوفة . والنكتة بالإضافة إلى ذلك تقوم بوظيفة رفع اعتبار الذات واستعادة قدرها وقيمتها والإحساس بالكيان ، أو الاطمئنان على قدرة الذات واستعادة الثقة بها »[1].

سادساً — الكرامة :

يتميز الإنسان المصرى ، وبصورة عامة الإنسان العربى ، بالحفاظ على كرامته ، والدفاع عنها بكل ما أوتى من قوة ، ويشعر المصرى بحزن عميق عندما يخدش أحد كبرياءه ، أو عندما ينال من كرامته ، والكرامة مفهوم عام مجرد يشمل مجموعة من الأبعاد الخاصة المحددة ، منها الحفاظ على ماء الوجه والحفاظ على العرض والشرف والمروءة والتعاون والكرم، « فقد لا يكون فى العالم كله مجتمع آخر تمثل فيه قيمة (الحفاظ على ماء الوجه) ما تمثله فى شخصية المصرى والعربى بعامة . ويؤدى الخوف من التورط فى أخطاء قد تنال من « ماء الوجه » إلى ممارسة المصرى لقدر من الضبط لسلوكه يبلغ فى أحيان كثيرة درجة الكف المرضى . ويؤدى الإحساس بالضعة نتيجة لحدوث ما يقلل من ماء الوجه إلى إقدام المصرى على الانتحار فى بعض الأحيان »[2]، والشعب المصرى شعب كريم، يحترم الضيف ويرحب به ويقدم له الطعام والشراب ، ويحافظ الإنسان المصرى على صلة المودة مع جاره ، ويقدم له العون فى الأزمات ، ويحترم المصرى كبار السن والنساء والأطفال ، ولذلك يتسامح إذا أصابه ايذاء أو مكروه من أى فرد ينتمى لهذه الفئات الثلاث ، ويشعر بالخزى والعار إذا فرطت الفتاة فى عرضها ، ولا يهدأ له بال إلا إذا غسل هذا العار بالدم ، ولا يتردد الرجل المصرى فى قتل زوجته إذا خانته . وقد تطورت عادة الكرم عند الطبقات الغنية وأصبحت بذخا وترفا ، وحاولت الطبقات الشعبية تقليدها فى هذا البذخ والترف حتى أصبح التفاخر والتظاهر من الظواهر المنتشرة فى المجتمع المصرى ، وتتجلى تلك الظواهر فى

---

(١) د. سعد المغربى : نزعة الابتعاد عن الواقع — مجلة الفكر المعاصر — العدد ٥٠ القاهرة ١٩٦٩ ص١٠٠

(٢) د. عزت حجازى : الشخصية المصرية بين السلبية والإيجابية — ص ٤٧ .

المناسبات الاجتماعية ، مثل الأفراح والمآتم والأعياد ، ففى تلك المناسبات ينفق المصريون ببذخ لا يتلاءم مع ميزانياتهم مما يؤدى إلى الاستدانة أو بيع بعض ممتلكاتهم .

الشواهد الثقافية :

١ — تكثر الأقوال المأثورة التى تدعو للتعاون والكرم والمروءة ، ومن أمثلة ذلك : اللى ياكل لوحده يزور — اللقمة الهنية تكفى مية — إيد على إيد تساعد — إيد على إيد ترمى بعيد — من قدم السبت يلقى الحد قدامه — خادم الناس يلاقى الناس خدامه — إحسن لجارك ولواساءك — اختار الجار قبل الدار — النبى وصى على سابع جار — الجار أولى بالشفعة — حبيب ماله حبيب ماله وعد وماله عدو ماله .

٢ — وتوجد بعض الأمثلة الشعبية التى تعبر عن تقاليد توقير السن ، ومنها : احترم أبوك ولو كان صعلوك واحترم كبيرك يحترمك صغيرك . وفى رثاء الأب المتوفى يقولون : بابك كبير يابا وسلمه كويس . . صبح البيت بعدك بلاريس . وفى رثاء الأم المتوفاة تقول النساء : يا امه ياطرحتى الزيتى . . يا سائله على يا امه وأنا فى بيتى ، وأن عييت يا أمه ابعتى لنا جواب . والله المطلة يا أمه عن الولايا ثواب .

٣ — إن كراهية الشعب المصرى للسلطة تعد من الشواهد الثقافية على اعتزاز الإنسان المصرى بكرامته ، فطوال هذه القرون التى تعرض فيها لأقسى ألوان الاستغلال والقهر ، لم يخضع الشعب المصرى للطغاة والإقطاعيين ، بل قاومهم واحتج على سوء معاملتهم ، فقام بالثورات الشعبية ، وقدم الشهداء بسخاء فى سبيل وطنه وأرضه ، واستخدم وسيلة النكتة اللاذعة للتعبير عن سخطه . وإلى جانب ذلك كان يكره ويحتقر السلطة ، وكان يعبر عن تلك الكراهية بأنماط سلوكية متعددة ، فمثلا ، مقاومة كثير من المجتمعات المحلية لسلطة الحكومة المركزية ، وعزوفها عن الالتزام بقوانينها ، ويتضح ذلك فى استمرار عادة « الأخذ بالثأر » فى كثير من القرى المصرية ، فقد أحس الفلاح المصرى أن العدالة كما تعرفها الدولة وتنفذها هى عدالة عاجزة عن أن تستوعب حقوقه ، لأن القانون أداة إرهاب وقهر فى يد المستعمرين والإقطاعيين . وإن عزوف الفلاحين حتى فى عهد قريب عن إرسال أولادهم للتجنيد فى « جيش السلطة » لأبلغ دليل على شدة كراهيتهم للحكومات الظالمة المستغلة ، وخاصة أنهم كانوا يدركون أن الخدمة العسكرية كانت إلى عهد قريب مقصورة على أبنائهم فقط ، لأن الأغنياء ومتوسطى الحال كان فى مقدورهم دفع البدل النقدى للخدمة العسكرية أو دفع رشوة للطبيب المكلف بفحص المطلوبين واختيار اللائقين للخدمة منهم . ولذلك كان المجند يودع بالصراخ والعويل كما لو كان ذاهبا إلى حتفه .

٤ — الشعب المصرى شعب كريم برغم فقره ، ولا يقتصر كرمه على الترحيب بالضيف وتقديم الطعام والشراب له ، وإنما يظهر هذا الكرم فى توزيع الصدقات على الفقراء فى شهر رمضان وفى الأعياد وعند زيارة الأموات وزيارة أضرحة أولياء الله . ويحترم المصريون الكرماء حتى لو كانوا فقراء ، ويحتقرون البخلاء ، ويتندرون عليهم برغم غناهم ومراكزهم الاجتماعية الراقية .

المحددات الثقافية :

يرجع اعتزاز المصرى بكرامته إلى عدة عوامل ثقافية . أولها أنه متدين : إذ ينادى الإسلام ، وكذلك المسيحية ، بالحفاظ على الكرامة . وعدم السجود إلا لله سبحانه وتعالى . وثانى تلك العوامل : أن الفلاح المصرى يحمل تراثاً ثقافيًّا عريقاً ، ويشعر بمسئولية الحفاظ على هذا التراث الذى خلفه له الأجداد منذ آلاف السنين ، فهو صانع أعظم حضارة فى العصر القديم . وفى أرجاء وطنه الكبير هبطت الديانات السماوية الكبرى . ويتمتع وطنه الصغير بمناخ وموارد طبيعية ، وموقع جغرافى ممتاز ، ويزخر التاريخ المصرى بالانتصارات . فمن الطبيعى أن شعبًا يتمتع بتلك المقومات الطبيعية والثقافية الهائلة ، لابد وأن يشعر بالعزة والكرامة . وفيما يتعلق بخاصية الكرم : فإنها ترجع إلى طبيعة الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى القرية المصرية ، إذ تتميز تلك الحياة بالتعاون والتساند للتغلب على الأزمات الطبيعية مثل فترات الفيضان والتحاريق . والملمات السياسية مثل الحملات الاستعمارية واستغلال الإقطاعيين ، ويسود التعاون فى المناسبات الاجتماعية العادية مثل الأفراح والجنازات والمواسم والأعياد — هذا بالإضافة إلى أن الدين الإسلامى يدعو إلى البر والتعاون وتقديم الصدقات : ويعطى الإسلام للزكاة أهمية كبرى ، ويهتم بالسائل الذى يجب ألا ينهار .

وتمسك الفلاح المصرى بتقاليد المحافظة على الشرف والعرض يرجع إلى خصائص الثقافية القروية بصورة عامة ، وتتمثل تلك الخصائص فى المحافظة على التقاليد فى القرية وقوة التماسك الاجتماعى التى تجعل من الصعوبة بمكان إحداث تغيرات جذرية فى التقاليد والقيم الأساسية فى القرية ؛ هذا بالإضافة إلى أهمية الأسرة فى البناء الاجتماعى للقرية ، فالأسرة الممتدة هى محور هذا البناء ، وتحتل النظم العائلية مكانة الصدارة بين النظم الاجتماعية السائدة فى القرية المصرية : وهكذا فإن سمعة الأسرة وشرفها من المقدسات التى يحافظ عليها رجال الأسرة والتى فى سبيلها تهون الحياة ، ولذلك يشعر الفلاح بالعار والخزى إذا فرطت إحدى قريباته أو حتى إحدى فتيات القرية فى عرضها ، وذلك لأن الخبر سوف ينتشر فى القرية ، وكذلك فى القرى المجاورة ، ولن يرفع رأسه ثانية إلا إذا غسل هذا العار بالدم أو إذا هرب الآثمان من القرية ، وفى كثير من الأحيان يتعقبهما أهل الفتاة فى كل مكان ولا يمكن إغفال دور الدين الإسلامى فى تأكيد تلك القيم .

* * *

وأخيراً ، هذه هى أهم أبعاد الشخصية المصرية التقليدية ، وقد حاولت تفسيرها فى ضوء النظرية الأنثروبولوجية الثقافية التى تهتم بإبراز العوامل الثقافية فى تكوين الشخصية القومية لمجتمع معين ، ويجب ألا يفهم من ذلك أن الكاتب ينكر تأثير العوامل غير الثقافية فى تكوين الشخصية القومية لشعب ما ،

إن العوامل الجغرافية والبيولوجية لها دور بجانب العوامل الثقافية فى تكوين تلك الشخصية ، ولكن تخرج تلك العوامل عن مجال تخصص الكاتب ولذلك لا يتعرض لها ، ويكرر الكاتب ضرورة تبنى المركز القومى للأبحاث الاجتماعية والجنائية مشروع بحث هذا الموضوع الهام ، على أن يقوم بتنفيذه فريق من المتخصصين فى الأنثروبولوجيا الثقافية وعلم النفس والتاريخ والجغرافيا والفولكلور والوراثة والطب النفسى والإدارة .

خـــاتمة

تخصص هذا الكتاب فى دراسة العلاقة بين الثقافة والشخصية وتبين من الفصول السابقة أن موضوع الثقافة والشخصية كان ، ولا يزال ، محور الدراسة للعديد من الأبحاث والنظريات . وتبلورت تلك الدراسات فى صورة علم اجتماعى متخصص ، وأطلق عليه بعض العلماء اصطلاح الأنثروبولوجيا النفسية ، وحددوا هويته كأحد فروع الأنثروبولوجيا الثقافية .

واهتم المؤلف بتتبع مراحل نشأة ونمو هذا العلم الجديد . وبتحديد موضوعه ومنهجه . واعتمد بصورة رئيسية على الأبحاث الميدانية ، فالأبحاث الميدانية هى الينبوع الدافق الذى يزود هذا الكتاب بالمادة الثقافية والنفسية ، وكان لتوافر هذه المادة الغزيرة أكبر الأثر فى أن يحظى موضوع الثقافة والشخصية باهتمام المتخصصين فى علم النفس والأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع وعلم السياسة وغيرها ، ولم تقتصر هذه الأبحاث الميدانية على المجتمعات البدائية ، وإنما شملت كذلك المجتمعات النامية والمجتمعات المتقدمة .

وإلى جانب الأبحاث الميدانية ، اهتم المؤلف بعرض النظريات التى تفسر العلاقة بين الثقافة والشخصية ، وكان لابد أن يسبق عرض هذه النظريات التعرف بشىء من التفصيل على المفهومين الرئيسيين ، وهما الثقافة والشخصية ، ويرجع ذلك إلى اختلاف الإطار النظرى لكل مفهوم ، فالثقافة هى موضوع الأنثروبولوجيا الثقافية ، والشخصية هى موضوع علم نفس الشخصية ، ولما كانت العلاقة بين هذين المفهومين تهم من يدرس الأنثروبولوجيا الثقافية ، كما تهم من يدرس علم النفس ، أصبح على كل فريق أن يتعرف على تخصص الفريق الآخر ، قبل دراسة نظريات الثقافة والشخصية .

ومن الطبيعى أن تتميز الأنثروبولوجيا النفسية بمنهج خاص يتفق مع طبيعة موضوعها ، ويتضمن هذا المنهج بعض طرق البحث التى تنتمى أصلا إلى الأنثروبولوجيا الثقافية وعلم النفس ، وهكذا تجسد الأنثروبولوجيا النفسية ، سواء فى جانبها النظرى أو الميدانى ، التعاون الوثيق بين هذين العلمين . ولا يخلو هذا التعاون من الاختلاف فى الرأى ، وبفضل هذا الاختلاف تعددت النظريات وتنوعت الفروض ، مما يدفع بالعلماء إلى إجراء المزيد من الأبحاث ، وإلى وضع نظريات جديدة ، ولا أدل على هذا التعاون من اشتراك الأنثروبولوجيين الثقافيين وعلماء النفس فى فرق عمل ، لإجراء الأبحاث الميدانية وللاشتراك فى المؤتمرات العلمية ، وترتب على هذا التعاون ازدهار هذا النوع الجديد للمعرفة .

وفى ضوء ما تقدم من موضوعات ، تولدت لدى المؤلف الرغبة فى بحث موضوع العلاقة بين الثقافة العربية المصرية والشخصية المصرية ، ولكن ، بعد التعرض لكثير من المشكلات المنهجية التى تواجه بحث هذا الموضوع المتشعب الأطراف ، رأى المؤلف اختيار جانب واحد من المشكلة وهو الشخصية

المصرية التقليدية ومحدداتها الثقافية ، ويحتاج هذا الموضوع الهام إلى المزيد من الدراسات ، وخاصة أن الشعب المصرى يمر بتغيرات اجتماعية وثقافية عميقة ، ويتم بعض تلك التغيرات عن طريق المجالس القومية المتخصصة التى ترسم السياسة التخطيطة العامة فى مجالات الاقتصاد والتعليم والخدمات حتى عام ألفين ، وتعد تلك المجالس العلمية، مع سيادة القانون وإطلاق الحريات من الإنجازات العظيمة لثورة يوليو ، ويتوقع المؤلف أن تهيء تلك الإنجازات المناخ الصحى لانطلاق الأبعاد الإيجابية فى الشخصية المصرية التقليدية ، وبالتالى يمكن تحقيق الآمال فى التحرير والتقدم والرفاهية ، وقد بدأت المسيرة بانتصارات حرب أكتوبر التى غيرت الصورة المزيفة التى رسمتها الدعاية الصهيونية للشخصية المصرية ، وهكذا يسير الإنسان المصرى نحو عالم أفضل بخطوات ثابتة .

* * *

تم بحمد الله

المراجع

نكتفى هنا بذكر أهم المراجع الأجنبية ، وتوجد علاوة على ذلك إشارات كثيرة بالكتاب إلى الكثير من المقالات الأجنبية .

أولا : المراجع العربية :

١ — د . أحمد أبو زيد : البناء الاجتماعى ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٦ .

٢ — د . أحمد الخشاب : دراسات أنثروبولوجية ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٧٠ .

٣ — السيد ياسين : الشخصية العربية بين المفهوم الإسرائيلى والمفهوم العربى ، مؤسسة الأهرام ، القاهرة ١٩٧٣ .

٤ — د . جابر جابر ومحمد الشبينى : نمو الشخصية (ترجمة لكتاب ألبورت) ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٣ .

٥ — جمال الغيطانى : المصريون والحرب ، روز اليوسف ، القاهرة ١٩٧٤ .

٦ — د . جمال حمدان : شخصية مصر ، كتاب الهلال ، القاهرة ١٩٧٣ .

٧ — د . حامد عمار : فى بناء البشر ، منشورات سرس الليان ، القاهرة ١٩٦٤ .

٨ — د . حسن الساعاتى : حكمة لبنان — منشورات جامعة بيروت العربية ، بيروت ١٩٧١ .

٩ — د . حسن حنفى : التفكير الدينى وازدواجية الشخصية ، مجلة الفكر المعاصر ، عدد ٥٠ ، القاهرة ١٩٦٩ .

١٠ — د . رأفت عبد الحميد : ملامح الشخصية المصرية فى العصر المسيحى ، روز اليوسف ، القاهرة ١٩٧٣ .

١١ — رشدى صالح : الشخصية المصرية بين السلبية والإيجابية ، مجلة الفكر المعاصر عدد ٥٠ ، القاهرة ١٩٦٩ .

١٢ — د . سيد عويس : من ملامح المجتمع المصرى المعاصر ، دار مطابع الشعب ، القاهرة ١٩٦٥ .

١٣ — ظاهرة الموت فى حياة المصريين ، مجلة الفكر المعاصر عدد ٥٠ ، القاهرة ١٩٦٩ .

١٤ — شوقى عبد الحكيم : أساطير وفولكلور العالم العربى ، روز اليوسف ، القاهرة ١٩٧٤ .

١٥ — عباس العقاد : سعد زغلول ، القاهرة ١٩٤٥ .

١٦ — د . عثمان فراج : الشخصية والصحة العقلية ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٧٠ .

١٧ — د . عزت حجازى : الشخصية المصرية بين السلبية والإيجابية ، مجلة الفكر المعاصر ، عدد ٥٠ : القاهرة ١٩٦٩ .

١٨ ــ د . عماد الدين سلطان وآخرون : صراع القيم بين الآباء والأبناء ، المجلة الاجتماعية القومية (يناير) ، القاهرة ١٩٧٢ .
١٩ ــ د . فاروق العادلى : المجتمع القروى وثقافته (ترجمة لكتاب ريد فيلد) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الإسكندرية ١٩٧٣ .
٢٠ ــ د . فؤاد مرسى : البعد الاجتماعى للشخصية المصرية الحاضرة ، مجلة الفكر المعاصر . عدد ٥٠ ، القاهرة ١٩٦٩ .
٢١ ــ د . فرج فرج وآخرون : نظريات الشخصية (ترجمة لكتاب هول ولندزى) الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ١٩٧١ .
٢٢ ــ د . محمد الصياد : نفسية الشعب المصرى من أغانيه ، مجلة علم النفس (أكتوبر) ، القاهرة ١٩٤٥ .
٢٣ ــ د . محمود على : دراسة تجريبية لأساليب الثواب والعقاب التى تتبعها الأسرة فى تدريب الطفل وأثرها على شخصية الأبناء ، رسالة دكتوراه ، جامعة القاهرة ، القاهرة ١٩٦٥ .
٢٤ ــ د . مصطفى سويف : مقدمة لعلم النفس الاجتماعى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٥ .
٢٥ ــ د . ملاك جرجس : سيكلوجية الشخصية المصرية ومعوقات التنمية ، روزاليوسف ، القاهرة ١٩٧٣ .
٢٦ ــ د . نجيب إسكندر و د . رشدى إمام ، الفكر الخرافى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٢ .
٢٧ ــ د . يوسف مراد : مبادئ علم النفس العام : دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٥٤ .

ثانياً : المراجع الأجنبية :

1. Aderno, T. and Others : The Authorotarian Personality, Harper, N.Y. 1950.
2. Allport, G. : Personality, A Psychological Interpretation, Holt, N.Y. 1937.
3. Barnett, H. : Innovation, The Basis of Cultural Change, McGraw, Hill, N.Y. 1953.
4. Barnouw, V. : Culture and Personality, The Dorsey Press, Inc, Illinois 1963.
5. Bateson, G. : Naven, Stanford Uni. Press, London, 1958.
6. Beals, R. and Hoijer, H. : An Introduction to Anthropology, The Macmillan Co., N.Y. 1953.
7. Benedict, R. : Patterns of Culture, Penguin Books, N.Y. 1946.
8. ———— : The Chrysanthemum and The Sword, Patterns of Japanese Culture, Houghton Mifflin Co., Boston 1946.
9. Bellah, R. : Tokugawa Religion, The Values of Pre-Industrial Japan, The Free Press, Glencoe 1957.
10. Berman, L. : The Glands Regulating Personality, MacMillan Co. N.Y. 1928.
11. Boas, F. : Anthropology and Modern Life, W.W. Norton, N.Y. 1928.
12. ———— : Kwakiutl Culture as Reflected in The Mythology, Memoirs of The American Folklore Society, N.Y. 1935.
13. ———— : (Ed.) : General Anthropology, Heath, N.Y. 1938.
14. ———— : Primitive Art, Dover, N.Y. 1955.
15. Bowlly, Y. : Child Care and The Growth of Love, Penguin Books, London 1954.
16. Carroll, J. (Ed) : Language, Thought and Reality, Technology Press, Boston, 1956.
17. Devis, H. : Deprived Children, The Mesham Experiment, Oxford Uni. Press, London, 1954.
18. Du Bois, C. : The People of Alor, Uni. of Minnesota Press, Minneapolis 1944.
19. Faris, R. and Dunham, H. : Mental Disorders in Urban Areas, Uni. of Chicago Press, Chicago 1939.
20. Fenichel, O. : The Psychoanalytic Theory of Neurosis, W.W. Norton, N.Y. 1945.
21. Freud, S. : The Interpretation of Dreams, Modern Library, N.Y. 1938.
22. ———— : Character and Anal Erotism. The Hogarth Press, London 1950.
23. Gladwin, T. and Sarason., S. : Turk : Man in Paradise, Viking Fund Publications in Anthropology, N.Y. 1953.
24. Gorer, G. : The American People, W.W. Norton, N.Y. 1948.
25. ———— and Rickman, J. : The People of Great Russia, Cresset Press, London 1949.

26. Hall, C. : The Meaning of Dreams, Dell, N.Y. 1959.
27. Hallowell, A. : Culture and Experience, Uni. of Pennsylvania Press, Philadelphia 1955.
28. Hammer, E. : The Clinical Application of Projective Drawings, Charles C. Thomas, Illinois 1958.
29. Haring, D. (ed.) : Personal Character and Cultural Milieu, Syracuse Uni. Press, Syracuse 1949.
30. Honigmann, J. : Culture and Personality, Harper, N.Y. 1954.
31. Hooton, E. : Crime and The Man, Harvard Uni. Press, Cambridge 1939.
32. Hsu, F. : Americans and Chinese, Henry Schuman, N.Y. 1953.
33. ———— (ed.) Psychological Anthropology, The Dorsey Press, Illinois 1960.
34. Huizinga, J. : The Waning of The Middle Ages, Edward Arnold, London, 1942.
35. Jacobs, M. : The Content and Style of an Oral Literature, Viking Fund Publications in Anthropology, No. 26, N.Y. 1950.
36. Kardiner, A. : The Individual and His Society (with a Forward and two Ethnological Reports by Linton, R.), Columbia Univ. Press, N.Y. 1939.
37. Kardiner, A. and Others: The Psychological Frontiers of Society, Columbia Uni. Press, N.Y. 1945.
38. Kluckhohn, C. and Murray, H. (eds) : Personality in Nature, Society and Culture, Alfred A. Knopf, N.Y. 1959.
39. Kretschmer, E. : Physique and Character, Harcourt, Brace and Co. N.Y. 1925.
40. Kroeber, A. : Comfigurations of Culture Growth, Univ. of California Press, L.A. 1944.
41. Lantis, M. : Nunivak Eskimo Personality as Revealed in Mythology, Anthropological Papers of the Univ. of Alask, Alaska 1953.
42. Levy, D. : Mental Overprotection, Columbia Univ. Press, N.Y. 1943.
43. Lewis, O. : The Children of Senchez, Autobiography of a Mixican Family, Random House, N.Y. 1961.
44. Linton, R. : The cultural Background of Personality, Appleton Contury Crofts, INC. N.Y. 1945.
45. Malinowski, B. : Sex and Repression in Savage Society, Routledge and Kegan Paul, London 1953.
46. Mandelboum, D. (ed,) : Language, Culture and Personality, Univ. of California Press, L.A. 1049.
47. Manheim, K. : Idelolgy and Utopia, Harcourt, Brace, N.Y. 1963.
48. Mead, M. (ed) : Cooperation and Composition Among Primitive Peoples, McGraw - Hill Book Co. N.Y. 1937.
49. ———— : From The South Seas, Studies of Adolescence and Sex in Three Primitive Societies, William Morrow, N.Y. 1939.
50. ———— and Metraux, R. (eds) : The study of Culture at A Distance, Uni. of Chicago Press, Chicago, 1953.

51. ——— and Wolfenstein, M. (eds) : Childhood in Contemporary Cultures, Univ. of Chicago Press, Chicago 1955.

53. Miner, H. and De Vos, G. : Oasis and Casbah, Anthropological Papers, Univ. of Michigan, Mich. 1960.

54. Ogburn, W. and Nimkoff, M. : A Handbook of Sociology, London 1960.

55. Pittman, D. and Synder, C. (eds) : Society, Culture and Drinking Patterns, John Wiley, Sons, N.Y. 1962.

56. Potter, D. : People of Plenty, Uni. of Chicago Press, Chicago 1954.

57. Prince, M. : The Unconcious, McMillan Co. N.Y. 1929.

58. Riesman, D. and Others ; The Lonely Crowd, Yale Uni. Press, New Haven 1950.

59. Roheim, G. (ed.) : Psychoanalysis and The Social Sciences, International Universities Press, N.Y. 1947.

60. ——— : Psychoanalysis and Anthropology, International Universities Press, N.Y. 1950.

61. Shapiro, L. (ed.) : Man, Culture and Society, Oxford Univ. Press, N.Y. 1960.

62. Sheldon, W. : Varieties of Temperament, Harper and Bros, N.Y. 1942.

63. Tylor, E. : Primitive Culture, John Murray, London 1913.

64. Wallace, A. : Culture and Personality, Random House, N.Y. 1961.

65. Waller, W. : The Sociology of Teaching, John Wiley, N.Y. 1932.

66. Watson, J. : Behaviorism, W.W. Norton, Co. N.Y. 1925.

67. Whiting, B. : Paiute Sorcery, Viking Fund Publications in Anthropology, No. 15, N.Y. 1959.

68. Whiting, J. and Child, I. : Child Training and Personality, Yale Univ. Press, New Haven 1953.

69. Williams, R. : Biochemical Individuality, John Wiley Sons, Inc. N.Y. 1956

* * *

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ١٩٧٥/٢٨١٥

مطابع دار المعارف بمصر - ١٩٧٥
٣/٧٤/٥٧


Bibliotheca Alexandrina
06666751